سلسلة نصوص تراثية للباحثين (٥٩٥)

أسلوب الالتفات

في تفسير التحرير والتنوير

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٤هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

١-"وقال قوم: هو المجاز، وجزم ابن الحاجب بأنه مراد الباقلاني من قوله في كتاب التقريب والإرشاد إن المشترك لا يحمل على أكثر من معنى إلا بقرينة، ففهم ابن الحاجب أن القرينة من علامات المجاز وهذا لا يستقيم لأن القرينة التي هي من علامات المجاز هي القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي وهي لا تتصور في موضوعنا؛ إذ معاني المشترك كلها من قبيل الحقيقة وإلا لانتقضت حقيقة المشترك فارتفع الموضوع من أصله. وإنما سها أصحاب هذا الرأي عن الفرق بين قرينة إطلاق اللفظ على معناه المجازي وقرينة إطلاق المشترك على عدة من معانيه، فإن قرينة المجاز مانعة من إرادة المعنى الحقيقي وقرينة المشترك معينة للمعاني المرادة كلا أو بعضا.

وثمة قول آخر لا ينبغي **الالتفات** إليه وإنما نذكره استيعابا لآراء الناظرين في هذه المسألة، وهو صحة إطلاق المشترك على معانيه في النفي وعدم صحة ذلك في الإيجاب، ونسب هذا القول إلى برهان علي المرغيناني الفقيه الحنفي صاحب كتاب الهداية في الفقه، ومثاره في ما أحسب اشتباه دلالة اللفظ المشترك على معانيه بدلالة النكرة الكلية على أفرادها حيث تفيد العموم إذا وقعت في سياق النفي ولا تفيده في سياق الإثبات.

والذي يجب اعتماده أن يحمل المشترك في القرآن على ما يحتمله من المعاني سواء في ذلك اللفظ المفرد المشترك، والتركيب المشترك بين مختلف الاستعمالات، سواء كانت المعاني حقيقية أو مجازية، محضة أو مختلفة. مثال استعمال اللفظ المفرد في حقيقته ومجازه قوله تعالى ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس﴾ [الحج: ١٨] فالسجود له معنى حقيقي وهو وضع الجبهة على الأرض ومعنى مجازي وهو التعظيم، وقد استعمل فعل يسجد هنا في معنييه المذكورين لا محالة. وقوله تعالى ﴿ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء﴾ [الممتحنة: ٢] فبسط الأيدي حقيقة في مدها للضرب والسلب، وبسط الألسنة مجاز في عدم إمساكها عن القول البذيء وقد استعمل هنا في كلا معنييه. ومثال استعمال المركب المشترك في معنييه قوله تعالى ﴿ويل للمطففين﴾ [المطففين:١] فمركب ويل له يستعمل خبرا ويستعمل دعاء، وقد حمله المفسرون هنا على كلا المعنيين.

وعلى هذا القانون يكون طريق الجمع بين المعاني التي يذكرها المفسرون، أو ترجيح بعضها على بعض، وقد كان المفسرون غافلين عن تأصيل هذا الأصل فلذلك كان الذي يرجح معنى من المعاني التي يحتملها لفظ آية من القرآن، يجعل غير ذلك المعنى". (١)

٢-"[الحج: من الآية٤].

والتنبيه على ما فيه من تمثيل كقوله تعالى ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ [العنكبوت:٤٣] وقوله ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ [ابراهيم: ٢٥].

ولذا فنحن نحاول تفصيل شيء مما أحاط به علمنا من وجوه الإعجاز:

---

(١) التحرير والتنوير ٩٧/١

نرى من أفانين الكلام **الالتفات** وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها. وهو بمجرده معدود من الفصاحة، وسماه ابن جني شجاعة العربية لأن ذلك التغيير يجدد نشاط السامع فإذا انضم إليه اعتبار لطيف يناسب الانتقال إلى ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة وكان معدودا عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال.

وكان للتشبيه والاستعارة عند القوم المكان القصي والقدر العلي في باب البلاغة، وبه فاق امرؤ القيس ونبهت سمعته، وقد جاء في القرآن من التشبيه والاستعارة ما أعجز العرب كقوله ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾ وقوله ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ [الاسراء: ٢٤] وقوله ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ [يس: ٣٧] وقوله تعالى ﴿ابلعي ماءك﴾ [هود: ٤٤] وقوله ﴿صبغة الله﴾ [البقرة: ١٣٨] إلى غير ذلك من وجوه البديع.

ورأيت من محاسن التشبيه عندهم كمال الشبه، ورأيت وسيلة ذلك الاحتراس وأحسنه ما وقع في القرآن كقوله تعالى ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾ [محمد: ١٥] احتراس عن كراهة الطعام ﴿وأنهار من عسل مصفى﴾ [محمد: ١٥] احتراس عن أن تتخلله أقذاء من بقايا نحله.

وانظر التمثيلية في قوله تعالى ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار﴾ [البقرة: ٢٦٦] الآية. ففيه إتمام جهات كمال تحسين التشبيه لإظهار أن الحسرة على تلفها أشد. وكذا قوله تعالى ﴿مثل نوره كمشكاة﴾ [النور: ٣٥] إلى قوله ﴿يكاد زيتها يضيء﴾ [النور: ٣٥] فقد ذكر من الصفات، والأحوال ما فيه مزيد وضوح المقصود من شدة الضياء، وما فيه تحسين المشبه وتزيينه بتحسين شبهه، وأين من الآيتين قول كعب.". (١)

٣-"ومن أساليبه ما أسميه بالتفنن وهو بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتنظير والتذييل والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبا لثقل تكرير الكلم، وكذلك الإكثار من أسلوب **الالتفات** المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية فهو في القرآن كثير، ثم الرجوع إلى المقصود فيكون السامعون في نشاط متجدد بسماعه وإقبالهم عليه، ومن أبدع أمثلة ذلك قوله: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة:١٧,٢٠] بحيث كان أكثر أساليب القرآن من الأساليب البديعة العزيز مثلها في شعر العرب وفي نثر بلغائهم من الخطباء وأصحاب بدائه الأجوبة. وفي هذا التفنن والتنقل مناسبات بين المنتقل منه والمنتقل إليه هي في منتهى الرقة والبداعة بحيث لا يشعر سامعه وقارئه بانتقاله إلا عند حصوله. وذلك التفنن مما يعين على استماع السامعين ويدفع سآمة الإطالة عنهم، فأن من أغراض القرآن استكثار أزمان قراءته كما قال تعالى ﴿علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ [المزمل: من الآية٢٠] فقوله ﴿ما تيسر﴾ يقتضي

(١) التحرير والتنوير ١٠٧/١

الاستكثار بقدر التيسر، وفي تناسب أقواله وتفنن أغراضه مجلبة لذلك التيسير وعون على التكثير،
نقل عن أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه سراج المريدين ارتباط آي القرآن بعضها مع بعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسعة منتظمة المباني، علم عظيم ونقل الزركشي عن عز الدين بن عبد السلام المناسبة علم حسن ويشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، والقرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض.
وقال شمس الدين محمود الأصفهاني في تفسيره نقلا عن الفخر الرازي أنه قال إن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه هو أيضا معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك.
إن بلاغة الكلام لا تنحصر في أحوال تراكيبه اللفظية، بل تتجاوز إلى الكيفيات التي تؤدي بها تلك التراكيب. فإن سكوت المتكلم البليغ في جملة سكوتا خفيفا قد يفيد من". (١)

٤-"قوله ﴿مالك يوم الدين﴾ إلى أسلوب طريق الخطاب ابتداء من قوله ﴿إياك نعبد﴾ إلى آخر السورة، فن بديع من فنون نظم الكلام البليغ عند العرب، وهو المسمى في علم الأدب العربي والبلاغة **التفاتا**. وفي ضابط أسلوب **الالتفات** رأيان لأئمة علم البلاغة: أحدهما رأى من عدا السكاكي من أئمة البلاغة وهو أن المتكلم بعد أن يعبر عن ذات بأحد طرق ثلاثة من تكلم أو غيبة أو خطاب ينتقل في كلامه ذلك فيعبر عن تلك الذات بطريق آخر من تلك الثلاثة، وخالفهم السكاكي فجعل مسمى **الالتفات** أن يعبر عن ذات بطريق من طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة عادلا عن أحدها الذي هو الحقيق بالتعبير في ذلك الكلام إلى طريق آخر منها.
ويظهر أثر الخلاف بين الجمهور والسكاكي في المحسن الذي يسمى بالتجريد في علم البديع مثل قول علقمة بن عبده في طالع قصيدته
طحا بك قلب في الحسان طروب
مخاطبا نفسه على طريقة التجريد، فهذا ليس **بالتفات** عند الجمهور وهو معدود من **الالتفات** عند السكاكي، فتسمية **الالتفات** **التفاتا** على رأي الجمهور باعتبار أن عدول المتكلم عن الطريق الذي سلكه إلى طريق آخر يشبه حالة الناظر إلى شيء ثم يلتفت عنه، وأما تسميته **التفاتا** على رأي السكاكي فتجري على اعتبار الغالب من صور **الالتفات** دون صورة التجريد، ولعل السكاكي التزم هذه التسمية لأنها تقررت من قبله فتابع هو الجمهور في هذا الاسم. ومما يجب التنبه له أن الاسم الظاهر معتبر من قبيل الغائب على كلا الرأيين، ولذلك كان قوله تعالى: ﴿إياك نعبد﴾ **التفاتا** على كلا الرأيين لأن ما سبق من أول السورة إلى قوله: ﴿إياك نعبد﴾ تعبير بالاسم الظاهر وهو اسم الجلالة وصفاته.
ولأهل البلاغة عناية **بالالتفات** لأن فيه تجديد أسلوب التعبير عن المعنى بعينه تحاشيا من تكرر الأسلوب الواحد عدة مرار فيحصل بتجديد الأسلوب تجديد نشاط السامع كي لا يمل من إعادة أسلوب بعينه. قال السكاكي في المفتاح بعد أن ذكر

---

(١) التحرير والتنوير ١/١١٤

أن العرب يستكثرون من **الالتفات**: أفتراهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون بين لون ولون وطعم وطعم ولا يحسنون قرى الأرواح فيخالفون بين أسلوب وأسلوب. فهذه فائدة مطردة في **الالتفات**. ثم إن البلغاء لا يقتصرون عليها غالبا بل يراعون **للالتفات** لطائف ومناسبات ولم يزل أهل النقد والأدب يستخرجون ذلك من مغاصه.

وما هنا **التفات** بديع فإن الحامد لما حمد الله تعالى ووصفه بعظيم الصفات بلغت به". (١)

٥-"الفكرة منتهاها فتخيل نفسه في حضرة الربوبية فخاطب ربه بالإقبال، كعكس هذا **الالتفات** في قول محمد بن بشير الخارجي "نسبة إلى بني خارجة قبيلة":

ذممت ولم تحمد وأدركت حاجة ... تولى سواكم أجرها واصطناعها

أبى لك كسب الحمد رأي مقصر ... ونفس أضاق الله بالخير باعها

إذا هي حثته على الخير مرة ... عصاها وإن همت بشر أطاعها

فخاطبه ابتداء ثم ذكر قصور رأيه وعدم انطباع نفسه على الخير فالتفت من خطابه إلى التعبير عنه بضمير الغيبة فقال إذا هي حثته فكأنه تخيله قد تضاءل حتى غاب عنه. وبعكس ذلك قوله تعالى ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي﴾ [العنكبوت: ٢٣] لاعتبار تشنيع كفر المتحدث عنهم بأنهم كفروا بآيات صاحب ذلك الاسم الجليل، وبعد تقرر ذلك انتقل إلى أسلوب ضمير المتكلم إذ هو الأصل في التعبير عن الأشياء المضافة إلى ذات المتكلم. ومما يزيد **الالتفات** وقعا في الآية أنه تخلص من الثناء إلى الدعاء ولا شك أن الدعاء يقتضي الخطاب فكان قوله ﴿إياك نعبد﴾ تخلصا يجيء بعده ﴿اهدنا الصراط﴾ ونظيره في ذلك قول النابغة في رثاء النعمان الغساني:

أبى غفلتي أني إذا ما ذكرته ... تحرك داء في فؤادي داخل

وأن تلادى إن نظرت وشكتي ... ومهري وما ضمت إلي الأنامل

حباؤك والعيس العتاق كأنها ... هجان المهى تزجي عليها الرحائل

وأبو الفتح ابن جني يسمى **الالتفات** شجاعة العربية كأنه عنى أنه دليل على حدة ذهن البليغ وتمكنه من تصريف أساليب كلامه كيف شاء كما يتصرف الشجاع في مجال الوغى بالكر والفر.

و"إياك" ضمير خطاب في حالة النصب والأظهر أن كلمة إيا جعلت ليعتمد عليها الضمير عند انفصاله ولذلك لزمتها الضمائر نحو: إياي تعني، وإياك أعني، وإياهم أرجو. ومن هنالك التزم في التحذير لأن الضمير انفصل عند التزام حذف العامل. ومن النحاة من جعل "إيا" ضميرا منفصلا ملازما حالة واحدة وجعل الضمائر التي معه أضيفت إليه للتأكيد. ومنهم من جعل "إيا" هو الضمير وجعل ما بعده حروفا لبيان الضمير. ومنهم من جعل "إيا" اعتمادا للضمير كما كانت

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٦/١

أي اعتمادا للمنادى الذي فيه ال. ومنهم من جعل "إيا" اسما ظاهرا مضافا للمضمرات.". (١)

٦-"والظاهر أن قوله ﴿وعلى سمعهم﴾ معطوف على قوله ﴿قلوبهم﴾ فتكون الأسماع مختوما عليها وليس هو خبرا مقدما لقوله ﴿غشاوة﴾ فيكون وعلى ﴿أبصارهم﴾ معطوفا عليه لأن الغشاوة تناسب الأبصار لا الأسماع ولأن الختم يناسب الأسماع كما يناسب القلوب إذ كلاهما يشبه بالوعاء ويتخيل فيه معنى الغلق والسد، فإن العرب تقول: استك سمعه ووقر سمعه وجعلوا أصابعهم في آذانهم.

والمراد من القلوب هنا الألباب والعقول، والعرب تطلق القلب على اللحمة الصنوبرية، وتطلقه على الإدراك والعقل، ولا يكادون يطلقونه على غير ذلك بالنسبة للإنسان وذلك غالب كلامهم على الحيوان، وهو المراد هنا، ومقره الدماغ لا محالة ولكن القلب هو الذي يمده بالقوة التي بها عمل الإدراك.

وإنما أفرد السمع ولم يجمع كما جمع "قلوبهم" و"أبصارهم" إما لأنه أريد منه المصدر الدال على الجنس، إذ لا يطلق على الآذان سمع ألا ترى أنه جمع لما ذكر الآذان في قوله: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾ [البقرة: ١٩] وقوله: ﴿وفي آذاننا وقر﴾ [فصلت: من الآية٥] فلما عبر بالسمع أفرد لأنه مصدر بخلاف القلوب والأبصار فإن القلوب متعددة والأبصار جمع بصر الذي هو اسم لا مصدر، وإما لتقدير محذوف أي وعلى حواس سمعهم أو جوارح سمعهم. وقد تكون في إفراد السمع لطيفة روعيت من جملة بلاغة القرآن هي أن القلوب كانت متفاوتة واشتغالها بالتفكر في أمر الإيمان والدين مختلف باختلاف وضوح الأدلة، وبالكثرة والقلة وتتلقى أنواعا كثيرة من الآيات فلكل عقل حظه من الإدراك، وكانت الأبصار أيضا متفاوتة التعلق بالمرئيات التي فيها دلائل الوحدانية في الآفاق، وفي الأنفس التي فيها دلالة، فلكل بصر حظه من **الالتفات** إلى الآيات المعجزات والعبر والمواعظ، فلما اختلفت أنواع ما تتعلقان به جمعت. وأما الأسماع فإنما كانت تتعلق بسماع ما يلقي إليها من القرآن فالجماعات إذا سمعوا القرآن سمعوه سماعا متساويا وإنما يتفاوتون في تدبره والتدبر من عمل العقول فلما اتحد تعلقها بالمسموعات جعلت سمعا واحدا.

وإطلاق أسماء الجوارح والأعضاء إذا أريد به المجاز عن أعمالها ومصادرها جاز في إجرائه على غير المفرد إفراده وجمعه وقد اجتمعا هنا فأما الإطلاق حقيقة فلم يصح، قال الجاحظ في البيان١ قال بعضهم لغلام له: اشتر لي رأس كبشين، فقيل له: ذلك لا

-

١ انظر: صحيفة ٢٠١ من الجزء الأول طبع بولاق.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٧٧

(٢) التحرير والتنوير ١/٢٥٢

٧-"قبيح، فالتحقيق ما ذهب إليه الأشاعرة وغيرهم من أهل السنة أن الله هو مقدر أفعال العباد إلا أن فعلها هو من العبد لا من الله وهو الذي أفصح عنه إمام الحرمين وأضرابه من المحققين. ولا يرد علينا أنه كيف أقدرهم على فعل المعاصي؟ لأنه يرد على المعتزلة أيضا أنه كيف علم بعد أن أقدرهم بأنهم شارعون في المعاصي ولم يسلب عنهم القدرة؟ فكان مذهب الأشاعرة أسعد بالتحقيق وأجرى على طريق الجمع بين ما طفح به الكتاب والسنة من الأدلة. ولنا فيه تحقيق أعلى من هذا بسطناه في رسالة القدرة والتقدر التي لما تظهر.

وإسناد الختم المستعمل مجازا إلى الله تعالى للدلالة على تمكن معنى الختم من قلوبهم وأن لا يرجى زواله كما يقال خلقة في فلان، والوصف الذي أودعه الله في فلان أو أعطاه فلانا، وفرق بين هذا الإسناد وبين الإسناد في المجاز العقلي لأن هذا أريد منه لازم المعنى والمجاز العقلي إنما أسند فيه فعل لغير فاعله لملابسة، والغالب صحة فرض الاعتبارين فيما صلح لأحدهما وإنما يرتكب ما يكون أصلح بالمقام.

وجملة ﴿وعلى سمعهم﴾ معطوفة على قوله: ﴿على قلوبهم﴾ بإعادة الجار لزيادة التأكيد حتى يكون المعطوف مقصودا لأن على مؤذنة بالمتعلق فكأن: ﴿ختم﴾ كرر مرتين. وفيه ملاحظة كون الأسماع مقصودة بالختم إذ ليس العطف كالتصريح بالعامل. وليس قوله: ﴿وعلى سمعهم﴾ خبرا مقدما لغشاوة لأن الأسماع لا تناسبها الغشاوة وإنما يناسبها السد ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ [الجاثية: من الآية٢٣] ولأن تقديم قوله: ﴿وعلى أبصارهم﴾ دليل على أنه هو الخبر لأن التقديم لتصحيح الابتداء بالنكرة فلو كان قوله: ﴿وعلى سمعهم﴾ هو الخبر لا ستغنى بتقديم أحدهما وأبقى الآخر على الأصل من التأخير فقيل وعلى سمعهم غشاوة وعلى أبصارهم.

وفي تقديم السمع على البصر في مواقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر فإن التقديم مؤذن بأهمية المقدم وذلك لأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع، ولأن السمع ترد إليه الأصوات المسموعة من الجهات الست بدون توجه، بخلاف البصر فإنه يحتاج إلى التوجه **بالالتفات** إلى الجهات غير المقابلة.

﴿ولهم عذاب عظيم﴾". (١)

٨-"أحد وقدرته على الوزن والتقفية بسهولة، ولا يحسن لذلك كل أحد، وقولهم ليت شعري في التحير في علم أمر خفي، ولولا الخفاء لما تمنى علمه بل لعلمه بلا تمن، فقولهم هو لا يشعر وصف بعدم الفطنة لا بعدم الإحساس وهو أبلغ في الذم لأن الذم بالوصف الممكن الحصول أنكى من الذم بما يتحقق عدمه فإن أجسامهم أمر معلوم لهم وللناس فلا يغيضهم أن يوصفوا بعدمه وإنما يغيضهم أن يوصفوا بالبلادة. على أن خفاء مخادعتهم أنفسهم مما لا يمتري فيه. واختير مثله في نظيره في الخفاء وهو: ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ [البقرة:١٢]

لأن كليهما أثبت فيه ما هو المآل والغاية وهي مما يخفي واختير في قوله: ﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ [البقرة:

(١) التحرير والتنوير ١/٢٥٤

١٣] نفى العلم دون نفي الشعور لأن السفه قد يبدو لصاحبه بأقل **التفاتة** إلى أحواله وتصرفاته لأن السفه أقرب لادعاء الظهور من مخادعة النفس عند إرادة مخادعة الغير ومن حصول الإفساد عند إرادة الإصلاح وعلى الإطلاق الثاني درج صاحب الكشاف قال: فهم لتمادي غفلتهم كالذي لا حس له.

[١٠] ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ [البقرة:١٠]

استئناف محض لعد مساويهم ويجوز أن يكون بيانيا لجواب سؤال متعجب ناشئ عن سماع الأحوال التي وصفوا بها قبل في قوله تعالى: ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ [البقرة:٩] فإن من يسمع أن طائفة تخادع الله تعالى وتخادع قوما عديدين وتطمع أن خداعها يتمشى عليهم ثم لا تشعر بأن ضرر الخداع لا حق بها لطائفة جديرة بأن يتعجب من أمرها المتعجب ويتساءل كيف خطر هذا بخواطرها فكان قوله: ﴿في قلوبهم مرض﴾ بيانا وهو أن في قلوبهم خللا تزايد إلى أن بلغ حد الأفن.

ولهذا قدم الظرف وهو ﴿في قلوبهم﴾ للاهتمام لأن القلوب هي محل الفكرة في الخداع فلما كان المسئول عنه هو متعلقها وأثرها كان هو المهتم به في الجواب. وتنوين ﴿مرض﴾ للتعظيم. وأطلق القلوب هنا على محل التفكير كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ [البقرة: ٧].

والمرض حقيقة في عارض للمزاج يخرجه عن الاعتدال الخاص بنوع ذلك الجسم خروجا غير تام وبمقدار الخروج يشتد الألم فإن تم الخروج فهو الموت. وهو مجاز في الأعراض النفسانية العارضة للأخلاق البشرية عروضا يخرجها عن كمالها، وإطلاق". (١)

٩-"والموصول في قوله: ﴿الذين اشتروا﴾ بمعنى العرف بلام الجنس فيفيد التركيب قصر المسند على المسند إليه وهو قصر ادعائي باعتبار أنهم بلغوا الغاية في اشتراء الضلالة والحرص عليها إذ جمعوا الكفر والسفه والخداع والإفساد والاستهزاء بالمهتدين.

﴿فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾

رتبت الفاء عدم الربح المعطوف بها وعدم الاهتداء المعطوف عليه على اشتراء الضلالة بالهدى لأن كليهما ناشئ عن الاشتراء المذكور في الوجود والظهور؛ لأنهم لما اشتروا الضلالة بالهدى فقد اشتروا ما لا ينفع وبذلوا ما ينفع فلا جرم أن يكونوا خاسرين وأن يتحقق أنهم لم يكونوا مهتدين فعدم الاهتداء وإن كان سابقا على اشتراء الضلالة بالهدى أو هو عينه أو هو سببه إلا أنه لكونه عدما فظهوره للناس في الوجود لا يكون إلا عند حصول أثره وهو ذلك الاشتراء، فإذا ظهر أثره تبين للناس المؤثر فلذلك صح ترتيبه بفاء الترتيب فأشبه العلة الغائية، ولهذا عبر بـ ﴿وما كانوا مهتدين﴾ دون ما اهتدوا لأن ما كانوا أبلغ في النفي لإشعاره بأن انتفاء الاهتداء عنهم أمر متأصل سابق قديم، لأن كان تدل على اتصاف اسمها بخبرها منذ المضي فكان نفي الكون في الزمن الماضي أنسب بهذا التفريع.

---

(١) التحرير والتنوير ١/٢٧٤

والربح هو نجاح التجارة ومصادفة الرغبة في السلع بأكثر من الأثمان التي اشتراها بها التاجر ويطلق الربح على المال الحاصل للتاجر زائدا على رأس ماله. والتجارة بكسر أوله على وزن فعالة وهي زنة الضائع ومعنى التجارة التصدي لاشتراء الأشياء لقصد بيعها بثمن أوفر مما اشترى به ليكتسب من ذلك الوفر ما ينفقه أو يتأثله. ولما كان ذلك لا ينجح إلا بالمثابرة والتجديد صيغ له وزن الضائع ونفى الربح في الآية تشبيه لحال المنافقين إذ قصدوا من النفاق غاية فأخفقت مساعيهم وضاعت مقاصدهم بحال التجار الذين لم يحصلوا من تجارتهم على ربح فلا **التفات** إلى رأس مال في التجارة حتى يقال إنهم إذا لم يربحوا فقد بقى لهم نفع رأس المال ويجاب بأن نفي الربح يستلزم ضياع رأس المال لأنه يتلف في النفقة من القوت والكسوة لأن هذا كله غير منظور إليه إذ الاستعارة تعتمد على ما يقصد من وجه الشبه فلا تلزم المشابهة في الأمور كلها كما هو مقرر في فن البيان.

وإنما أسند الربح إلى التجارة حتى نفى عنها لأن الربح لما كان مسببا عن التجارة وكان الرابح هو التاجر صح إسناده للتجارة لأنها سببه فهو مجاز عقلي وذلك أنه لولا". (١)

١٠-"يضرب مثلا ما﴾ [البقرة: ٢٦] وما بعده مما حكى عن الذين كفروا في قولهم: ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾ [البقرة: ٢٦] حتى يكون الانتقال إلى الخطاب في قوله: ﴿تكفرون﴾ **التفاتا** فالمناسبة بين موقع هاته الآية بعد ما قبلها هي مناسبة اتحاد الغرض، بعد استيفاء ما تخلل واعترض.

ومن بديع المناسبة وفائق التفنن في ضروب الانتقالات في المخاطبات أن كانت العلل التي قرن بها الأمر بعبادة الله تعالى في قوله: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ [البقرة: ٢١] إلخ هي العلل التي قرن بها إنكار ضد العبادة وهو الكفر به تعالى في قوله هنا ﴿كيف تكفرون بالله﴾ فقال فيما تقدم: ﴿الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ [البقرة: ٢١] ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء﴾ [البقرة: ٢٢] الآية وقال هنا: ﴿وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء﴾ [البقرة: ٢٩] وكان ذلك مبدأ التخلص إلى ما سيرد من بيان ابتداء إنشاء نوع الإنسان وتكوينه وأطواره.

فالخطاب في قوله: ﴿تكفرون﴾ متعين رجوعه إلى "الناس" وهم المشركون لأن اليهود لم يكفروا بالله ولا أنكروا الإحياء الثاني. و"كيف" اسم لا يعرف اشتقاقه يدل على حالة خاصة وهي التي يقال لها الكيفية نسبة إلى كيف ويتضمن معنى السؤال في أكثر موارد استعماله فلدلالته على الحالة كان في عداد الأسماء لأنه أفاد معنى في نفسه إلا أن المعنى الأسمى الذي دل عليه لما كان معنى مبهما شابه معنى الحرف فلما أشربوه معنى الاستفهام قوى شبهه بالحروف لكنه لا يخرج عن خصائص الأسماء فلذلك لا بد له من محل إعراب، وأكثر استعماله اسم استفهام فيعرب إعراب الحال.ويستفهم بكيف عن الحال العامة. والاستفهام هنا مستعمل في التعجيب والإنكار بقرينة قوله: ﴿وكنتم أمواتا﴾ إلخ أي أن كفركم مع تلك الحالة شأنه أن يكون منتفيا لا تركن إليه النفس الرشيدة لوجود ما يصرف عنه وهو الأحوال المذكورة بعد فكان من شأنه أن ينكر

---

(١) التحرير والتنوير ١/٢٩٥

فالإنكار متولد من معنى الاستفهام ولذلك فاستعماله فيهما من إرادة لازم اللفظ، وكأن المنكر يريد أن يقطع معذرة المخاطب فيظهر له أنه يتطلب منه الجواب بما يظهر السبب فيبطل الإنكار والعجب حتى إذا لم يبد ذلك كان حقيقا باللوم والوعيد.

والكفر بضم الكاف مصدر سماعي لكفر الثلاثي القاصر وأصله جحد المنعم عليه نعمة المنعم اشتق من مادة الكفر بفتح الكاف وهو الحجب والتغطية لأن جاحد النعمة قد". (١)

١١-"وتقديم المفعول مع اشتغال فعله بضميره آكد في إفادة التقديم الحصر من تقديم المفعول على الفعل غير المشتغل بضميره، فإياي ارهبون آكد من نحو إياي ارهبوا كما أشار إليه صاحب الكشاف إذ قال وهو من قولك زيدا رهبته وهو أوكد في إفادة الاختصاص من ﴿إياك نعبد﴾ [الفاتحة: ٥] ا هـ. ووجهه عندي أن تقديم المفعول يحتمل الاختصاص، إلا أن الأصل فيه أن يدل على الاختصاص إلا إذا أقامت القرينة على التقوى فإذا كان مع التقديم اشتغال الفعل بضمير المقدم نحو زيدا ضربته كان الاختصاص أوكد أي كان احتمال التقوى أضعف وذلك لأن إسناد الفعل إلى الضمير بعد إسناده إلى الظاهر المتقدم يفيد التقوى فتعين أن تقديم المفعول للاختصاص دون التقوى إذ التقوى قد حصل بإسناد الفعل أولا إلى الاسم أو الظاهر المتقدم وثانيا إلى ضمير المتقدم ولهذا لم يقل صاحب الكشاف وهو أكثر اختصاصا ولا أقوى اختصاصا إذ الاختصاص لا يقبل التقوية بل قال وهو أوكد في إفادة الاختصاص أي أن إفادته الاختصاص أقوى لأن احتمال كون التقديم للتقوى قد صار مع الاشتغال ضعيفا جدا. ولسنا ندعي أن الاشتغال متعين للتخصيص فإنه قد يأتي بلا تخصيص في نحو قوله تعالى ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ [القمر:٤٩]، وقوله ﴿أبشرا منا واحدا نتبعه﴾ [القمر:] وقول زهير:

فكلا أراهم أصبحوا يعقلونه ... صحيحات مال طالعات بمخرم

لظهور أن لا معنى للتخصيص في شيء مما ذكرنا غير أن الغالب أن يكون التقديم مع صيغة الاشتغال للتخصيص إذ العرب لا تقدم المفعول غالبا إلا لذلك ولا **التفات** إلى ما وجه به صاحب المفتاح أن احتمال المفعول في الاشتغال التخصيص والتقوى باق على حاله ولكنك إن قدرت الفعل المحذوف متقدما على المفعول كان التقديم للتقوى وإن قدرته بعد المفعول كان التقديم للتخصيص فإنه بناه على حالة موقع الفعل المقدر مع أن تقدير الفعل اعتبار لا يلاحظه البلغاء ولأنهم ينصبون على موقعه قرينه فتعين أن السامع إنما يعتد بالتقديم المحسوس وبتكرير التعلق وأما الاعتداد بموقع الفعل المقدر فحوالة على غير مشاهد لأن التقدير إن كان بنية المتكلم فلا قبل للسامع بمعرفة نيته ولا يصح أن يكون الخيار في التقدير للسامع.

هذا والتقديم إذا اقترن بالفاء كان فيه مبالغة، لأن الفاء كما في هذه الآية مؤذنة بشرط مقدر ولما كان هذا الشرط لا دليل عليه إلا الفاء تعين تقديره عاما نحو إن يكن شيء أو مهما يكن شيء كما أشار له صاحب الكشاف في قوله تعالى:

(١) التحرير والتنوير ١/٣٦٨

﴿وربك فكبر﴾". (١)

١٢-"وقوله تعالى: ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ عطف على ﴿نعمتي﴾ أي واذكروا تفضيلي إياكم على العالمين وهذا التفضيل نعمة خاصة فعطفه على نعمتي عطف خاص على عام وهو مبدأ لتفصيل النعم وتعدادها وربما كان تعداد النعم مغنيا عن الأمر بالطاعة والامتثال لأن من طبع النفوس الكريمة امتثال أمر المنعم لأن النعمة تورث المحبة. وقال منصور الوراق:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وهذا التذكير مقصود به الحث على الاتسام بما يناسب تلك النعمة ويستبقي ذلك الفضل.

ومعنى العالمين تقدم عند قوله: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة:٢] والمراد به هنا صنف من المخلوقات ولا شك أن المخلوقات تصنف أصنافا متنوعة على حسب تصنيف المتكلم أو السامع، فالعالمون في مقام ذكر الخلق هم أصناف المخلوقات كالإنس والدواب والطير والحوت. والعالمون في مقام ذكر فضائل الخلق أو الأمم أو القبائل يراد بها أصناف تلك المتحدث عنها فلا جرم أن يكون المراد من العالمين هنا هم الأمم الإنسانية فيعم جميع الأمم لأنه جمع معرف باللام ولكن عمومه هنا عرفي يختص بأمم زمانهم كما يختص نحو جمع الأمير الصاغة بصاغة مكانه أي بلده ويختص أيضا بالأمم المعروفة كما يختص جمع الأمير الصاغة بالصاغة المتخذين الصياغة صناعة دون كل من يعرف الصياغة وذلك كقولك هو أشهر العلماء وأنجب التلامذة، فالآية تشير إلى تفضيل بني إسرائيل المخاطبين أو سلفهم على أمم عصرهم لا على بعض الجماعات الذين كانوا على دين كامل مثل نصارى نجران، فلا علاقة له بمسألة تفضيل الأنبياء على الملائكة بحال ولا **التفات** إلى ما يشذ في كل أمة أو قبيلة من الأفراد فلا يلزم تفضيل كل فرد من بني إسرائيل على أفراد من الأمم بلغوا مرتبة صالحة أو نبوءة لأن التفضيل في مثل هذا يراد به تفضيل المجموع، كما تقول قريش أفضل من طيء وإن كانت في طيء حاتم الجواد. فكذلك تفضيل بني إسرائيل على جميع أمم عصرهم وفي تلك الأمم أمم عظيمة كالعرب والفرس والروم والهند والصين وفيهم العلماء والحكماء ودعاة الأصلاح والأنبياء لأنه تفضيل المجموع على المجموع في جميع العصور ومعنى هذا التفضيل أن الله قد". (٢)

١٣-"والبلاء الاختبار بالخير والشر قال تعالى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾ [لأعراف: ١٦٨] وهو مجاز مشهور حقيقته بلاء التوب بفتح الباء مع المد وبكسرها مع القصر وهو تخلقه وترهله ولما كان الاختبار يوجب الضجر والتعب سمي بلاء كأنه يخلق النفس، ثم شاع في اختبار الشر لأنه أكثر إعناتا للنفس، وأشهر استعماله إذا أطلق أن يكون

---

(١) التحرير والتنوير ١/٤٤٠

(٢) التحرير والتنوير ١/٤٦٧

للشر فإذا أرادوا به الخير احتاجوا إلى قرينة أو تصريح كقول زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم ... وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فيطلق غالبا على المصيبة التي تحل بالعبد لأن بها يختبر مقدار الصبر والأناة والمراد هنا المصيبة بدليل قوله ﴿عظيم﴾. وقيل أراد به الإنجاء والبلاء بمعنى اختبار الشكر وهو بعيد هنا.

وتعلق الإنجاء بالمخاطبين لأن إنجاء سلفهم إنجاء لهم فإنه لو أبقى سلفهم هنالك للحق المخاطبين سوء العذاب وتذبيح الأبناء. أو هو على حذف مضاف أي نجينا آباءكم، أو هو تعبير عن الغائب بضمير الخطاب إما لنكتة استحضار حاله وإما لكون المخاطبين مثالهم وصورتهم فإن ما يثبت من الفضائل لآباء القبيلة يثبت لأعقابهم فالإتيان بضمير المخاطب على خلاف مقتضى الظاهر على حد ما يقال في قوله تعالى: ﴿إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية﴾ [الحاقة:١١] فالخطاب ليس بالتفات لأن اعتبار أحوال القبائل يعتبر للخلف ما ثبت منه للسلف.

[٥٠] ﴿وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ [البقرة:٥٠]

هذا زيادة في التفصيل بذكر نعمة أخرى عظيمة خارقة للعادة بها كان تمام الإنجاء من آل فرعون وفيها بيان مقدار إكرام الله تعالى لهم ومعجزة لموسى عليه السلام وتعدية فعل ﴿فرقنا﴾ إلى ضمير المخاطبين بواسطة الحرف جار على نحو تعدية فعل ﴿نجيناكم﴾ [البقرة:٤٩] إلى ضميرهم كما تقدم.

وفرق وفرق بالتخفيف والتشديد بمعنى واحد إذ التشديد يفيده تعدية ومعناه الفصل بين أجزاء شيء متصل الأجزاء، غير أن فرق يدل على شدة التفرقة وذلك إذا كانت الأجزاء المفرقة أشد اتصالا وقد قيل إن فرق للأجسام وفرق للمعاني نقله القرافي عن بعض مشايخه١ وهو غير تام كما تقدم في المقدمة الأولى من مقدمات هذا التفسير بدليل

_

١ "الفروق" للقرافي ٤/١ – عالم الكتب.". (١)

١٤-"الفاء للترتيب والتعقيب أيضا.

وعندي أنه إذا كانت الجملة الثانية منزلة البيان من الجملة الأولى وكانت الأولى معطوفة بالفاء كان الأصل في الثانية أن تقطع عن العطف فإذا قرنت بالفاء كما في هذه الآية كانت الفاء الثانية مؤكدة للأولى، ولعل ذلك إنما يحسن في كل جملتين تكون أولاهما فعلا غير محسوس وتكون الثانية فعلا محسوسا مبين للفعل الأول فينزل منزلة حاصل عقبه فيقرن بالفاء لأنه لا يحصل تمامه إلا بعد تقرير الفعل الأول في النفس ولذلك قربه صاحب الكشاف بتأويل الفعل الأول بالعزم في بعض المواضع.

والبارئ هو الخالق الخلق على تناسب وتعديل فهو أخص من الخالق ولذلك أتبع به الخالق في قوله تعالى: ﴿هو الله الخالق البارئ﴾ [الحشر: ٢٤].

---

(١) التحرير والتنوير ٤٧٧/١

وتعبير موسى عليه السلام في كلامه بما يدل على معنى لفظ البارئ في العربية تحريض على التوبة لأنها رجوع عن المعصية ففيها معنى الشكر وكون الخلق على مثال متناسب يزيد تحريضا على شكر الخالق.

وقوله ﴿فتاب عليكم﴾ ظاهر في أنه من كلام الله تعالى عند تذكيرهم بالنعمة وهو محل التذكير من قوله: ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ إلخ فالماضي مستعمل في بابه من الإخبار وقد جاء على طريقة **الالتفات** لأن المقام للتكلم فعدل عنه إلى الغيبة ورجحه هنا سبق معاد ضمير الغيبة في حكاية كلام موسى. وعطفت الفاء على محذوف إيجازا، أي ففعلتم فتاب عليكم أو فعزمتم فتاب عليكم، على حد ﴿أن اضرب بعصاك البحر فانفلق﴾ [الشعراء: ٦٣] أي فضرب، وعطف بالفاء إشارة إلى تعقيب جرمهم بتوبته تعالى عليهم وعدم تأخيرها إلى ما بعد استئصال جميع الذين عبدوا العجل بل نسخ ذلك بقرب نزوله بعد العمل به قليلا أو دون العمل به وفي ذلك رحمة عظيمة بهم إذ حصل العفو عن ذنب عظيم بدون تكليفهم توبة شاقة بل اكتفاء بمجرد ندمهم وعزمهم على عدم العود لذلك.

ومن البعيد أن يكون ﴿فتاب عليكم﴾ من كلام موسى لما فيه من لزوم حذف في الكلام غير واضح القرينة؛ لأنه يلزم تقدير شرط تقديره فإن فعلتم يتب عليكم فيكون مرادا منه الاستقبال والفاء فصيحة، ولأنه يعري هذه الآية عن محل النعمة المذكر به إلا تضمنا.

وجملة ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ خبر وثناء على الله، وتأكيده بحرف التوكيد لتنزيلهم منزلة من يشك في حصول التوبة عليهم لأن حالهم في عظم جرمهم حال من". (١)

١٥-"هو إظهار آثارها المقصودة منها كإظهار النصر للحق بنعمة الشجاعة وإغاثة الملهوفين بنعمة الكرم وتثقيف الأذهان بنعمة العلم فكل من لم يشكر النعمة فهو جدير بأن تسلب عنه ويعوض بضدها قال تعالى: ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل﴾ [سبأ: ١٦] الآية، ولو عطف بغير الواو لكان ذكره تبعا لذكر سببه فلم يكن له من الاستقلال ما ينبه البال.

فالضمير في قوله ﴿وضربت عليهم....وباءوا﴾ إلخ عائدة إلى جميع بني إسرائيل لا إلى خصوص الذين أبوا دخول القرية والذين قالوا لن نصبر على طعام واحد بدليل قوله: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين﴾ فإن الذين قتلوا النبيين هم أبناء الذين أبوا دخول القرية وقالوا: ﴿لن نصبر﴾ فالإتيان بضمير الغيبة هنا جار على مقتضى الظاهر لأنهم غير المخاطبين فليس هو من **الالتفات** إذ ليس قوله: ﴿وضربت عليهم الذلة﴾ إلخ من بقية جواب موسى إياهم لما علمت من شموله للمتحدث عنهم الآبين دخول القرية ولغيرهم ممن أتى بعدهم فقد جاء ضمير الغيبة على أصله، أما شموله للمخاطبين فإنما هو بطريقة التعريض وهو لزوم تورات الأبناء أخلاق الآباء وشمائلهم كما قررناه في وجه الخطابات الماضية من قوله ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ [البقرة: ٥٠] الآيات ويؤيده التعليل الآتي بقوله: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون﴾ المشعر بأن كل من اتصف بذلك فهو جدير بأن يثبت له من الحكم مثل ما ثبت للآخر.

---

(١) التحرير والتنوير ١/٤٨٨

والضرب في كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم بظاهر جسم آخر بشدة يقال ضرب بعصا وبيده وبالسيف وضرب بيده الأرض إذا ألصقها بها، وتفرعت عن هذا معان مجازية ترجع إلى شدة اللصوق. فمنه ضرب في الأرض. وسار طويلا، وضرب قبة وبيتا في موضع كذا بمعنى شدها ووثقها من الأرض. قال عبدة بن الطبيب:

إن التي ضربت بيتا مهاجرة

وقال زياد الأعجم:

في قبة ضربت على ابن الحشرج

وضرب الطين على الحائط ألصقه وقد تقدم ما لجميع هذه المعاني عند قوله تعالى: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾ [البقرة: ٢٦].

فقوله: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ استعارة مكنية إذ شبهت الذلة والمسكنة". (١)

١٦-"أجزاء من معدن الحامض الفحمي فإن له قوة على تحليل الكلس فيحدث ثقبا في الصخور الكلسية حتى يخرقها فيخرج منها نابعا كالعيون. وإذا اجتمعت العيون في موضع نشأت عنها الأنهار كالنيل النابع من جبال القمر، وأما الصخور غير الكلسية فلا يفتتها الماء ولكن قد يعرض لها انشقاق بالزلازل أو بفلق الآلات فيخرج منها الماء إما إلى ظاهر الأرض كما نرى في الآبار وقد يخرج منها الماء إلى طبقة تحتها فيختزن تحتها حتى يخرج بحالة من الأحوال السابقة. وقد يجد الماء في سيره قبل الدخول تحت الصخر أو بعده منفذا إلى أرض ترابية فيخرج طافيا من سطح الصخور التي جرى فوقها. وقد يجد الماء في سيره منخفضات في داخل الأرض فيستقر فيها ثم إذا انضمت إليه كميات أخرى تطلب الخروج بطريق من الطرق المتقدمة ولذلك يكثر أن تنفجر الأنهار عقب الزلازل.

والخشية في الحقيقة الخوف الباعث على تقوى الخائف غيره. وهي حقيقة شرعية في امتثال الأمر التكليفي لأنها الباعث على الامتثال. وجعلت هنا مجازا عن قبول الأمر التكويني إما مرسلا بالإطلاق والتقييد، وإما تمثيلا للهيئة عند التكوين بهيئة المكلف إذ ليست للحجارة خشية إذ لا عقل لها. وقد قيل إن إسناد يهبط للحجر مجاز عقلي والمراد هبوط القلوب أي قلوب الناظرين إلى الصخور والجبال أي خضوعها فأسند الهبوط إليها لأنها سببه كما قالوا ناقة تاجرة أي تبعث من يراها على المساومة فيها١.

وقوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ تذييل في محل الحال أي فعلتم ما فعلتم وما الله بغافل عن كل صنعكم وقد قرأه الجمهور بالتاء الفوقية تكملة خطاب بني إسرائيل، وقرأ ابن كثير ويعقوب وخلف "يعملون" بالياء التحتية وهو انتقال من خطابهم إلى خطاب المسلمين فلذلك غير أسلوبه إلى الغيبة وليس ذلك من **الالتفات** لاختلاف مرجع الضميرين لأن تفريع قوله: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ [البقرة: ٧٥] عليه دل على أن الكلام نقل من خطاب بني إسرائيل إلى خطاب المسلمين. وهو خبر مراد به التهديد والوعيد لهم مباشرة أو تعريضا.

---

(١) التحرير والتنوير ١/٥١٠

[٧٥] ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم

–

١ قال النابغة يصف نخلا:

بزاخية الموت بليف كأنه ... عفاء قلاص طار عنها تواجر". (١)

١٧-"القديم وهو العطف بإعادة لفظ إذ في أول القصص. وأظهر هنا لفظ – ﴿بني إسرائيل﴾ وعدل عن الأسلوب السابق الواقع فيه التعبير بضمير الخطاب المراد به سلف المخاطبين وخلفهم لوجهين أحدهما أن هذا رجوع إلى مجادلة بني إسرائيل وتوفيقهم على مساويهم فهو افتتاح ثان جرى على أسلوب الافتتاح الواقع في قوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ [البقرة: ٤٠] الآية. ثانيهما أن ما سيذكر هنا لما كان من الأحوال التي اتصف بها السلف والخلف وكان المقصود الأول منه إثبات سوء صنيع الموجودين في زمن القرآن تعين أن يعبر عن سلفهم باللفظ الصريح ليتأتى توجيه الخطاب من بعد ذلك إلى المخاطبين حتى لا يظن أنه من الخطاب الذي أريد به أسلافهم على وزان ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ [البقرة: ٤٩] أو على وزان ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ وقوله ﴿ميثاق بني إسرائيل﴾ أريد به أسلافهم لأنهم الذين أعطوا الميثاق لموسى على امتثال ما أنزل الله من التوراة كما قدمناه أو المراد بلفظ بني إسرائيل المتقدمون والمتأخرون والمراد بالخطاب في ﴿توليتم﴾ خصوص من بعدهم لأنهم الذين تولوا فليس في الكلام **التفات** ما وهو أولى من جعل ما صدق ﴿بني إسرائيل﴾ هو ما صدق ضمير ﴿توليتم﴾ وأن الكلام **التفات**.

وقوله ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ خبر في معنى الأمر ومجيء الخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر لأن الخبر مستعمل في غير معناه لعلاقة مشابهة الأمر الموثوق بامتثاله بالشيء الحاصل حتى إنه يخبر عنه. وجملة ﴿لا تعبدون﴾ مبدأ بيان للميثاق فلذلك فصلت وعطف ما بعدها عليها ليكون مشاركا لها في معنى البيانية سواء قدرت أن أو لم تقدرها أو قدرت قولا محذوفا.

وقوله: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ هو مما أخذ عليهم الميثاق به وهو أمر مؤكد لما دل عليه تقديم المتعلق على متعلقه وهما ﴿بالوالدين إحسانا﴾ وأصله وإحسانا بالوالدين، والمصدر يدل من فعله والتقدير وأحسنوا بالوالدين إحسانا. ولا يريبكم أنه معمول مصدر وهو لا يتقدم على عامله على مذهب البصريين لأن تلك دعوى واهية دعاهم إليها أن المصدر في معنى أن والفعل فهو في قوة الصلة ومعمول الصلة لا يتقدم عليها مع أن أن والفعل هي التي تكون في معنى المصدر لا العكس والعجب من ابن جنى كيف تابعهم في شرحه للحماسة على هذا عند قول الحماسي:". (٢)

١٨-"وبعض الحلم عند الجهل للذلة إذعان

وعلى طريقتهم تعلق قوله ﴿وبالوالدين﴾ بفعل محذوف تقديره وأحسنوا وقوله ﴿إحسانا﴾ مصدر ويرد عليهم أن حذف

---

(١) التحرير والتنوير ٥٤٨/١

(٢) التحرير والتنوير ٥٦٤/١

عامل المصدر المؤكد ممتنع لأنه تبطل به فائدة التأكيد الحاصلة من التكرير فلا حاجة إلى جميع ذلك. وتجزم بأن المجرور مقدم على المصدر، على أن التوسع في المجرورات أمر شائع وأصل مفروغ منه، واليتامى جمع يتيم كالندامى للنديم وهو قليل في جمع فعيل.

وجعل الإحسان لسائر الناس بالقول لأنه القدر الذي يمكن معاملة جميع الناس به وذلك أن أصل القول أن يكون عن اعتقاد، فهم إذا قالوا للناس حسنا فقد أضمروا لهم خيرا وذلك أصل حسن المعاملة مع الخلق قال النبيء صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" . وقد علمنا الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا﴾ [الحشر: من الآية١٠] على أنه إذا عرض ما يوجب تكدر الخاطر فإن القول الحسن يزيل ما في نفس القائل من الكدر ويرى للمقول له الصفاء فلا يعامله إلا بالصفاء قال المعري:

والخل كالماء يبدي لي ضمائره ... مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

على أن الله أمر بالإحسان الفعلي حيث يتعين ويدخل تحت قدرة المأمور وذلك الإحسان للوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين وإيتاء الزكاة، وأمر بالإحسان القولي إذا تعذر الفعلي على حد قول أبي الطيب :

فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

وقوله: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أطلقت الزكاة على الصدقة مطلقا أو على الصدقة الواجبة على الأموال وليس المراد الكناية عن شريعة الإسلام لما علمت من أن هاته المعاطيف تابعة لبيان الميثاق وهو عهد موسى عليه السلام.

وقوله: ﴿ثم توليتم إلا قليلا منكم﴾ خطاب للحاضرين وليس **بالتفات** كما علمت آنفا. والمعنى أخذنا ميثاق الأمة الإسرائيلية على التوحيد وأصول الإحسان فكنتم ممن تولى عن ذلك وعصيتم شرعا اتبعتموه. والتولي الإعراض وإبطال ما التزموه وحذف متعلقه لدلالة ما تقدم عليه، أي توليتم عن جميع ما أخذ عليكم الميثاق به أي أشركتم بالله وعبدتم الأصنام وعققتم الوالدين وأسأتم لذوي القربى واليتامى والمساكين وقلتم للناس أفحش القول وتركتم الصلاة ومنعتم الزكاة.". (١)

١٩-"أفاد عموم الرسول وشمل هذا موسى عليه السلام فإنهم وإن لم يكذبوه بصريح اللفظ لكنهم عاملوه معاملة المكذبين به إذ شكوا غير مرة فيما يخبرهم عن الله تعالى وأساءوا الظن به مرارا في أوامره الاجتهادية وحملوه على قصد التغرير بهم والسعي لإهلاكهم كما قالوا حين بلغوا البحر الأحمر. وحين أمرهم بالحضور لسماع كلام الله تعال، وحين أمرهم بدخول أريحا، وغير ذلك وأما بقية الرسل فكذبوهم بصريح القول مثل عيسى وقتلوا بعض الرسل مثل أشعياء وزكرياء ويحيى ابنه. وأرمياء.

وجاء في ﴿تقتلون﴾ بالمضارع عوضا عن الماضي لاستحضار الحالة الفظيعة وهي حالة قتلهم رسلهم كقوله: ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه﴾ [فاطر: ٩] مع ما في صيغة تقتلون من مراعاة الفواصل فاكتمل بذلك بلاغة المعنى وحسن النظم.

---

(١) التحرير والتنوير ١/٥٦٥

[٨٨] ﴿وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون﴾
إما عطف على قوله: ﴿استكبرتم﴾ أو على ﴿كذبتم﴾ فيكون على الوجه الثاني تفسيرا للاستكبار أي يكون على تقدير عطفه على ﴿كذبتم﴾ من جملة تفصيل الاستكبار بأن أشير إلى أن استكبارهم أنواع تكذيب وتقتيل وإعراض. وعلى الوجهين ففيه **التفات** من الخطاب إلى الغيبة وإبعاد لهم عن مقام الحضور فهو من **الالتفات** الذي نكتته أن ما أجرى على المخاطب من صفات النقص والفظاعة قد أوجب إبعاده عن البال وإعراض البال عنه فيشار إلى هذا الإبعاد بخطابه بخطاب البعد فهو كناية١.

وقد حسن **الالتفات** أنه مؤذن بانتقال الكلام إلى سوء مقابلتهم للدعوة المحمدية وهو غرض جديد فإنهم لما تحدث عنهم بما هو من شؤونهم مع أنبيائهم وجه الخطاب إليهم. ولما أريد الحديث عنهم في إعراضهم عن النبي صلى الله عليه وسلم صار الخطاب جاريا مع المؤمنين وأجرى على اليهود ضمير الغيبة. على أنه يحتمل أن قولهم: ﴿قلوبنا غلف﴾ لم يصرحوا به علنا ويدل لذلك أن أسلوب الخطاب جرى على الغيبة من مبدأ هذه الآية إلى قوله تعالى

—

١ قلت نظير هذا **الالتفات** من الخطاب إلى الغيبة بعد إجراء صفات نقص قول الشاعر يذم من بخل في قضاء مهم:

أبى لك كسب الحمد رأي مقصر ... ونفس أضاق الله بالخير باعها

إذا هي حثته على الخير مرة ... عصاها وإن همت بشر أطاعها". (١)

٢٠-"﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ [البقرة:٩٢] والقلوب مستعملة في معنى الأذهان على طريقة كلام العرب في إطلاق القلب على العقل.

والغلف بضم فسكون جمع أغلف وهو الشديد الغلاف مشتق من غلفه إذا جعل له غلافا وهو الوعاء الحافظ للشيء والساتر له من وصول ما يكره له.

وهذا كلام كانوا يقولونه للنبي صلى الله عليه وسلم حين يدعوهم للإسلام قصدوا به التهكم وقطع طمعه في إسلامهم وهو كقول المشركين: ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾ [فصلت: ٥]. وفي الكلام توجيه لأن أصل الأغلف أن يكون محجوبا عما لا يلائمه فإن ذلك معنى الغلاف فهم يخيلون أن قلوبهم مستورة عن الفهم ويريدون أنها محفوظة من فهم الضلالات ولذلك قال المفسرون إنه مؤذن بمعنى أنها لا تعي ما تقول ولو كان لوعته وهذان المعنيان اللذان تضمنهما لتوجيه يلاقيهما الرد بقوله تعالى: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي ليس عدم إيمانهم لقصور في أفهامهم ولا لربوها عن قبول مثل ما دعوا إليه ولكن لأنهم كفروا فلعنهم الله بكفرهم وأبعدهم عن الخير وأسبابه. وبهذا حصل المعنيان المرادان لهم من غير حاجة إلى فرض احتمال أن يكون غلف جمع غلاف لما فيه من التكلف في حذف المضاف إليه حتى يقدر أنها أوعية للعلم والحق فلا يتسرب إليها الباطل.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٨١/١

وقوله: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ تسجيل عليهم وفضح لهم بأنهم صمموا على الكفر والتمسك بدينهم من غير التفات لحجة النبي صلى الله عليه وسلم فلما صمموا على ذلك عاقبهم الله باللعن والإبعاد عن الرحمة والخير فحرمهم التوفيق والتبصر في دلائل صدق الرسول، فاللعنة حصلت لهم عقابا على التصميم على الكفر وعلى الإعراض عن الحق وفي ذلك رد لما أوهموه من أن قلوبهم خلقت بعيدة عن الفهم لأن الله خلقهم كسائر العقلاء مستطيعين لإدراك الحق لو توجهوا إليه بالنظر وترك الكابرة وهذا معتقد أهل الحق من المؤمنين عدا الجبرية.

وقوله: ﴿فقليلا ما يؤمنون﴾ تفريع على ﴿لعنهم﴾ و ﴿قليلا﴾ صفة لمحذوف دل عليه الفعل والتقدير فإيمانا قليلا وما زائدة للمبالغة في التقليل والضمير لمجموع بني إسرائيل ويجوز أن يكون قليلا صفة للزمان الذي يستلزمه الفعل أي فحينا قليلا يؤمنون. وقليل يجوز أن يكون باقيا على حقيقته مشارا به إلى إيمانهم ببعض الكتاب أو إلى إيمانهم ببعض ما يدعو له النبي صلى الله عليه وسلم مما يوافق دينهم القديم كالتوحيد ونبوة موسى أو إلى إيمان أفراد". (١)

٢١-"تدرج في ذكر منقبة إبراهيم إذ جعل الله بيته بهذه الفضيلة، وإذ أضافها إلى جلالته فقال بيتي، واستهلال لفضيلة القبلة الإسلامية، فالواو عاطفة على ﴿ابتلى﴾ وأعيدت إذ للتنبيه على استقلال القصة وأنها جديرة بأن تعد بنية أخرى، ولا التفات إلى حصول مضمون هذه بعد حصول الأخرى أو قبله إذ لا غرض في ذلك في مقام ذكر الفضائل، ولأن الواو لا تفيد ترتيبا.

والبيت اسم جنس للمكان المتخذ مسكنا لواحد أو عدد من الناس في غرض من الأغراض. وهو مكان من الأرض يحيط به ما يميزه عن بقية بقعته من الأرض ليكون الساكن مستقلا به لنفسه ولمن يتبعه فيكون مستقرا له وكنا يكنه من البرد والحر وساترا يستتر فيه عن الناس ومحطا لأثاثه وشئونه، وقد يكون خاصا وهو الغالب وقد يكون لجماعة مثل دار الندوة في العرب وخيمة الاجتماع في بني إسرائيل، وقد يكون محيط البيت من حجر وطين كالكعبة ودار الندوة، وقد يكون من أديم مثل القباب، وقد يكون من نسيج صوف أو شعر قال تعالى: ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها﴾ [النحل: من الآية٨٠] ولا يكون بيتا إلا إذا كان مستورا أعلاه عن الحر والقر وذلك بالسقف لبيوت الحجر وبيوت الأديم والخيام.

والبيت علم بالغلبة على الكعبة كما غلب النجم على الثريا. وأصل أل التي في الأعلام بالغلبة هي أل العهدية وذلك إذا كثر عهد فرد من أفراد جنس بين طائفة أو قوم صار اسم جنسه مع أل العهدية كالعلم له ثم قد يتعهدون مع ذلك المعنى الأصلي كما في النجم للثريا والكتاب للقرآن والبيت للكعبة، وقد ينسى المعنى الأصلي إما بقلة الحاجة إليه كالصعق علم على خويلد بن نفيل وإما بانحصار الجنس فيه كالشمس.

والكعبة بيت بناه إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وحده دون شريك فيأوي إليه من يدين بالتوحيد ويطوف به من يقصد تعظيم الله تعالى ولذلك أضافه إلى الله تعالى باعتبار هذا المعنى كما قال: ﴿أن طهرا بيتي للطائفين﴾ وفي قوله: ﴿عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة﴾ [ابراهيم: ٣٧] وقد عرفت الكعبة باسم البيت من عهد الجاهلية قال زهير:

---

(١) التحرير والتنوير ١/٥٨٢

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم

والمثابة مفعلة من ثاب يثوب إذا رجع ويقال مثابة ومثاب مثل مقامة ومقام، والمراد بالمثابة أنه يقصده الناس بالتعظيم ويلوذون به.". (١)

٢٢-"ومقصد إبراهيم من دعوته هذه أن تتوفر لأهل مكة أسباب الإقامة فيها فلا تضطرهم الحاجة إلى سكنى بلد آخر لأنه رجا أن يكونوا دعاة لما بنيت الكعبة لأجله من إقامة التوحيد وخصال الحنيفية وهي خصال الكمال، وهذا أول مظاهر تكوين المدينة الفاضلة التي دعا أفلاطون لإيجادها بعد بضعة عشر قرنا.

وجملة ﴿قال ومن كفر فأمتعه﴾ جاءت على سنن حكاية الأقوال في المحاورات والأجوبة مفصولة، وضمير ﴿قال﴾ عائد إلى الله، فمن جوز أن يكون الضمير في ﴿قال﴾ لإبراهيم وأن إعادة القول لطول المقول الأول فقد غفل عن المعنى وعن الاستعمال وعن الضمير في قوله: ﴿فأمتعه﴾.

وقوله: ﴿ومن كفر﴾ الأظهر أنه عطف على جملة: ﴿وارزق أهله﴾ باعتبار القيد وهو قوله: ﴿من آمن﴾ فيكون قوله ﴿ومن كفر﴾ مبتدأ وضمن الرسول معنى الشرط فلذلك قرن الخبر بالفاء على طريقة شائعة في مثله، لما قدمناه في قوله ﴿ومن ذريتي﴾ أن عطف التلقين في الإنشاء إذا كان صادرا من الذي خوطب بالإنشاء كان دليلا على حصول الغرض من الإنشاء والزيادة عليه، ولذلك آل المعنى هنا إلى أن الله تعالى أظهر فضله على إبراهيم بأنه يرزق ذريته مؤمنهم وكافرهم، أو أظهر سعة رحمته برزق سكان مكة كلهم مؤمنهم وكافرهم.

ومعنى "أمتعه" أجعل الرزق له متاعا، و ﴿قليلا﴾ صفة لمصدر محذوف بعد قوله: ﴿فأمتعه﴾ والمتاع القليل متاع الدنيا كما دلت عليه المقابلة بقوله ﴿ثم أضطره إلى عذاب النار﴾

وفي هذه الآية دليل لقول الباقلاني والماتريدية والمعتزلة بأن الكفار منعم عليهم بنعم الدنيا، وقال الأشعري لم ينعم على الكافر لا في الدنيا ولا في الآخرة وإنما أعطاهم الله في الدنيا ملاذ علوجه الاستدراج، والمسألة معدودة في مسائل الخلاف بين الأشعري والماتريدي، ويشبه أن يكون الخلاف بينهما لفظيا وإن عده السبكي في عداد الخلاف المعنوي.

وقوله: ﴿ثم أضطره إلى عذاب النار﴾ احتراس من أن يغتر الكافر بأن تخويله النعم في الدنيا يؤذن برضى الله فلذلك ذكر العذاب هنا.

و"ثم" للتراخي الرتبي كشأنها في عطف الجمل من غير **التفات** إلى كون مصيره إلى". (٢)

٢٣-"٦٧] ومثل قوله: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والأنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾ [آل عمران:٦٥] والأمة إذا انغمست في الجهالة وصارت عقائدها غرورا ومن دون تدبر اعتقدت ما لا ينتظم مع الدليل

---

(١) التحرير والتنوير ٦٨٩/١

(٢) التحرير والتنوير ٦٩٧/١

واجتمعت في عقائدها المتناقضات، وقد وجد النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح في الكعبة صورة إبراهيم يستقسم بالأزلام في الكعبة فتلا قوله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم﴾ – إلى قوله–: ﴿وما كان من المشركين﴾ [آل عمران: من الآية٦٧] وقال والله إن استقسم بها قط، وقال تعالى في شأن أهل الكتاب: ﴿وما أنزلت التوراة والأنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾ فرماهم بفقد التعقل.

وقرأ الجمهور وأبو بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب بياء الغائب وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم بتاء الخطاب على أن أم متصلة معادلة لقوله: ﴿أتحاجوننا في الله﴾ [البقرة: من الآية١٣٩] فيكون قوله: ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ أمرا ثانيا لاحقا لقوله: ﴿قل أتحاجوننا﴾ وليس هذا المحمل بمتعين لأن في اعتبار الالتفات مناصا من ذلك.

ومعنى: ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ التقدير، وقد أعلمنا الله أن إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا وهذا كقوله في سورة آل عمران ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والأنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾ [آل عمران:٦٥]

وقد استفيد من التقرير في قوله: ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ أنه أعلمهم بأمر جهلته عامتهم وكتمته خاصتهم ولذلك قال: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ يشير إلى خاصة الأحبار والرهبان الذين تركوا عامة أمتهم مسترسلين على عقائد الخطأ والغرور والضلالة وهم ساكتون لا يغيرون عليهم إرضاء لهم واستجلابا لمحبتهم وذلك أمر إذا طال على الأمة تعودته وظنت جهالتها علما فلم ينجع فيها إصلاح بعد ذلك لأنها ترى المصلحين قد أتوا بما لم يأت به الأولون فقالوا ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ [الزخرف: ٢٣]

﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾

هذا من جملة المقول محكي بقوله: ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ذلك تذكيرا لهم بالعهد الذي في كتبهم عسى أن يراجعوا أنفسهم ويعيدوا النظر إن كانوا مترددين أو أن يفيئوا إلى الحق إن كانوا متعمدين المكابرة.". (١)

٢٤–"المقصود من الكلام المفتتح بقوله: ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ [البقرة:١٤٢]بعد أن مهد الله بما تقدم من أفانين التهيئة وإعداد الناس إلى ترقبه ابتداء من قوله: ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ ثم قوله: ﴿ولن ترضى عنك اليهود﴾ [البقرة:١٢٠] ثم قوله: ﴿وإذ جعلنا البيت﴾ [البقرة:١٢٥] ثم قوله: ﴿سيقول السفهاء﴾.

و"قد" في كلام العرب للتحقيق ألا ترى أهل المعاني نظروا هل في الاستفهام بقد في الخبر فقالوا من أجل ذلك إن هل لطلب التصديق فحرف قد يفيد تحقيق الفعل فهي مع الفعل بمنزلة إن مع الأسماء ولذلك قال الخليل إنها جواب لقوم ينتظرون الخبر ولو اخبروهم لا ينتظرونه لم يقل قد فعل كذا اهـ.

ولما كان علم الله بذلك مما لا يشك فيه النبي صلى الله عليه وسلم حتى يحتاج لتحقيق الخبر به كان الخبر به مع تأكيده

---

(١) التحرير والتنوير ٧٢٧/١

مستعملا في لازمه على وجه الكناية لدفع الاستبطاء عنه وأن يطمئنه لأن النبي كان حريصا على حصوله ويلزم ذلك الوعد بحصوله فتحصل كنايتان مترتبتان.

وجيء بالمضارع مع "قد" لدلالة على التجدد والمقصود تجدد لازمه ليكون تأكيدا لذلك اللازم وهو الوعد، فمن أجل ذلك غلب على قد الداخلة على المضارع أن تكون للتكثير مثل ربما يفعل. قال عبيد بن الأبرص:

قد أترك القرن مصفرا أنامله ... كأن أثوابه مجت بفرصاد١

وستجيء زيادة بيان لهذا عند قوله تعالى: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ [الأنعام:٣٣] في سورة الأنعام.

والتقلب مطاوع قلبه إذا حوله وهو مثل قلبه بالتخفيف، فالمراد بتقليب الوجه **الالتفات** به أي تحويله من جهته الأصلية فهو هنا ترديده في السماء، وقد اخذوا من العدول إلى صيغة التفعيل الدلالة على معنى التكثير في هذا التحويل، وفيه نظر إذ قد يكون ذلك لما في هذا التحويل من الترقب والشدة فالتفعيل لقوة الكيفية، قالوا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقع في روعه إلهاما أن الله سيحوله إلى مكة فكان يردد وجهه في السماء فقيل ينتظر نزول

_

١ البيت في: "شرح شواهد المغني" "١٦٩" للهذلي، وقيل: لعبيد بن الأبرص. هذا وليس في "أشعار الهذليين" هذا البيت وانظر "اللسان" "قدد" قال ابن بري: البيت لعبيد بن أبرص، والشاهد أيضا في "الصحاح"، وهو في "ديوان عبيد" "٦٤".".
(١)

٢٥-"العلم﴾ لأن هذه الآية وقعت بعد الآية الأولى في سورة واحدة وليس بينهما بعيد فصل فكان العلم الذي جاءه فيها من قوله: ﴿ما تبعوا قبلتك﴾ وهو جزئي من عموم العلم الذي جاء في إبطال جميع ملتهم، فكان جديرا بأن يشار إلى كونه جزئيا له بإيراد "من" الابتدائية.

[١٤٦] ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾

جملة معترضة بين جملة: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب﴾ [البقرة:١٤٥] الخ، وبين جملة ﴿ولكل وجهة﴾ [البقرة:١٤٨] الخ اعتراض استطراد بمناسبة ذكر مطاعن أهل الكتاب في القبلة الإسلامية، فإن طعنهم كان عن مكابرة مع علمهم بأن القبلة الإسلامية حق كما دل عليه قوله: ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾ [البقرة:١٤٤] فاستطرد بأن طعنهم في القبلة الإسلامية ما هو إلا من مجموع طعنهم في الإسلام وفي النبي صلى الله عليه وسلم، والدليل على الاستطراد قوله بعده: ﴿ولكل وجهة هو موليها﴾ [البقرة:١٤٨] فقد عاد الكلام إلى استقبال القبلة.

فالضمير المنصوب في ﴿يعرفونه﴾ لا يعود إلى تحويل القبلة لأنه لو كان كذلك لصارت الجملة تكريرا لمضمون قوله: ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾ ، بل هو عائد إما إلى الرسول وإن لم يسبق ذكر لمعاد مناسب لضمير الغيبة، لكنه قد علم من الكلام السبق وتكرر خطابه فيه من قوله: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾ [البقرة:١٤٣]،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٢

وقوله: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ [البقرة:١٤٤]، وقوله: ﴿فلنولينك قبلة﴾ [البقرة:١٤٤]، وقوله: ﴿فول وجهك﴾ [البقرة:١٤٤] فالإتيان بالضمير بطريق الغيبة من **الالتفات**، وهو على تقدير مضاف أن يعرفون صدقه، وإما أن يعود إلى ﴿الحق﴾ في قوله السابق: ﴿ليكتمون الحق﴾ فيشمل رسالة الرسول وجميع ما جاء به، وإما إلى العلم في قوله: ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ [البقرة: ١٤٥].

والتشبيه في قوله: ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ تشبيه في جلاء المعرفة وتحققها فإن معرفة المرء بعلائقه معرفة لا تقبل اللبس، كما قال زهير:

فهن ووادي الرس كاليد للفم ... تشبيها لشدة القرب البين.". (١)

٢٦-"هي سبب الحكم وهو إيماء للعلة على حد: ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ [البقرة:٥].

واختير اسم إشارة البعيد ليكون أبعث للسامع على التأمل منهم **والالتفات** إليهم أو لأن اسم الإشارة بهذه الصيغة هو الأكثر استعمالا في كلامهم.

وقد اجتمع في الآية إيما آن إلى وجه ترتب اللعن على الكتمان وهما الإيماء بالموصول إلى وجه بناء الخير أي علته وسببه، والإيماء باسم الإشارة للتنبيه على أحرويتهم بذلك، فكان تأكيد الإيماء إلى التعليل قائما مقام التنصيص على العلة.

واللعن الإبعاد عن الرحمة مع إذلال وغضب، وأثره يظهر في الآخرة بالحرمان من الجنة وبالعذاب في جهنم، وأما لمن الناس إياهم فهو الدعاء منهم بأن يبعدهم الله عن رحمته على الوجه المذكور، واختير الفعل المضارع للدلالة على التجدد مع العلم بأنه لعنهم أيضا فيما مضى إذ كل سامع يعلم أنه لا وجه لتخصيص لعنهم بالزمن المستقبل. وكذلك القول في قوله: ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾، وكرر فعل ﴿يلعنهم﴾ مع إغناء حرف العطف عن تكريره لاختلاف معنى اللاعنين فإن اللعن من الله الإبعاد عن الرحمة واللعن من البشر الدعاء عليهم عكس ما وقع في ﴿إن الله وملائكته يصلون﴾ [الأحزاب:٥٦] لأن التحقيق أن صلاة الله والملائكة واحدة وهي الذكر الحسن.

والتعريف في ﴿اللاعنون﴾ للاستغراق وهو استغراق عرفي أي يلعنهم كل لاعن، والمراد باللاعنين المتدينون الذين ينكرون المنكر وأصحابه ويغضبون لله تعالى ويطلعون على كتمان هؤلاء فهم يلعنونهم بالتعيين وإن لم يطلعوا على تعيينهم فهم يلعنونهم بالعنوان العام أي حين يلعنون كل من كتم آيات الكتاب حين يتلون التوراة. ولقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل أن يبينوا التوراة ولا يخفوها كما قال: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ [آل عمران:١٨٧].

وقد جاء ذكر اللعنة على إضاعة عهد الله في التوراة مرات وأشهرها العهد الذي أخذه موسى على بني إسرائيل في "حوريب" حسبما جاء في سفر الخروج في الإصحاح الرابع والعشرين، والعهد الذي أخذه عليهم في مؤاب وهو الذي فيه اللعنة على من تركه وهو في سفر التثنية في الإصحاح الثامن والعشرين والإصحاح التاسع والعشرين ومنه أنتم واقفون اليوم جميعكم أمام

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٣٩

الرب إلهكم... لكي تدخلوا في عهد الرب وقسمه لئلا يكون فيكم اليوم منصرف عن الرب... فيكون متى يسمع كلام هذه اللعنة يتبرك في قلبه... حينئذ يحل غضب الرب وغيرته على ذلك الرجل فتحل عليه كل اللعنات المكتوبة". (١)

٢٧-"تشنيع لحالهم وإثارة للعداوة بين الشيطان وبينهم.

والسوء الضر من ساءه سوءا، فالمصدر بفتح السين وأما السوء بضم السين فاسم للمصدر.

والفحشاء اسم مشتق من فحش إذا تجاوز الحد المعروف في فعله أو قوله واختص في كلام العرب بما تجاوز حد الآداب وعظم إنكاره، لأن وساوس النفس تئول إلى مضرة كشرب الخمر والقتل المفضي للثأر أو إلى سوأة وعار كالزنا والكذب، فالعطف هنا عطف لمتغايرين بالمفهوم والذات لا محالة بشهادة اللغة وإن كانا متحدين في الحكم الشرعي لدخول كليهما تحت وصف الحرام أو الكبيرة وأما تصادفهما معا في بعض الذنوب كالسرقة فلا **التفات** إليه كسائر الكليات المتصادفة.

وقوله: ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ [البقرة:١٦٩] يشير إلى ما اختلقه المشركون وأهل الضلال من رسوم العبادات ونسبة أشياء لدين الله ما أمر الله بها. وخصه بالعطف مع أنه بعض السوء والفحشاء لاشتماله على أكبر الكبائر وهو الشرك والافتراء على الله.

ومفعول ﴿تعلمون﴾ محذوف وهو ضمير عائد إلى "ما" وهو رابط الصلة، ومعنى ما لا تعلمون: لا تعلمون أنه من عند الله بقرينة قوله: ﴿على الله﴾ أي لا تعلمون أنه يرضيه ويأمر به، وطريق معرفة رضا الله وأمره هو الرجوع إلى الوحي وإلى ما يتفرع عنه من القياس وأدلة الشريعة المستقراة من أدلتها. ولذلك قال الأصوليون: يجوز للمجتهد أن يقول فيما أداه إليه اجتهاده بطريق القياس: إنه دين الله ولا يجوز أن يقول قاله الله، لأن المجتهد قد حصلت له مقدمة قطعية مستقراة من الشريعة انعقد الإجماع عليها وهي وجوب عمله بما أداه إليه اجتهاده بأن يعمل به في الفتوى والفضاء وخاصة نفسه فهو إذا أفتى به وأخبر فقد قال على الله ما يعلم أنه يرضى الله تعالى بحسب ما كلف به من الظن١.

-

١ قال الألوسي عند شرح ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ " وظاهر الآية المنع من اتباع الظن رأسا لأن الظن مقابل للعلم لغة وعرفاه ويشكل عليه أن المجتهد يعمل بمقتضى ظنه الحاصل عنده من النصوص فكيف يسوغ اتباعه للمقلد، وأجيب بأن الحكم المظنون للمجتهد يجب العمل به للدليل القاطع وهو الإجماع وكل الحكم يجب العمل به قطعا علم قطعا بأنه حكم الله تعالى: وإلا لم يجب العمل به قطعا وكل ما علم قطعا أنه حكم الله تعالى فهو معلوم قطعا، فالحكم المظنون للمجتهد معلوم قطعا وخلاصته أن الظن كاف في طريق تحصيله ثم بواسطة الإجماع على وجوب". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٦٧

(٢) التحرير والتنوير ٢/١٠٤

٢٨-"[١٧٠] ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾

الأحسن عندي أن يكون عطفا على قوله: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ [البقرة:١٦٨]، فإن المقصود بالخطاب في ذلك هم المشركون فإنهم الذين ائتمروا لأمره بالسوء والفحشاء، وخاصة بأن يقولوا على الله مالا يعلمون، والمسلمون محاشون عن مجموع ذلك.

وفي هذه الآية المعطوفة زيادة تفظيع لحال أهل الشرك، فيعد أن أثبت لهم اتباعهم خطوات الشيطان فيما حرموا على أنفسهم من الطيبات، أعقب ذلك بذكر إعراضهم عمن يدعوهم إلى اتباع ما أنزل الله، وتشبثوا بعدم مخالفتهم ما ألفوا عليه آباءهم، وأعرضوا عن الدعوة إلى غير ذلك دون تأمل ولا تدبر.

﴿بل﴾ إضراب إبطال، أي أضربوا عن قول الرسول، ﴿اتبعوا ما أنزل الله﴾ ، إضراب إعراض بدون حجة إلا بأنه مخالف لما ألوا عليه آباءهم.

وفي ضمير لهم التفات من الخطاب الذي في قوله: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾

والمراد بما ألفوا عليه آباءهم، ما وجدوهم عليه من أمور الشرك كما قالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ [الزخرف:٢٣] والأمة: الملة وأعظم ذلك عبادة الأصنام.

وقوله: ﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾ كلام من جانب آخر للرد على قولهم: ﴿نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ ، فإن المتكلم لما حكاه عنهم رد قولهم هذا باستفهام يقصد منه الرد ثم التعجيب، فالهمزة مستعملة في الإنكار كناية وفي التعجيب إيماء، والمراد بالإنكار الرد والتخطئة لا الإنكار بمعنى النفي.

و ﴿لو﴾ للشرط وجوابها محذوف دل عليه الكلام السابق تقديره: لاتبعوهم، والمستفهم عنه هو الارتباط الذي بين الشرط وجوابه، وإنما صارت الهمزة للرد لأجل

-

العمل صار المظنون معلوما وانقلب الظن علما، فتقليد المجتهد ليس من اتباع الظن في شيء، وزعم ذلك من اتباع الظن وتحقيقه في الأصول" "روح المعاني" "٢/٤٠"، ط المنيرية". (١)

٢٩-"الصوم الصحيح من الجوع والعطش المعتادين، بحيث يسبب له أوجاعا أو ضعفا منهكا أو تعاوده به أمراض ساكنة أو يزيد في انحرافه إلى حد المرض أو يخاف تمادي المرض بسببه. وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي على تفاوت بينهم في التعبير، وأعدل العبارات ما نقل من مالك، لأن الله أطلق المرض ولم يقيده، وقد علمنا أنه ما أباح الفطر إلا لأن لذلك المرض تأثيرا في الصائم ويكشف ضابط ذلك قول القرافي في الفرق الرابع عشر، إذ قال: "إن المشاق قسمان: قسم ضعيف لا تنفك عنه تلك العبادة كالوضوء والغسل في زمن البرد وكالصوم، وكالمخاطرة بالنفس في الجهاد، وقسم هو ما

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٠٥

تنفك عنه العبادة وهذا أنواع: نوع لا تأثير له في العبادة كوجع إصبع، فإن الصوم لا يزيد وجع الإصبع وهذا **الالتفات** إليه، ونوع له تأثير شديد مع العبادة كالخوف على النفس والأعضاء والمنافع وهذا يوجب سقوط تلك العبادة، ونوع يقرب من هذا فيوجب ما يوجبه١".

وذهب ابن سيرين وعطاء والبخاري إلى أن المرض وهو الوجع والاعتلال يسوغ الفطر ولو لم يكن الصوم مؤثرا فيه شدة أو زيادة، لأن الله تعالى جعل المرض سبب الفطر كما جعل السفر سبب الفطر من غير أن تدعوا إلى ضرورة كما في السفر، يريدون أن العلة هي مظنة المشقة الزائدة غالبا، قيل دخل بعضهم على ابن سيرين في نهار رمضان وهو يأكل فلما فرغ قال: إنه وجعتني إصبعي هذه فأفطرت، وعن البخاري قال: اعتللت بنيسابور علة خفيفة في رمضان فعادني إسحاق بن راهوية في نفر من أصحابه فقال لي: أفطرت يا أبا عبد الله قلت: نعم أخبرنا عبدان عن ابن المبارك عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: من أي المرض أفطر؟ قال: من أي مرض كان كما قال الله تعالى: ﴿فمن كان منكم مريضا﴾ وقيل: إذا لم يقدر المريض على الصلاة قائما أفطر، وإنما هذه حالة خاصة تصلح مثالا ولا تكون شرطا، وعزي إلى الحسن والنخعي ولا يخفي ضعفه؛ إذ أين القيام في الصلاة من الإفطار في الصيام، وفي هذا الخلاف مجال للنظر في تحديد مدى الانحراف والمرض المسوغين إفطار الصائم، فعلى الفقيه الإحاطة بكل ذلك ونقربه من المشقة الحاصلة للمسافر وللمرأة الحائض.

وقوله: ﴿أو على سفر﴾ أي أو كان بحالة السفر وأصل "على" الدلالة على الاستعلاء ثم استعملت مجازا في التمكن كما تقدم في قوله تعالى: ﴿على هدى من

_

١ الفروق" للقرافي "١/١١٨"، عالم الكتب.". (١)

٣٠-"وقوله: ﴿من الفجر﴾ من ابتدائية أي الشعاع الناشئ عن الفجر وقيل بيانية وقيل تبعيضية وكذلك قول أبي دؤاد "من الصبح" لأن الخيط شائع في السلك الذي يخاط به فهو قرينة إحدى المعنيين للمشترك، وجعله في "الكشاف" تشبيها بليغا، فلعله لم يثبت عنده اشتهار إطلاقه على هذا المعنى في غير بعض الكلام، كالآية وبيت أبي دؤاد، وعندي أن القرآن ما أطلقه إلا لكونه كالنص في المعنى المراد في اللغة الفصحى دون إرادة التشبيه لأنه ليس بتشبيه واضح.

وقد جئ في الغاية بحتى وبالتبين للدلالة على أن الإمساك يكون عند اتضاح الفجر للناظر وهو الفجر الصادق، ثم قوله تعالى: ﴿حتى يتبين﴾ تحديد لنهاية وقت الإفطار بصريح المنطوق؛ وقد علم منه لا محالة أنه ابتداء زمن الصوم، إذ ليس في زمان رمضان إلا صوم وفطر وانتهاء أحدهما مبدأ الآخر فكان قوله: ﴿أتموا الصيام إلى الليل﴾ بيانا لنهاية وقت الصيام ولذلك قال تعالى: ﴿ثم أتموا﴾ ولم يقل ثم صوموا لأنهم صائمون من قبل.

و ﴿إلى الليل﴾ غاية اختير لها "إلى" للدلالة على تعجيل الفطر عند غروب الشمس لأن إلى تمتد معها الغاية بخلاف حتى، فالمراد هنا مقارنة إتمام الصيام بالليل.

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٦١

واعلم أن ثم في عطف الجمل للتراخي الرتبي وهو اهتمام بتعيين وقت الإفطار؛ لأن ذلك كالبشارة لهم، ولا التفات إلى ما ذهب إليه أبو جعفر الخباز السمرقندي من قدماء الحنفية من الاستدلال بثم في هاته الآية على صحة تأخير النية عن الفجر احتجاجا لمذهب أبي حنيفة من جواز تأخير النية إلى الضحوة الكبرى. بناء على أن ثم للتراخي وأن إتمام الصيام يستلزم ابتداءه فكأنه قال ثم بعد تبيين الخيطين من الفجر صوموا أو أتموا الصيام إلى الليل فينتج معنى صوموا بعد تراخ عن وقت الفجر وهو على ما فيه من التكلف والمصير إلى دلالة الإشارة الخفيفة غفلة عن معنى التراخي في عطف ثم للجمل.
هذا، وقد رويت قصة في فهم بعض الصحابة لهذه الآية وفي نزولها مفرقة، فروى البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت: ﴿حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي فجعلت أنظر في الليل فلا يستبين لي الأبيض من الأسود فغدوت على رسول الله فذكرت له ذلك فقال رسول الله: "إن وسادك لعريض، وفي رواية:"إنك لعريض القفا، وإنما ذلك سواد الليل وبياض النهار".". (١)

٣١-"أتقرأ القرآن؟ قال لا قلت من أين علمت؟ قال يا هذا عز فحكم فقطع ولو غفر ورحم لما قطع.
[٢١٠] ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾
إن كان الإضمار جاريا على مقتضى الظاهر فضمير ﴿ينظرون﴾ راجع إلى معاد مذكور قبله، وهو إما ﴿من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ [البقرة:٢٠٤]، وإما إلى ﴿من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾ [البقرة:٢٠٧]، أو إلى كليهما لأن الفريقين ينتظرون يوم الجزاء، فأخذ الفريقين ينتظره شكا في الوعيد بالعذاب، والفريق الآخر ينتظره انتظار الراجي للثواب. ونظيره قوله: ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ [يونس:١٠٢] فانتظارهم أيام الذين خلوا انتظار توقع سوء وانتظار النبي معهم انتظار تصديق وعيده.
وإن كان الإضمار جاريا على خلاف مقتضى الظاهر فهو راجع إلى المخاطبين بقوله: ﴿ادخلوا في السلم﴾ [البقرة:٢٠٨] وما بعده، أو إلى الذين زلوا المستفاد من قوله: ﴿فإن زللتم﴾، وهو حينئذ التفات من الخطاب إلى الغيبة، إما لمجرد تجديد نشاط السامع إن كان راجعا إلى المخاطبين بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ [البقرة:٢٠٨]، وإما لزيادة نكتة إبعاد المخاطبين بقوله: ﴿فإن زللتم﴾ عن عز الحضور، قال القرطبي: ﴿هل ينظرون﴾ يعني التاركين الدخول في السلم، وقال الفخر الضمير لليهود بناء على أنهم المراد من قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم﴾ أي يا أيها الذين آمنوا بالله وبعض رسله وكتبه على أحد الوجوه المتقدمة وعلى أن السلم أريد به الإسلام، ونكتة الالتفات على هذا القول هي هي.
فإن كان الضمير لمن يعجبك أو له ولمن يشري نفسه، فالجملة استئناف بياني، لأن هاتين الحالتين العجيبتين في الخير والشر تثير أن سؤال من يسأل عن جزاء كلا الفريقين فيكون قوله: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله﴾ جوابا لذلك، وإن كان الضمير راجعا إلى الذين آمنوا فجملة: ﴿هل ينظرون﴾ استئناف للتحريض على الدخول في الإسلام خشية يوم الجزاء أو طمعا في ثوابه وإن كان الضمير للذين زلوا من قوله: ﴿فإن زللتم﴾ فالجملة بدل اشتمال من مضمون جملة: ﴿فإن الله عزيز

(١) التحرير والتنوير ٢/١٨١

حكيم﴾ [الأنفال:٤٩] لأن معناه". (١)

٣٢-"تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ الآية إجمال لذلك وقد ختم بقوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ ، ولما كان هذا الختام منقبة للمسلمين أوقظوا أن لا يزهوا بهذا الثناء فيحسبوا أنهم قضوا حق شكر النعمة فعقب بأن عليهم أن يصبروا لما عسى أن يعترضهم في طريق إيمانهم من البأساء والضراء اقتداء بصالحي الأمم السالفة، فكما حذرهم الله من الوقوع فيما وقع فيه الضالون من أولئك الأمم حرضهم هنا على الاقتداء بهدى المهتدين منهم على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالنذارة وعكس ذلك، فيكون قوله: ﴿أم حسبتم﴾ إضرابا عن قوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا﴾ وليكون ذلك تصبيرا لهم على ما نالهم يوم الحديبية من تطاول المشركين عليهم بمنعهم من العمرة وما اشترطوا عليهم للعام القابل، ويكون أيضا تمهيدا لقوله: ﴿كتب عليكم القتال﴾ [البقرة:٢١٦] الآية، وقد روى عن أكثر المفسرين الأولين أن هذه الآية نزلت في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدائد فتكون تلك الحادثة زيادة في المناسبة. و"أم" في الإضراب كبل إلا أن أم تؤذن بالاستفهام وهو هنا تقرير بذلك وإنكاره إن كان حاصلا أي بل أحسبتم أن تدخلوا دون بلوى وهو حسبان باطل لا ينبغي اعتقاده.
وحسب بكسر السين في الماضي: فعل من أفعال القلوب أخوات ظن، وفي مضارعه وجهان كسر السين وهو أجود وفتحها وهو أقيس وقد قريء بهما في المشهور، ومصدره الحسبان بكسر الحاء وأصله من الحساب بمعنى العد فاستعمال في الظن تشبيها لجولان النفس في استخراج علم ما يقع بجولان اليد في الأشياء لتعيين عددها ومثله في ذلك فعل عد بمعنى ظن.
والخطاب للمسلمين وهو إقبال عليهم بالخطاب بعد أن كان الكلام على غيرهم فليس فيه **التفات**، وجعله صاحب "الكشاف" **التفاتا** بناء على تقدم قوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه﴾ [البقرة:٢١٣] وأنه يقتضي أن يقال أم حسبوا أي الذين آمنوا، والأظهر أنه لما وقع الانتقال من غرض إلى غرض بالإضراب الانتقالي الحاصل بأم، صار الكلام افتتاحا محضا وبذلك يتأكد اعتبار الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، **فالالتفات** هنا غير منظور إليه على التحقيق.
ودخول الجنة هنا دخولها بدون سبق عناء وبلوى، وهو دخول الذين استوفوا كل ما وجب عليهم ولم يقصروا في شئ منه، وإلا فإن دخول الجنة محسوب لكل مؤمن ولو لم تأته البأساء والضراء أو أتته ولم يصبر عليها، بمعنى أن الصبر على ذلك وعدم الضجر منه". (٢)

٣٣-"أن يكون الخطاب كله للحكام وتؤول قوله: ﴿أن تأخذوا﴾ وقوله: ﴿مما آتيتموهن﴾ بأن إسناد الأخذ والإتيان للحكام، لأنهم الذين يأمرون بالأخذ والإعطاء، ورجحه البيضاوي بسلامته من تشويش الضمائر بدون نكتة **التفات** ووهنة صاحب "الكشاف" وغيره بأن الخلع قد يقع بدون ترافع، فما آتاه الأزواج لأزواجهم من المهور لم يكن أخذه على يد

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٦٥

(٢) التحرير والتنوير ٢/٢٩٧

الحاكم فبطل هذا الوجه، ومعنى لا يحل لا يجوز ولا يسمح به، واستعمال الحل والحرمة، في هذا المعنى وضده، قديم في العربية، قال عنترة:

يا شاة ماقنص لمن حلت له ... حرمت على وليتها لم تحرم

وقال كعب:

إذا يساور قرنا لا يحل له ... أن يترك القرن إلا وهو مجدول

وجيء بقوله: ﴿شيئا﴾ لأنه من النكرات، المتوغلة في الإبهام، تحذيرا من أخذ أقل قليل بخلاف ما لو قال مالا أو نحوه، وهذا الموقع من محاسن مواقع كلمة شيء التي أشار إليها الشيخ في "دلائل الإعجاز". وقد تقدم بسط ذلك عند قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع﴾ [البقرة:١٥٥].

وقوله "إلا أن يخافا" قرأه الجمهور بفتح ياء الغيبة، فالفعل مسند للفاعل، والضمير عائد إلى المتخلعين المفهومين من قوله: ﴿أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا﴾ وكذلك ضمير ﴿يخافا ألا يقيما﴾ وضمير ﴿فلا جناح عليهما﴾، وأسند هذا الفعل لهما دون بقية الأمة لأنهما اللذان يعلمان شأنهما. وقرأ حمزة، وأبو جعفر، ويعقوب بضم ياء الغائب والفعل مبني للنائب والضمير للمتخالعين؛ والفاعل محذوف هو ضمير المخاطبين؛ والتقدير: إلا أن تخافوهما ألا يقيما حدود الله.

والخوف توقع حصول ما تكرهه النفس وهو ضد الأمن. ويطلق على أثره وهو السعي في مرضاة المخوف منه، وامتثال أوامره كقوله: ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران:١٧٥] وترادفه الخشية، لأن عدم إقامة حدود الله مما يخافه المؤمن، والخوف يتعدى إلى مفعول واحد، قال تعالى: ﴿فلا تخافوهم﴾. وقال الشاعر يهجو رجلا من فقعس أكل كلبه واسمه حبتر:

يا حبتر لم أكلته لمه ... لو خافك الله عليه حرمه

وخرج ابن جني في "شرح الحماسة"، عليه قول الأحوص فيها، على أحد تأويلين:". (١)

٣٤-"قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ في سورة البقرة[٢٤٩].

والخطاب في ﴿يرونهم﴾ كالخطاب في قوله ﴿قد كان لكم﴾.

والرؤية هنا بصرية لقوله ﴿رأي العين﴾ . والظاهر أن الكفار رأوا المسلمين يوم بدر عند اللقاء والتلاحم مثلي عددهم، فوقع الرعب في قلوبهم فانهزموا. فهذه الرؤية جعلت آية لمن رأوها وتحققوا بعد الهزيمة أنهم كانوا واهمين فيما رأوه ليكون ذلك أشد حسرة لهم، وتكون هذه الرؤية غير الرؤية المذكورة في الأنفال بقوله ﴿ويقللكم في أعينهم﴾ [الأنفال:٤٤] فإن تلك يناسب أن تكون وقعت قبل التلاحم، حتى يتسخف المشركون بالمسلمين، فلا يأخذوا أهبتهم للقائم، فلما لاقوهم رأوهم مثلي عددهم فدخلهم الرعب والهزيمة، وتحققوا قلة المسلمين بعد انكشاف الملحمة فقد كانت إرادة القلة وإرادة الكثرة سببي نصر للمسلمين بعجيب صنع الله تعالى. وجوز أن يكون المسلمون رأوا المشركين مثلي عدد المؤمنين، وكان المشركون ثلاثة أمثالهم،

---

(١) التحرير والتنوير ٣٨٩/٢

فقللهم الله في أعين المسلمين لئلا يفشلوا؛ لأنهم قد علموا من قبل أن المسلم يغلب كافرين فلو علموا أنهم ثلاثة أضعافهم لخافوا الهزيمة، وتكون هذه الإراءة هي الإراءة المذكورة في سورة الأنفال ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا﴾ [الأنفال:٤٤] ويكون ضمير الغيبة في قوله ﴿مثليهم﴾ راجعا للمسلمين على طريقة **الالتفات**، وأصله تروهم مثليكم على أنه من المقول.

وقرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب: تروهم بتاء الخطاب وقرأه الباقون بياء الغيبة: على أنه حال من ﴿أخرى كافرة﴾ ، أو من ﴿فئة تقاتل في سبيل الله﴾ أي مثلي عدد المرئين، إن كان الراءون هم المشركين، أو مثلي عدد الرائين، إن كان الراءون هم المسلمين؛ لأن كليهما جرى ضميره على الغيبة وكلتا الرؤيتين قد وقعت يوم بدر، وكل فئة علمت رؤيتها وتحديث بهاته الآية. وعلى هذه القراءة يكون العدول عن التعبير بفئتكم وفئتهم إلى قوله ﴿فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة﴾ وأخرى كافرة، لقصد صلوحية ضمير الغيبة لكلتا الفئتين، فيفيد اللفظ آيتين على التوزيع، بطريقة التوجيه.

ورأي العين مصدر مبين لنوع الرؤية: إذ كان فعل رأى يحتمل البصر والقلب، وإضافته إلى العين دليل على أنه يستعمل مصدرا لرأى القلبية، كيف والرأي اسم للعقل، وتشاركها فيها رأى البصرية، بخلاف الرؤية فخاصة بالبصرية.

وجملة ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ تذييل؛ لأن تلك الرؤية كيفما فسرت تأييد للمسلمين، قال تعالى ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم". (١)

٣٥-"﴿أنثى﴾ إذ بدون الحال لا يكون الكلام مفيدا فلذلك أنث الضمير باعتبار تلك الحال.

وقوله: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ جملة معترضة، وقرأ الجمهور: وضعت بسكون التاء فيكون الضمير راجعا إلى امرأة عمران، وهو حينئذ من كلام الله تعالى وليس من كلامها المحكي، والمقصود منه: أن الله أعلم منها بنفاسة ما وضعت، وأنها خير من مطلق الذكر الذي سألته، فالكلام إعلام لأهل القرآن بتغليطها، وتعليم بأن من فوض أمره إلى الله لا ينبغي أن يتعقب تدبيره.

وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب: بضم التاء، على أنها ضمير المتكلمة امرأة عمران فتكون الجملة من كلامها المحكي، وعليه فاسم الجلالة **التفات** من الخطاب إلى الغيبة فيكون قرينة لفظية على أن الخبر مستعمل في التحسر.

وجملة ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ خبر مستعمل في التحسر لفوات ما قصدته من أن يكون المولود ذكرا، فتحرره لخدمة بيت المقدس.

وتعريف الذكر تعريف الجنس لما هو مرتكز في نفوس الناس من الرغبة في مواليد الذكور، أي ليس جنس الذكر مساويا لجنس الأنثى. وقيل: التعريف في ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ تعريف العهد للمعهود في نفسها. وجملة ﴿وليس الذكر﴾ تكملة للاعتراض المبدوء بقوله: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ والمعنى: وليس الذكر الذي رغبت فيه بمساو للأنثى التي أعطيتها لو كانت تعلم علو شأن هاته الأنثى وجعلوا نفي المشابهة على بابه من نفي مشابهة المفضول للفاضل وإلى هذا مال صاحب

---

(١) التحرير والتنوير ٣/٣٦

الكشاف وتبعه صاحب المفتاح والأول أظهر.

ونفي المشابهة بين الذكر والأنثى يقصد به معنى التفصيل في مثل هذا المقام وذلك في قول العرب: ليس سواء كذا وكذا، وليس كذا مثل كذا، ولا هو مثل كذا، كقوله تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [الزمر: ٩] وقوله: ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء﴾ [الأحزاب: ٣٢] وقول السموأل:

فليس سواء عالم وجهول

وقولهم "مرعى ولا كالسعدان، وماء ولا كصدى".

ولذلك لا يتوخون أن يكون المشبه في مثله أضعف من المشبه به؛ إذ لم يبق للتشبيه أثر، ولذلك قيل هنا: وليس الذكر كالأنثى، ولو قيل: وليست الأنثى كالذكر لفهم". (١)

٣٦-"العظمة، على **الالتفات**.

والكتاب مراد به الكتاب المعهود. وعطف التوراة تمهيد لعطف الإنجيل ويجوز أن يكون الكتاب بمعنى الكتابة وتقدم الكلام على التوراة والإنجيل في أول السورة.

﴿ورسولا﴾ عطف على جملة يعلمه لأن جملة الحال، لكونها ذات محل من الإعراب، هي في قوة المفرد فنصب رسولا على الحال، وصاحب الحال هو قوله بكلمة، فهو من بقية كلام الملائكة.

وفتح همزة أن في قوله: ﴿أني قد جئتكم﴾ لتقدير باء الجر بعد رسولا، أي رسولا بهذا المقال لما تضمنه وصف رسولا من كونه مبعوثا بكلام، فهذا مبدأ كلام بعد انتهاء كلام الملائكة.

ومعنى ﴿جئتكم﴾ أرسلت إليكم من جانب الله ونظيره قوله تعالى: ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة﴾ [الزخرف: ٦٣].

وقوله: ﴿بآية﴾ حال من ضمير ﴿جئتكم﴾ لأن المقصود الإخبار بأنه رسول لا بأنه جاء بآية. شبه أمر الله إياه بأن يبلغ رسالة بمجيء المرسل من قوم إلى آخرين وذلك سمي النبي رسولا.

والباء في قوله: ﴿بآية﴾ للملابسة أي مقارنا للآيات الدالة على صدقي في هذه الرسالة المعبر عنها بفعل المجيء. والمجرور متعلق ﴿جئتكم﴾ على أنه ظرف لغو، ويجوز أن يكون ظرفا مستقرا في موضع الحال من جئتكم لأن معنى ﴿جئتكم﴾ : أرسلت إليكم، فلا يحتاج إلى ما يتعلق به. وقوله: ﴿أني أخلق﴾ بكسر الهمزة استئناف لبيان آية وهي قراءة نافع، وأبي جعفر. وقرأه الباقون بفتح همزة ﴿أني﴾ على أنه بدل من ﴿أني قد جئتكم﴾.

والخلق: حقيقته تقدير شيء بقدر، ومنه حلق الأديم تقديره بحسب ما يراد من قطعه قبل قطع القطعة منه قال زهير:

ولأنت تفري ما خلقت ... وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

يريد تقدير الأديم قبل قطعه والقطع هو الفري، ويستعمل مجازا مشهورا أو مشتركا في الإنشاء، والإبداع على غير مثال ولا

---

(١) التحرير والتنوير ٨٦/٣

احتذاء، وفي الإنشاء على مثال يبدع ويقدر، قال تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ [الأعراف: ١١] فهو إبداع الشيء وإبرازه للوجود". (١)

٣٧-"ومعنى كونهم ظالمين أنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وظلم الله النصارى بأن نقصوه بإثبات ولد له وظلموا عيسى بأن نسبوه ابنا لله تعالى، وظلمه اليهود بتكذيبهم إياه وأذاهم.

وعذاب الدنيا هو زوال الملك وضرب الذلة والمسكنة والجزية، والتشريد في الأقطار، وكونهم يعيشون تبعا للناس، وعذاب الآخرة هو جهنم. ومعنى: ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أنهم لا يجدون ناصرا يدفع عنهم ذلك وإن حاوله لم يظفر به وأسند ﴿فيوفيهم﴾ إلى نون العظمة تنبيها على عظمة مفعول هذا الفاعل؛ إذ العظيم يعطي عظيما. والتقدير فيوفيهم أجورهم في الدنيا والآخرة بدليل مقابله في ضدهم من قوله: ﴿فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة﴾ وتوفية الأجور في الدنيا تظهر في أمور كثيرة: منها رضا الله عنهم، وبركاته معهم، والحياة الطيبة، وحسن الذكر. وجملة ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ تذييل، وفيها اكتفاء: أي ويحب الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وقرأ الجمهور: ﴿فنوفيهم﴾ بالنون وقرأه حفص عن عاصم، ورويس عن يعقوب، ﴿فيوفيهم﴾ بياء الغائب على **الالتفات**.

﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾ [٥٨].

تذييل: فإن الآيات والذكر أعم من الذي تلي هنا، واسم الإشارة إلى الكلام السابق من قوله تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ [آل عمران: ٤٥] وتذكير اسم الإشارة لتأويل المشار إليه بالكلام أو المذكور. وجملة نتلوه حال من اسم الإشارة على حد ﴿وهذا بعلي شيخا﴾ [هود: ٧٢] وهو استعمال عربي فصيح وإن خالف في صحة مجيء الحال من اسم الإشارة بعض النحاة.

وقوله: ﴿من الآيات﴾ خبر ﴿ذلك﴾ أي إن تلاوة ذلك عليك من آيات صدقك في دعوى الرسالة؛ فإنك لم تكن تعلم ذلك، وهو ذكر وموعظة للناس، وهذا أحسن من جعل نتلوه خبرا عن المبتدأ، ومن وجوه أخرى. والحكيم بمعنى المحكم، أو هو مجاز عقلي أي الحكيم عالمه أو تاليه.

﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون[٥٩] الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ [٦٠].

استئناف بياني: بين به ما نشأ من الأوهام، عند النصارى، عن وصف عيسى بأنه". (٢)

٣٨-"الأمر، وإن كان ود أهل الكتاب أن يهودوهم. وعلى الوجهين يحتمل قوله تعالى: ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ أن يكون معناه: إنهم إذا أضلوا الناس فقد صاروا هم أيضا ضالين؛ لأن الإضلال ضلال، وأن يكون معناه: إنهم كانوا من

---

(١) التحرير والتنوير ٣/١٠٠

(٢) التحرير والتنوير ٣/١١١

قبل ضالين برضاهم بالبقاء على دين منسوخ وقوله: ﴿وما يشعرون﴾ يناسب الاحتمالين لأن العلم بالحالتين دقيق.

﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون[٧٠] يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ [٧٢].

التفات إلى خطاب اليهود. والاستفهام إنكاري. والآيات: المعجزات، ولذلك قال وأنتم تشهدون. وإعادة ندائهم بقوله: ﴿يا أهل الكتاب﴾ ثانية لقصد التوبيخ وتسجيل باطلهم عليهم. ولبس الحق بالباطل تلبيس دينهم بما أدخلوا فيه من الأكاذيب والخرافات والتأويلات الباطلة، حتى ارتفعت لا ثقة بجميعه. وكتمان الحق يحتمل أن يراد به كتمانهم تصديق محمد صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أن يراد به كتمانهم ما في التوراة من الأحكام التي أماتوها وعوضوها بأعمال أحبارهم وآثار تأويلاتهم، وهم يعلمونها ولا يعملون بها.

﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون[٧٢] ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم [٧٣] يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [٧٤].

﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون[٧٢] ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله﴾.

عطف على ﴿ودت طائفة﴾ [آل عمران: ٦٩]. فالطائفة الأولى حاولت الإضلال بالمجاهرة، وهذه الطائفة حاولته بالمخادعة: قيل أشير إلى طائفة من اليهود منهم كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وغيرهما من يهود خيبر، أغواهم العجب بدينهم فتوهموا أنهم قدوة للناس، فلما أعيتهم المجاهرة بالمكابرة دبروا للكيد مكيدة أخرى، فقالوا لطائفة من أتباعهم: آمنوا بمحمد أول لانهار مظهرين أنكم صدقتموه ثم اكفروا آخر النهار ليظهر أنكم كفرتم به عن بصيرة وتجربة فيقول المسلمون ما صرف هؤلاء عنا إلا ما انكشف لهم من حقيقة أمر هذا لادين، وأنه ليس هو الدين لا مبشر به في لا كتب السالفة ففعلوا ذلك.". (١)

٣٩-"الشك عليهم في بعض ما نزل به القرآن، فاللي مجمل، ولكنه مبين بقوله: ﴿لتحسبوه من الكتاب﴾ وقوله: ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾ .

واللي في الأصل: الإراغة أي إدارة الجسم غير المتصلب إلى غير الصوب الذي هو ممتد إليه: فمن ذلك لي الحبل، ولي العنان للفرس لإدارته إلى جهة غير صوب سيره، ومنه لي لاعنق، ولي الرأس بمعنى **الالتفات** الشزر أو الإعراض قال تعالى: ﴿لووا رؤوسهم﴾ [المنافقون: ٥].

والذي في هذه الآية يحتمل أن يكون حقيقة بمعنى تحريف اللسان عن طريق حرف من حروف الهجاء إلى طريق حرف آخر يقاربه لتعطي الكلمة في أذن السامع جرس كلمة أخرى، وهذا مثل ما حكى الله عنهم في قولهم راعنا وفي الحديث من قولهم

(١) التحرير والتنوير ١٢٦/٣

في السلام على النبي السام عليك أي الموت أو السلام بكسر السين عليك وهذا اللي يشابه الإشمام والاختلاس ومنه إمالة الألف إلى الياء، وقد تتغير الكلمات بالترقيق والتفخيم وباختلاف صفات الحروف، والظاهر أن الكتاب التوراة فلعلهم كانوا إذا قرؤوا بعض التوراة بالعربية نطقوا بحروف من كلماتها بين بين ليوهموا المسلمين معنى غير المعنى المراد، وقد كانت لهم مقدرة ومراس في هذا.

وقريب من هذا ما ذكره المبرد في الكامل أن بعض الأزارقة أعاد بيت عمر ابن أبي ربيعة في مجلس بن عباس.

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت ... فيضحى وأما بالعشي فيحضر

فجعل يضحى يخزى وجعل يحضر يخسر بالسين ليشوه المعنى لأنه غضب من إقبال ابن عباس على سماع شعره. وفي الأحاجي والألغاز من هذا كقولهم: إن للآهي إلها فوقه فيقولها أحد بحضرة ناس ولا يشبع كسرة اللآهي يخالها السامع لله فيظنه كفر. أو لعلهم كانوا يقرؤون ما ليس من التوراة بالكيفيات أو اللحون التي كانوا يقرؤون بها التوراة ليخيلوا للسامعين أنهم يقرؤون التوراة.

ويحتمل أن يكون اللي هنا مجازا عن صرف المعنى إلى معنى آخر كقولهم: لوى الحجة أي ألقى بها على غير وجهها، وهو تحريف الكلم عن مواضعه: بالتأويلات الباطلة، والأقيسة الفاسدة، والموضوعات الكاذبة، وينسبون ذلك إلى الله، وأياما كان فهذا اللي يقصدون منه التمويه على المسلمين لغرض، كما فعل ابن صوريا في إخفاء". (١)

٤٠-"في طائفة من أصحابه حتى أتى مدارس اليهود فقرا عليهم القرآن ودعاهم الخ. ومادة درس تستلزم التمكن من المفعول فلذلك صار درس الكتاب مجازا في فهمه وإتقانه ولذلك عطف في هذه الآية ﴿وبما كنتم تدرسون﴾ على ﴿بما كنتم تعلمون الكتاب﴾ .

وفعله من باب نصر،ومصدره في غالب معانيه الدرس، ومصدر درس بمعنى قرأ يجيء على الأصل درسا ومنه سمي تعليم العلم درسا.

ويجيء على وزن الفعالة دراسة وهي زنة تدل على معالجة الفعل، مثل الكتابة والقراءة، إلحاقا لذلك بمصادر الصناعات كالتجارة والخياطة.

وفي قوله: ﴿ولا يأمركم﴾ **التفات** من الغيبة إلى الخطاب.

وقرأ الجمهور يأمركم بالرفع على ابتداء الكلام، وهذا الأصل فيما إذا أعيد حرف النفي، فإنه لما وقع بعد فعل منفي، ثم انتقض نفيه بلكن، احتيج إلى إعادة حرف النفي، والمعنى على هذه القراءة واضح: أي ما كان لبشر أن يقول للناس كونوا الخ ولا هو يأمرهم أن يتخذوا الملائكة أربابا. وقرأه ابن عامر، وحمزة، ويعقوب، وخلف: بالنصب عطفا على أن يقول ولا زائدة لتأكيد النفي الذي في قوله: ﴿ما كان لبشر﴾ وليست معمولة لأن: لاقتضاء ذلك أن يصير المعنى: لا ينبغي لبشر أوتي الكتاب ألا يأمركم أن تتخذوا، والمقصود عكس هذا المعنى، إذ المقصود هنا أنه لا ينبغي له أن يأمر، فلذلك أضطر في

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٧/٣

تخريج هذه القراءة إلى جعل لا زائدة لتأكيد النفي وليست لنفي جديد. وقرأه الدوري عن أبي عمرو باختلاس الضمة إلى السكون.

ولعل المقصود من قوله: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا﴾ : أنهم لما بالغوا في تعظيم بعض الأنبياء والملائكة، فصوروا صور النبيين، مثل يحيى ومريم، وعبدوهما، وصوروا صور الملائكة، واقترن التصوير مع الغلو في تعظيم الصورة والتعبد عندها، ضرب من الوثنية.

قال ابن عرفة: إن قيل نفي الأمر أعم من النهي فهلا قيل وينهاكم. والجواب أن ذلك باعتبار دعواهم وتقولهم على الرسل. وأقول: لعل التعبير بلا يأمركم مشاكلة لقوله: ﴿ثم يقول للناس﴾ لأنهم زعموا أن المسيح قال: إنه ابن الله فلما نفي أنه يقول ذلك نفي ما هو مثله وهو أن يأمرهم باتخاذ الملائكة أربابا، أو لأنهم لما كانوا يدعون التمسك بالدين كان سائر أحوالهم محمولة على أنهم تلقوها منه، أو لأن المسيح لم ينههم عن". (١)

٤١-"ذلك في نفس الأمر، إذ هذا مما لا يخطر بالبال أن تتلبس به أمة متدينة فاقتصر، في الرد على الأمة، على أن أنبياءهم لم يأمروهم به ولذلك عقب بالاستفهام الإنكاري، وبالظرف المفيد مزيد الإنكار على ارتكابهم هذه الحالة، وهي قوله ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾.

فهنالك سببان لإنكار أن يكون ما هم عليه مرضيا أنبياءهم؛ فإنه كفر، وهم لا يرضون بالكفر. فما كان من حق من يتبعونهم التلبس بالكفر بعد أن خرجوا منه.

والخطاب في قوله ﴿ولا يأمركم﴾ **التفات** من طريقة الغيبة في قوله: ﴿ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله﴾ فالمواجه بالخطاب هم الذين زعموا أن عيسى قال لهم: كونوا عبادا لي من دون الله.

فمعنى: ﴿أنتم مسلمون﴾ يقتضي أنهم كانوا مسلمين والخطاب للنصارى وليس دينهم يطلق عليه أنه إسلام. فقيل: أريد بالإسلام الإيمان أي غير مشركين بقرينة قوله: ﴿بالكفر﴾.

وقيل: الخطاب للمسلمين بناء على ظاهر قوله: ﴿إذ أنتم مسلمون﴾ لأن اليهود والنصارى لم يوصفوا بأنهم مسلمون في القرآن، فهذا الذي جرأ من قالوا: إن الآية نزلت لقول رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألا نسجد لك، ولا أراه لو كان صحيحا أن تكون الآية قاصدة إياه؛ لأنه لو أريد ذلك لقيل: ثم يأمر الناس بالسجود إليه، ولما عرج على الأمر بأن يكونوا عبادا له من دون الله ولا بان يتخذوا الملائكة والنبيين أربابا.

﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين [٨١] فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ [٨٢].

عطف ﴿وإذ أخذ الله﴾ على ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة﴾ [آل عمران: ٨٠] أي ما أمركم الأنبياء بشيء مما تقولتم

---

(١) التحرير والتنوير ١٤١/٣

عليهم وقد أمروكم بغير ذلك فأضعنموه حين أخذ الله ميثاقهم ليبلغوه إليكم، فالمعطوف هو ظرف إذ وما تعلق به.
ويجوز أن يتعلق إذ بقوله: ﴿أأقررتم﴾ مقدما عليه، ويصح أن تجعل إذ بمعنى". (١)

٤٢-"وقرأ نافع، وأبو جعفر: آتيناكم بنون العظمة وقرأه الباقون ﴿آتيتكم﴾ بتاء المتكلم.
وجملة قال: ﴿أأقررتم﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿أخذ الله ميثاق النبيين﴾ .
والإقرار هنا مستعمل في معنى التحقيق بالوفاء مما أخذ من الميثاق.
والإصر: بكسر الهمزة، العهد المؤكد الموثق واشتقاقه من الإصار بكسر الهمزة وهو ما يعقد ويسد به، وقد تقدم الكلام على حقيقته ومجازه في قوله تعالى: ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصرا﴾ في سورة البقرة [٢٨٦].
وقوله: ﴿فاشهدوا﴾ إن كان شهادة على أنفسهم فهي بمعنى التوثق والتحقيق وكذلك قوله: ﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾ كقوله: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ [آلا عمران: ١٨] وإن كانت شهادة على أممهم بذلك، والله شاهد على الجميع كما شهد النبيون على الأمم.
وقوله: ﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ أي من تولى ممن شهدتم عليهم، وهم الأمم، ولذلك لم يقل فمن تولى بعد ذلك منكم كما قال في الآية التي خوطب فيها بنو إسرائيل في سورة المائدة ﴿فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ .
ووجه الحصر في قوله: ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ أنه للمبالغة لأن فسقهم في هذه الحالة أشد فسق فجعل غيره من الفسق كالعدم.
[٨٣]﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون﴾
تفريع عن التذكير بما كان عليه الأنبياء.
والاستفهام للتوبيخ والتحذير.
وقرأه الجمهور ﴿تبغون﴾ بتاء خطاب لأهل الكتاب جار على طريقة الخطاب في قوله آنفا: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة﴾ [آل عمران: ٨٠] وقرأه أبو عمرو، وحفص، ويعقوب: بياء الغيبة فهو **التفات** من الخطاب إلى الغيبة، إعراضا عن مخاطبتهم إلى مخاطبة المسلمين بالتعجيب من أهل الكتاب. وكله تفريع ذكر أحوال خلف أولئك الأمم كيف اتبعوا غير ما أخذ عليهم العهد به. والاستفهام حينئذ للتعجيب.". (٢)

٤٣-"شاع بين الناس من أن ساعة الموت أمر غير معلوم كما قال الصديق:
كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله
فالنهي عن الموت على غير الإسلام يستلزم النهي عن مفارقة الإسلام في سائر أحيان الحياة، ولو كان المراد به معناه الأصلي

(١) التحرير والتنوير ١٤٢/٣

(٢) التحرير والتنوير ١٤٥/٣

لكان ترخيصا في مفارقة الإسلام إلا عند حضور الموت، وهو معنى فاسد وقد تقدم ذلك في قوله تعالى ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ .

وقوله: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ ثنى أمرهم بما فيه صلاح أنفسهم لأخراهم، بأمرهم بما فيه صلاح حالهم في دنياهم، وذلك بالاجتماع على هذا الدين وعدم التفرق ليكتسبوا باتحادهم قوة ونماء. والاعتصام افتعال من عصم وهو طلب ما يعصم أي يمنع.

والحبل: ما يشد به للارتقاء، أو التدلي، أو للنجاة من غرق، أو نحوه، والكلام تمثيل لهيئة اجتماعهم والتفافهم على دين الله ووصاياه وعهوده بهيئة استمساك جماعة بحبل ألقي إليهم منقذ لهم من غرق أو سقوط، وإضافة الحبل إلى الله قرينة هذا التمثيل. وقوله: ﴿جميعا﴾ حال وهو الذي رجح إرادة التمثيل، إذ ليس المقصود الأمر باعتصام كل مسلم في حال انفراده اعتصاما بهذا الدين، بل المقصود الأمر باعتصام الأمة كلها، ويحصل في ضمن ذلك أمر كل واحد بالتمسك بهذا الدين، فالكلام أمر لهم بأن يكونوا على هاته الهيئة، وهذا هو الوجه المناسب لتمام البلاغة لكثرة ما فيه من المعاني. ويجوز أن يستعار الاعتصام للتوثيق بالدين وعهوده، وعدم الانفصال عنه، ويستعار الحبل للدين والعهود كقوله ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ [آل عمران: ١١٢] ويكون كل من الاستعارتين ترشيحا للأخرى، لأن مبني الترشيح على اعتبار تقوية التشبيه في نفس السامع، وذلك يحصل له بمجرد سماع لفظ ما هو من ملائمات المستعار، بقطع النظر عن كون ذلك الملائم معتبرة فيه استعارة أخرى، إذ لا يزيده ذلك الاعتبار إلا قوة، ليست الاستعارة بوضع اللفظ في معنى جديد حتى يتوهم متوهم أن تلك الدلالة الجديدة، الحاصلة في الاستعارة الثانية، صارت غير ملائمة لمعنى المستعار في الاستعارة الأخرى، وإنما هي اعتبارات لطيفة تزيد كثرتها الكلام حسنا. وقريب من هذا التورية، فإن فيها حسنا بإيهام أحد المعنيين مع إرادة غيره، ولا شك أنه عند إرادة غيره لا يكون المعنى الآخر مقصودا، وفي هذا الوجه لا يكون الكلام صريحا في الأمر بالاجتماع على الدين". (١)

٤٤-"ومعنى ﴿يسارعون في الخيرات﴾ يسارعون إليها أي يرغبون في الاستكثار منها. والمسارعة مستعارة للاستكثار من الفعل، والمبادرة إليه، تشبيها للاستكثار والاعتناء بالسير السريع لبلوغ المطلوب. وفي للظرفيه المجازية، وهي تخييلية تؤذن بتشبيه الخيرات بطريق يسير فيه السائرون، ولهؤلاء مزية السرعة في قطعه. ولك أن تجعل مجموع المركب من قوله: ﴿ويسارعون في الخيرات﴾ تمثيلا لحال مبادرتهم وحرصهم على فعل الخيرات بحال السائر الراغب في البلوغ إلى قصده يسرع في سيره. وسيأتي نظيره عند قوله تعالى: ﴿لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ في سورة العقود [١٧٦].

والإشارة بأولئك إلى الأمة القائمة الموصوفة بتلك الأوصاف. وموقع أسم الإشارة التنبيه على أنهم استحقوا الوصف المذكور بعد أسم الإشارة بسبب ما سبق أسم الإشارة من الأوصاف.

﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ [١١٥].

---

(١) التحرير والتنوير ٣/١٧٤

تذييل للجمل المفتتحة بقوله تعالى: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ [آل عمران: ١١٣] إلى قوله تعالى: ﴿من الصالحين﴾ [آل عمران: ١١٤]. وقرأ الجمهور: تفعلوا بالفوقيه فهو وعد للحاضرين، ويعلم منه ان الصالحين السابقين مثلهم، بقرينة مقام الامتنان، ووقوعه عقب ذكرهم، فكأنه قيل: وما تفعلوا من خير ويفعلوا. ويجوز أن يكون **التفاتا** لخطاب أهل الكتاب. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف بياء الغيبه عائدا إلى أمة قائمة.

والكفر: ضد الشكر أي هو إنكار وصول النعمة الواصلة. قال عنترة:

نبئت عمرا غير شاكر نعمتي ... والكفر مخبثة لنفس المنعم

وقال تعالى: ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ وأصل الشكر والكفر أن يتعديا إلى واحد، ويكون مفعولهما النعمة كما في البيت. وقد يجعل مفعولهما المنعم على التوسع في حذف حرف الجر، لأن الأصل شكرت له وكفرت له. قال النابغة:

شكرت لك النعمى

وقد جمع بين الاستعمالين قوله تعالى: ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [البقرة: ١٥٢] وقد عدي ﴿تكفروه﴾ إلى مفعولين: أحدهما نائب الفاعل، لأن الفاعل ضمن معنى الحرمان. والضمير المنصوب عائد إلى خير بتأويل خير بجزاء فعل الخير على طريقة الاستخدام. وأطلق الكفر هنا على ترك جزاء فعل الخير، تشبيها لفعل الخير بالنعمة. كأن". [(١)]

٤٥-"الملائكة مردفين﴾ وذكر هنا أن الله وعدهم بثلاثة آلاف ثم صيرهم إلى خمسة آلاف. ووجه الجمع بين الآيتين أن الله وعدهم بألف من الملائكة وأطمعهم بالزيادة بقوله: ﴿مردفين﴾ [الأنفال: ٩] أي مردفين بعدد آخر، ودل كلامه هنا على أنهم لم يزالوا وجلين من كثرة عدد العدو، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم "ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين" أراد الله بذلك زيادة تثبيتهم ثم زادهم ألفين إن صبروا واتقوا. وبهذا الوجه فسر الجمهور، وهو الذي يقتضيه السياق. وقد ثبت أن الملائكة نزلوا يوم بدر لنصرة المؤمنين، وشاهد بعض الصحابة طائفة منهم، وبعضهم شهد آثار قتلهم رجالا من المشركين.

ووصف الملائكة بمنزلين للدلالة على أنهم ينزلون إلى الأرض في موقع القتال عناية بالمسلمين قال تعالى: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾ [الحجر: ٨].

وقرأ الجمهور: منزلين بسكون النون وتخفيف الزاي وقرأه ابن عامر – بفتح النون وتشديد الزاي – وأنزل ونزل بمعنى واحد. فالضميران: المرفوع والمجرور، في قوله: ﴿ويأتوكم من فورهم﴾ عائدان إلى الملائكة الذين جرى الكلام عليهم، كما هو الظاهر، وعلى هذا حمله جمع من المفسرين.

وعليه فموقع قوله: ﴿ويأتوكم﴾ موقع وعد، فهو في المعنى معطوف على ﴿يمددكم ربكم﴾ وكان حقه أن يرد بعده، ولكنه قدم على المعطوف عليه، تعجيلا للطمأنينة إلى نفوس المؤمنين، فيكون تقديمه من تقديم المعطوف على المعطوف عليه، وإذا جاز ذلك التقديم في عطف المفردات كما في قول صنان بن عباد اليشكري:

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٦/٣

ثم اشتكيت لأشكاني وساكنه ... قبر بسنجار أو قبر على قهد

قال ابن جني في شرح أبيات الحماسة: قدم المعطوف على المعطوف عليه، وحسنة شدة الاتصال بين الفعل ومرفوعه أي فالعامل وهو الفعل آخذ حظه من التقديم ولا **التفات** لكون المعطوف عليه مؤخرا عن المعطوف ولو قلت: ضربت وزيدا عمرا كان أضعف، لأن اتصال المفعول بالفعل ليس في قوة اتصال الفاعل به، ولكن لو قلت: مررت وزيد بعمرو، لم يجز من جهة أنك لم تقدم العامل، وهو الباء، على حرف العطف. ومن تقديم المفعول به قول زيد:". (١)

٤٦-"وضمير النصب في قوله ﴿يأتيانها﴾ عائد إلى الفاحشة المذكورة وهي الزنا. زلا **التفات** لكلام من توهم غير ذلك. والإيذاء: الإيلام غير الشديد بالفعل كالضرب غير المبرح، والإيلام بالقول من شتم وتوبيخ، فهو أعلم من الجلد، والآية أجملته، فهو موكول إلى اجتهاد الحاكم.

وقد اختلف أئمة الإسلام في كيفية انتزاع هذين العقوبتين من هذه الآية: فقال ابن عباس، ومجاهد: اللاتي يأتين الفاحشة يعم النساء خاصة فشمل كل امرأة في سائر الأحوال بكرا أن ثيبا، وقوله ﴿اللذان﴾ تثنية أريد بها نوعان من الرجال، وهم المحصن والبكر، فيقتضي أن حكم الحبس في البيوت يختص بالزواني كلهن، وحكم الأذى يختص بالزناة كلهم، فاستفيد التعميم في الحالتين إلا أن استفادته في الأولى من صيغة العموم، وفي الثانية من انحصار النوعين، وقد كان يغني أن يقال: واللاتي يأتين، والذين يأتون، إلا أنه سلك هذا الأسلوب ليحصل العموم بطريقين مع التنصيص على شمول النوعين.

وجعل لفظ اللاتي للعموم ليستفاد العموم من صيغة الجمع فقط.

وجعل لفظ اللذان للنوعين لأن مفرده وهوا الذي صالح للدلالة على النوع، إذ النوع يعبر عنه بالمذكر مثل الشخص، ونحو ذلك، وحصل مع ذلك كله تفن بديع في العبارة فكانت بمجموع ذلك هاته الآية غاية في الإعجاز، وعلى هذا الوجه فالمراد من النساء معنى ما قبل الرجال وهذا هو الذي يجدر حمل معنى الآية عليه.

والأذى أريه به هنا غير الحبس لأنه سبق تخصيصه بالنساء وغير الجلد، لأنه لم يشرع بعد، فقيل: هو الكلام الغليظ والشتم والتعيير. وقال ابن عباس: هو النيل باللسان واليد وضرب النعال، بناء على تأويله أن الآية شرعت عقوبة للزنا قبل عقوبة الجلد. واتفق العلماء على أن هذا الحكم منسوخ بالجلد المذكور في سورة النور، وبما ثبت في السنة من رجم المحصنين وليس تحديد هذا الحكم بغاية قوله ﴿أو يجعل الله لهن سبيلا﴾ بصارف معنى النسخ عن هذا الحكم كما توهم ابن العربي، لأن الغاية جعلت مبهمة، فالمسلمون يترقبون ورود حكم آخر، بعد هذا، لا غنى لهم عن إعلامهم به.

واعلم أن شأن النسخ في العقوبات على الجرائم التي لم تكن فيها عقوبة قبل الإسلام، أن تنسخ بأثقل منها، فشرع الحبس والأذى للزناة في هذه السورة، وشرع الجلد بآية سورة النور، والجلد أشد من الحبس ومن الأذى، وقد سوي في الجلد بين

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٨/٣

المرأة". (١)

٤٧-"البيوت وإن كان في القراءة متأخرا. وهذا قول لا ينبغي **الالتفات** إليه فلا مخلص من هذا الإشكال إلا بأن نجعل إجماع الصحابة على ترك الإمساك في البيوت، وعلى تعويضه بالحد في زمان النبوة فيؤول إلى نسخ القرآن بالسنة المتواترة، ويندفع ما أورده الجصاص على الشافعي، فإن مخالفة الإجماع للنص تتضمن أن مستند الإجماع ناسخ للنص.

ويتعين أن يكون حكم الرجم للمحصن شرع بعد الجلد، لأن الأحاديث المروية فيه تضمنت التغريب مع الجلد، ولا يتصور تغريب بعد الرجم، وهو زيادة لا محالة لم يذكرها القرآن، ولذلك أنكر أبو حنيفة التغريب لأنه زيادة على النص فهو نسخ عنده. قال أبن العربي في الأحكام: أجمع رأي خيار بني إسماعيل على أن من أحدث حدثا غب من بلده إلى أن جاء الإسلام فأقره في الزنا خاصة. قلت: وكان في العرب لا يطالب بها قومه، وإن اعتدى عليه لا يطلب قومه دية ولا نحوها، وقد قال امرؤ القيس:

به الذيب يعوي كالخليع المعيل

واتفقوا على أن المرأة لا تغرب لأن تغريبها ضيعة، وأنكر أبو حنيفة التغريب لأنه نقل ضر من مكان إلى آخر وعوضه بالسجن ولا يعرف بين أهل العلم الجمع بين الرجم والضرب ولا يظن بشريعة الإسلام ذلك. وروي أن عليا جلد شراحة الهمدانية ورجمها بعد الجلد، وقال: جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله.

وقرن بالفاء خبر الموصولين من قوله ﴿فاستشهدوا﴾ وقوله ﴿فآذوهما﴾ لأن الموصول أشرب معنى الشرط تنبيها على أن صلة الموصول سبب في الحكم الدال عليه خبره، فصار خبر الموصول مثل جواب الشرط ويظهر لي أن ذلك عندما يكون الخبر جملة، وغير صالحة لمباشرة أدوات الشرط، بحيث لو كانت جزاء للزم اقترانها بالفاء. هكذا وجدنا من استقراء كلامهم، وهذا الأسلوب إنما يقع في الصلات التي تومئ إلى وجه بناء الخير، لأنها التي تعطي رائحة التسبب في اخبر الوارد بعدها. ولك أن تجعل دخول الفاء علامة على كون الفاء نائبة عن أما.

ومن البين أن إتيان النساء بالفاحشة هو الذي سبب إمساكهن في البيوت، وإن كان قد بنى نظم الكلام على جعل ﴿فاستشهدوا عليهن﴾ هو الخبر، لكنه خبر صوري وإلا فإن الخبر هو ﴿فأمسكوهن﴾ ، لكنه جيء به جوابا لشرط هو متفرع على ﴿فإن شهدوا﴾ ففاء". (٢)

٤٨-"في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا﴾.

و ﴿كيف﴾ خبر مبتدأ محذوف معلوم من سياق الكلام: أي كيف حالهم حين تصيبهم مصيبة بسبب ما فعلوا فيجيئونك

---

(١) التحرير والتنوير ٥٩/٤

(٢) التحرير والتنوير ٦٢/٤

معتذرين.

والاستفهام مستعمل في التهويل، كما تقدم القول فيه في قوله تعالى آنفا ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾.

وتركيب كيف بك يقال إذا أريدت بشارة أو وعيد تعجيبا أو تهويلا. فمن الأول قول النبي صلى الله عليه وسلم لسراقة بن مالك: "كيف بك إذا لبست سواري كسرى" بشارة بأن سواري كسرى سيقعان بيد جيش المسلمين، فلما أتى بسواري كسرى في غنائم فتح فارس ألبسها عمر بن الخطاب سراقة بن مالك تحقيقا لمعجزة النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن الثاني قوله تعالى ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ [آل عمران:٢٥] وقد جمع الأمرين قوله تعالى ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ [النساء:٤١] الآية.

وقوله ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ جاء باسم الإشارة لتمييزهم للسامعين أكمل تمييز، لأنهم قد حصل من ذكر صفاتهم ما جعلهم كالمشاهدين، وأراد بما في قلوبهم الكفر الذي أبطنوه وأمر رسوله بالإعراض عنهم.

وحقيقة الإعراض عدم **الالتفات** إلى الشيء بقصد التباعد عنه، مشتق من العرض بضم العين وهو الجانب، فلعل أصل الهمزة في فعل أعرض للدخول في الشيء، أي دخل في عرض المكان، أو الهمزة للصيرورة، أي صار ذا عرض، أي جانب، أي أظهر جانبه لغيره ولم يظهر له وجهه، ثم استعمل استعمالا شائعا في الترك والإمساك عن المخالطة والمحادثة، لأنه يتضمن الإعراض غالبا، يقال: أعرض عنه كما يقال: صد عنه، كقوله تعالى ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ [الأنفال:٦٨] ولذلك كثر هذا اللفظ في أشعار المتيمين رديفا للصدود، وهذا أقرب المعاني إلى المعنى الحقيقي، فهو مجاز مرسل بعلاقة اللزوم، وقد شاع ذلك في الكلام ثم أطلق على العفو وعد المؤاخذة بتشبيه حالة من يعفوا بحالة من لا يلتفت إلى الشيء فيوليه عرض وجهه، كما استعمل صفح في هذا المعنى مشتقا من صفحة الوجه،". (١)

٤٩-"كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾.

الفاء: إما للتفريع، تفريع الأمر على الآخر، أي فرع ﴿فليقاتل﴾ على ﴿خذوا حذركم فانفروا﴾ [النساء:٧١]، أو هي فاء فصيحة، أفصحت عما دل عليه ما تقدم من قوله ﴿خذوا حذركم﴾ وقوله ﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾ [النساء:٧٢] لأن جميع ذلك اقتضى الأمر بأخذ الحذر، وهو مهيء لطلب القتال والأمر بالنفير والإعلام بمن حالهم حال المتردد المتقاعس، أي فإذا علمتم جميع ذلك، فالذين يقاتلون في سبيل الله هم الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة لا كل أحد.

و ﴿يشرون﴾ معناه يبيعون، لأن شرى مقابل اشترى، مثل باع وابتاع وأكرى واكترى، وقد تقدم تفصيله عند قوله تعالى ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ في سورة البقرة [١٦]. فالذين يشرون الحياة الدنيا هم الذين يبذلونها ويرغبون في حظ الآخرة، وإسناد القتال المأمور به إلى أصحاب هذه الصلة وهي: ﴿يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ للتنويه بفضل المقاتلين في سبيل الله، لأن في الصلة إيماء إلى علة الخبر، أي يبعثهم على القتال في سبيل الله بذلهم حياتهم الدنيا لطلب الحياة

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٤/٤

الأبدية، وفضيحة أمر المبطئين حتى يرتدعوا عن التخلف، وحتى يكشف المنافقون عن دخيلتهم، فكان معنى الكلام: فليقاتل في سبيل الله المؤمنون حقا فإنهم يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ولا يفهم أحد من قوله ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون﴾ أن الأمر بالقتال مختص بفريق دون آخر. لأن بذل الحياة في الحصول على ثواب الآخرة شيء غير ظاهر حتى يعلق التكليف به، وإنما هو ضمائر بين العباد وربهم، فتعين أن إسناد الأمر إلى أصحاب هذه الصلة مقصود منه الثناء على المجاهدين، وتحقير المبطئين، كما يقول القائل ليس بعشك فادرجي. فهذا تفسير الآية بوجه لا يعتريه إشكال. ودخل في قوله ﴿أو يغلب﴾ أصناف الغلبة على العدو بقتلهم أو أسرهم أو غنم أموالهم.

وإنما اقتصر على القتل والغلبة في قوله ﴿فيقتل أو يغلب﴾ ولم يزد أو يؤسر إباية من أن يذكر لهم حالة ذميمة لا يرضاها الله للمؤمنين، وهي حالة الأسر؛ فسكت عنها لئلا يذكرها في معرض الترغيب وإن كان للمسلم عليها أجر عظيم أيضا إذا بذل جهده في الحرب فغلب إذ الحرب لا تخلو من ذلك، وليس بمأمور أن يلقي بيده إلى التهلكة إذا علم أنه لا يجدي عنه الاستبسال، فإن من منافع الإسلام استبقاء رجاله لدفاع العدو.

والخطاب في قوله ﴿وما لكم لا تقاتلون﴾ **التفات** من طريق". (١)

٥٠-"مغضبا يريد أن يقتل مؤمنا، قال: فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك. وكان ابن شهاب إذا سأله عن ذلك من يفهم منه أنه كان قتل نفسا يقول له توبتك مقبولة وإذا سأله من لم يقتل، وتوسم من حاله أنه يحاول قتل نفس، قال له: لا توبة للقاتل.

وأقول: هذا مقام قد اضطربت فيه كلمات المفسرين كما علمت، وملاكه أن ما ذكره الله هنا في وعيد قاتل النفس قد تجاوز فيه الحد المألوف من الإغلاظ، فرأى بضع السلف أن ذلك موجب لحمل الوعيد في الآية على ظاهره، دون تأويل، لشدة تأكيده تأكيدا يمنع من حمل الخلود على المجاز، فيثبت للقاتل الخلود حقيقة، بخلاف بقية آي الوعيد، وكأن هذا المعنى هو الذي جعلهم يخوضون في اعتبار هذه الآية محكمة أو منسوخة، لأنهم لم يجدوا ملجأ آخر يأوون إليه في حملها على ما حملت عليه آيات الوعيد: من محامل التأويل، أو الجمع بين المتعارضات، فآووا إلى دعوى نسخ نصها بقوله تعالى في سورة الفرقان [الفرقان:٦٨، ٦٩] ﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر﴾ إلى قوله ﴿إلا من تاب﴾ لأن قوله ﴿ومن يفعل ذلك﴾ إما أن يراد به مجموع الذنوب المذكورة، فإذا كان فاعل مجموعها تنفعه التوبة ففاعل بعضها وهو القتل عمدا أجدر، وإما أن يراد فاعل واحدة منها فالقتل عمدا مما عد معها. ولذا قال ابن عباس لسعيد ابن جبير: إن آية النساء آخر آية نزلت وما نسخها شيء، ومن العجب أن يقال كلام مثل هذا، ثم أن يطال وتتناقله الناس وتمر عليه القرون، في حين لا تعارض بين هذه الآية التي هي وعيد لقاتل النفس وبين آيات قبول التوبة. وذهب فريق إلى الجواب بأنها نسخت بآية ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ، بناء على أن عموم ﴿من يشاء﴾ نسخ خصوص القتل. وذهب فريق إلى الجواب بأن الآية نزلت في مقيس بن صبابة، وهو كافر. فالخلود لأجل الكفر، وهو جواب مبني على غلط لأن لفظ الآية عام إذ هو بصيغة الشرط

---

(١) التحرير والتنوير ٤/١٨٦

فتعين أن من شرطية وهي من صيغ العموم فلا تحمل على شخص معين؛ إلا عند من يرى أن سبب العام يخصصه بسببه لا غير، وهذا لا ينبغي **الالتفات** إليه. وهذه كلها ملاجئ لا حاجة إليها، لأن آيات التوبة ناهضة مجمع عليها متظاهرة ظواهرها، حتى بلغت حد النص المقطوع به، فيحمل عليها آيات وعيد الذنوب كلها حتى الكفر. على أن تأكيد الوعيد في الآية إنما يرفع احتمال المجاز في كونه وعيدا لا في تعيين المتوعد به وهو الخلود. إذ المؤكدات هنا مختلفة المعاني فلا يصح أن يعتبر أحدها مؤكدا لمدلول الآخر بل إنما أكدت الغرض، وهو الوعيد، لا أنواعه، وهذا هو الجواب القاطع لهاته الحيرة، وهو الذي يتعين اللجأ إليه، والتعويل عليه.". (١)

٥١-"الكثير، موصوفا بأن لا خير فيه وبذلك يتضح أن الاستثناء متصل، وأن لا داعي إلى جعله منقطعا. والمقصد من ذلك كله الاهتمام والتنويه بشأن هذه الثلاثة، ولو تناجى فيها من غالب أمره قصد الشر.

وقوله ﴿ومن يفعل ذلك﴾ الخ وعد بالثواب على فعل المذكورات إذا كان لابتغاء مرضاة الله، فدل على أن كونها خيرا وصف ثابت لها لما فيها من المنافع، ولأنها مأمور بها في الشرع، إلا أن الثواب لا يحصل إلا عن فعلها ابتغاء مرضاة الله كما في حديث "إنما الأعمال بالنيات" .

وقرأ الجمهور: نؤتيه بنون العظمة على **الالتفات** من الغيبة في قوله ﴿مرضات الله﴾

﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ [١١٥].

عطف على ﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله﴾ [النساء:١١٤] بمناسبة تضاد الحالين. والمشاقة: المخالفة المقصودة، مشتقة من الشق لأن المخالف كأنه يختار شقا يكون فيه غير شق الآخر.

فيحتمل قوله ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ أن يكون أراد به من بعد ما آمن بالرسول فتكون الآية وعيدا للمرتد. ومناسبتها هنا أن بشير بن أبيرق صاحب القصة المتقدمة، لما افتضح أمره ارتد ولحق بمكة، ويحتمل أن يكون مرادا به من بعد ما ظهر صدق الرسول بالمعجزات، ولكنه شاقه عنادا ونواء للإسلام.

وسبيل كل قوم طريقتهم التي يسلكونها في وصفهم الخاص، فالسبيل مستعار للاعتقادات والأفعال والعادات، التي يلازمها أحد ولا يبتغي التحول عنها، كما يلازم قاصد المكان طريقا يبلغه إلى قصده، قال تعالى ﴿قل هذه سبيلي﴾ [يوسف:١٠٨]. ومعنى هذه الآية نظير معنى قوله ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم﴾ [محمد:٣٢] ، فمن اتبع سبيل المؤمنين في الإيمان واتبع سبيل غيرهم في غير الكفر مثل اتباع سبيل يهود خيبر في غراسة النخيل، أو بناء الحصون، لا يحسن أن يقال فيه اتبع غير سبيل المؤمنين. وكأن فائدة عطف

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٤/٤

اتباع غير سبيل المؤمنين على مشاقة الرسول الحيطة لحفظ الجامعة الإسلامية بعد". (١)

٥٢-"أتاني من أبي أنس وعيد

...

فسلى لغيظة الضحاك جسمي

وقول النابغة:

فإنك سوف تحلم أو تناهى

...

إذا ما شبت أو شاب الغراب

وقول ابن زيابة:

نبئت عمرا غارزا رأسه

...

في سنة يوعد أخواله

وتلك منه غير مأمونة

...

أن يفعل الشيء إذا قاله

ومجيء صفتهم بطريقة الموصول لإفادة تعليل استحقاقهم العذاب الأليم، أي لأنهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أي اتخذوهم أولياء لأجل مضادة المؤمنين. والمراد بالكافرين مشركو مكة، أو أحبار اليهود، لأنه لم يبق بالمدينة مشركون صرحاء في وقت نزول هذه السورة، فليس إلا منافقون ويهود. وجملة ﴿أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله﴾ استئناف بياني باعتبار المعطوف وهو ﴿فإن العزة لله﴾ وقوله ﴿أيبتغون﴾ هو منشأ الاستئناف، وفي ذلك إيماء إلى أن المنافقين لم تكن موالاتهم للمشركين لأجل المماثلة في الدين والعقيدة، لأن معظم المنافقين من اليهود، بل اتخذوهم ليعتزوا بهم على المؤمنين، وإيماء إلى أن المنافقين شعروا بالضعف فطلبوا الاعتزاز، وفي ذلك نهاية التجهيل والذم. والاستفهام إنكار وتوبيخ، ولذلك صح التفريع عنه بقوله ﴿فإن العزة لله جميعا﴾ أي لا عزة إلا به، لأن الاعتزاز بغيره باطل. كما قيل: من اعتز بغير الله هان. وإن كان المراد بالكافرين اليهود فالاستفهام تهكم بالفريقين كقول المثل: كالمستغيث من الرمضاء بالنار. وهذا الكلام يفيد التحذير من مخالطتهم بطريق الكناية.

وجملة ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب﴾ الخ يجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿بشر المنافقين﴾ تذكيرا للمسلمين بما كانوا أعلموا به مما يؤكد التحذير من مخالطتهم، فضمير الخطاب موجه إلى المؤمنين، وضمائر الغيبة إلى المنافقين، ويجوز أن تكون

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٤/٤

في موضع الحال من ضمير يتخذون، فيكون ضمير الخطاب في قوله ﴿وقد نزل عليكم﴾ خطابا لأصحاب الصلة من قوله ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء﴾ [النساء:١٣٩] على طريقة **الالتفات**، كأنهم بعد أن أجريت عليهم الصلة صاروا معينين معروفين، فالتفت إليهم بالخطاب، لأنهم يعرفون أنهم أصحاب تلك الصلة، فلعلهم أن يقلعوا عن موالاة الكافرين. وعليه فضمير الخطاب للمنافقين، وضمائر الغيبة للكافرين، والذي نزل في الكتاب هو آيات نزلت قبل نزول هذه السورة في القرآن: في شأن كفر الكافرين والمنافقين". (١)

٥٣-"﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما﴾ [١٤٧].
تذييل لكلتا الجملتين: جملة إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار مع الجملة المتضمنة لاستثناء من يتوب منهم ويؤمن، وما تضمنته من التنويه بشأن المؤمنين من قوله ﴿وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما﴾ [النساء:١٤٦].
والخطاب يجوز أن يراد به جميع الأمة، ويجوز أن يوجه إلى المنافقين على طريقة **الالتفات** من الغيبة إلى الخطاب ارتفاقا بهم.
والاستفهام في قوله ﴿ما يفعل الله بعذابكم﴾ أريد به الجواب بالنفي فهو إنكاري، أي لا يفعل بعذابكم شيئا.
ومعنى ﴿يفعل﴾ يصنع وينتفع، بدليل تعديته بالباء. والمعنى أن الوعيد الذي توعد به المنافقون إنما هو على الكفر والنفاق، فإذا تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله غفر لهم العذاب، فلا يحسبوا أن الله يعذبهم لكراهة في ذاتهم أو تشف منهم، ولكنه جزاء لاسوء، لأن الحكيم يضع الأشياء مواضعها، فيجازي على الإحسان بالإحسان، وعلى الإساءة بالإساءة، فإذا أقلع المسيء عن الإساءة أبطل الله جزاءه بالسوء، إذ لا ينتفع بعذاب ولا بثواب، ولكنها المسببات تجري على الأسباب. وإذا كان المؤمنون قد ثبتوا على إيمانهم وشكرهم، وتجنبوا موالاة المنافقين والكافرين، فالله لا يعذبهم، إذ لا موجب لعذابهم.
وجملة ﴿وكان الله شاكرا عليما﴾ اعتراض في آخر الكلام، وهو إعلام بأن الله لا يعطل الجزاء الحسن عن الذين يؤمنون به ويشكرون نعمه الجمة، والإيمان بالله وصفاته أول درجات شكر العبد ربه.
[١٤٨,١٤٩] ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا﴾ .
موقع هذه الآية عقب الآي التي قبلها: أن الله لما شوه حال المنافقين وشهر بفضائحهم تشهيرا طويلا، كان الكلام السابق بحيث يثير في نفوس السامعين نفورا من النفاق وأحواله، وبغضا للملموزين به، وخاصة بعد أن وصفهم باتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وأنهم يستهزئون بالقرآن، ونهى المسلمين عن القعود معهم، فحذر الله". (٢)

٥٤-"قدور المجوس.فقال له :"أنقوها غسلا واطبخوا فيها" وفي البخاري:أن أبا ثعلبة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آنية أهل الكتاب.فقال له: "إن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها، وإن لم تجدوا فاغسلوها ثم كلوا فيها" قال ابن

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٣/٤

(٢) التحرير والتنوير ٢٩٣/٤

العربي:"فغسل آنية المجوس فرض، وغسل آنية أهل الكتاب ندب"يريد لأن الله أباح لنا طعام أهل الكتاب فقد علم حالهم، وإنما يسري الشك إلى آنيتهم من طعامهم وهو مأذون فيه، ولم يبح لنا طعام المجوس، فذلك منزع التفرقة بين آنية الفريقين. ثم الطعام الشامل للذكاة إنما يعتبر طعاما لهم إذا كانوا يستحلونه في دينهم، ويأكله أحبارهم وعلماؤهم، ولو كان مما ذكر القرآن أنه حرمه عليهم، لأنهم قد تأولوا في دينهم تأويلات، وهذا قول مالك.وأرى أن دليله:أن الآية عممت طعامهم فكان عمومها دليلا للمسلمين، ولا **التفات** إلى ما حكى الله أنه حرمه عليهم ثم أباحه للمسلمين، فكان عموم طعامهم في شرعنا مباحا ناسخا للمحرم عليهم، ولا نصبر إلى الاحتجاج بشرع من قبلنا... إلا إذا لم يكن لنا دليل على حكمه في شرعنا.وقيل:"لا يؤكل ما علمنا تحريمه عليهم بنص القرآن، وهو قول بعض أهل العلم، وقيل به في مذهب مالك، والمعتمد عن مالك كراهة شحوم بقر وغنم اليهود من غير تحريم؛ لأن الله ذكر أنه حرم عليهم الشحوم.

ومن المعلوم أن لا تعمل ذكاة أهل الكتاب ولا إباحة طعامهم فيما حرمه الله علينا بعينه:كالخنزير والدم، ولا ما حرمه علينا بوصفه، الذي ليس بذكاة:كالميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وأكيلة السبع، إذا كانوا هم يستحلون ذلك، فأما ما كانت ذكاتهم فيه مخالفة لذكاتنا مخالفة تقصير لا مخالفة زيادة فذلك محل نظر كالمضروبة بمحدد على رأسها فتموت، والمفتولة العنق فتتمزق العروق، فقال جمهور العلماء:"لا تؤكل".وقال أبو بكر ابن العربي من المالكية:"تؤكل".وقال في الأحكام:"فإن قيل فما أكلوه على غير وجه الذكاة كالخنق وحطم الرأس فالجواب:أن هذه ميتة، وهي حرام بالنص، وإن أكلوها فلا نأكلها نحن، كالخنزير فإنه حلال لهم ومن طعامهم وهو حرام علينا يريد إباحته عند النصارى ثم قال:ولقد سئلت عن النصراني يفتل عنق الدجاجة ثم يطبخها؛ هل تؤكل معه أو تؤخذ طعاما منه، فقلت:تؤكل لأنها طعامه وطعام أحباره ورهبانه، وإن لم تكن هذه ذكاة عندنا ولكن الله تعالى أباح طعامهم مطلقا وكل ما يرونه في دينهم فإنه حلال لنا في ديننا".وأشكل على كثير من الناظرين وجه الجمع بين كلامي ابن العربي، وإنما أراد التفرقة بين ما هو من أنواع قطع الحلقوم والأوداج ولو بالخنق". (١)

٥٥-"[١٢] ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾.

ناسب ذكر ميثاق بني إسرائيل عقب ذكر ميثاق المسلمين من قوله: ﴿وميثاقه الذي واثقكم به﴾ [المائدة:٧]. تحذيرا من أن يكون ميثاقنا كميثاقهم.ومحل الموعظة هو قوله: ﴿فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾. وهكذا شأن القرآن في التفنن ومجيء الإرشاد في قالب القصص، والتنقل من أسلوب إلى أسلوب.

وتأكيد الخبر الفعلي بقد وباللام للاهتمام به، كما يجيء التأكيد بإن للاهتمام وليس ثم متردد ولا منزل منزلته.وذكر مواثيق بني إسرائيل تقدم في سورة البقرة.

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٤٥

والبعث أصله التوجيه والإرسال، ويطلق مجازا على الإقامة والإنهاض كقوله: ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ [يس:٢٥] وقوله: ﴿فهذا يوم البعث﴾ [الروم:٥٦].ثم شاع هذا المجاز حتى بني عليه مجاز آخر بإطلاقه على الإقامة المجازية: ﴿إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾ [آل عمران:١٦٤]، ثم أطلق على إثارة الأشياء وإنشاء الخواطر في النفس.قال متمم بن نويرة:

فقلت لهم إن الأسى يبعث الأسى

أي أن الحزن يثير حزنا آخر.وهو هنا يحتمل المعنى الأول والمعنى الثالث.

والعدول عن طريق الغيبة من قوله: ﴿ولقد أخذ الله﴾ إلى طريق التكلم في قوله: ﴿وبعثنا﴾ **التفات**.

والنقيب فعيل بمعنى فاعل:إما من نقب إذا حفر مجازا، أو من نقب إذا بعث ﴿فنقبوا في البلاد﴾ [ق:٣٦] "، وعلى الأخير يكون صوغ فعيل منه على خلاف القياس، وهو وارد كما صيغ سميع من أسمع في قول عمرو بن معد يكرب:

أمن ريحانة الداعي السميع أي المسمع.". [1]

٥٦-"فإن شأن الإيمان أن لا يقاول الناس على اتباعه كما قدمناه آنفا.والمقصود مع ذلك تحذير المسلمين من توهم ذلك.

ولذلك فرع عليه قوله: ﴿فإن تولوا﴾، أي فإن حكمت بينهم بما أنزل الله ولم تتبع أهواءهم وتولوا فاعلم، أي فتلك أمارة أن الله أراد بهم الشقاء والعذاب ببعض ذنوبهم وليس عليك في توليهم حرج.وأراد ببعض الذنوب بعضا غير معين، أي أن بعض ذنوبهم كافية في إصابتهم وأن توليهم عن حكمك أمارة خذلان الله إياهم.

وقد ذيله بقوله: ﴿وإن كثيرا من الناس لفاسقون﴾ ليهون عنده بقاؤهم على ضلالهم إذ هو شنشنة أكثر الناس، أي وهؤلاء منهم فالكلام كناية عن كونهم فاسقين.

[٥٠] ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون[٥٠]﴾

فرعت الفاء على مضمون قوله: ﴿فإن تولوا فاعلم﴾ [المائدة:٤٩]الخ استفهاما عن مرادهم من ذلك التولي، والاستفهام إنكاري، لأنهم طلبوا حكم الجاهلية.وحكم الجاهلية هو ما تقرر بين اليهود من تكايل الدماء الذي سرى إليهم من أحكام أهل يثرب، وهم أهل جاهلية، فإن بني النضير لم يرضوا بالتساوي مع قريظة كما تقدم؛ وما وضعوه من الأحكام بين أهل الجاهلية، وهو العدول عن الرجم الذي هو حكم التوراة.

وقرأ الجمهور ﴿يبغون﴾ بياء الغائب، والضمير عائد لـ ﴿من﴾ في قوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ [المائدة:٤٧].وقرأ ابن عامر بتاء الخطاب على أنه خطاب لليهود على طريقة **الالتفات**.

والواو في قوله: ﴿ومن أحسن من الله حكما﴾ واو الحال، وهو اعتراض، والاستفهام إنكاري في معنى النفي، أي لا أحسن منه حكما.وهو خطاب للمسلمين، إذ لا فائدة في خطاب اليهود بهذا.

وقوله: ﴿لقوم يوقنون﴾ اللام فيه ليست متعلقة بـ ﴿حكما﴾ إذ ليس المراد بمدخولها المحكوم لهم، ولا هي لام التقوية لأن

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٥٩

﴿لقوم يوقنون﴾ ليس مفعولا لـ ﴿حكما﴾ في المعنى.فهذه اللام تسمى لام البيان ولام التبيين، وهي التي تدخل على المقصود من الكلام سواء كان خبرا أم إنشاء، وهي الواقعة في نحو قولهم:سقيا لك، وجدعا له، وفي الحديث: "تبا وسحقا لمن بدل بعدي" ، وقوله تعالى: ﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾ [المؤمنون:٣٦] و ﴿حاش لله﴾ [يوسف:٥١]وذلك أن المقصود التنبيه على المراد من الكلام". (١)

٥٧-"والخطاب في قوله: ﴿خلقكم﴾ موجه إلى الذين كفروا، ففيه **التفات** من الغيبة إلى الخطاب لقصد التوبيخ.
وذكر مادة ما منه الخلق بقوله: ﴿من طين﴾ لإظهار فساد استدلالهم على إنكار الخلق الثاني، لأنهم استبعدوا أن يعاد خلق الإنسان بعد أن صار ترابا.وتكررت حكاية ذلك عنهم في القرآن، فقد اعترفوا بأنهم يصيرون ترابا بعد الموت، وهم يعترفون بأنهم خلقوا من تراب، لأن ذلك مقرر بين الناس في سائر العصور، فاستدلوا على إنكار البعث بما هو جدير بأن يكون استدلالا على إمكان البعث، لأن مصيرهم إلى تراب يقرب إعادة خلقهم، إذ صاروا إلى مادة الخلق الأول، فلذلك قال الله هنا ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ وقال في آيات الاعتبار بعجيب تكوينه ﴿إنا خلقنا الأنسان من نطفة أمشاج﴾ [الانسان:٢]، وأمثال ذلك.
وهذا القدح في استدلالهم يسمى في اصطلاح علم الجدل القول بالموجب، والمنبه عليه من خطأ استدلالهم يسمى فساد الوضع.
ومعنى ﴿خلقكم من طين﴾ أنه خلق أصل الناس وهو البشر الأول من طين، فكان كل البشر راجعا إلى الخلق من الطين، فلذلك قال: ﴿خلقكم من طين﴾. وقال في موضع آخر: ﴿إنا خلقنا الأنسان من نطفة أمشاج﴾ [الانسان:٢] أي الإنسان المتناسل من أصل البشر.
و ﴿ثم﴾ للترتيب والمهلة عاطفة فعل ﴿قضى﴾ على فعل ﴿خلق﴾ فهو عطف فعل على فعل وليس عطف جملة على جملة.والمهلة هنا باعتبار التوزيع، أي خلق كل فرد من البشر ثم قضى له أجله، أي استوفاه له، ف ﴿قضى﴾ هنا ليس بمعنى"قدر"لأن تقدير الأجل مقارن للخلق أو سابق له وليس متأخرا عنه ولكن ﴿قضى﴾ هنا بمعنى"أوفى"أجل كل مخلوق كقوله: ﴿فلما قضينا عليه الموت﴾ [سبأ:١٤]، أي أمتناه.ولك أن تجعل"ثم"للتراخي الرتبي.
وإنما اختير هنا ما يدل على تنهية أجل كل مخلوق من طين دون أن يقال إلى أجل، لأن دلالة تنهية الأجل على إمكان الخلق الثاني، وهو البعث، أوضح من دلالة تقدير الأجل، لأن التقدير خفي والذي يعرفه الناس هو انتهاء أجل الحياة، ولأن انتهاء أجل الحياة مقدمة للحياة الثانية.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٨/٥

(٢) التحرير والتنوير ١٣/٦

٥٨-"فصلت، لأنها تتنزل منها منزلة التوكيد لأن انفراده بالإلهية في السماوات و في الأرض مما يقتضي علمه بأحوال بعض الموجودات الأرضية.

ولا يجوز تعليق ﴿في السماوات وفي الأرض﴾ بالفعل في قوله: ﴿يعلم سركم﴾ لأن سر الناس وجهرهم وكسبهم حاصل في الأرض خاصة دون السماوات، فمن قدر ذلك فقد أخطأ خطأ خفيا.

وذكر السر لأن علم السر دليل عموم العلم، وذكر الجهر لاستيعاب نوعي الأقوال.والمراد بـ ﴿ما تكسبون﴾ جميع الاعتقادات والأعمال من خير وشر فهو تعريض بالوعد والوعيد.

والخطاب لجميع السامعين؛ فدخل فيه الكافرون، وهم المقصود الأول من هذا الخطاب، لأنه تعليم وإيقاظ بالنسبة إليهم وتذكير بالنسبة إلى المؤمنين.

[٤] ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾

هذا انتقال إلى كفران المشركين في تكذيبهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن أقيمت عليهم الحجة ببطلان كفرهم في أمر الشرك بالله في الإلهية، وقد عطف لأن الأمرين من أحوال كفرهم ولأن الذي حملهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم هو دعوته إياهم إلى التوحيد، فمن أجله نشأ النزاع بينهم وبينه فكذبوه وسألوه الآيات على صدقه.

وضمائر جمع الغائبين مراد منها المشركون الذين هم بعض من شملته ضمائر الخطاب في الآية التي قبلها، ففي العدول عن الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إليهم **التفات** أوجبه تشهيرهم بهذا الحال الذميم، تنصيصا على ذلك، وإعراضا عن خطابهم، وتمحيضا للخطاب للمؤمنين، وهو من أحسن **الالتفات**، لأن **الالتفات** يحسنه أن يكون له مقتض زائد على نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب المراد منه تجديد نشاط السامع.وتكون الواو استئنافية وما بعدها كلاما مستأنفا ابتدائيا.

واستعمل المضارع في قوله:﴿تأتيهم﴾للدلالة على التجدد وإن كان هذا الإتيان ماضيا أيضا بقرينة المضي في قوله: ﴿إلا كانوا﴾ .

والمراد بإتيانها بلوغها إليهم وتحديهم بها، فشبه البلوغ بمجيء الجائي، كقول النابغة:". (١)

٥٩-"وجملة ﴿مكناهم﴾ صفة لـ ﴿قرن﴾. وروعي في الضمير معنى القرن لأنه دال على جمع.

ومعنى ﴿مكناهم في الأرض﴾ ثبتناهم وملكناهم، وأصله مشتق من المكان.فمعنى مكنه ومكن له، وضع له مكانا.قال تعالى: ﴿أولم نمكن لهم حرما آمنا﴾. ومثله قولهم:أرض له.ويكنى بالتمكين عن الإقدار وإطلاق التصرف، لأن صاحب المكان يتصرف في مكانه وبيته ثم يطلق على التثبيت والتقوية والاستقلال بالأمر.ويقال:هو مكين بمعنى ممكن، فعيل بمعنى مفعول.قال تعالى: ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ فهو كناية أيضا بمرتبة ثانية، أو هو مجاز مرسل مرتب على المعنى الكنائي.والتمكين في الأرض تقوية التصرف في منافع الأرض والاستظهار بأسباب الدنيا، بأن يكون في منعة من العدو وفي سعة في الرزق وفي حسن حال، قال تعالى: ﴿إنا مكنا له في الأرض﴾ ، وقال: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/٦

الصلاة﴾ الآية.فمعنى مكنه:جعله متمكنا، ومعنى مكن له:جعله متمكنا لأجله، أي رعيا له، مثل حمده وحمد له، فلم تزده اللام ومجرورها إلا إشارة إلى أن الفاعل فعل ذلك رغبة في نفع المفعول، ولكن الاستعمال أزال الفرق بينهما وصير مكنه ومكن له بمعنى واحد، فكانت اللام زائدة كما قال أبو علي الفارسي.ودليل ذلك قوله تعالى هنا : ﴿مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾ فإن المراد بالفعلين هنا شيء واحد لتعين أن يكون معنى الفعلين مستويا، ليظهر وجه فوت القرون الماضية في التمكين على تمكين المخاطبين، إذ التفاوت لا يظهر إلا في شيء واحد، ولأن كون القرون الماضية أقوى تمكنا من المخاطبين كان يقتضي أن يكون الفعل المقترن بلام الأجل في جانبهم لا في جانب المخاطبين، وقد عكس هنا.وبهذا البيان نجمع بين قول الراغب باستواء فعل مكنه ومكن له، وقول الزمخشري بأن:"مكن له بمعنى جعل له مكانا، ومكنه بمعنى أثبته".وكلام الراغب أمكن عربية.وقد أهملت التنبيه على هذين الرأيين كتب اللغة.واستعمال التمكين في معنى التثبيت والتقوية كناية أو مجاز مرسل لأنه يستلزم التقوية.وقد شاع هذا الاستعمال حتى صار كالصريح أو كالحقيقة.

و ﴿ما﴾ موصولة معناها التمكين، فهي نائبة عن مصدر محذوف، أي تمكينا لم نمكنه لكم، فتنتصب"ما"على المفعولية المطلقة المبينة للنوع.والمقصود مكناهم تمكينا لم نمكنه لكم، أي هو أشد من تمكينكم في الأرض.

والخطاب في قوله: ﴿لكم﴾ **التفات** موجه إلى الذين كفروا لأنهم الممكنون في". (١)

٦٠-"الأرض وقت نزول الآية، وليس للمسلمين يومئذ **تمكين.والالتفات** هنا عكس **الالتفات** في قوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾. والمعنى أن الأمم الخالية من العرب البائدة كانوا أشد قوة وأكثر جمعا من العرب المخاطبين بالقرآن وأعظم منهم آثار حضارة وسطوة.وحسبك أن العرب كانوا يضربون الأمثال للأمور العظيمة بأنها عادية أو ثمودية أو سبئية قال تعالى: ﴿وعمروها أكثر مما عمروها﴾ أي عمر الذين من قبل أهل العصر الأرض أكثر مما عمرها أهل العصر.

والسماء من أسماء المطر، كما في حديث الموطأ من قول زيد بن خالد:"صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على إثر سماء"، أي عقب مطر.وهو المراد هنا لأنه المناسب لقوله: ﴿أرسلنا﴾ بخلافه في نحو قوله: ﴿وأنزلنا من السماء ماء﴾.

والمدرار صيغة مبالغة، مثل منحار لكثير النحر للأضياف، ومذكار لمن يولد له الذكور، من درت الناقة ودر الضرع إذا سمح ضرعها باللبن، ولذلك سمي اللبن الدر.ووصف المطر بالمدرار مجاز عقلي، وإنما المدرار سحابه.وهذه الصيغة يستوي فيها المذكر والمؤنث.

والمراد إرسال المطر في أوقات الحاجة إليه بحيث كان لا يخلفهم في مواسم نزوله.ومن لوازم ذلك كثرة الأنهار والأودية بكثرة انفجار العيون من سعة ري طبقات الأرض، وقد كانت حالة معظم بلاد العرب في هذا الخصب والسعة، كما علمه الله ودلت عليه آثار مصانعهم وسدودهم ونسلان الأمم إليها، ثم تغيرت الأحوال بحوادث سماوية كالجدب الذي حل سنين ببلاد عاد؛ أو أرضية، فصار معظمها قاحلا فهلكت أممها وتفرقوا أيادي سبا.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٦

وقد تقدم القول في معنى الأنهار تجري من تحتهم في نظيره وهو: ﴿أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ في سورة البقرة[٢٥].

والفاء في قوله: ﴿فأهلكناهم﴾ للتعقيب عطف على ﴿مكناهم﴾ وما بعده.ولما تعلق بقوله: ﴿فأهلكناهم﴾ قوله :﴿بذنوبهم﴾ دل على أن تعقيب التمكين وما معه بالإهلاك وقع بعد أن أذنبوا.فالتقدير:فأذنبوا فأهلكناهم بذنوبهم، أو فبطروا النعمة فأهلكناهم، ففيه إيجاز حذف على حد قوله تعالى: ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت﴾ الآية، أي فضرب فانفجرت الخ.ولك أن تجعل الفاء للتفصيل تفصيلا لـ ﴿أهلكنا﴾ الأول على نحو قوله تعالى: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا﴾ في سورة الأعراف[٤].

والإهلاك:الإفناء، وهو عقاب للأمة دال على غضب الله عليها، لأن فناء الأمم لا". (١)

٦١-"استعمالاته أن يليها جزء الجملة المستفهم عنه كالمنكر هنا، فالتقديم للاهتمام به،وهو من جزئيات العناية التي قال فيها عبد القاهر أن لا بد من بيان وجه العناية،وليس مفيدا للتخصيص في مثل هذا لظهور أن داعي التقديم هو تعيين المراد بالاستفهام فلا يتعين أن يكون لغرض غير ذلك.فمن جعل التقديم هنا مفيدا للاختصاص،أي انحصار إنكار اتخاذ الولي في غير الله كما مال إليه بعض شراح الكشاف فقد تكلف ما يشهد الاستعمال والذوق بخلافه،وكلام الكشاف بريء منه بل الحق أن التقديم هنا ليس إلا للاهتمام بشأن المقدم ليلي أداة الاستفهام فيعلم أن محل الإنكار هو اتخاذ غير الله وليا،وأما ما زاد على ذلك فلا التفات إليه من المتكلم.ولعل الذي حداهم إلى ذلك أن المفعول في هذه الآية ونظائرها مثل: ﴿أفغير الله تأمروني أعبد﴾ [الزمر:٦٤] ﴿أغير الله تدعون﴾ [الأنعام:٤٠] هو كلمة ﴿غير﴾ المضافة إلى اسم الجلالة،وهي عامة في كل ما عدا الله، فكان الله ملحوظا من لفظ المفعول فكان إنكار اتخاذ الله وليا لأن إنكار اتخاذ غيره وليا مستلزما عدم إنكار اتخاذ الله وليا،لأن إنكار اتخاذ غير الله لا يبقى معه إلا اتخاذ الله وليا؛فكان هذا التركيب مستلزما معنى القصر وآئلا إليه وليس هو بدال على القصر مطابقة، ولا مفيدا لما يفيده القصر الإضافي من قلب اعتقاد أو إفراد أو تعيين، ألا ترى أنه لو كان المفعول خلاف كلمة"غير"لما صح اعتبار القصر، كما لو قلت:أزيدا أتتخذ صديقا،لم يكن مفيدا إلا إنكار اتخاذ زيد صديقا من غير التفات إلى اتخاذ غيره،وإنما ذلك لأنك تراه ليس أهلا للصداقة فلا فرق بينه وبين قولك:أتتخذ زيدا صديقا،إلا أنك أردت توجه الإنكار للمتخذ لا للاتخاذ اهتماما به.والفرق بينهما دقيق فأجد فيه نظرك.

ثم إن كان المشركون قد سألوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ أصنامهم أولياء كان لتقديم المفعول نكتة اهتمام ثانية وهي كونه جوابا لكلام هو المقصود منه كما في قوله: ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ [الزمر:٦٤]وقوله: ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة إلى قوله . قال أغير الله أبغيكم إلها﴾ [لأعراف:١٤٠].وأشار صاحب الكشاف في قوله: ﴿قل أغير الله أبغي ربا﴾ الآتي في آخر السورة إلى أن تقديم ﴿غير الله﴾ على ﴿أبغي﴾ لكونه جوابا عن ندائهم له إلى عبادة آلهتهم.قال الطيبي:"لأن كل تقديم إما للاهتمام أو لجواب إنكار".

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٦

والولي:الناصر المدبر،ففيه معنى العلم والقدرة.يقال:تولى فلانا، أي اتخذه ناصرا.وسمي الحليف وليا لأن المقصود من الحلف النصرة.ولما كان الإله هو الذي". (١)

٦٢-"لما جرى ذكر الساعة وما يلحق المشركين فيها من الحسرة على ما فرطوا ناسب أن يذكر الناس بأن الحياة الدنيا زائلة وأن عليهم أن يستعدوا للحياة الآخرة.فيحتمل أن يكون جوابا لقول المشركين: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ [الأنعام:٢٩].فتكون الواو للحال،أي تقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا ولو نظرتم حق النظر لوجدتم الحياة الدنيا لعبا ولهوا وليس فيها شيء باق، فلعلمتم أن وراءها حياة أخرى فيها من الخيرات ما هو أعظم مما في الدنيا وإنما يناله المتقون،أي المؤمنون،فتكون الآية إعادة لدعواتهم إلى الإيمان والتقوى،ويكون الخطاب في قوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ **التفاتا** من الحديث عنهم بالغيبة إلى خطابهم بالدعوة.

ويحتمل أنه اعتراض بالتذييل لحكاية حالهم في الآخرة،فإنه لما حكى قولهم: ﴿يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾ [الأنعام:٣١]علم السامع أنهم فرطوا في الأمور النافعة لهم في الآخرة بسبب الانهماك في زخارف الدنيا،فذيل ذلك بخطاب المؤمنين تعريفا بقيمة زخارف الدنيا وتبشيرا لهم بأن الآخرة هي دار الخير للمؤمنين،فتكون الواو عطفت جملة البشارة على حكاية النذارة.والمناسبة هي التضاد.وأيضا في هذا نداء على سخافة عقولهم إذ غرتهم في الدنيا فسول لهم الاستخفاف بدعوة الله إلى الحق.فيجعل قوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ خطابا مستأنفا للمؤمنين تحذيرا لهم من أن تغرهم زخارف الدنيا فتلهيهم عن العمل للآخرة.

وهذا الحكم عام على جنس الحياة الدنيا،فالتعريف في الحياة تعريف الجنس،أي الحياة التي يحياها كل أحد المعروفة بالدنيا،أي الأولى والقريبة من الناس،وأطلقت الحياة الدنيا على أحوالها،أو على مدتها.

واللعب:عمل أو قول في خفة وسرعة وطيش ليست له غاية مفيدة بل غايته إراحة البال وتقصير الوقت واستجلاب العقول في حالة ضعفها كعقل الصغير وعقل المتعب،وأكثره أعمال الصبيان.قالوا ولذلك فهو مشتق من اللعاب،وهو ريق الصبي السائل.وضد اللعب الجد.

واللهو ما يشتغل به الإنسان مما ترتاح إليه نفسه ولا يتعب في الاشتغال به عقله، فلا يطلق إلا على ما فيه استمتاع ولذة وملائمة للشهوة.

وبين اللهو واللعب العموم والخصوص الوجهي.فهما يجتمعان في العمل الذي فيه ملاءمة ويقارنه شيء من الخفة والطيش كالطرب واللهو بالنساء.وينفرد اللعب في لعب". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧/٦

(٢) التحرير والتنوير ٦٨/٦

٦٣-"الصبيان.وينفرد اللهو في نحو الميسر والصيد.

وقد أفادت صيغة ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ قصر الحياة على اللعب واللهو،وهو قصر موصوف على صفة.والمراد بالحياة الأعمال التي يحب الإنسان الحياة لأجلها،لأن الحياة مدة وزمن لا يقبل الوصف بغير أوصاف الأزمان من طول أو قصر،وتحديد أو ضده،فتعين أن المراد بالحياة الأعمال المظروفة فيها.واللعب واللهو في قوة الوصف، لأنهما مصدران أريد بهما الوصف للمبالغة،كقول الخنساء:

فإنما هي إقبال وإدبار

وهذا القصر ادعائي يقصد به المبالغة،لأن الأعمال الحاصلة في الحياة كثيرة،منها اللهو واللعب، ومنها غيرهما،قال تعالى: ﴿أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ [الحديد:٢٠]فالحياة تشتمل على أحوال كثيرة منها الملائم كالأكل واللذات،ومنها المؤلم كالأمراض والأحزان،فأما المؤلمات فلا اعتداد بها هنا ولا التفات اليها لأنها ليست مما يرغب فيه الراغبون،لأن المقصود من ذكر الحياة هنا ما يحصل فيها مما يحبها الناس لأجله،وهو الملائمات.

وأما الملائمات فهي كثيرة، ومنها ما ليس بلعب ولهو، كالطعام والشراب والتدفئ في الشتاء والتبرد في الصيف وجمع المال عند المولع به وقرى الضيف ونكاية العدو وبذل الخير للمحتاج،إلا أن هذه لما كان معظمها يستدعي صرف همة وعمل كانت مشتملة على شيء من التعب وهو منافر.فكان معظم ما يحب الناس الحياة لأجله هو اللهو واللعب،لأنه الأغلب على أعمال الناس في أول العمر والغالب عليهم فيما بعد ذلك.فمن اللعب المزاح ومغازلة النساء، ومن اللهو الخمر والميسر والمغاني والأسمار وركوب الخيل والصيد.

فأما أعمالهم في القربات كالحج والعمرة والنذر والطواف بالأصنام والعتيرة ونحوها فلأنها لما كانت لا اعتداد بها بدون الإيمان كانت ملحقة باللعب،كما قال تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ [الأنفال:٣٥]،وقال :﴿الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا﴾ .

فلا جرم كان الأغلب على المشركين والغالب على الناس اللعب واللهو إلا من آمن وعمل صالحا.فلذلك وقع القصر الادعائي في قوله: ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ .". (١)

٦٤-"وعقب بقوله: ﴿وللدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ ،منه أن أعمال المتقين في الدنيا هي ضد اللعب واللهو، لأنهم جعلت لهم دار أخرى هي خير،وقد علم أن الفوز فيها لا يكون إلا بعمل في الدنيا فأنتج أن عملهم في الدنيا ليس اللهو واللعب وأن حياة غيرهم هي المقصورة على اللهو واللعب.

والدار محل إقامة الناس،وهي الأرض التي فيها بيوت الناس من بناء أو خيام أو قباب.والآخرة مؤنث وصف الآخر بكسر الخاء وهو ضد الأول، أي مقر الناس الأخير الذي لا تحول بعده.

وقرأ جمهور العشرة ﴿وللدار﴾ بلامين لام الابتداء ولام التعريف،وقرئوا ﴿الآخرة﴾ بالرفع.وقرأ ابن عامر ﴿ولدار الآخرة﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٦٩/٦

بلام الابتداء فقط وبإضافة دار منكرة إلى الآخرة فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، كقولهم:مسجد الجامع،أو هو على تقدير مضاف تكون ﴿الآخرة﴾ وصفا له.والتقدير:دار الحياة الآخرة.

و ﴿خير﴾ تفضيل على الدنيا باعتبار ما في الدنيا من نعيم عاجل زائل يلحق معظمة مؤاخذة وعذاب.

وقوله: ﴿للذين يتقون﴾ تعريض بالمشركين بأنهم صائرون إلى الآخرة لكنها ليست لهم بخير مما كانوا في الدنيا.والمراد بـ ﴿للذين يتقون﴾ المؤمنون التابعون لما أمر الله به،كقوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ [البقرة:٢]، فإن الآخرة لهؤلاء خير محض.وأما من تلحقهم مؤاخذة على أعمالهم السيئة من المؤمنين فلما كان مصيرهم بعد إلى الجنة كانت الآخرة خيرا لهم من الدنيا.

وقوله ﴿أفلا تعقلون﴾ عطف بالفاء على جملة ﴿وما الحياة الدنيا﴾ إلى آخرها لأنه يتفرع عليه مضمون الجملة المعطوفة.والاستفهام عن عدم عقلهم مستعمل في التوبيخ إن كان خطابا للمشركين،أو في التحذير إن كان خطابا للمؤمنين.على أنه لما كان استعماله في أحد هذين على وجه الكناية صح أن يراد منه الأمران باعتبار كلا الفريقين،لأن المدلولات الكنائية تتعدد ولا يلزم من تعددها الاشتراك، لأن دلالتها التزامية،على أننا نلتزم استعمال المشترك في معنييه.

وقرأ نافع،وابن عامر،وحفص،وأبو جعفر،ويعقوب، ﴿أفلا تعقلون﴾ . بتاء الخطاب . على طريقة الالتفات.وقرأه الباقون بياء تحتية .،فهو على هذه القراءة عائد". (١)

٦٥-"وأحسن من ذلك تأويلا أن يكون الضميران عائدين إلى ما عادت إليه ضمائر الغيبة في هذه الآيات التي آخرها ضمير ﴿وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه﴾ ،فيكون موقع جملة ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ موقع الإدماج والاستطراد مجابهة للمشركين بأنهم محشورون إلى الله لا محالة وإن أنكروا ذلك.

فإذا وقع الالتفات إلى ما روي من الآثار المتعلقة بالآية كان الأمر مشكلا.فقد روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء "التي لا قرن لها،وفي رواية غيره: الجماء"من الشاة القرناء".وروى أحمد بن حنبل وأبو داود الطيالسي في مسنديهما عن أبي ذر قال: "انتطحت شاتان أو عنزان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا أبا ذر أتدري فيم انتطحتا؟" ،قلت: "لا"،قال: "لكن الله يدري وسيقضي بينهما يوم القيامة" .فهذا مقتض إثبات حشر الدواب ليوم الحساب، فكان معناه خفي الحكمة إذ من المحقق انتفاء تكليف الدواب والطير تبعا لانتفاء العقل عنها.وكان موقعها جلي المناسبة بما قاله الفخر نقلا عن عبد الجبار بأنه لما قدم الله أن الكفار يرجعون إليه ويحشرون بين بعده أن الدواب والطير أمم أمثالهم في أنهم يحشرون.والمقصود بيان أن الحشر والبعث كما هو حاصل في الناس حاصل في البهائم.وهذا ظاهر قوله: ﴿يحشرون﴾ لأن غالب إطلاق الحشر في القرآن على الحشر للحساب، فيناسب أن تكون جملة ﴿وما من دابة في الأرض﴾ الآية عطفا على جملة: ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ ،فإن المشركين ينكرون البعث ويجعلون إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام به من أسباب تهمته فيما جاء به،فلما توعدهم الله بالآية السابقة بأنهم إليه يرجعون زاد أن سجل عليهم جهلهم فأخبرهم بما هو أعجب مما أنكروه،وهو إعلامهم بأن

---

(١) التحرير والتنوير ٧٠/٦

الحشر ليس يختص بالبشر بل يعم كل ما فيه حياة من الدواب والطير.فالمقصود من هذا الخبر هو قوله: ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ .وأما ما قبله فهو بمنزلة المقدمة له والاستدلال عليه،أي فالدواب والطير تبعث مثل البشر وتحضر أفرادها كلها يوم الحشر،وذلك يقتضي لا محالة أن يقتص لها، فقد تكون حكمة حشرها تابعة لإلقاء الأرض ما فيها وإعادة أجزاء الحيوان.

وإذا كان المراد من هذين الحديثين ظاهرهما فإن هذا مظهر من مظاهر الحق يوم القيامة لإصلاح ما فرط في عالم الفناء من رواج الباطل وحكم القوة على العدالة، ويكون القصاص بتمكين المظلوم من الدواب من رد فعل ظالمه كيلا يستقر الباطل.فهو من قبيل". (١)

٦٦-"قوله: ﴿توفته رسلنا﴾ أن عددا من الملائكة يتولى توفي الواحد من الناس.وفي الآية الأخرى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ [السجدة: ١١] ، وسمي في الآثار عزرائيل، ونقل عن ابن عباس: "أن لملك الموت أعوانا".فالجمع بين الآيتين ظاهر.

وعلق فعل التوفي بضمير ﴿أحدكم﴾ الذي هو في معنى الذات.والمقصود تعليق الفعل بحال من أحوال أحدكم المناسب للتوفي، وهو الحياة، أي توفت حياته وختمتها، وذلك بقبض روحه.

وقرأ الجمهور ﴿توفته﴾ بمثناة فوقية بعد الفاء ..وقرأ حمزة وحده ﴿توفاه رسلنا﴾ وهي في المصحف مرسومة بنتأة بعد الفاء . فتصلح لأن تكون مثناة فوقية وأن تكون مثناة تحتية على لغة الإمالة.وهي التي يرسم بها الألفات المنقلبة عن الياءات.والوجهان جائزان في إسناد الفعل إلى جمع التكسير.

وجملة ﴿وهم لا يفرطون﴾ حال.والتفريط: التقصير في العمل والإضاعة في الذوات.والمعنى أنهم لا يتركون أحدا قد تم أجله ولا يؤخرون توفيه.

والضمير في قوله: ﴿ردوا﴾ عائد إلى ﴿أحد﴾ باعتبار تنكيره الصادق بكل أحد، أي ثم يرد المتوفون إلى الله.والمراد رجوع الناس إلى أمر الله يوم القيامة، أي ردوا إلى حكمه من نعيم وعذاب، فليس في الضمير **التفات**.

والمولى هنا بمعنى السيد، وهو اسم مشترك يطلق على السيد وعلى العبد.

و ﴿الحق﴾ بالجر. صفة لـ ﴿مولاهم﴾ ، لما في ﴿مولاهم﴾ من معنى مالكهم، أي مالكهم الحق الذي لا يشوب ملكه باطل يوهن ملكه.وأصل الحق أنه الأمر الثابت فإن كل ملك غير ملك الخالقية فهو مشوب باستقلال مملوكه عنه استقلالا متفاوتا، وذلك يوهن الملك ويضعف حقيته.

وجملة ﴿ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ تذييل ولذلك ابتدئ بأداة الاستفتاح المؤذنة بالتنبيه إلى أهمية الخبر.والعرب يجعلون التذييلات مشتملة على اهتمام أو عموم أو كلام جامع.

وقدم المجرور في قوله: ﴿له الحكم﴾ للاختصاص، أي له لا لغيره، فإن كان المراد من الحكم جنس الحكم فقصره على الله

---

(١) التحرير والتنوير ٨٧/٦

إما حقيقي للمبالغة لعدم الاعتداد بحكم غيره، وإما إضافي للرد على المشركين، أي ليس لأصنامكم حكم معه، وإن كان المراد من". (١)

٦٧-"في البلد المجاور مكة، واليهود يترددون على مكة في التجارة وغيرها، وأهل مكة يترددون على يثرب وما حولها وفيها اليهود وأحبارهم، وبهذا لم يذكرهم الله برسالة إبراهيم عليه السلام لأنهم كانوا يجهلون أن الله أنزل عليه صحفا فكان قد يتطرقه اختلاف في كيفية رسالته ونبوءته.وإذا كان ذلك لا يسع إنكاره كما اقتضاه الجواب آخر الآية بقوله: ﴿قل الله﴾ فقد ثبت أن الله أنزل على أحد من البشر كتابا فانتقض قولهم: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ على حسب قاعدة نقض السالبة الكلية بموجبة جزئية.وافتتح بالأمر بالقول للاهتمام بهذا الإفحام، وإلا فإن القرآن كله مأمور النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقوله.

والنور: استعارة للوضوح والحق، فإن الحق يشبه بالنور، كما يشبه الباطل بالظلمة.قال أبو القاسم علي التنوخي:

وكأن النجوم بين دجاها ... سنن لاح بينهن ابتداع

ولذلك عطف عليه ﴿هدى﴾ .ونظيره قوله في سورة المائدة[٤٤] ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ .ولو أطلق النور على سبب الهدى لصح لولا هذا العطف، كما قال تعالى عن القرآن: ﴿ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ [الشورى: ٥٢].وقد انتصب ﴿نورا﴾ على الحال.

والمراد بالناس اليهود، أي ليهديهم، فالتعريف فيه للاستغراق، إلا أنه استغراق عرفي، أي الناس الذين هم قومه بنو إسرائيل.

وقوله: ﴿تجعلونه قراطيس﴾ يجوز أن يكون صفة سببية للكتاب، ويجوز أن يكون معترضا بين المتعاطفات.

قرأ ﴿تجعلونه ـ تبدون ـ وتخفون﴾ بتاء الخطاب ـ من عدا ابن كثير، وأبا عمرو، ويعقوب، من العشرة، فإما أن يكون الخطاب لغير المشركين إذ الظاهر أن ليس لهم عمل في الكتاب الذي أنزل على موسى ولا باشروا إبداء بعضه وإخفاء بعضه فتعين أن يكون خطابا لليهود على طريقة الإدماج "أي الخروج من خطاب إلى غيره"تعريضا باليهود وإسماعا لهم وإن لم يكونوا حاضرين من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، أو هو **التفات** من طريق الغيبة الذي هو مقتضى المقام إلى طريق الخطاب.وحقه أن يقال يجعلونه ـ بياء المضارع للغائب ـ كما قرأ غير هؤلاء الثلاثة القراء.وإما أن يكون خطابا للمشركين.ومعنى كونهم يجعلون كتاب موسى قراطيس يبدون بعضها ويخفون بعضها أنهم سألوا". (٢)

٦٨-"ثم على هذا القول تكون قراءة ﴿تجعلونه قراطيس﴾ بالفوقيةجارية على الظاهر، وقراءته بالتحية من قبيل **الالتفات**.ونكتته أنهم لما أخبر عنهم بهذا الفعل الشنيع جعلوا كالغائبين عن مقام الخطاب.

والمخاطب بقوله: ﴿وعلمتم﴾ على هذا الوجه هم اليهود، فتكون الجملة حالا من ضمير ﴿تجعلونه﴾ ، أي تجعلونه قراطيس

---

(١) التحرير والتنوير ٦/١٤٣

(٢) التحرير والتنوير ٦/٢١٢

تخفون بعضها في حال أن الله علمكم على لسان محمد ما لم تكونوا تعلمون، ويكون ذلك من تمام الكلام المعترض به.
ويجيء على قراءة ﴿يجعلونه قراطيس﴾ بالتحتية . أن يكون الرجوع إلى الخطاب بعد الغيبة **التفاتا** أيضا.وحسنه أنه لما أخبر عنهم بشيء حسن عاد إلى مقام الخطاب، أو لأن مقام الخطاب أنسب بالامتنان.
واعلم أن نظم الآية صالح للرد على كلا الفريقين مراعاة لمقتضى الروايتين.فعلى الرواية الأولى فواو الجماعة في"قدروا . وقالوا"عائدة إلى ما عاد إليه إشارة هؤلاء، وعلى الرواية الثانية فالواو واو الجماعة مستعملة في واحد معين على طريقة التعريض بشخص من باب: "ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله"، وذلك من قبيل عود الضمير على غير مذكور اعتمادا على أنه مستحضر في ذهن السامع.
وقوله: ﴿قل الله﴾ جواب الاستفهام التقريري.وقد تولى السائل الجواب لنفسه بنفسه لأن المسؤول لا يسعه إلا أن يجيب بذلك لأنه لا يقدر أن يكابر، على ما قررته في تفسير قوله تعالى: ﴿قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله﴾ في هذه السورة[١٢].
والمعنى قل الله أنزل الكتاب على موسى.وإذا كان ﴿وعلمتم ما لم تعلموا﴾ معطوفا على جملة ﴿أنزل﴾ كان الجواب شاملا له، أي الله علمكم ما لم تعلموا فيكون جوابا عن الفعل المسند إلى المجهول بفعل مسند إلى المعلوم على حد قول ضرار بن نهشل أو الحارث النهشلي يرثي أخاه يزيد:
ليبك يزيد ضارع لخصومة ... ومختبط مما تطيح الطوائح
كأنه سئل من يبكيه فقال: ضارع.
وعطف ﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ بثم للدلالة على الترتيب الرتبي، أي أنهم لا تنجع فيهم الحجج والأدلة فتركهم وخوضهم بعد التبليغ هو الاولى ولكن الاحتجاج عليهم لتبكيتهم وقطع معاذيرهم.". (١)

٦٩-"والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾
القول في صيغة القصر من قوله: ﴿وهو الذي أنزل﴾ الخ كالقول في نظيره السابق.و"من"في قوله: ﴿من السماء﴾ ابتدائية لأن ماء المطر يتكون في طبقات الجو العليا الزمهريرية عند تصاعد البخار الأرضي إليها فيصير البخار كثيفا وهو السحاب ثم يستحيل ماء.فالسماء اسم لأعلى طبقات الجو حيث تتكون الأمطار.وتقدم في قوله تعالى: ﴿أو كصيب من السماء﴾ في سورة البقرة.وعدل عن ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم في قوله: ﴿فأخرجنا﴾ على طريقة **الالتفات.**
والباء للسببية جعل الله الماء سببا لخروج النبات، والضمير المجرور بالباء عائد إلى الماء.
والنبات اسم لما ينبت، وهو اسم مصدر نبت، سمي به النابت على طريقة المجاز الذي صار حقيقة شائعة فصار النبات اسما مشتركا مع المصدر.
و ﴿شيء﴾ مراد به صنف من النبات بقرينة إضافة ﴿نبات﴾ إليه.والمعنى: فأخرجنا بالماء ما ينبت من أصناف النبت.فإن

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٢١٥

النبت جنس له أنواع كثيرة؛ فمنه زرع وهو ما له ساق لينة كالقصب، ومنه شجر وهو ما له ساق غليظة كالنخل، والعنب؛ ومنه نجم وأب وهو ما ينبت لاصقا بالتراب، وهذا التعميم يشير إلى أنها مختلفة الصفات والثمرات والطبائع والخصوصيات والمذاق، وهي كلها نابتة من ماء السماء الذي هو واحد، وذلك آية على عظم القدرة، قال تعالى: ﴿تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ [الرعد: ٤]وهو تنبيه للناس ليعتبروا بدقائق ما أودعه الله فيها من مختلف القوى التي سببت اختلاف أحوالها.

والفاء في قوله: ﴿فأخرجنا به نبات كل شيء﴾ فاء التفريع.

وقوله: ﴿فأخرجنا منه خضرا﴾ تفصيل لمضمون جملة ﴿فأخرجنا به نبات كل شيء﴾ ، فالفاء للتفصيل، و"من"ابتدائية أة تبعيضية، والضمير المجرور بها عائد إلى النبات، أي فكان من النبت خضر ونخل وجنات وشجر، وهذا تقسيم الجنس إلى أنواعه.

والخضر: الشيء الذي لونه أخضر، يقال: أخضر وخضر كما يقال: أعور وعور، ويطلق الخضر اسما للنبت الرطب الذي ليس بشجر كالقصيل والقضب.وفي الحديث: "وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر أكلت حتى إذا امتدت". (١)

٧٠-"يأتيهم بها لأنها إذا جاءت لا يؤمنون، أي على أن يكون ﴿عند﴾ كناية عن منعهم من الإجابة لما طلبوه.

وعلى قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، ويعقوب، وخلف، وأبي بكر، في إحدى روايتين عنه ﴿إنها﴾ بكسر الهمزة يكون استئنافا.وحذف متعلق ﴿يشعركم﴾ لظهوره من قوله: ﴿ليؤمنن بها﴾ .والتقدير: وما يشعركم بإيمانهم إنهم لا يؤمنون إذا جاءت آية.

وعلى قراءة ابن عامر، وحمزة، وخلف ـ بتاء المخاطب ـ.فتوجيه قراءة خلف الذي قرأ"إنها". بكسر الهمزة ـ، أن تكون جملة ﴿أنها إذا جاءت﴾ الخ خطابا موجها إلى المشركين.وأما على قراءة ابن عامر وحمزة اللذين قرآ ﴿أنها﴾ بفتح الهمزة ـ بأن يجعل ضمير الخطاب في قوله: ﴿وما يشعركم﴾ موجها إلى المشركين على طريقة **الالتفات** على اعتبار الوقف على ﴿يشعركم﴾ .

[١١٠] ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ يجوز أن يكون عطفا على جملة ﴿أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ [الأنعام: ١٠٩]فتكون بيانا لقوله: ﴿لا يؤمنون﴾ [الأنعام: ١٠٩]أي بأن نعطل أبصارهم عن تلك الآية وعقولهم عن الاهتداء بها فلا يبصرون ما تحتوى عليه الآية من الدلائل ولا تفقه قلوبهم وجه الدلالة فيتعطل تصديقهم بها، وذلك بأن يحرمهم الله من إصلاح إدراكهم، وذلك أنهم قد خلقت عقولهم نابية عن العلم الصحيح بما هيأ لها ذلك من انسلالها من أصول المشركين، ومن نشأتها بين أهل الضلال وتلقي ضلالتهم، كما بينته آنفا.فعبر عن ذلك الحال المخالف للفطرة السليمة بأنه تقليب لعقولهم وأبصارهم، ولأنها كانت مقلوبة عن المعروف عند أهل العقول السليمة،

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٣٩

وليس داعي الشرك فيها تقليبا عن حالة كانت صالحة لأنها لم تكن كذلك حينا، ولكنه تقليب لأنها جاءت على خلاف ما الشأن أن تجيء عليه.

وضمير ﴿به﴾ عائد إلى القرآن المفهوم من قوله: ﴿لئن جاءتهم آية﴾ [الأنعام: ١٠٩]فإنهم عنوا آية غير القرآن.

والكاف في قوله: ﴿كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ لتشبيه حالة انتفاء إيمانهم بعد أن تجيئهم آية مما اقترحوا.والمعنى ونقلب أيديهم وأبصارهم فلا يؤمنون بالآية التي تجيئهم مثلما لم يؤمنوا بالقرآن من قبل، فتقليب أفئدتهم وأبصارهم على هذا المعنى يحصل في". (١)

٧١-"لما ذكر ثواب القوم الذين يتذكرون بالآيات، وهو ثواب دار السلام، ناسب أن يعطف عليه ذكر جزاء الذين لا يتذكرون، وهو جزاء الآخرة أيضا، فجملة: ﴿ويوم نحشرهم﴾ الخ معطوفة على جملة: ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾ [الأنعام: ١٢٧]. والمعنى: وللآخرين النار مثواهم خالدين فيها. وقد صور هذا الخبر في صورة ما يقع في حسابهم يوم الحشر، ثم أفضي إلى غاية ذلك الحساب، وهو خلودهم في النار.

وانتصب: ﴿ويوم﴾ على المفعول به لفعل محذوف تقديره: اذكر على طريقة نظائره في القرآن، أو انتصب على الظرفية لفعل القول المقدر.

والضمير المنصوب ب ﴿نحشرهم﴾ عائد إلى ﴿الذين أجرموا﴾ [الأنعام: ١٢٤] المذكور في قوله: ﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله﴾ ، أو إلى ﴿الذين لا يؤمنون﴾ [الأنعام: ١٢٥] في قوله: ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾. وهؤلاء هم مقابل الذين يتذكرون. فإن جماعة المسلمين يعتبرون مخاطبين لأنهم فريق واحد مع الرسول عليه الصلاة والسلام ويعتبر المشركون فريقا مبائنا لهم بعيدا عنهم بضمير الغيبة، فالمراد المشركون الذين ماتوا على الشرك واكد ب ﴿جميعا﴾ ليعم كل المشركين، وسادتهم. وشياطينهم، وسائر علقهم.

ويجوز أن يعود الضمير إلى الشياطين وأوليائهم في قوله تعالى: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾ [الأنعام: ١٢١] الخ.

وقرأ الجمهور: ﴿نحشرهم﴾ بنون العظمة على **الالتفات**. وقرأه حفص عن عاصم، وروح عن يعقوب بياء الغيبة. ولما أسند الحشر إلى ضمير الجلالة تعين أن النداء في قوله: ﴿يا معشر الجن﴾ من قبل الله تعالى. فتعين لذلك إضمار قول صادر من المتكلم، أي نقول: يا معشر الجن، لأن النداء لا يكون إلا قولا.

وجملة: ﴿يا معشر الجن﴾ الخ مقول قول محذوف يدل عليه أسلوب الكلام. والتقدي: نقول أو قائلين.

والمعشر: الجماعة الذين أمرهم وشأنهم واحد، بحيث تجمعهم صفة أو عمل، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه. وهو يجمع على معاشر أيضا وهو بمعناه، وهو مشتق من المعاشرة والمخالطة. والأكثر أن يضاف المعشر إلى اسم يبين الصفة التي اجتمع

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٢/٦

مسماه فيها، وهي هنا كونهم جنا، ولذلك إذا عطفت على ما يضاف إليه كان على". [1]

٧٢-"والضمير المضاف إليه في: ﴿سبيله﴾ يعود إلى الله تعالى بقرينة المقام، فإذا كان ضمير المتكلم في قوله: ﴿صراطي﴾ عائدا لله كان في ضمير ﴿سبيله﴾ التفاتا عن سبيلي.

روى النسائي في سننه، وأحمد، والدارمي في مسنديهما، والحاكم في المستدرك، عن عبد الله بن مسعود، قال: "خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا ثم قال: "هذا سبيل الله"، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله أي عن يمين الخط المخطوط أولا وعن شماله ثم قال: "هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها" ثم قرأ: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ وروى أحمد، وابن ماجه، وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله قال: "كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فخط خطا وخط خطين عن يمينه وخط خطين عن يساره ثم وضع يده في الخط الأوسط أي الذي بين الخطوط الأخرى فقال:" هذه سبيل الله"، ثم تلا هذه الآية: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ وما وقع في الرواية الأولى "وخط خطوطا" هو باعتبار مجموع ما على اليمين والشمال. وهذا رسمه على سبيل التقريب:

...

...

...

وقوله: ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ تذييل تكرير لمثليه السابقين، فالإشارة بـ ﴿ذلكم﴾ إلى الصراط، والوصاية به معناها لوصاية بما يحتوي عليه.

وجعل الرجاء للتقوى لأن هذه السبيل تحتوي على ترك المحرمات، وتزيد بما تحتوي عليه من فعل الصالحات، فإذا اتبعها السالك فقد صار من المتقين أي الذين اتصفوا بالتقوى بمعناها الشرعي كقوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ [البقرة: ٢].

[١٥٤] ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾.

﴿ثم﴾ هنا عاطفة على جملة: ﴿قل تعالوا﴾ فليست عاطفة للمفردات، فلا يتوهم أنها لتراخي الزمان، بل تنسلخ عنه حين تعطف الجمل فتدل على التراخي في الرتبة، وهو مهلة مجازية، وتلك دلالة "ثم" إذا عطفت الجمل. وقد استصعب على بعض المفسرين مسلك "ثم" في هذه الآية لأن إتيان موسى عليه السلام الكتاب ليس برتبة أهم". [2]

٧٣-"والتذكر مصدر الذكر بضم الذال وهو حضور الصورة في الذهن.

وقليل مستعمل في العدم على طريقة التهكم بالمضيع للأمر النافع يقال له: إنك قليل الإتيان بالأمر النافع، تنبيها له على

---

(١) التحرير والتنوير ٧/٥٠

(٢) التحرير والتنوير ٧/١٣٠

خطئه، وإنه إن كان في ذلك تفريط فلا ينبغي أن يتجاوز حد التقليل دون التضييع له كله.
و"ما" مصدرية والتقدير: قليلا تذكركم، ويجوز أن يكون ﴿قليلا﴾ صفة مصدر محذوف دل عليه ﴿تذكرون﴾ و"ما" مزيدة لتوكيد القلة، أي نوع قلة ضعيف، نحو قوله تعالى: ﴿أن يضرب مثلا ما﴾ [البقرة: ٢٦]. وتقدم القول في نظيره عند قوله تعالى: ﴿فقليلا ما يؤمنون﴾ في سورة البقرة [٨٨]. والمعنى: لو تذكرتم لما اتبعتم من دونه أولياء ولما احتجتم إلى النهي عن أن تتبعوا من دونه أولياء، وهذا نداء على إضاعتهم النظر والاستدلال في صفات الله وفي نقائص أوليائهم المزعومين.
وقرأ الجمهور: ﴿ما تذكرون﴾ بفوقية واحدة وتشديد الذال على أن أصله تتذكرون بتاءين فوقيتين ثانيتهما ذالا لتقارب مخرجيهما ليتأتى تخفيفه بالإدغام.
وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف بتخفيف الذال على حذف إحدى التاءين اختصارا. وقرأه ابن عامر: ﴿يتذكرون﴾ بتحتية في أوله ثم فوقية، والضمير عائد إلى المشركين على طريقة **الالتفات** من الخطاب إلى الغيبة، أعرض عنهم ووجه الكلام على غيرهم من السامعين: إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين.
[٥،٤] ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ .
عطف على جملة: ﴿ولا تتبعوا﴾ وهذا الخبر مستعمل في التهديد للمشركين الذين وجه إليهم التعريض في الآية الأولى والذين قصدوا من العموم. وقد ثلث هنا بتمحيض التوجيه إليهم.
وإنما خص بالذكر إهلاك القرى، دون ذكر الأمم كما في قوله ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾ [الحاقة: ٥، ٦]، لأن المواجهين بالتعريض هم أهل مكة وهي أم القرى، فناسب أن يكون تهديد أهلها بما أصاب القرى وأهلها ولأن تعليق فعل ﴿أهلكنا﴾ . بالقرية دون أهلها لقصد الإحاطة والشمول، فهو مغن عن أدوات". [١]

٧٤-"وإنما استمر في عداد الملائكة لأنه لم يحدث من الأمر ما يخالف هواه، فلما حدث الأمر بالسجود ظهر خلق العصيان الكامن فيه، فكان قوله تعالى: ﴿لم يكن من الساجدين﴾ إشارة إلى أنه لم يقدر له أن يكون من الطائفة الساجدين، أي انتفى سجوده انتفاء لإرجاء في حصوله بعد، وقد علم أنه أبى السجود إباء وذلك تمهيدا لحكاية السؤال والجواب في قوله: ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ ابتداء المحاورة، لأن ترك إبليس السجود لآدم بمنزلة جواب عن قول الله: ﴿اسجدوا لآدم﴾ ، فكان بحيث يتوجه إليه استفسار عن سبب تركه السجود، وضمير: ﴿قال﴾ عائد إلى معلوم من المقام أي قال الله تعالى بقرينة قوله: ﴿ثم قلنا للملائكة﴾ ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: قلنا، فكان العدول إلى ضمير الغائب **التفاتا**، نكتته تحويل مقام الكلام، إذ كان المقام مقام أمر للملائكة ومن في زمرتهم فصار مقام توبيخ لإبليس خاصة.
و ﴿ما﴾ للاستفهام، وهو استفهام ظاهره حقيقي، ومشوب بتوبيخ، والمقصود من الاستفهام إظهار مقصد إبليس للملائكة.
و ﴿منعك﴾ معناه صدك وكفك عن السجود فكان مقتضى الظاهر أن يقال: ما منعك أن تسجد لأنه إنما كف عن

(١) التحرير والتنوير ١٥/٨

السجود لا عن نفي السجود فقد قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ [ص: ٧٥]، فلذلك كان ذكر "لا" هنا على خلاف مقتضى الظاهر، فقيل هي مزيدة للتأكيد، ولا تفيد نفيا، لأن الحرف المزيد للتأكيد لا يفيد معنى غير التأكيد. و"لا" من جملة الحروف التي يؤكد بها الكلام كما في وقله تعالى: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ [البلد:١] وقوله: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ [الحديد: ٢٩] أي ليعلم أهل الكتاب علما محققا. وقوله تعالى: ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾ [الانبياء:٩٥] أي ممنوع أنهم يرجعون منعا محققا، وهذا تأويل الكسائي، والفراء، والزجاج، والزمخشري، وفي توجيه معنى التأكيد إلى الفعل مع كون السجود غير واقع فلا ينبغي تأكيده خفاء لأن التوكيد تحقيق حصول الفعل المؤكد، فلا ينبغي التعويل على هذا التأويل.
وقيل "لا" نافية، ووجودها يؤذن بفعل مقدر دل عليه ﴿منعك﴾ لأن المانع من شيء يدعو لضده، فكأنه قيل: ما منعك أن تسجد فدعاك إلى أن لا تسجد، فإما أن يكون ﴿منعك﴾ مستعملا في معنى دعاك، على سبيل المجاز، و"لا" هي قرينة المجاز، وهذا تأويل السكاكي في المفتاح في فصل المجاز اللغوي، وقريب منه لعبد الجبار فيما نقله". (١)

٧٥-"وقرأه ابن كثير، وعاصم، وحمزة، وأبو عمرو، ويعقوب، وخلف: برفع: ﴿لباس التقوى﴾ على أن الجملة معطوفة على جملة ﴿قد أنزلنا عليكم لباسا﴾ ، فيجوز أن يكون المراد بلباس التقوى مثل ما يرد به في قراءة النصب. ويجوز أن يكون المراد بالتقوى تقوى الله وخشيته، وأطلق عليها. اللباس إما بتخييل التقوى بلباس يلبس، وإما بتشبيه ملازمة تقوى الله بملازمة اللابس لباسه، كقوله تعالى: ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ [البقرة: ١٨٧] مع ما يحسن هذا الإطلاق من المشاكلة. وهذا المعنى الرفع أليق به. ويكون استطرادا للتحريض على تقوى الله، فإنها خير للناس من منافع الزينة، واسم الإشارة على هذه القراءة لتعظيم المشار إليه.
وجملة: ﴿ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ استئناف ثان على قراءة: ﴿لباس التقوى﴾ بالنصب بأن استأنف. بعد الامتنان بأصناف اللباس، استئنافين يؤذنان بعظيم النعمة: الأول بأن اللباس خير للناس، والثاني بأن اللباس آية من آيات الله تدل على علمه ولطفه، وتدل على وجوده، وفيها آية أخرى وهي الدلالة على علم الله تعالى بأن ستكون أمة يغلب عليها الضلال فيكونون في حجهم عراة، فلذلك أكد الوصاية به. والمشار إليه، بالإشارة التي في الجملة الثانية، عين المشار إليه بالإشارة التي في الجملة الأولى وللاهتمام بكلتا الجملتين جعلت الثانية مستقلة غير معطوفة.
وعلى قراءة رفع: ﴿لباس التقوى﴾ تكون جملة: ﴿ذلك من آيات الله﴾ استئنافا واحدا والإشارة التي في الجملة الثانية عائدة إلى المذكور قبل من أصناف اللباس حتى المجازي على تفسير لباس التقوى بالمجازي.
وضمير الغيبة في: ﴿لعلهم يذكرون﴾ التفات أي جعل الله ذلك آية لعلكم تتذكرون عظيم قدرة الله تعالى وانفراده بالخلق والتقدير واللطف، وفي هذا الالتفات تعريض بمن لم يتذكر من بني آدم فكأنه غائب عن حضرة الخطاب، على أن ضمائر الغيبة، في مثل هذا المقام في القرآن، كثيرا ما يقصد بها مشركو العرب.

---

(١) التحرير والتنوير ٣١/٨

[٢٧] ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾.

أعيد خطاب بني آدم، فهذا النداء تكملة للآي قبله، بني على التحذير من متابعة". (١)

٧٦-"أصحاب الأعراف. ثم يحتمل أن يكون أصحاب الأعراف من الأمة الإسلامية خاصة، ويحتمل أن يكونوا من سائر الأمم المؤمنين برسلهم، وأياما كان فالمقصود من هذه الآيات هم من كان من الأمة المحمدية.

وتنوين ﴿كلا﴾ عوض عن المضاف إليه المعروف من الكلام المتقدم أي كل أهل الجنة وأهل النار.

والسيما بالقصر السمة أي العلامة، أي بعلامة ميز الله بها أهل الجنة وأهل النار، وقد تقدم بيانها واشتقاقها عند قوله تعالى ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ في سورة البقرة [٢٧٣].

ونداؤهم أهل الجنة بالسلام يؤذن بأنهم في اتصال بعيد من أهل الجنة، فجعل الله ذلك أمارة لهم بحسن عاقبتهم ترتاح لها نفوسهم، ويعلمون أنهم صائرون إلى الجنة، فلذلك حكي الله حالهم هذه للناس إيذانا بذلك وبان طمعهم في قوله ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ هو طمع مستند إلى علامات وقوع المطموع فيه، فهو من صنف الرجاء كقوله ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ [الشعراء:٨٢].

و ﴿أن﴾ تفسير للنداء، وهو القول ﴿سلام عليكم﴾. و ﴿سلام عليكم﴾ دعاء تحية وإكرام.

وجملة ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ مستأنفة للبيان. لأن قوله ﴿ونادوا أصحاب الجنة﴾ يثير سؤالا يبحث عن كونهم صائرين إلى الجنة أو إلى غيرها، وجملة ﴿وهم يطمعون﴾ حال من ضمير ﴿يدخلوها﴾ والجملتان معا معترضتان بين جملة ﴿ونادوا أصحاب الجنة﴾ وجملة ﴿وإذا صرفت أبصارهم﴾ .

وجملة ﴿وإذا صرفت أبصارهم﴾ معطوفة على جملة ﴿ونادوا أصحاب الجنة﴾ .

والصرف: أمر الحال بمغادرة المكان. والصرف هنا مجاز في **الالتفات** أو استعارة. وإسناده إلى المجهول هنا جار على المتعارف في أمثاله من الأفعال التي لا يتطلب لها فاعل، وقد تكون لهذا الإسناد هنا فائدة زائدة وهي الإشارة إلى أنهم لا ينظرون إلى أهل النار إلا نظرا شبيها بفعل من يحمله على الفعل حامل، وذلك أن النفس وإن كانت تكره المناظر السيئة فإن حب الاطلاع يحملها على أن توجه النظر إليها آونة لتحصيل ما هو مجهول لديها.

والتلقاء: مكان وجود الشيء، وهو منقول من المصدر الذي هو بمعنى اللقاء، لأن". (٢)

٧٧-"يحتاج المتكلم بعده إلى زيادة بيان، فيأتي بالاستدراك، ومن قال: إن حقيقة الاستدراك هو رفع ما يتوهم السامع ثبوته أو نفيه فإنما نظر إلى بعض أحوال الاستدراك أو إلى بعض أغراض وقوعه في الكلام البليغ، وليس مرادهم أن

---

(١) التحرير والتنوير ٥٩/٨

(٢) التحرير والتنوير ١١٠/٨

حقيقة الاستدراك لا تقوم إلا بذلك.

واختيار طريق الإضافة في تعريف المرسل: لما تؤذن به من تفخيم المضاف ومن وجوب طاعته على جميع الناس، تعريضا بقومه إذ عصوه.

وجملة: ﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ صفة لرسول، أو مستأنفة، والمقصود منها إفادة التجدد، وأنه غير تارك التبليغ من أجل تكذيبهم تأييسا لهم من متابعته إياهم، ولولا هذا المقصد لكان معنى هذه الجملة حاصلا من معنى قوله: ﴿ولكني رسول﴾ ، ولذلك جمع الرسالات لأن كل تبليغ يتضمن رسالة بما بلغه، ثم إن اعتبرت جملة: ﴿أبلغكم﴾ صفة، يكن العدول عن ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم في قوله: ﴿أبلغكم﴾ وقوله: ﴿ربي﴾ **التفاتا**، باعتبار كون الموصوف خبرا عن ضمير المتكلم، وان اعتبرت استئنافا، فلا **التفات.**

والتبليغ والإبلاغ: جعل الشيء بالغا، أي واصلا إلى المكان المقصود، وهو هنا استعارة للإعلام بالأمر المقصود علمه، فكأنه ينقله من مكان إلى مكان.

وقرأ الجمهور: أبلغكم بفتح الموحدة وتشديد اللام وقراه أبو عمرو، ويعقوب: بسكون الموحدة وتخفيف اللام من الإبلاغ والمعنى واحد.

ووجه العدول عن الإضمار إلى الإظهار في قوله: ﴿رسالات ربي﴾ هو ما تؤذن به إضافة الرب إلى ضمير المتكلم من لزوم طاعته، وأنه لا يسعه الا تبليغ ما أمره بتبليغه، وإن كره قومه.

والنصح والنصيحة كلمة جامعة، يعبر بها عن حسن النية وإرادة الخير من قول أو عمل، وفي الحديث: الدين النصيحة وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. ويكثر إطلاق النصح على القول إلي فيه تنبيه للمخاطب إلى ما ينفعه ويدفعه عنه الضر.

وضده الغش. وأصل معناه أن يتعدى إلى المفعول بنفسه، ويكثر أن يعدى إلى المفعول بلام زائدة دالة على معنى الاختصاص للدلالة على أن الناصح أراد من نصحه ذات المنصوح، لا جلب خير لنفس الناصح، ففي ذلك مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة، وأنها وقعت خالصة للمنصوح، مقصودا بها جانبه لا غير، فرب نصيحة ينتفع". (١)

٧٨-"الجملة: ﴿قال لقومه﴾ [لأعراف: ٨٠] وهذا التعقيب يؤذن بأن لوطا عليه السلام أرسل إلى قومه قبل حلول العذاب بهم بزمن قليل.

و ﴿أنجيناه﴾ مقدم من تأخير. والتقدير: فأمطرنا عليهم مطرا وأنجيناه وأهله، فقدم الخبر بإنجاء لوط عليه السلام على الخبر بإمطارهم مطر العذاب، لقصد إظهار الاهتمام بأمر إنجاء لوط عليه السلام، ولتعجيل المسرة للسامعين من المؤمنين، فتطمئن قلوبهم لحسن عواقب أسلافهم من مؤمني الأمم الماضية، فيعلموا أن تلك سنة الله في عباده، وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ في هذه السورة [٦٤].

وأهل لوط عليه السلام هم زوجه وابنتان له بكران، وكان له ابنتان متزوجتان كما ورد في التوراة امتنع زوجاهما من الخروج

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٩/٨

مع لوط عليه السلام فهلكتا مع أهل القرية.

وأما امرأة لوط عليه السلام فقد أخبر الله عنها هنا أن الله لم ينجها، فهلكت مع قوم لوط، وذكر في سورة هود ما ظاهره أنها لم تمتثل ما أمر الله لوطا عليه السلام أن لا يلتفت هو ولا أحد من أهله الخارجين معه إلى المدن حين يصيبها العذاب فالتفتت امرأته فأصابها العذاب، وذكر في سورة التحريم أن امرأة لوط عليه السلام كانت كافرة. وقال المفسرون: كانت تسر الكفر وتظهر الإيمان، ولعل ذلك سبب التفاتها لأنها كانت غير موقنة بنزول العذاب على قوم لوط، ويحتمل أنها لم تخرج مع لوط عليه السلام وان قوله: ﴿إلا امرأتك﴾ في سورة هود [٨١]، استثناء من ﴿أهلك﴾ لا من ﴿أحد﴾ . لعل امرأة لوط عليه السلام كانت من أهل سدوم تزوجها لوط عليه السلام هنالك بعد هجرته، فإنه أقام في سدوم سنين طويلة بعد أن هلكت أم بناته وقبل أن يرسل، وليست هي أم بنتيه فإن التوراة لم تذكر امرأة لوط عليه السلام إلا في آخر القصة.

ومعنى ﴿من الغابرين﴾ من الهالكين، والغابر يطلق على المنقضي، ويطلق على الآتي، فهو من أسماء الأضداد، وأشهر إطلاقيه هو المنقضي، ولذلك يقال: غبر بمعنى هلك، وهو المراد هنا: أي كانت من الهالكين، أي هلكت مع من هلك من أهل سدوم.

والإمطار مشتق من المطر، والمطر اسم للماء النازل من السحاب، يقال: مطرتهم السماء بدون همزة بمعنى نزل عليهم المطر، كما يقال: غاثتهم ووبلتهم، ويقال: مكان ممطور، أي أصابه المطر، ولا يقال: ممطر، ويقال أمطروا بالهمزة بمعنى نزل عليهم". (١)

٧٩-"مصر وأهلها فإنه قال لهم: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤] فلما وصف موسى مرسله بأنه رب العالمين شمل فرعون وأهل مملكته فتبطل دعوى فرعون أنه إله مصر بطريق اللزوم، ودخل في ذلك جميع البلاد والعباد الذين لم يكن فرعون يدعي أنه إلههم مثل الفرس والآشوريين.

وقوله ﴿حقيق على﴾ قرأه نافع بالياء في آخر "علي" فهي ياء المتكلم دخل عليها حرف "على" وتعدية حقيق بحرف "على" معروفة، وقال تعالى: ﴿ فحق علينا قول ربنا﴾ [الصافات: ٣١] الصافات، ولأن حقيق بمعنى واجب، فتعدية بحرف على واضحة. و ﴿حقيق﴾ خبر ثان عن ﴿إني﴾ ، فليس في ضمير المتكلم من قوله "علي" على قراءة نافع التفات، بخلاف ما لو جعل قوله ﴿حقيق﴾ صفة لـ ﴿رسول﴾ فحينئذ يكون مقتضى الظاهر الإتيان بضمير الغائب، فيقول: حقيق عليه، فيكون العدول إلى التكلم التفاتا. وفاعل ﴿حقيق﴾ هو المصدر المأخوذ من قوله: ﴿أن لا أقول﴾ أي: حقيق علي عدم قولي على الله غير الحق.

وحقيق فعيل بمعنى فاعل، وهو مشتق من "حق" وجب وثبت أي: متعين وواجب علي قول الحق على الله، و"على" الأولى للاستعلاء المجازي و"على" الثانية بمعنى عن. وقرأ الجمهور "على" بألف بعد اللام. وهي "على" الجارة.

ففي تعلق "علط ومجرورها الظاهر ب ﴿حقيق﴾ تأويل بوجوه أحسنها قول الفراء، وأبي علي الفارسي: أن "على" هنا بمعنى

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٣/٨

الباء وأن ﴿حقيق﴾ فعيل بمعنى مفعول: أي محقوق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أي: مجعول قول الحق حقا علي، كقول الأعشى:

لمحقوقة أن تستجيبي لقوله

أي محقوقة بأن تستجيبي، وقول سعيد بن زيد ولو أن أحدا انقض لما صنعتم بعثمان لكان محقوقا بأن ينقض.

ومنها ما قال صاحب الكشاف والأوجه الأدخل في نكت القرآن أن يغرق موسى في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام فيقول: أنا حقيق على قول الحق، أي: أنا واجب على قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به قال شارحوه: فالمعنى لو كان قول الحق شخصا عاقلا لكنت أنا واجبا عليه. أن لا يصدر إلا عني وأن أكون قائله، وهو على هذا استعارة بالكناية: شبه قول الحق بالعقلاء الذين يختارون مواردهم ومصادرهم.". (١)

٨٠-"يستضعفون﴾ إلى آخرها منزلة التذييل الذي لا يعطف، فكان مقتضى العطف هو قوله ﴿بما صبروا﴾.

وكلمة: هي القول، وهو هنا يحتمل أن يكون المراد به اللفظ الذي وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى في قوله ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض﴾ [الأعراف: ١٢٩] أو على لسان إبراهيم وهي وعد تمليكهم الأرض المقدسة، فتمام الكلمة تحقق وعدها شبه تحققها بالشيء إذا استوفى أجزاءه، ويحتمل أنها كلمة الله في علمه وقدره وهي إرادة الله إطلاقهم من استعباد القبط وإرادته تمليكهم الأرض المقدسة كقوله ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾ [النساء: ١٧١].

وتمام ا لكلمة بهذا المعنى ظهور تعلقها التنجيزي في الخارج على نحو قول موسى ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾ [المائدة: ٢١] وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا﴾ في سورة الأنعام [١١٥].

و ﴿الحسنى﴾ : صفة لـ ﴿كلمة﴾ ، وهي صفة تشريف كما يقال الأسماء الحسنى، أي كلمة ربك المنزهة عن الخلف، ويحتمل أن يكون المراد حسنها لبني إسرائيل، وإن كانت سيئة على فرعون وقومه، لأن العدل حسن وإن كان فيه إضرار بالمحكوم عليه.

والخطاب في قوله ﴿ربك﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم، أدمج في ذكر القصة إشارة إلى أن الذي حقق نصر موسى وأمته على عدوهم هو ربك فسينصرك وأمتك على عدوكم لأنه ذلك الرب الذي نصر المؤمنين السابقين، وتلك سنته وصنعه، وليس في الخطاب **التفات** من الغيبة إلى الخطاب لاختلاف المراد من الضمائر.

وعدي فعل التمام "بعلى" للإشارة إلى تضمين ﴿تمت﴾ معنى الإنعام، أو معنى حقت.

وباء ﴿بما صبروا﴾ للسببية، و"ما" مصدرية أي بصبرهم على الأذى في ذات الإله وفي ذلك تنبيه على فائدة الصبر وأن الصابر صائر إلى النصر وتحقيق الأمل.

والتدمير: التخريب الشديد وهو مصدر دمر الشيء إذا جعله دامرا للتعدية متصرف من الدمار بفتح الدال وهو مصدر قاصر. يقال دمر القوم بفتح الميم يدمرون بضم الميم دمارا، إذا هلكوا جميعا، فهم دامرون. والظاهر أن إطلاق التدمير على

---

(١) التحرير والتنوير ٨/٢٢٥

إهلاك المصنوع مجازي علاقته الإطلاق لأن الظاهر أن التدمير حقيقته إهلاك الإنسان.". (١)

٨١-"الذي سيق الكلام لأجله، ولكن لما صدر الأمر بخطاب جميع البشر وكان فيهم من لا يؤمن بالله، وفيهم من يؤمن بالله ولا يؤمن بالنبي الأمي، جمع بين الإيمان بالله والإيمان بالنبي الأمي في طلب واحد، ليكون هذا الطلب متوجها للفرق كلهم، ليجمعوا في إيمانهم بين الإيمان بالله والنبي الأمي، مع قضاء حق التأدب مع الله بجعل الإيمان به مقدما على طلب الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم للإشارة إلى أن الإيمان بالرسول إنما هو لأجل الإيمان بالله، على نحو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ [النساء: ١٥٠]، وهذا الأسلوب نظير قوله تعالى: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة﴾ [النساء: ١٧١] فانهم آمنوا بالله ورسله، وإنما المقصود زيادة النهي عن اعتقاد التثليث، وهو المقصود من سياق الكلام.

والإيمان بالله الإيمان بأعظم صفاته وهي الإلهية المتضمن إياها اسم الذات، والإيمان بالرسول الإيمان بأخص صفاته وهو الرسالة، وذلك معلوم من إناطة الإيمان بوصف الرسول دون اسمه العلم.

وفي قوله: ﴿ورسوله النبي الأمي﴾ **التفات** من التكلم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمد صلى الله عليه وسلم.

ووصف النبي الأمي بالذي يؤمن بالله وكلماته، بطريق الموصولية للإيماء إلى وجه الأمر بالإيمان بالرسول، وانه لا معذرة لمن لا يؤمن به من أهل الكتاب، لأن هذا الرسول يؤمن بالله وبكلمات الله، فقد اندرج في الإيمان به الإيمان بسائر الأديان الإلهية الحق.وهذا نظير قوله تعالى، في تفضيل المسلمين ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ [آل عمران: ١١٩] وتقدم معنى الأمي قريبا.

وكلمات جمع كلمة بمعنى الكلام مثل قوله تعالى: ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾ [المؤمنون: ١٠٠] أي قوله: ﴿رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].فلكلمات الله تشمل كتبه ووحيه للرسل، وأوثر هنا التعبير بكلماته، دون كتبه، لان المقصود الإيماء إلى إيمان الرسول عليه الصلاة والسلام بأن عيسى كلمة الله، أي أثر كلمته، وهي أمر التكوين، إذ كان تكون عيسى عن غير سبب التكون المعتاد بل كان تكونه بقول الله: ﴿كن﴾ كما قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [آل عمران:٥٩]، فاقتضى أن الرسول عليه الصلاة والسلام يؤمن بعيسى، أي". (٢)

٨٢-"غير الحق، ويجوز كونه عطف بيان من ميثاق، فلا يقدر حرف جر، والتقدير: ميثاق الكتاب انتفاء قولهم على الله الخ.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٢/٨

(٢) التحرير والتنوير ٣٢١/٨

وفعل ﴿ودرسوا﴾ عطف على ﴿يؤخذ﴾ ، لان يؤخذ في معنى المضي، لأجل دخول لم عليه، والتقدير: ألم يؤخذ ويدرسوا، لان المقصود تقريرهم بأنهم درسوا الكتاب، لا الإخبار عنهم بذلك كقوله تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا﴾ إلى قوله: ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا﴾ [النبأ: ٦، ١٤] والتقدير: ونخلقكم أزواجا ونجعل نومكم سباتا، إلى آخر الآية.

والمعنى: أنهم قد أخذ عليهم الميثاق بأن لا يقولوا على الله إلا الحق، وهم عالمون بذلك الميثاق لأنهم درسوا ما في الكتاب فبمجموع الأمرين قامت عليهم الحجة.

وجملة ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ حالية من ضمير ﴿يأخذون﴾ أي: يأخذون ذلك ويكذبون على الله ويصرون على الذنب وينبذون ميثاق الكتاب على علم في حال أن الدار الآخرة خير مما تعجلوه.وفي جعل الجملة في موضع الحال تعريض بأنهم يعلمون ذلك أيضا فهم قد خيروا عليه عرض الدنيا قصدا، وليس ذلك عن غفلة صادفتهم فحرمتهم من خير الآخرة، بل هم قد حرموا أنفسهم، وقرينة ذلك قوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ المتفرع على قوله: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ وقد نزلوا في تخيرهم عرض الدنيا بمنزلة من لا عقول لهم فخوطبوا ب ﴿أفلا تعقلون﴾ بالاستفهام الإنكاري، وقد قرئ بتاء الخطاب، على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ليكون أوقع في توجيه التوبيخ إليهم مواجهة، وهي قراءة نافع، وابن عامر، وابن ذكوان، وحفص عن عاصم، ويعقوب، وأبي جعفر، وقرأ البقية بياء الغيبة، فيكون توبيخهم تعريضيا.

وفي قوله: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ كناية عن كونهم خسروا خير الآخرة بأخذهم عرض الدنيا بتلك الكيفية لان كون الدار الآخرة خيرا مما أخذوه يستلزم أن يكون ما أخذوه قد أفات عليهم خير الآخرة.

وفي جعل الآخرة خير للمتقين كناية عن كون الذين أخذوا عرض الدنيا بتلك الكيفية لم يكونوا من المتقين، لأن الكناية عن خسرانهم خير الآخرة مع إثبات كون خير الآخرة للمتقين تستلزم أن الذين أضاعوا خير الآخرة ليسوا من المتقين، وهذه معان كثيرة جمعها قوله: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ وهذا من حد الإعجاز العجيب.". (١)

٨٣-"بلاد قومه فمات كافرا.وكان يذكر في شعره الثواب والعقاب واسم الله وأسماء الأنبياء، وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم "كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم" وروي عن أمية أنه قال لما مرض مرض موته أنا أعلم أن الحنيفية حق ولكن الشك يداخلني في محمد".

فمعنى ﴿آتيناه آياتنا﴾ أن الله ألهم أمية كراهية الشرك، وألقى في نفسه طلب الحق، ويسر له قراءة كتب الانبياء، وحبب إليه الحنيفية، فلما انفتح له باب الهدى وأشرق نور الدعوة المحمدية كابر وحسد وأعرض عن الإسلام، فلا جرم أن كانت حاله أنه انسلخ عن جميع ما يسر له، ولم ينتفع به عند إبان الانتفاع، فكان الشيطان هو الذي صرفه عن الهدى فكان من الغاوين، إذ مات على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وقال سعيد بن المسيب نزلت في أبي عامر بن صيفي الراهب واسمه النعمان الخزرجي، وكان يلقب بالراهب في الجاهلية لأنه

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٢/٨

قد تنصر في الجاهلية ولبس المسوح وزعم أنه على الحنيفية، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة دخل على النبي فقال يا محمد ما الذي جئت به قال: "جئت بالحنيفية دين إبراهيم" قال فإني عليها فقال النبي "لست عليها لأنك أدخلت فيها ما ليس منها" فكفر وخرج إلى مكة يحرض المشركين على قتال النبي صلى الله عليه وسلم ويخرج معهم، إلى أن قاتل في حنين بعد فتح مكة فلما انهزمت هوازن يئس وخرج إلى الشام فمات هنالك.

وذهب كثير من المفسرين إلى أنها نزلت في رجل من الكنعانيين وكان في زمن موسى عليه السلام يقال له بلعام بن باعور، وذكروا قصته فخلطوها وغيروها واختلفوا فيها، والتحقيق أن بلعام هذا كان من صالحي أهل مدين وعرافيهم في زمن مرور بني إسرائيل على ارض مؤاب ولكنه لم يتغير عن حال الصلاح، وذلك مذكور في سفر العدد من التوراة في الإصحاحات ٢٢-٢٣-٢٤ فلا ينبغي **الالتفات** إلى هذا القول لاضطرابه واختلاطه.

والإيتاء هنا مستعار للإطلاع وتيسير العلم مثل قوله ﴿وآتاه الله الملك والحكمة﴾ ١ [البقرة: ٢٥١].

والآيات دلاءل الوحدانية التي كرهت إليه الشرك وبعثته على تطلب الحنيفبة بالنسبة

_

١ في المطبوعة: ﴿وآتاه الله العلم والحكمة﴾ وهو غلط، والمثبت هو الموافق للقرآن الكريم.". (١)

٨٤-"وتفسير ﴿ويذرهم في﴾ تقدم عند قوله تعالى: ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا﴾ في سورة الأنعام وتفسير ﴿طغيانهم﴾ و ﴿يعمهون﴾ تقدم عند قوله: ﴿في طغيانهم يعمهون﴾ في سورة البقرة [١٥].

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر،: ﴿يذرهم﴾ بالنون وبالرفع، على أنه عطف جملة على جملة ﴿من يضلل الله﴾ على طريقة **الالتفات** من الغيبة إلى التكلم.

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: بالياء التحتية والجزم، على أنه عطف على موضع ﴿فلا هادي له﴾ وهو جواب الشرط.

وقرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب: بالياء التحتية وبالرفع والوجه ظاهر.

[١٨٧] ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾.

استئناف ابتدائي يذكر به شيء من ضلالهم ومحاولة تعجيزهم النبي صلى الله عليه وسلم بتعيين وقت الساعة.

ومناسبة هذا الاستئناف هي التعرض لتوقع اقتراب أجلهم في قوله: ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ [لأعراف: ١٨٥] سواء أفسر الأجل بأجل إذهاب أهل الشرك من العرب في الدنيا، وهو الاستئصال، أم فسر بأجلهم وأجل بقية الناس وهو قيام الساعة، فإن للكلام على الساعة مناسبة لكلا الأجلين.

وقد عرف من شنشنة المشركين إنكارهم، البعث وتهكمهم بالرسول عليه الصلاة والسلام من أجل إخباره عن البعث ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد أفترى على الله كذبا أم به جنة﴾ [سبأ:

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥١/٨

٧، ٨]، وقد جعلوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة ووقتها تعجيزا له، لتوهمهم أنه لما أخبرهم بأمرها فهو يدعي العلم بوقتها ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ [سبأ: ٢٩,٣٠].

فالسائلون هم المشركون، وروي ذلك عن قتادة، والضمير يعود إلى الذين كذبوا بآياتنا، وقد حكي عنهم مثل هذا السؤال في مواضع من القرآن كقوله تعالى في سورة". (١)

٨٥-"والنفس الواحدة هو قصي بن كلاب تزوج امرأة من خزاعة فلما آتاهما الله أولادا أربعة ذكورا سمى ثلاثة منهم عبد مناف، وعبد العزى، وعبد الدار، وسمى الرابع "عبدا" بدون إضافة وهو الذي يدعى بعبد قصي.

وقرأ نافع، وعاصم في رواية أبي بكر عنه، وأبو جعفر: شركا بكسر الشين وسكون الراء أي اشتراكا مع الله، والمفعول الثاني لفعل جعلا محذوف للعلم به، أي جعلا له الأصنام شركا، وقرأ بقية العشرة شركاء بضم الشين جمع شريك، والقراءتان متحدتان معنى.

وفي جملة ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ محسن من البديع وهو مجيء الكلام متزنا على ميزان الشعر، من غير أن يكون قصيدة، فان هذه الجملة تدخل في ميزان الرمل.

وفيها **الالتفات** من الخطاب الذي سبق في قوله: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ وليس عائد إلى ما قبله، لأن ما قبله كان بصيغة المثنى خمس مرات من قوله: ﴿دعوا الله ربهما﴾ إلى قوله: ﴿فيما آتاهما﴾ .

[١٩١,١٩٢] ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون﴾.

هذه الآيات الثلاث كلام معترض بين الكلامين المسوقين لتوبيخ المشركين وإقامة الحجة عليهم، مخاطب بها النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمون، للتعجيب من عقول المشركين، وفيه تعريض بالرد عليهم لأنه يبلغ مسامعهم.

والاستفهام مستعمل في التعجيب والإنكار.

وصيغة المضارع في ﴿يشركون﴾ دالة على تجدد هذا الإشراك منهم.ونفي المضارع في قوله: ﴿ما لا يخلق شيئا﴾ للدلالة على تجدد نفي الخالقية عنهم.

وأصل معنى التجدد، الذي يدل عليه المسند الفعلي، هو حدوث معنى المسند للمسند إليه، وانه ليس مجرد ثبوت وتقرر، فيعلم منه: أنهم لا يخلقون في الاستقبال، وانهم ما خلقوا شيئا في الماضي، لأنه لو كان الخلق صفة ثابتة لهم لكان متقررا في الماضي والحال والاستقبال.

وضمير الغيبة في ﴿وهم يخلقون﴾ يجوز عندي: أن يكون عائدا إلى ما عاد إليه". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧٤/٨

(٢) التحرير والتنوير ٣٨٨/٨

٨٦-"ويجوز أن تكون جملة ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى﴾ إلخ معطوفة على جملة الصلة في قوله: ﴿لا يخلق شيئا وهم يخلقون﴾ [الأعراف: ١٩١] فيكون ضمير الخطاب في ﴿تدعوهم﴾ خطابا للمشركين الذين كان الحديث عنهم بضمائر الغيبة من قوله: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ [الأعراف: ١٩٠] إلى هنا، فمقتضى الظاهر أن يقال: وإن يدعوهم إلى الهدى لا يتبعوهم، فيكون العدول عن طريق الغيبه إلى طريق الخطاب **التفاتا** من الغيبة إلى الخطاب توجها إليهم بالخطاب لأن الخطاب أوقع في الدمغ بالحجة.

و ﴿الهدى﴾ على هذا الوجه ما يهتدى إليه، والمقصود من ذكره أنهم لا يستجيبون إذا دعوتموهم إلى ما فيه خيرهم فيعلم أنهم لو دعوهم إلى غير ذلك لكان عدم اتباعهم دعوتهم أولى.

وجملة ﴿سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ مؤكدة لجملة ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم﴾ فلذلك فصلت.

و ﴿سواء﴾ اسم للشيء المساوي غيره أي ليس أولى منه في المعنى المسوق له الكلام والهمزة التي بعد ﴿سواء﴾ يقال لها همزة التسوية، وأصلها همزة الاستفهام استعملت في التسوية، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ في سورة البقرة [٦]، أي سواء دعوتكم إياهم وصمتكم عن الدعوة.

و"على" فيها للاستعلاء المجازي وهي بمعنى العندية أي: سواء عندهم.وإنما جعل الأمران سواء على المخاطبين ولم يجعلا سواء على المدعوين فلم يقل سواء عليهم، وإن كان ذلك أيضا سواء عليهم لان المقصود من الكلام هو تأييس المخاطبين من استجابة المدعوين إلى ما يدعونهم إليه لا الإخبار وان كان المعنيان متلازمين كما أنهما في قوله ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ [البقرة: ٦] متلازمان فإن الإنذار وعدمه سواء: على المشركين، وعلى المؤمنين، ولكن الغرض هنالك بيان انعدام انتفاعهم بالهدى.

وهذا هو القانون للتفرقة بين ما يصح أن يسند فيه فعل التسويه إلى جانبين وبين ما يتعين أن يسند فيه إلى جانب واحد إذا كانت التسوية لا تهم إلا جانبا واحدا، كما في قوله تعالى: ﴿اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾ [الطور: ١٦] فانه يتعين أن تجعل التسوية بالنسبة للمخاطبين، ولا يحسن أن يقال سواء علينا وكقوله: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ [ابراهيم: ٢١] فانه يتعين أن تكون التسوية بالنسبة إلى المتكلمين.". (١)

٨٧-"عادته، وأياما كان فالعدول عن الجملة الفعلية في معادل التسوية اقتضاه الحال البلاغي خلافا لثعلب.

[١٩٤] ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾.

هذه الجملة على الوجه الأول في كون المخاطب، بقوله: ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم﴾ [لأعراف: ١٩٣] الآية النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين أن تكون استئنافا ابتدائيا انتقل به إلى مخاطبة المشركين، ولذلك صدر بحرف التوكيد لأن المشركين ينكرون مساواة الأصنام إياهم في العبودية، وفيه **الالتفات** من الغيبة إلى الخطاب.

والمراد بالذين تدعون من دون الله: الأصنام، فتعريفها بالموصول لتنبيه المخاطبين على خطإ رأيهم في دعائهم إياها من دون

---

(١) التحرير والتنوير ٣٩١/٨

الله، في حين هي ليست أهلا لذلك، فهذا الموصول كالموصول في قول عبدة بن الطبيب:

إن الذين ترونهم إخوانكم ... يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا

ويجيء على الوجه الثاني في الخطاب السابق: أن تكون هذه الجملة بيانا وتعليلا لجملة ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم﴾ [لأعراف: ١٩٣] أي لأنهم عباد أي مخلوقون.

و"العبد" اصله المملوك، ضد الحر، كما في قوله تعالى: ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد﴾ [البقرة: ١٧٨] وقد أطلق في اللسان على المخلوق: كما في قوله تعالى: ﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا﴾ [مريم:٩٣] ولذلك يطلق العبيد على الناس، والمشهور أنه لا يطلق إلا على المخلوقات من الآدميين فيكون إطلاق العباد على الأصنام كإطلاق ضمير جمع العقلاء عليها بناء على الشائع في استعمال العرب يومئذ من الإطلاق، وجعله صاحب الكشاف إطلاق تهكم واستهزاء بالمشركين، يعني أن قصارى أمرهم بأن يكونوا أحياء عقلاء فلو بلغوا تلك الحالة لما كانوا إلا مخلوقين مثلكم، قال ولذلك ابطل أن يكونوا عبادا بقوله عقبه: ﴿ألهم أرجل﴾ [الأعراف: ١٩٥] إلى آخره.

والأحسن عندي أن يكون إطلاق العباد عليهم مجازا بعلاقة الإطلاق عن التقييد روعي في حسنة المشاكلة التقديرية لأنه لما ماثلهم بالمخاطبين في المخلوقية وكان المخاطبون عباد الله أطلق العباد على مماثليهم مشاكلة.". (١)

٨٨-"يلتفت لا ينظر إلى الشيء وقد فسر ذلك في قوله تعالى ﴿أعرض ونأى بجانبه﴾ [الاسراء: ٨٣] وهو، هنا، مستعار لعدم المؤاخذة بما يسوء من أحد، شبه عدم المؤاخذة على العمل بعدم **الالتفات** إليه في كونه لا يترتب عليه أثر العلم به لأن شأن العلم به أن تترتب عليه المؤاخذة.

و"الجهل" هنا ضد الحلم والرشد، وهو أشهر إطلاق الجهل في كلام العرب قبل الإسلام، فالمراد بالجاهلين السفهاء كلهم لأن التعريف فيه للاستغراق، وأعظم الجهل هو الإشراك، إذ اتخاذ الحجر إلها سفاهة لا تعدلها سفاهة، ثم يشمل كل سفيه رأي.وكذلك فهم منها الحر بن قيس في الخبر المتقدم آنفا وأقره عمر بن الخطاب على ذلك الفهم.

وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفوا عن اعتداء فتدخل في ﴿خذ العفو﴾ ، أو إغضاء عما لا يلائم فتدخل في ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ ، أو فعل خير واتساما بفضيلة فتدخل في ﴿وأمر بالعرف﴾ كما تقدم من الأمر بالأمر بالشيء أمر بذلك الشيء، وهذا معنى قول جعفر بن محمد: في هذه الآية أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها وهي صالحة لأن يبين بعضها بعضا فان الأمر بأخذ العفو يتقيد بوجوب الأمر بالعرف، وذلك في كل ما لا يقبل العفو والمسامحة من الحقوق، وكذلك الأمر بالعرف يتقيد بأخذ العفو وذلك بأن يدعو الناس إلى الخير بلين ورفق.

[٢٠٠] ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾.

وهذا الأمر مراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتداء وهو شامل لأمته.

---

(١) التحرير والتنوير ٨/٣٩٣

"إما" هذه هي إن الشرطية اتصلت بها "ما" الزائدة التي تزاد على بعض الأسماء غير أدوات الشروط فتصيرها أدواتها، نحو مهما فان أصلها ما، ونحو اذ ما و أينما و أيا مما و حيثما و كيفما فلا جرم أن "ما" إذا اقترنت بما يدل على الشرط أكتسبته قوة شرطية فلذلك كتبت "إماط هذه على صورة النطق بها ولم تكتب مفصولة النون عن "ما" والنزغ النخس والغرز، كذا فسره في الكشاف وهو التحقيق، وأما الراغب وابن عطية فقيداه بأنه دخول شيء في شيء لإفساده قلت وقريب منه الفسخ بالسين وهو الغرز بإبرة أو نحوها للوشم قال ابن عطية وقلما يستعمل في غير فعل الشيطان ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ [يوسف: ١٠٠].". (١)

٨٩-"عارضة، لليقين لا يعرف فاعل انقداحها في العقل، وغاية ما يعرف أن يقال: ازداد إيمان فلان، أو ازداد فلان إيمانا، بطريق ما يدل على المطاوعة، ولا **التفات** في الاستعمال إلى أن الله هو خالق الأحوال كلها إذ ليس ذلك معنى الفاعل الحقيقي في العرف، ولو لوحظ ذلك لم ينقسم الكلام إلى حقيقة ومجاز عقليين وإنما الفاعل الحقيقي هو من يأتي الفعل ويصنعه كالكاتب للكتابة والضارب بالسيف للقتل.

والإيمان: تصديق النفس بثبوت نسبة شيء لشيء، أو بانتفاء نسبة شيء عن شيء، تصديقا جازما لا يحتمل نقيض تلك النسبة، وقد اشتهر اسم الإيمان شرعا في اليقين بالنسبة المقتضية وجود الله ووجود صفاته التي دلت عليها الأدلة العقلية أو الشرعية، والمقتضية مجيء رسول الله مخبرا عن الله الذي أرسله وثبوت صفات الرسول عليه الصلاة والسلام التي لا يتم معنى رسالته عن الله بدونها: مثل الصدق فيما يبلغ عن الله، والعصمة عن اقتراف معصية الله تعالى.

ومعنى زيادة الإيمان: قوة اليقين في نفس الموقن على حسب شدة الاستغناء عن استحضار الأدلة في نفسه، وعن إعادة النظر فيها، ودفع الشك العارض للنفس، فإنه كلما كانت الأدلة أكثر وأقوى وأجلى مقدمات كان اليقين أقوى، فتلك القوة هي المعبر عنها بالزيادة، وتفاوتها تدرج في الزيادة. ويجوز أن تسمى قلة التدرج في الأدلة نقصا لكنه نقص عن الزيادة، وذلك مع مراعاة وجود أصل حقيقة الإيمان، لأنها لو نقصت عن اليقين لبطلت ماهية الإيمان، وقد أشار البخاري إلى هذا بقوله: "باب زيادة الإيمان ونقصانه فإذا ترك شيئا من الكمال فهو ناقص" فلو أن نقص الأدلة بلغ بصاحبه إلى انخرام اليقين لم يكن العلم الحاصل له إيمانا، حتى يوصف بالنقص، فهذا هو المراد من وصف الإيمان بالزيادة، في القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو بين. ولم يرد عن الشريعة ذكر نقص الإيمان، وذلك هو الذي يريده جمهور علماء الأمة إذا قالوا الإيمان يزيد كما قال مالك بن أنس الإيمان يزيد ولا ينقص، وهي عبارة كاملة، وقد يطلق الإيمان على الأعمال التي تجب على المؤمن وهو إطلاق باعتبار كون تلك الأعمال من شرائع الإيمان، كما أطلق على الصلاة اسم الإيمان في قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة: ١٤٣] ولكن الاسم المضبوط لهذا المعنى هو اسم "الإسلام" كما يفصح عنه حديث سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان، فالإيمان قد يطلق على الإسلام وهو بهذا الاعتبار يوصف بالنقص والزيادة

---

(١) التحرير والتنوير ٤٠١/٨

باعتبار الإكثار من الأعمال والإقلال، ولكنه ليس المراد في هذه الآية ولا". (١)

٩٠-"تقدم في نظيره في سورة البقرة.

و ﴿كيد الكافرين﴾ هو قصدهم الإضرار بالمسلمين في صورة ليست ظاهرها بمضرة، وذلك أن جيش المشركين الذين جاءوا لإنقاذ العير لما علموا بنجاة غيرهم، وظنوا خيبة المسلمين الذين خرجوا في طلبها، أبوا أن يرجعوا إلى مكة، وأقاموا على بدر لينحروا ويشربوا الخمر ويضربوا الدفوف فرحا وافتخارا بنجاة عيرهم وليس ذلك لمجرد اللهو، ولكن ليتسامع العرب فيتساءلوا عن سبب ذلك فيخبروا بأنهم غلبوا المسلمين فيصرفهم ذلك عن اتباع الإسلام فأراد الله توهينهم بهزمهم تلك الهزيمة الشنعاء فهو موهن كيدهم في الحال وتقدم تفسير. الكيد عند قوله تعالى: ﴿وأملي لهم إن كيدي متين﴾ في سورة الأعراف[١٨٣].

وقرأ نافع كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، "موهن" بفتح الواو وبتشديد الهاء وبالتنوين ونصب كيد، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وخلف، ويعقوب، موهن بتسكين الواو وتخفيف الهاء ونصب ﴿كيد﴾- والمعنى على القراءتين سواء، وقرأ حفص عن عاصم بإضافة ﴿موهن﴾ إلى ﴿كيد﴾، والمعنى وهي إضافة لفظية مساوية للتنكير.

[١٩] ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين﴾.

جمهور المفسرين جعلوا الخطاب موجها إلى المشركين، فيكون الكلام اعتراضا خوطب به المشركون في خلال خطبات المسلمين بمناسبة قوله: ﴿ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ [الأنفال: ١٨] والخطاب **التفات** من طريق الغيبة الذي اقتضاه قوله: ﴿وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ [الأنفال: ١٨] وذكر المفسرون في سبب نزولها أن أبا جهل وأصحابه لما أزمعوا الخروج إلى بدر استنصروا الله تجاه الكعبة، وأنهم قبل أن يشرعوا في القتال يوم بدر استنصروا الله أيضا وقالوا ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه، فخوطبوا بأن قد جاءهم الفتح على سبيل التهكم أي الفتح الذي هو نصر المسلمين عليهم.

وإنما كان تهكما لأن في معنى ﴿جاءكم الفتح﴾ استعارة المجيء للحصول عندهم تشبيها بمجيء المنجد لأن جعل الفتح جاءيا إياهم. يقتضي أن النصر كان في جانبهم ولمنفعتهم، والواقع يخالف ذلك، فعلم أن الخبر مستعمل في التهكم بقرينة مخالفته الواقع". (٢)

٩١-"وانطلقوا، فقال له الحارث بن هشام، أخو أبي جهل: "إلى أين اتخذ لنا في هذه الحال فقال سراقة إني أرى ما لا ترون" فكان ذلك من أسباب عزم قريش على الخروج والمسير، حتى لقوا هزيمتهم التي كتب الله لهم في بدر وكان خروج سراقة ومن معه بوسوسة من الشيطان، لئلا ينثني قريش عن الخروج، وكان انخزال سراقة بتقدير من الله ليتم نصر المسلمين، وكان خاطر رجوع سراقة خاطرا ملكيا ساقه الله إليه لأن سراقة لم يزل يتردد في أن يسلم منذ يوم لقائه رسول الله صلى الله

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٩

(٢) التحرير والتنوير ٥٤/٩

عليه وسلم في طريق الهجرة، حين شاهد معجزة سوخ قوائم فرسه في الأرض، وأخذه الأمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورويت له أبيات خاطب بها أبا جهل في قضيته في يوم الهجرة، وما زال به ذلك حتى أسلم يوم الفتح.

وتزيين الشيطان للمشركين أعمالهم: يجوز أن يكون إسنادا مجازيا، وإنما المزين لهم سراقة بإغراء الشيطان، بما سول إلى سراقة بن مالك من تثبيته المشركين على المضي في طريقهم لإنقاذ عيرهم، وأن لا يخشوا غدر كنانة بهم، وقيل تمثل الشيطان للمشركين في صورة سراقة وليس تمثل الشيطان وجنده بصورة سراقة وجيشه بمروري عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما روي ذلك عن قول ابن عباس، وتأويل ذلك: أن ما صدر من سراقة كان بوسوسة من الشيطان، ويجوز أن يكون اسم الشيطان أطلق على سراقة لأنه فعل فعل الشيطان كما يقولون: فلان من شياطين العرب ويجوز أن يكون إسنادا حقيقيا أي زين لهم في نفوسهم بخواطر وسوسته، وكذلك إسناد قوله: ﴿لا غالب لكم﴾ إليه مجاز عقلي باعتبار صدور القول والنكوص من سراقة المتأثر بوسوسة الشيطان. وكذلك قوله: ﴿إني أرى ما لا ترون﴾.

وقوله: ﴿إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون﴾ إن كان من الشيطان فهو قول في نفسه، وضمير الخطاب **التفات** استحضرهم كأنهم يسمعونه، فقال قوله هذا، وتكون الرؤية بصرية يعني رأى نزول الملائكة وخاف أن يضروه بإذن الله وقوله: ﴿إني أخاف الله﴾ بيان لقوله: ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ أي أخاف عقاب الله فيما رأيت من جنود الله. وإن كان ذلك كله من قول سراقة فهو إعلان لهم برد جواره إياهم لئلا يكون خائنا لهم لأن العرب كانوا إذا أرادوا نقض جوار أعلنوا ذلك لمن أجاروه، كما فعل ابن الدغنة حين أجار أبا بكر من أذى قريش ثم رد جواره من أبي بكر، ومنه قوله تعالى: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ [الأنفال: ٥٨] فالمعنى: إني بريء من جواركم، ولذلك قال له الحارث بن هشام: "إلى اين أتخذلنا" فيكون قد اقتصر على". (١)

٩٢-"اختيارهم إياه حين استشارهم الرسول عليه الصلاة والسلام إنما هو عتاب على نوايا في نفوس جمهور الجيش، حين تخيروا الفداء أي أنهم ما راعوا فيه إلا محبة المال لنفع أنفسهم فعاتبهم الله على ذلك لينبههم على أن حقيقا عليهم أن لا ينسوا في سائر أحوالهم وآرائهم، **الالتفات** إلى نفع الدين وما يعود عليه بالقوة، فإن أبا بكر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند الاستشارة "قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك" فنظر إلى مصلحة دينية من جهتين ولعل هذا الملحظ لم يكن عند جمهور أهل الجيش.

ويجوز عندي أن يكون قوله: ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ مستعملا في معنى الاستفهام الإنكاري، والمعنى: لعلكم تحبون عرض الدنيا فإن الله يحب لكم الثواب وقوة الدين، لأنه لو كان المنظور إليه هو النفع الدنيوي لكان حفظ أنفس الناس مقدما على إسعافهم بالمال، فلما وجب عليهم بذل نفوسهم في الجهاد. فالمعنى: يوشك أن تكون حالكم كحال من لا يحب إلا عرض الدنيا، تحذيرا لهم من التوغل في إيثار الحظوظ العاجلة.

وجملة: ﴿والله عزيز حكيم﴾ عطف على جملة: ﴿والله يريد الآخرة﴾ عطفا يؤذن بأن لهذين الوصفين أثرا في أنه يريد الآخرة،

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٧/٩

فيكون كالتعليل، وهو يفيد أن حظ الآخرة هو الحظ الحق، ولذلك يريده العزيز الحكيم.
فوصف ﴿العزيز﴾ يدل على الاستغناء عن الاحتياج، وعلى الرفعة والمقدرة، ولذلك لا يليق به إلا محبة الأمور النفيسة، وهذا يومئ إلى أن أولياءه ينبغي لهم أن يكونوا أعزاء كقوله في الآية الأخرى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ [المنافقون: ٨] فلأجل ذلك كان اللائق بهم أن يربأوا بنفوسهم عن التعلق بسفاسف الأمور وأن يجنحوا إلى معاليها.
ووصف الحكيم يقتضي أنه العالم بالمنافع الحق على ما هي عليه، لأن الحكمة العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه.
وجملة: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ الخ مستأنفة استئنافا بيانيا لأن الكلام السابق يؤذن بأن مفاداة الأسرى أمر مرهوب تخشى عواقبه، فيستثير سؤالا في نفوسهم عما يترقب من ذلك فبينه قوله: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ الآية.
والمراد بالكتاب المكتوب، وهو من الكتابة التي هي التعيين والتقدير، وقد نكر". (١)

٩٣-"بأنفسهم، لأن عهود النبي عليه الصلاة والسلام إنما كانت لمصلحة المسلمين، في وقت عدم استجماع قوتهم، وأزمان كانت بقية قوة للمشركين، وإلا فإن أهل الشرك ما كانوا يستحقون من الله ورسوله توسعة ولا عهدا لأن مصلحة الدين تكون أقوم إذا شدد المسلمون على أعدائه، فالآن لما كانت مصلحة الدين متحمضة في نبذ العهد الذي عاهده المسلمون المشركين أذن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالبراءة من ذلك العهد، فلا تبعة على المسلمين في نبذه، وإن كان العهد قد عقده النبي صلى الله عليه وسلم ليعلموا أن ذلك توسعة على المسلمين، على نحو ما جزى من المحاورة بين عمر بن الخطاب وبين النبي صلى الله عليه وسلم يوم صلح الحديبية، وعلى نحو ما قال الله تعالى في ثبات الواحد من المسلمين لاثنين من المشركين، على أن في الكلام احتباكا، لما هو معروف من أن المسلمين لا يعملون عملا إلا عن أمر من الله ورسوله، فصار الكلام في قوة براءة من الله ورسوله ومنكم، إلى الذين عاهدوا الله ورسوله وعاهدتم، فالقبائل التي كان لها عهد مع المسلمين حين نزول هذه السورة قد جمعها كلها الموصول في قوله: ﴿إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ . فالتعريف بالموصولية هنا لأنها أخصر طريق للتعبير عن المقصود، مع الإشارة إلى أن هذه البراءة براءة من العهد، ثم بين بعضها بقوله: ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا﴾ [التوبة:٤] الآية.
[٢] ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين﴾.
﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ .
الفاء للتفريع على معنى البراءة، لأنها لما أمر الله بالأذان بها كانت إعلاما للمشركين، الذين هم المقصود من نقض العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، فضمير الخطاب في فعل الأمر معلوم منه أنهم الموجه إليهم الكلام وذلك **التفات**. فالتقدير: فليسيحوا في الأرض ونكتة هذا **الالتفات** إبلاغ الإنذار إليهم مباشرة.
ويجوز تقدير قول محذوف مفرع على البراءة من عهودهم، أي فقل لهم: سيحوا في الأرض أربعة أشهر.
والسياحة حقيقتها السير في الأرض، ولما كان الأمر بهذا السير مفرعا على البراءة من العهد، ومقررا لحرمة الأشهر الحرام،

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٣/٩

علم أن المراد السير بأمن دون خوف في أي مكان من الأرض، وليس سيرهم في أرض قومهم، دل على ذلك إطلاق السياحة". (١)

٩٤-"ومعنى ﴿هي حسبهم﴾ أنها ملازمة لهم. وأصل حسب أنه بمعنى الكافي، ولما كان الكافي يلازمه المكفي كني به هنا عن الملازمة، ويجوز أن يكون ﴿حسب﴾ على أصله ويكون ذكره في هذا المقام تهكما بهم، كأنهم طلبوا النعيم، فقيل: حسبهم نار جهنم.

واللعن: الإبعاد عن الرحمة والتحقير والغضب.

والعذاب المقيم: إن كان المراد به عذاب جهنم فهو تأكيد لقوله: ﴿خالدين فيها هي حسبهم﴾ لدفع احتمال إطلاق الخلود على طول المدة، وتأكيد للكناية في قوله: ﴿هي حسبهم﴾ وإن كان المراد به عذابا آخر تعين أنه عذاب في الدنيا وهو عذاب الخزي والمذلة بين الناس.

وفي هذه الآية زيادة تقرير لاستحقاق المنافقين العذاب، وأنهم الطائفة التي تعذب إذا بقوا على نفاقهم، فتعين أن الطائفة المعفو عنها هم الذين يؤمنون منهم.

[٦٩] ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾ .

قيل هذا الخطاب **التفات**، عن ضمائر الغيبة الراجعة إلى المنافقين، إلى خطابهم لقصد التفريع والتهديد بالموعظة، والتذكير عن الغرور بما هم فيه من نعمة الإمهال بأن آخر ذلك حبط الأعمال في الدنيا والآخرة، وأن يحق عليهم الخسران.

فكاف التشبيه في موضع الخبر عن مبتدأ محذوف دل عليه ضمير الخطاب، تقديره: أنتم كالذين من قبلكم، أو الكاف في موضع نصب بفعل مقدر، أي: فعلتم كفعل الذين من قبلكم، فهو في موضع المفعول المطلق الدال على فعله، ومثله في حذف الفعل والإتيان بما هو مفعول الفعل المحذوف قول النمر بن تولب:

حتى إذا الكلاب قال لها ... كاليوم مطلوبا ولا طالبا

أراد: لم أر كاليوم، إلا أن عامل النصب مختلف بين الآية والبيت.

وقيل هذا من بقية المقول المأمور بأن يبلغه النبي صلى الله عليه وسلم إياهم من قوله: ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ [التوبة:٦٥] الآية. فيكون ما بينهما اعتراضا بقوله:". (٢)

٩٥-"﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ [التوبة:٦٧] الخ فضمير الخطاب لهم جار على مقتضى الظاهر بدون **التفات** والكلام مسوق لتشبيه حالهم في مصيرهم إلى النار.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٠

(٢) التحرير والتنوير ١٤٦/١٠

والإتيان بالموصول لأنه أشمل وأجمع للأمم التي تقدمت مثل عاد وثمود ممن ضرب العرب بهم المثل في القوة.
و ﴿أشد﴾ معناه أقوى، والقوة هنا القدرة على الأعمال الصعبة كقوله: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾ [فصلت:١٥] أو يراد بها العزة وعدة الغلب باستكمال العدد والعدد، وبهذا المعنى أوقعت القوة تمييز ال ﴿أشد﴾ كما أوقعت مضافا إليه شديد في قوله تعالى: ﴿علمه شديد القوى﴾ [النجم:٥].
وكثرة الأموال لها أسباب كثيرة: منها طيب الأرض للزرع والغرس ورعي الأنعام والنحل، ومنها وفرة التجارة بحسن موقع الموطن بين مواطن الأمم، ومنها الاقتراب من البحار للسفر إلى الأقطار وصيد البحر، ومنها اشتمال الأرض عل المعادن من الذهب والفضة والحديد والمواد الصناعية والغذائية من النبات، كأشجار التوابل ولحاء الدبغ والصبغ والأدوية والزراريع والزيوت.
وكثرة الأولاد تأتي من الأمن بسبب بقاء الأنفس، ومن الخصب المؤثر قوة الأبدان والسلامة من المجاعات المعقبة للموتان، ومن حسن المناخ بالسلامة من الأوبئة المهلكة، ومن الثروة بكثرة الأزواج والسراري والمراضع.
والاستمتاع: التمتع، وهو نوال أحد المتاع الذي به التذاذ الإنسان وملائمه وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ في سورة الأعراف[٢٤].
والسين والتاء فيه للمبالغة في قوة التمتع.
والخلاق: الحظ من الخير وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾ في سورة البقرة [٢٠٠].
وتفرع ﴿فاستمتعتم بخلاقكم﴾ على ﴿كانوا أشد﴾ : لأن المقصود إدخاله في الحالة المشبه بها كما سيأتي.
وتفرع ﴿فاستمتعتم بخلاقكم﴾ على ما أفاده حرف الكاف بقوله: ﴿كالذين من قبلكم﴾ من معنى التشبيه، ولذلك لم تعطف جملة ﴿فاستمتعتم﴾ بواو العطف، فإن هذه". (١)

٩٦-"مبين﴾ فاسم الإشارة راجع إلى ما تضمنته جملة: ﴿أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا﴾ .
وقرأه الجمهور: "لسحر" - بكسر السين وسكون الحاء على أن المراد به الحاصل بالمصدر، أي أن هذا الكلام كلام السحر، أي أنه كلام يسحر به. فقد كان من طرق السحر في أوهامهم أن يقول الساحر كلاما غير مفهوم للناس يوهمهم أن فيه خصائص وأسماء غير معروفة لغير السحرة، فالإشارة إلى الوحي.
وقرأه ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي ﴿لساحر﴾ فالإشارة إلى رجل من قوله: ﴿إلى رجل منهم﴾ وهو النبيء -صلى الله عليه وسلم- وإن وصفهم إياه بالسحر ينبئ بأنهم كذبوا بكونه من عند الله ولم يستطيعوا أن يدعوه هذيانا وباطلا فهرعوا إلى ادعائه سحرا، وقد كان من عقائدهم الضالة أن من طرائق السحر أن يقول الساحر أقوالا تستنزل عقول المسحورين. وهذا من عجزهم عن الطعن في القرآن بمطاعن في لفظه ومعانيه.

---
(١) التحرير والتنوير ١٤٧/١٠

والسحر: تخييل ما ليس بكائن كائنا. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿يعلمون الناس السحر﴾ في سورة البقرة[١٠٢].
والمبين: اسم فاعل من أبان الذي هو بمعنى بان، أي ظهر، أي سحر واضح ظاهر. وهذا الوصف تلفيق منهم وبهتان لأنه ليس بواضح في ذلك بل هو الحق المبين.

[٣] ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون﴾ .

استئناف ابتدائي للاستدلال على تفرد الله تعالى بالإلهية. وإنما أوقع هنا لأن أقوى شيء بعث المشركين على ادعاء أن ما جاء به النبيء سحر هو أنه أبطل الشركاء لله في الإلهية ونفاها عن إلهتهم التي أشركوا بها فقالوا: ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب﴾ [ص: ٥] فلا جرم أن أعقب إنكار إحالتهم ذلك بإقامة الدليل على ثبوته.

والخطاب للمشركين، ولذلك أكد الخبر بحرف التوكيد، وأوقع عقبه ﴿أفلا تذكرون﴾ [يونس: ٢]، فهو **التفات** من الغيبة في قوله: ﴿أكان للناس عجبا﴾ وقوله: ﴿قال الكافرون﴾ . وقد مضى القول في نظير صدر هذه الآية في سورة الأعراف إلى قوله: ﴿ثم استوى على العرش﴾ .

وقوله: ﴿الله﴾ خبر ﴿إن﴾ ، كما دل عليه قوله بعده ﴿ذلكم الله ربكم فاعبدوه﴾ .". (١)

٩٧-"حساب السنين قد ذكر بخصوصه. ولما اقتصر في هذه الآية على معرفة عدد السنين تعين أن المراد بالحساب حساب القمر، لأن السنة الشرعية قمرية، ولأن ضمير ﴿قدره﴾ عائد على ﴿القمر﴾ وإن كان للشمس حساب آخر وهو حساب الفصول. وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿والشمس والقمر حسبانا﴾ [الأنعام: ٩٦].

فمن معرفة الليالي تعرف الأشهر، ومن معرفة الأشهر تعرف السنة. وفي ذلك رفق بالناس في ضبط أمورهم وأسفارهم ومعاملات أموالهم وهو أصل الحضارة. وفي هذه الآية إشارة إلى أن معرفة ضبط التاريخ نعمة أنعم الله بها على البشر.

وجملة: ﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾ مستأنفة كالنتيجة للجملة السابقة كلها لأنه لما أخبر بأنه الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وذكر حكمة بعض ذلك أفضى إلى الغرض من ذكره وهو التنبيه إلى ما فيها من الحكمة ليستدل بذلك على أن خالقهما فاعل مختار حكيم ليستفيق المشركون من غفلتهم عن تلك الحكم، كما قال تعالى في هذه السورة

[٧] ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ .

والباء للملابسة. و(الحق) هنا مقابل للباطل. فهو بمعنى الحكمة والفائدة، لأن الباطل من إطلاقاته أن يطلق على العبث وانتفاء الحكمة فكذلك الحق يطلق على مقابل ذلك. وفي هذا رد على المشركين الذين لم يهتدوا لما في ذلك من الحكمة الدالة على الوحدانية وأن الخالق لها ليس إلهتهم. قال تعالى: ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا﴾ [ص: ٢٧]. وقال: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناها إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١١

ولذلك أعقب هذا التنبيه بجملة ﴿نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ ، فهذه الجملة مستأنفة ابتدائية مسوقة للامتنان بالنعمة، ولتسجيل المؤاخذة على الذين لم يهتدوا بهذه الدلائل إلى ما تحتوي عليه من البيان. ويجوز أن تكون الجملة في موضع الحال من اسم الجلالة في قوله: ﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾ . فعلى قراءة نفصل بالنون وهي لنافع والجمهور ورواية عن ابن كثير ففي ضمير صاحب الحال **التفات**، وعلى قراءة ﴿يفصل ﴾ بالتحتية وهي لابن كثير في المشهور عنه وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب أمرها ظاهر.

والتفصيل: التبيين، لأن التبيين يأتي على فصول الشيء كلها. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾ في سورة الأنعام [٥٥].

والإتيان بالفعل المضارع لإفادة التكرار.". (١)

٩٨-"إما أن يكون **التفاتا**، وأصل الكلام: لولا أنزل عليك وهو من حكاية القول بالمعنى كقوله تعالى: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾ [إبراهيم: ٣١] أي قل لهم أقيموا، ونكتة ذلك نكتة **الالتفات** لتجديد نشاط السامع.

وإما أن يكون هذا القول صدر منهم فيما بينهم ليبين بعضهم لبعض شبهة على انتفاء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أو صدر منهم للمسلمين طمعا في أن يردوهم إلى الكفر.

والآية: علامة الصدق. وأرادوا خارقا للعادة على حسب اقتراحهم مثل قولهم: ﴿أو ترقى في السماء﴾ [الإسراء: ٩٣] وقولهم: ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ [القصص: ٤٨] وهذا من جهلهم بحقائق الأشياء وتحكيمهم الخيال والوهم في حقائق الأشياء، فهم يفرضون أن الله حريص على إظهار صدق رسوله صلى الله عليه وسلم وأنه يستفزه تكذيبهم إياه فيغضب ويسرع في مجاراة عنادهم ليكفوا عنه، فإن لم يفعل فقد أفحموه وأعجزوه وهو القادر، فتوهموا أن مدعي الرسالة عنه غير صادق في دعواه وما دروا أن الله قدر نظام الأمور تقديرا، ووضع الحقائق وأسبابها، وأجرى الحوادث على النظام الذي قدره، وجعل الأمور بالغة مواقيتها التي حدد لها، ولا يضره أن يكذب المكذبون أو يعاند الجاهلون وقد وضع لهم ما يليق بهم من الزواجر في الآخرة لا محالة، وفي الدنيا تارات، كل ذلك يجري على نظم اقتضتها الحكمة لا يحمله على تبديلها سؤال سائل ولا تسفيه سفيه. وهو الحكيم العليم.

فهم جعلوا استمرار الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوتهم بالأدلة التي أمره الله أن يدعوهم بها وعدم تبديله ذلك بآيات أخرى على حسب رغبتهم جعلوا كل ذلك دليلا على أنه غير مؤيد من الله فاستدلوا بذلك على انتفاء أن يكون الله أرسله، لأنه لو أرسله لأيده بما يوجب له القبول عند المرسل إليهم. وما درى المساكين أن الله إنما أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة بهم وطلبا لصلاحهم، وأنه لا يضره عدم قبولهم رحمته وهدايته. ولذلك أتى في حكاية كلامهم العدول عن اسم الجلالة إلى لفظ الرب المضاف إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿من ربه﴾ إيماء إلى الربوبية الخاصة بالتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم وهي ربوبية المصطفي "بصيغة اسم الفاعل" للمصطفى "بصيغة المفعول" من بين بقية الخلق المقتضية

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١١

الغضب لغضبه لتوهمهم أن غضب الله مثل غضب الخلائق يستدعي الإسراع إلى الانتقام وما علموا أسرار الحكمة الإلهية والحكم الإلهي والعلم الأعلى.

وقد أمر الله رسوله بأن يجيب عن اقتراحهم بما هو الحقيقة المرشدة وإن كانت أعلى". (١)

٩٩-"المصاحب لآياتنا. ومعنى مكرهم في الآيات أنهم يمكرون مكرا يتعلق بها، وذلك أنهم يوهمون أن آيات القرآن غير دالة على صدق الرسول ويزعمون أنه لو أنزلت عليه آية أخرى لآمنوا بها وهم كاذبون في ذلك وإنما هم يكذبونه عنادا ومكابرة وحفاظا على دينهم في الشرك.

ولما كان الكلام متضمنا التعريض بإنذارهم، أمر الرسول أن يعظهم بأن الله أسرع مكرا، أي منكم، فجعل مكر الله بهم أسرع من مكرهم بآيات الله.

ودل اسم التفضيل على أن مكر الكافرين سريع أيضا، وذلك لما دل عليه حرف المفاجأة من المبادرة وهي إسراع. والمعنى: أن الله أعجل مكرا بكم منكم بمكركم بآيات الله.

وأسرع: مأخوذ من أسرع المزيد على غير قياس، أو من سرع المجرد بناء على وجوده في الكلام فيما حكاه الفارسي.

وأطلق على تأجيل الله عذابهم اسم المكر على وجه الاستعارة التمثيلية لأن هيئة ذلك التأجيل في خفائه عنهم كهيئة فعل الماكر، وحسنته المشاكلة كما تقدم في أية آل عمران.

وجملة: ﴿إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ استئناف خطاب للمشركين مباشرة تهديدا من الله، فلذلك فصلت على التي قبلها لاختلاف المخاطب. وتأكيد الجملة لكون المخاطبين يعتقدون خلاف ذلك، إذ كانوا يحسبون أنهم يمكرون بالنبيء صلى الله عليه وسلم وأن مكرهم يتمشى عليه ولا يشعر به فأعلمهم الله بأن الملائكة الموكلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك. والمقصود من هذا أن ذلك محصي معدود عليهم لا يهمل، وهو إنذار بالعذاب عليه، وهذا يستلزم علم الله تعالى بذلك.

وعبر بالمضارع في ﴿يكتبون﴾ و ﴿يمكرون﴾ للدلالة على التكرر، أي تتكرر كتابتهم كلما يتكرر مكرهم، فليس في قوله: ﴿ما تمكرون﴾ **التفات** من الغيبة إلى الخطاب لاختلاف معادي الضميرين.

وقرأه الجمهور ﴿ما تمكرون﴾ بتاء الخطاب. وقرأه روح عن يعقوب ﴿ما يمكرون﴾ بياء الغائب، والضمير ل ﴿الناس﴾ في قوله: ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة﴾ . وعلى هذه القراءة فالكلام موجه للنبيء صلى الله عليه وسلم.". (٢)

١٠٠-"الخطاب الصالحة لجميع السامعين، فلما تهيأت للانتقال إلى ذكر الضراء وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يخلصه إلى الإفضاء إلى ما يخص المشركين فقال: ﴿وجرين بهم﴾ على طريقة **الالتفات**، أي وجرين بكم. وهكذا أجريت الضمائر جامعة للفريقين إلى أن قال: ﴿فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٥٠/١١

(٢) التحرير والتنوير ٥٣/١١

فإن هذا ليس من شيم المؤمنين فتمحض ضمير الغيبة هذا للمشركين، فقد أخرج من الخبر من عدا الذين يبغون في الأرض بغير الحق تعويلا على القرينة لأن الذين يبغون في الأرض بغير الحق لا يشمل المسلمين.

وهذا ضرب من **الالتفات** لم ينبه عليه أهل المعاني وهو كالتخصيص بطريق الرمز.

وقد عدت هذه الآية من أمثلة **الالتفات** من الخطاب إلى الغيبة في ضمائر الغيبة كلها تبعا "للكشاف" بناء على جعل ضمائر الخطاب للمشركين وجعل ضمائر الغيبة لهم أيضا، وما نحوته أنا أليق.

وابتدئ الإتيان بضمير الغيبة من آخر ذكر النعمة عند قوله: ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ للتصريح بأن النعمة شملتهم، وللإشارة إلى أن مجيء العاصفة فجأة في حال الفرح مراد منه ابتلاؤهم وتخويفهم. فهو تمهيد لقوله: ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾ .

والسير في البر معروف للعرب. وكذلك السير في البحر. كانوا يركبون البحر إلى اليمن وإلى بلاد الحبشة. وكانت لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن وقد يركبون البحر لذلك. وقد وصف طرفة بن العبد السفن وسيرها، وذكرها عمرو بن كلثوم في معلقته، والنابغة في داليته.

وقرأ الجمهور ﴿يسيركم﴾ بتحتية في أوله مضمومة فسين مهملة بعدها تحتية بعدها راء من السير، أي يجعلكم تسيرون. وقرأه ابن عامر وأبو جعفر ﴿ينشركم﴾ بتحتية مفتوحة في أوله بعدها نون ثم شين معجمة ثم راء من النشر، وهو التفريق على نحو قوله تعالى: ﴿إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ [الروم: ٢] وقوله: ﴿فانتشروا في الأرض﴾ [الجمعة: ١٠]. قال ابن عطية عن عوف بن أبي جميلة وأبي الزغل: كانوا أي أهل الكوفة يقرأون ﴿ينشركم﴾ فنظروا في مصحف عثمان بن عفان فوجدوها: ﴿يسيركم﴾ "أي بتحتية فسين مهملة فتحتية" فأول من كتبها كذلك الحجاج بن يوسف، أي أمر بكتبها في مصاحف أهل الكوفة.". (١)

١٠١-"هذا ما وقع في الحديث وإنما أحلت لي ساعة من نهار ، والمقصود ساعة من الزمان وهي الساعة التي يقع فيها قتال أهل مكة من غير **التفات** إلى تقييد بكونه في النهار وإن كان صادف أنه في النهار.

والساعة: المقدار من الزمان، والأكثر أن تطلق على الزمن القصير إلا بقرينة، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ في سورة الأعراف[٣٤].

ووجه الشبه بين حال زمن لبثهم في القبور وبين لبث ساعة من النهار وجوه: هي التحقق والحصول، بحيث لم يمنعهم طول الزمن من الحشر، وأنهم حشروا بصفاتهم التي عاشوا عليها في الدنيا فكأنهم لم يفنوا. وهذا اعتبار بعظيم قدرة الله على إرجاعهم.

والمقصود من التشبيه التعريض بإبطال دعوى المشركين إحالتهم البعث بشبهة أن طول اللبث وتغير الأجساد ينافي إحياءها: ﴿يقولون أإنا لمردودون في الحافرة أإذا كنا عظاما نخرة﴾ [النازعات: ١٠، ١١].

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٥٥

وجملة: ﴿يتعارفون بينهم﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿نحشرهم﴾ .

والتعارف: تفاعل من عرف، أي يعرف كل واحد منهم يومئذ من كان يعرفه في الدنيا ويعرفه الآخر كذلك.

والمقصود من ذكر هذه الحال كالمقصود من ذكر حالة ﴿كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار﴾ لتصوير أنهم حشروا على الحالة التي كانوا عليها في الدنيا في أجسامهم وإدراكهم زيادة في بيان إبطال إحالتهم البعث بشبهة أنه ينافي تمزق الأجسام في القبور وانطفاء العقول بالموت.

فظهر خسرانهم يومئذ بأنهم نفوا البعث فلم يستعدوا ليومه بقبول ما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم.

[٤٦] ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾

كان ذكر تكذيبهم الذي جاء في صدر السورة بقوله: ﴿قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ ، ثم الوعيد عليه بعذاب يحل بهم، والإشارة إلى أنهم كذبوا بالوعيد في قوله: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾ إلى قوله: ﴿لننظر كيف تعملون﴾ [يونس: ١١- ١٤] منذرا". (١)

١٠٢-"كان الخطاب هنا عاما لجميع الناس ولم يأت فيه ما يقتضي وجيهه لخصوص المشركين من ضمائر تعود إليهم أو أوصاف لهم أو صلات موصول. وعلى هذا الوجه فليس في الخطاب ب ﴿يا أيها الناس﴾ **التفات** من الغيبة إلى الخطاب، والمعنى أن القرآن موعظة لجميع الناس وإنما انتفع بموعظته المؤمنون فاهتدوا وكان لهم رحمة.

ويجوز أن يكون خطابا للمشركين بناء على الأكثر في خطاب القرآن ب ﴿يا أيها الناس﴾ فيكون ذكر الثناء على القرآن بأنه هدى ورحمة للمؤمنين إدماجا وتسجيلا على المشركين بأنهم حرموا أنفسهم الانتفاع بموعظة القرآن وشفائه لما في الصدور، فانتفع المؤمنون بذلك.

وافتتاح الكلام ب ﴿قد﴾ لتأكيده، لأن في المخاطبين كثيرا ممن ينكر هذه الأوصاف للقرآن.

والمجيء: مستعمل مجازا في الإعلام بالشيء، كما استعمل للبلوغ أيضا، إلا أن البلوغ أشهر في هذا وأكثر، يقال: بلغني خبر كذا، ويقال أيضا: جاءني خبر كذا أو أتاني خبر كذا. وإطلاق المجيء عليه في هذه الآية أعز.

والمراد بما جاءهم وبلغهم هو ما أنزل من القرآن وقرئ عليهم، وقد عبر عنه بأربع صفات هي أصول كماله وخصائصه وهي: أنه موعظة، وأنه شفاء لما في الصدور، وأنه هدى، وأنه رحمة للمؤمنين.

والموعظة: الوعظ، وهو كلام فيه نصح وتحذير مما يضر. وقد مضى الكلام عليها عند قوله تعالى: ﴿فأعرض عنهم وعظهم﴾ في سورة النساء[٦٣]، وعند قوله تعالى: ﴿موعظة وتفصيلا لكل شيء﴾ في سورة الأعراف[١٤٥]. ووصفها ب ﴿من ربكم﴾ للتنبيه على أنها بالغة غاية كمال أمثالها.

والشفاء تقدم عند قوله تعالى: ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ في سورة براءة[١٤]. وحقيقته: زوال المرض والألم، ومجازه: زوال النقائص والضلالات وما فيه حرج على النفس، وهذا هو المراد هنا.

---

(١) التحرير والتنوير ٩٤/١١

والمراد بالصدور النفوس كما هو شائع في الاستعمال.

والهدى تقدم في قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ في طالع سورة البقرة[٢]، وأصله:". (١)

١٠٣-"فما ظنكم برجوعكم إلى القادر على كل شيء وقد عصيتم أمره أليس يعذبكم عذابا كبيرا.

[٥] ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾ حول أسلوب الكلام عن مخاطبة النبيء - عليه الصلاة والسلام - بما أمر بتبليغه إلى إعلامه بحال من أحوال الذين أمر بالتبليغ إليهم في جهلهم بإحاطة علم الله تعالى بكل حال من الكائنات من الذوات والأعمال ظاهرها وخفيها، فقدم لذلك إبطال وهم من أوهام أهل الشرك أنهم في مكنة من إخفاء بعض أحوالهم عن الله تعالى، فكان قوله: ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ إلخ تمهيدا لقوله: ﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾ ، جمعا بين إخبارهم بإحاطة علم الله بالأشياء وبين إبطال توهماتهم وجهلهم بصفات الله. وقد نشأ هذا الكلام عن قوله تعالى: ﴿إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير﴾ لمناسبة أن المرجوع إليه لما كان موصوفا بتمام القدرة على كل شيء هو أيضا موصوف بإحاطة علمه بكل شيء للتلازم بين تمام القدرة وتمام العلم.

وافتتاح الكلام بحرف التنبيه ﴿ألا﴾ للاهتمام بمضمونه لغرابة أمرهم المحكي وللعناية بتعليم إحاطة علم الله تعالى.

وضمائر الجماعة الغائبين عائدة إلى المشركين الذين أمر النبيء صلى الله عليه وسلم بالإبلاغ إليهم في قوله: ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ [هود: ٢] وليس بالتفات. وضمائر الغيبة للمفرد عائدة إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿إلى الله مرجعكم﴾ [هود: ٤].

والثني: الطي، وأصل اشتقاقه من اسم الاثنين. يقال: ثناه بالتخفيف، إذا جعله ثانيا، يقال: هذا واحد فاثنه، أي كن ثانيا له، فالذي يطوي الشيء يجعل أحد طاقيه ثانيا للذي قبله؛ فثني الصدور: إمالتها وحنيها تشبيها بالطي. ومعنى ذلك الطأطأة.

وهذا الكلام يحتمل الإجراء على حقيقة ألفاظه من الثني والصدور. ويحتمل أن يكون تمثيلا لهيئة نفسية بهيئة حسية.

فعلى الاحتمال الأول يكون ذلك تعجيبا من جهالة أهل الشرك إذ كانوا يقيسون صفات الله تعالى على صفات الناس فيحسبون أن الله لا يطلع على ما يحجبونه عنه. وقد روي أن الآية أشارت إلى ما يفعله المشركون أن أحدهم يدخل بيته ويرخي الستر عليه". (٢)

١٠٤-"وجملة ﴿من أنباء الغيب - و نوحيها - و ما كنت تعلمها﴾ أخبار عن اسم الإشارة، أو بعضها خبر وبعضها حال. وضمير ﴿أنت﴾ تصريح بالضمير المستتر في قوله: ﴿تعلمها﴾ لتصحيح العطف عليه.

وعطف ﴿ولا قومك﴾ من الترقي، لأن في قومه من خالط أهل الكتاب ومن كان يقرأ ويكتب ولا يعلم أحد منهم كثيرا مما

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٩/١١

(٢) التحرير والتنوير ٢٠٤/١١

أوحي إليه من هذه القصة.

والإشارة بقوله: ﴿من قبل هذا﴾ إما إلى القرآن، وإما إلى الوقت باعتبار ما في هذه القصة من الزيادة على ما ذكر في أمثالها مما تقدم نزوله عليها، وإما إلى ﴿تلك﴾ بتأويل النبأ، فيكون التذكير بعد التأنيث شبيها **بالالتفات**.

ووجه تفريع أمر الرسول بالصبر على هذه القصة أن فيها قياس حالة مع قومه على حال نوح عليه السلام مع قومه، فكما صبر نوح عليه السلام فكانت العاقبة له كذلك تكون العاقبة لك على قومك. وخبر نوح – عليه السلام – مستفاد مما حكي من مقاومة قومه ومن ثباته على دعوتهم، لأن ذلك الثبات مع تلك المقاومة من مسمى الصبر.

وجملة ﴿إن العاقبة للمتقين﴾ علة للصبر المأمور به، أي اصبر لأن داعي الصبر قائم وهو أن العاقبة الحسنة تكون للمتقين، فستكون لك وللمؤمنين معك.

والعاقبة: الحالة التي تعقب حالة أخرى. وقد شاعت عند الإطلاق في حالة الخير كقوله: ﴿والعاقبة للتقوى﴾ [طه: ١٣٢].

والتعريف في ﴿العاقبة﴾ للجنس.

واللام في ﴿للمتقين﴾ للاختصاص والملك، فيقتضي ملك المتقين لجنس العاقبة الحسنة، فهي ثابتة لهم لا تفوتهم وهي منتفية عن أضدادهم.

[٥٠- ٥٢] ﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾ .

عطف على ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه﴾ [هود: ٢٥]، فعطف ﴿وإلى عاد﴾ على ﴿إلى قومه﴾ [هود: ٢٥]. وعطف ﴿أخاهم﴾ على ﴿نوحا﴾ [هود: ٢٥]، والتقدير: وأرسلنا إلى". (١)

١٠٥-"﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم﴾ .

وجملة ﴿لن يصلوا إليك﴾ مبينة لإجمال جملة ﴿إنا رسل ربك﴾ ، فلذلك فصلت فلم تعطف لأنها بمنزلة عطف البيان.

وتفريع الأمر بالسرى على جملة ﴿لن يصلوا إليك﴾ لما في حرف ﴿لن﴾ من ضمان سلامته في المستقبل كله، فلما رأى ابتداء سلامته منهم بانصرافهم حسن أن يبين له وجه سلامته في المستقبل منهم باستئصالهم وبنجاته، فلذلك موقع فاء التفريع.

و"اسر" أمر بالسرى – بضم السين والقصر –. وهو اسم مصدر للسير في الليل إلى الصباح. وفعله: سرى يقال بدون همزة في أوله ويقال: أسرى بالهمزة.

قرأ نافع، وابن كثير. وأبو جعفر – بهمزة وصل – على أنه أمر من سرى. وقرأه الباقون بهمزة قطع على أنه من أسرى.

وقد جمعوه في الأمر مع أهله لأنه إذا سرى بهم فقد سرى بنفسه إذ لو بعث أهله وبقي هو لما صح أن يقال: اسر بهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٦/١١

للفرق بين أذهبت زيدا وبين ذهبت به.

والقطع بكسر القاف: الجزء من الليل.

وجملة ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ معترضة بين المستثنى والمستثنى منه. **والالتفات** المنهي عنه هو **الالتفات** إلى المكان المأمور بمغادرته كما دلت عليه القرينة.

وسبب النهي عن **الالتفات** التقصي في تحقيق معنى الهجرة غضبا لحرمات الله بحيث يقطع التعلق بالوطن ولو تعلق الرؤية.

وكان تعيين الليل للخروج كيلا يلاقي ممانعة من قومه أو من زوجه فيشق عليه دفاعهم.

و ﴿إلا امرأتك﴾ استثناء من ﴿أهلك﴾ ، وهو منصوب في قراءة الجمهور اعتبارا بأنه مستثنى من ﴿أهلك﴾ وذلك كلام موجب، والمعنى: لا تسر بها، أريد أن لا يعلمها بخروجه لأنها كانت مخلصة لقومها فتخبرهم عن زوجها. وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو – برفع – ﴿امرأتك﴾ على أنه استثناء من ﴿أحد﴾ الواقع في سياق النهي، وهو في معنى النفي. قيل: إن امرأته خرجت معهم ثم التفتت إلى المدينة فحنت إلى قومها فرجعت إليهم. والمعنى انه نهاهم عن **الالتفات** فامتثلوا ولم تمتثل امرأته للنهي فالتفتت، وعلى هذا الوجه فالاستثناء من كلام مقدر دل عليه النهي. والتقدير: فلا يلتفتون إلا امرأتك". (١)

١٠٦-"المجلد الثاني عشر

سورة يوسف

...

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يوسف

الاسم الوحيد لهذه السورة اسم سورة يوسف، فقد ذكر ابن حجر في كتاب "الإصابة" في ترجمة رافع بن مالك الزرقي عن ابن إسحاق أن أبا رافع بن مالك أول من قدم المدينة بسورة يوسف، يعني بعد أن بايع النبي صلى الله عليه وسلم يوم العقبة.

ووجه تسميتها ظاهر لأنها قصت قصة يوسف – عليه السلام – كلها، ولم تذكر قصته في غيرها. ولم يذكر اسمه في غيرها إلا في سورة الأنعام وغافر.

وفي هذا الاسم تميز لها من بين السور المفتتحة بحروف ألر، كما ذكرناه في سورة يونس.

وهي مكية على القول الذي لا ينبغي **الالتفات** إلى غيره. وقد قيل: إن الآيات الثلاث من أولها مدنية. قال في "الإتقان": وهو واه لا يلتفت إليه.

نزلت بعد سورة هود، وقبل سورة الحجر.

وهي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السور على قول الجمهور.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٦/١١

ولم تذكر قصة نبي في القرآن بمثل ما ذكرت قصة يوسف - عليه السلام - هذه السورة من الإطناب.

وعدد آيها مائة وإحدى عشرة آية باتفاق أصحاب العدد في الأمصار.

من مقاصد هذه السورة

روى الواحدي والطبري يزيد أحدهما على الآخر عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: أنزل القرآن فتلاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أصحابه زمانا، فقالوا "أي المسلمون بمكة":". (١)

١٠٧-"وما بعدها: أنه إن كان ذلك حصل في الماضي فقد حصل صدقها في الماضي.

والذي رأى قميصه قد من دبر وقال: إنه من كيدكن، هو العزيز لا محالة. وقد استبان لديه براءة يوسف - عليه السلام - من الاعتداء على المرأة فاكتفى بلوم زوجه بأن ادعاءها عليه من كيد النساء؛ فضمير جمع الإناث خطاب لها فدخل فيه من هن من صنفها بتنزيلهن منزلة الحواضر.

والكيد: فعل شيء في صورة غير المقصودة للتوصل إلى مقصود. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿إن كيدي متين﴾ في سورة الأعراف[١٨٣].

ثم أمر يوسف - عليه السلام - بالإعراض عما رمته به، أي عدم مؤاخذتها بذلك، وبالكف عن إعادة الخوض فيه. وأمر زوجه بالاستغفار من ذنبها، أي في اتهامها يوسف - عليه السلام - بالجرأة والاعتداء عليها.

قال المفسرون: وكان العزيز قليل الغيرة. وقيل: كان حليما عاقلا. ولعله كان مولعا بها، أو كانت شبهة الملك تخفف مؤاخذة المرأة بمراودة مملوكها. وهو الذي يؤذن به حال مراودتها يوسف - عليه السلام - حين بادرته بقولها: ﴿هيت لك﴾ كما تقدم آنفا.

والخاطئ: فاعل الخطيئة، وهي الجريمة. وجعلها من زمرة الذين خطئوا تخفيفا في مؤاخذتها. وصيغة جمع المذكر تغليب.

وجملة ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ من قول العزيز إذ هو صاحب الحكم.

وجملة ﴿واستغفري لذنبك﴾ عطف على جملة ﴿يوسف أعرض﴾ في كلام العزيز عطف أمر على أمر والمأمور مختلف.

وكاف المؤنثة المخاطبة متعين أنه خطاب لامرأة العزيز، فالعزيز بعد أن خاطبها بأن ما دبرته هو من كيد النساء وجه الخطاب إلى يوسف - عليه السلام - بالنداء ثم أعاد الخطاب إلى المرأة.

وهذا الأسلوب من الخطاب يسمى بالإقبال، وقد يسمى **بالالتفات** بالمعنى اللغوي عند **الالتفات** البلاغي، وهو عزيز في الكلام البليغ. ومنه قول الجرمي من طي من شعراء الحماسة:

إخالك موعدي ببني جفيف ... وهالة إنني أنهاك هالا

---

(١) التحرير والتنوير ٥/١٢

قال المرزوقي في "شرح الحماسة": والعرب تجمع في الخطاب والإخبار بين عدة". (١)

١٠٨-"ملوك المدن الكبيرة فلا دلالة في الآية على نفي إرسال رسول من أهل البادية مثل خالد بن سنان العبسي، ويعقوب – عليه السلام – حين كان ساكنا في البدو كما تقدم.
وقرأ الجمهور ﴿يوحى﴾ بتحية وبفتح الحاء مبنيا للنائب. وقرأه حفص بنون على أنه مبني للفاعل والنون نون العظمة.
وتفريع قوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ على ما دلت عليه جملة ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا﴾ من الأسوة، أي فكذبهم أقوامهم من قبل قومك مثل ما كذبك قومك وكانت عاقبتهم العقاب، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف مان عاقبة الأقوام السابقين، أي فينظروا آثار آخر أحوالهم من الهلاك والعذاب فيعلم قومك أن عاقبتهم على قياس عاقبة الذين كذبوا الرسل قبلهم، فضمير ﴿يسيروا﴾ عائد على معلوم من المقام الدال عليه ﴿وما أنا من المشركين﴾ [سورة يوسف: ١٠٨].
والاستفهام إنكاري، فإن مجموع المتحدث عنهم ساروا في الأرض فرأوا عاقبة المكذبين مثل عاد وثمود.
وهذا التفريع اعتراض بالوعيد والتهديد.
و ﴿كيف ﴾ استفهام معلق لفعل النظر عن مفعوله.
وجملة ﴿ولدار الآخرة﴾ خبر، معطوفة على الاعتراض فلها حكمه، وهو اعتراض بالتبشير وحسن العاقبة للرسل عليهم السلام ومن آمن بهم وهم الذين اتقوا، وهو تعريض بسلامة عاقبة المتقين في الدنيا، وتعريض أيضا بأن دار الآخرة أشد أيضا على الذين من قبلهم من العاقبة التي كانت في الدنيا فحصل إيجاز بحذف جملتين.
وإضافة ﴿دار﴾ إلى ﴿آخرة﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة مثل "يا نساء المسلمات" في الحديث.
وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمر، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب ﴿أفلا تعقلون﴾ بتاء الخطاب على **الالتفات**، لأن المعاندين لما جرى ذكرهم وتكرر صاروا كالحاضرين فالتفت إليهم بالخطاب. وقرأه الباقون بياء الغيبة على نسق ما قبله.
و ﴿حتى﴾ من قوله: ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ ابتدائية، وهي عاطفة جملة ﴿إذا استيأس الرسل﴾ على جملة ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم﴾ باعتبار أنها". (٢)

١٠٩-"أن هذا مما تأذن به الرب وإنما هو تنبيه على كلام الله. وفي إعادة فعل القول اهتمام بهذه الجملة وتنويه بها حتى تبرز مستقلة وحتى يصغي إليها السامعون للقرآن.
ووجه الاهتمام بها إن أكثر الكفار يحسبون أنهم يحسنون إلى الله بإيمانهم، وأن أنبياءهم حين يلحون عليهم بالإيمان إنما يبتغون بذلك تعزيز جانبهم والحرص على مصلحتهم. فلما وعدهم على الشكر بالزيادة وأوعدهم على الكفر بالعقوبة خشي أن يحسبوا ذلك لانتقام المثيب بما أثاب عليه، ولتضرره مما عاقب عليه، فنبههم إلى هذا الخاطر الشيطاني حتى لا يسري إلى

(١) التحرير والتنوير ٥٢/١٢

(٢) التحرير والتنوير ١٢٨/١٢

نفوسهم فيكسبهم إدلالا بالإيمان والشكر والإقلاع عن الكفر.
و ﴿أنتم﴾ فصل بين المعطوف والمعطوف عليه إذ كان هذا المعطوف عليه ضميرا متصلا.
و ﴿جميعا﴾ تأكيد لمن في الأرض للتنصيص على العموم. وتقدم نظيره ونصبه غير بعيد.
والغني: الذي لا حاجة له في شيء، فدخل في عموم غناه أنه غني عن الذين يكفرون به.
والحميد: المحمود. والمعنى: أنه محمود من غيركم مستغن عن حمدكم؛ على أنهم لو كفروا به لكانوا حامدين بلسان حالهم كرها، فإن كل نعمة تنالهم فيحمدونها فإنما يحمدون الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها﴾ [سورة الرعد: ١٥]. وهذه الآية تضمنت ما في الفقرات "٣٠ إلى ٣٣" من الإصحاح "٣٢" من "سفر الخروج".
[٩] ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾.
هذا الكلام استئناف ابتدائي رجع به الخطاب إلى المشركين من العرب على طريقة **الالتفات** في قوله: ﴿ألم يأتكم﴾ ، لأن الموجه إليه الخطاب هنا هم الكافرون المعنيون بقوله: ﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾ [سورة إبراهيم: ٢]، وهم معظم المعني من". (١)

١١٠-"قال أبو علي الفارسي: قنط يقنط - بفتح النون في الماضي وكسرها في المستقبل - من أعلى اللغات. قال تعالى: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا﴾ [سورة الشورى: ٢٨].
قلت: ومن فصاحة القرآن اختياره كل لغة في موضع كونها فيه أفصح، فما جاء فيه إلا الفتح في الماضي، وجاء المضارع بالفتح والكسر على القراءتين.
[٥٧-٦٠] ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين﴾
حكاية هذا الحوار بين إبراهيم والملائكة عليهم السلام لأنه يجمع بين بيان فضل إبراهيم - عليه السلام - وبين موعظة قريش بما حل ببعض الأمم المكذبين انتقل إبراهيم عليه السلام إلى سؤالهم عن سبب نزولهم إلى الأرض، لأنه يعلم أن الملائكة لا ينزلون إلا لأمر عظيم كما قال تعالى: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾ [سورة الحجر:٨]. وقد نزل الملائكة يوم بدر لاستئصال سادة المشركين ورؤسائهم.
والخطب تقدم في قوله تعالى: ﴿قال ما خطبكن﴾ في [سورة يوسف:٥١].
والقوم المجرمون هم قوم سدوم وقراها. وتقدم ذكرهم في سورة هود.
والاستثناء في ﴿إلا آل لوط﴾ منقطع لأنهم غير مجرمين. واستثناء ﴿إلا امرأته﴾ متصل لأنها من آل لوط.
وجملة ﴿إنا لمنجوهم أجمعين﴾ استئناف بياني لبيان الإجمال الذي في استثناء آل لوط من متعلق فعل ﴿أرسلنا﴾ لدفع

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٧/١٢

احتمال أنهم لم يرسلوا إليهم ولا أمروا بإنجائهم.
وفي قوله: ﴿أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ إيجاز حذف وتقدير الكلام: إنا أرسلنا إلى لوط لأجل قوم مجرمين، أي لعذابهم. ودل ذلك على الاستثناء في ﴿إلا آل لوط﴾.
وقرأ الجمهور ﴿لمنجوهم﴾ – بفتح النون وتشديد الجيم – مضارع نجى المضاعف. وقرأ حمزة والكسائي وخلف – بسكون النون وتخفيف الجيم – مضارع أنجى المهموز.
وإسناد التقدير إلى ضمير الملائكة لأنهم مزمعون على سببه. وهو ما وكلوا به من تحذير لوط عليه السلام وآله من **الالتفات** إلى العذاب، وتركهم تحذير امرأته حتى التفتت فحل بها ما حل بقوم لوط.". (١)

١١١–"عليه السلام –، ولأنهم أمروه أن لا يلتفت أحد من أهله إلى ديار قومهم لأن العذاب يكون قد نزل بديارهم. فبكونه وراء أهله يخافون **الالتفات** لأنه يراقبهم. وقد مضى تفضيل ذلك في سورة هود، وأن امرأته التفتت فأصابها العذاب.
و ﴿حيث تؤمرون﴾ أي حيث تؤمرون بالمضي. ولم يبينوا له المكان الذي يقصده إلا وقت الخروج، وهو مدينة عمورية، كما تقدم في سورة هود.
[٦٦] ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾
﴿قضينا﴾ قدرنا، وضمن معنى أوحينا فعدي ب "إلى". والتقدير: وقضينا ذلك الأمر فأوحينا إليه، أي إلى لوط عليه السلام أي أوحينا إليه بما قضينا.
و ﴿ذلك الأمر﴾ إبهام للتهويل. والإشارة للتعظيم، أي الأمر العظيم.
و ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع﴾ جملة مفسرة لـ ﴿ذلك الأمر﴾ وهي المناسبة للفعل المضمن وهو "أوحينا". فصار التقدير: وقضينا الأمر وأوحينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع. فنظم الكلام هذا النظم البديع الوافر المعنى بما في قوله: ﴿ذلك الأمر﴾ من الإبهام والتعظم.
ومجيء جملة ﴿دابر﴾ مفسرة مع صلوحية ﴿أن﴾ لبيان كل من إبهام الإشارة ومن فعل "أوحينا" المقدر المضمن، فتم ذلك إيجاز بديع معجز.
والدابر: الآخر، أي آخر شخص.
وقطعه: إزالته. وهو كناية عن استئصالهم كلهم، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ في سورة الأنعام [٤٥].
وإشارة ﴿هؤلاء﴾ إلى قومه.
و ﴿مصبحين﴾ داخلين في الصباح، أي في أول وقته، وهو حال من اسم الإشارة. ومبدأ الصباح وقت شروق الشمس ولذلك قال بعده:" ﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾ [سورة الحجر:٧٣]

(١) التحرير والتنوير ٤٩/١٣

[٦٧-٦٩] ﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون﴾". [١]

١١٢-"وقيل الضمير عائد إلى ﴿أمر الله﴾، وعليه تكون تعدية فعل الاستعجال إليه على نزع الخافض.

والمراد من النهي هنا دقيق لم يذكروه في موارد صيغ النهي. ويجدر أن يكون للتسوية كما ترد صيغة الأمر للتسوية، أي لا جدوى في استعجاله لأنه لا يعجل قبل وقته المؤجل له.

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾

مستأنفة استئنافا ابتدائيا لأنها المقصود من الوعيد إذ الوعيد والزجر إنما كانا لأجل إبطال الإشراك. فكانت جملة ﴿أتى أمر الله﴾ كالمقدمة وجملة ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ كالمقصد.

و "ما" في قوله: ﴿عما يشركون﴾ مصدرية، أي عن إشراكهم غيره معه.

وقرأ الجمهور ﴿يشركون﴾ بالتحتية على طريقة **الالتفات**، فعدل عن الخطاب ليختص التبرئ من شانهم أن ينزلوا عن شرف الخطاب إلى الغيبة.

وقرأه حمزة والكسائي بالمثناة الفوقية تبعا لقوله: ﴿فلا تستعجلوه﴾.

[٢] ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾

كان استعجالهم بالعذاب استهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم وتكذيبه، وكان ناشئا عن عقيدة الإشراك التي من أصولها استحالة إرسال الرسل من البشر.

وأتبع تحقيق مجيء العذاب بتنزيه الله عن الشريك فقفي ذلك بتبرئة الرسول صلى الله عليه وسلم من الكذب فيما يبلغه عن ربه ووصف لهم الإرسال وصفا موجزا. وهذا اعتراض في أثناء الاستدلال على التوحيد.

والمراد بالملائكة الواحد منهم وهو جبرائيل - عليه السلام -.

والروح: الوحي. أطلق عليه اسم الروح على وجه الاستعارة لأن الوحي به هدى للعقول الحق، فشبه الوحي بالروح كما يشبه العلم الحق بالحياة،وكما يشبه الجهل بالموت قال تعالى: ﴿أومن كان ميتا فأحييناه﴾ [سورة الأنعام:١٢٢].". [٢]

١١٣-"ويجوز أن يكون عطف الجملة على الجملة، فيكون نصب ﴿الأنعام﴾ بفعل ضمر يفسره المذكور بعده على طريقة الاستغلال. والتقدير: وخلق الأنعام خلقها. فيكون الكلام مفيدا للتأكيد لقصد تقوية الحكم اهتماما بما في الأنعام من الفوائد؛ فيكون امتنانا على المخاطبين، وتعريضا بهم، فإنهم كفروا نعمة الله بخلقها فجعلوا من نتاجها لشركائهم وجعلوا لله نصيبا. وأي كفران أعظم من أن يتقرب بالمخلوقات إلى غير من خلقها. وليس في الكلام حصر على كلا التقديرين. وجملة ﴿لكم فيها دفء﴾ في موضع الحال من الضمير المنصوب في ﴿خلقها﴾ على كلا التقديرين؛ إلا أن الوجه الأول

---

(١) التحرير والتنوير ٥٢/١٣

(٢) التحرير والتنوير ٧٨/١٣

تمام مقابلة لقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ [سورة النحل:٤] من حيث حصول الاعتبار ابتداء ثم التعريض بالكفران ثانيا، بخلاف الوجه الثاني فإن صريحه الامتنان ويحصل الاعتبار بطريق الكناية من الاهتمام.

والمقصود من الاستدلال هو قوله تعالى: ﴿والأنعام خلقها﴾ وما بعده إدماج للامتنان.

و ﴿الأنعام﴾: الإبل، والبقر، والغنم، والمعز. وتقدم في سورة الأنعام. وأشهر الأنعام عند العرب الإبل، ولذلك يغلب أن يطلق لفظ الأنعام عندهم على الإبل.

والخطاب صالح لشمول المشركين، وهم المقصود ابتداء من الاستدلال، وأن يشمل جميع الناس ولا سيما فيما تضمنه الكلام من الامتنان.

وفيه **التفات** من طريق الغيبة الذي في قوله تعالى: ﴿عما يشركون﴾ [سورة النحل:٣] باعتبار بعض المخاطبين.

والدفء – بكسر الدال – اسم لما يتدفأ به كالملء والحمل. وهو الثياب المنسوجة من أوبار الأنعام وأصوافها وأشعارها تتخذ منها الخيام والملابس.

فلما كانت تلك مادة النسج جعل المنسوج كأنه مظروف في الأنعام.

وخص الدفء بالذكر من بين عموم المنافع للعناية به.

وعطف ﴿منافع﴾ على ﴿دفء﴾ من عطف العام على الخاص لأن أمر الدفء قلما تستحضره الخواطر.". (١)

١١٤-"ولهذه المنة الأخيرة عطف عليها ﴿وسبلا﴾ جمع سبيل. وهو الطريق الذي يسافر فيه برا.

وجملة ﴿لعلكم تهتدون﴾ معترضة، أي رجاء اهتدائكم. وهو كلام موجه. يصلح للاهتداء إلى المقاصد في الأسفار من رسم الطرق وإقامة المراسي على الأنهار واعتبار المسافات. وكل ذلك من جعل الله تعالى لأن ذلك حاصل بإلهامه. ويصلح للاهتداء إلى الدين الحق وهو دين التوحيد، لأن في تلك الأشياء دلالة على الخالق المتوحد بالخلق.

والعلامات: الأمارات التي ألهم الله الناس أن يضعوها أو يتعارفوها لتكون دلالة على المسافات والمسالك المأمونة في البر والبحر فتتبعها السابلة.

وجملة ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ معطوفة على جملة ﴿وألقى في الأرض رواسي﴾، لأنها في معنى: وهداكم بالنجم فأنتم تهتدون به. وهذه منة بالاهتداء في الليل لأن السبيل والعلامات إنما تهدي في النهار، وقد يضطر السالك إلى السير ليلا؛ فمواقع النجوم علامات لاهتداء الناس الشائرين ليلا تعرف بها السماوات، وأخص من يهتدي بها البحارة لأنهم لا يستطيعون الإرساء في كل ليلة فهم مضطرون إلى السير ليلا، وهي هداية عظيمة في وقت ارتباك الطريق على السائر، ولذلك قدم المتعلق في قوله تعالى: ﴿وبالنجم﴾ تقديما يفيد الاهتمام، وكذلك بالمسند الفعلي في قوله تعالى: ﴿هم يهتدون﴾.

وعدل عن الخطاب إلى الغيبة **التفاتا** يومئ إلى فريق خاص وهم السيارة والملاحون فإن هدايتهم بهذه النجوم لا غير.

والتعريف في "النجم" تعريف الجنس. والمقصود منه النجوم التي تعارفها الناس للاهتداء بها مثل القطب. وتقدم في قوله

---

(١) التحرير والتنوير ٨٣/١٣

تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها﴾ في سورة الأنعام [٩٧].

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله تعالى: ﴿هم يهتدون﴾ لمجرد تقوي الحكم، إذ لا يسمح المقام بقصد القصر وإن تكلفه في"الكشاف".

[١٧،١٨] ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾

بعد أن أقيمت الدلائل على انفراد الله بالخلق ابتداء من قوله تعالى: ﴿خلق السماوات". [١]

١١٥-"كلاهما.

ثم كان من اللطائف أن وقبل الوصفان اللذان في آية سورة إبراهيم ﴿لظلوم كفار﴾ بوصفين هنا ﴿لغفور رحيم﴾ إشارة إلى أن تلك النعم كانت سببا لظلم الإنسان وكفره وهي سبب لغفران الله ورحمته. والأمر في ذلك منوط الإنسان.

[١٩] ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾

عطف على جملة ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾. فبعد أن أثبت أن الله منفرد بصفة الخلق دون غيره بالأدلة العديدة ثم باستنساخ ذلك بقوله: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ انتقل هنا إلى إثبات أنه منفرد بعموم العلم.

ولم يقدم لهذا الخبر استدلال ولا عقب بالدليل لأنه مما دلت عليه أدلة الانفراد بالخلق، لأن خالق أجزاء الإنسان الظاهرة والباطنة يجب له أن يكون عالما بدقائق حركات تلك الأجزاء وهي بين ظاهر وخفي، فلذلك قال: ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾.

والمخاطب هنا هم المخاطبون بقوله تعالى: ﴿أفلا تذكرون﴾ [سورة النحل:١٧] وفيه تعريض بالتهديد والوعيد بأن الله محاسبهم على كفرهم.

وفيه إعلام بأن أصنامهم بخلاف ذلك كما دل عليه تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي فإنه يفيد القصر لرد دعوى الشركة.

وقرأ حفص ﴿ما يسرون وما يعلنون﴾ بالتحتية فيهما، وهو **التفات** من الخطاب إلى الغيبة. وعلى قراءته تكون الجملة أظهر في التهديد منها في قصد التعليم.

[٢٠،٢١] ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون﴾

عطف على جملة ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ [سورة النحل:١٧] وجملة ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ [سورة النحل:١٩].

وما صدق ﴿الذين﴾ الأصنام. وظاهر أن الخطاب هنا متمحض للمشركين وهم بعض المخاطبين في الضمائر السابقة.". [٢]

---

(١) التحرير والتنوير ٩٨/١٣

(٢) التحرير والتنوير ١٠٠/١٣

١١٦-"و ﴿يبعثون﴾ عائدان إلى الكفار على طريق **الالتفات** في قراءة الجمهور، وعلى تناسق الضمائر في قراءة عاصم ويعقوب.

والمقصود من نفي شعورهم بالبعث تهديدهم بان البعث الذي أنكروه واقع وأنهم لا يدرون متى يبغتهم،كما قال تعالى: ﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾ [سورة الأعراف:١٨٧].

والبعث: حقيقته الإرسال من مكان إلى آخر. ويطلق على إثارة الجاثم. ومنه قولهم: بعثت البعير، إذا أثرته من مبركه. ولعله من إطلاق اسم الشيء على سببه. وقد غلب البعث في اصطلاح القرآن على إحضار الناس إلى الحساب بعد الموت. فمن كان منهم ميتا فبعثه من جدثه، ومن كان منهم حيا فصادفته ساعة انتهاء الدنيا فمات ساعتئذ فبعثه هو إحياؤه عقب الموت، وبذلك لا يعكر إسناد نفي الشعور بوقت البعث عن الكفار الأحياء المهددين. ولا يستقيم أن يكون ضمير ﴿يشعرون﴾ عائدا إلى ﴿الذين تدعون﴾ ، أي الأصنام.

و ﴿أيان﴾ اسم استفهام عن الزمان. مركبة من "أي" و "آن" بمعنى أي زمن، وهي معلقة لفعل ﴿يشعرون﴾ عن العمل بالاستفهام، والمعنى: وما يشعرون بزمن بعثهم. وتقدم ﴿أيان﴾ في قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ في سورة الأعراف [١٨٧].

[٢٢،٢٣] ﴿إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين﴾

استئناف نتيجة لحاصل المحاجة الماضية، أي قد ثبت بما تقدم إبطال إلهية غير الله، فثبت أن لكم إلها واحدا لا شريك له، ولكون ما مضى كافيا في إبطال إنكارهم الوحدانية عريت الجملة عن المؤكد تنزيلا لحال المشركين بعدما سمعوا من الأدلة منزلة من لا يظن به أنه يتردد في ذلك بخلاف قوله تعالى: ﴿إن إلهكم لواحد﴾ في سورة الصافات، لأن ذلك ابتداء كلام لم يتقدمه دليل، كما أن قوله تعالى: ﴿وإلهكم إله واحد﴾ في سورة البقرة [١٦٣] خطاب لأهل الكتاب.

وتفرع عليه الإخبار بجملة ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾ ، وهو تفريع الأخبار عن الأخبار، أي يتفرع على هذه القضية القاطعة بما تقدم من الدلائل أنكم قلوبكم منكرة وأنتم مستكبرون وأن ذلك ناشئ عن عدم إيمانكم بالآخرة. والتعبير عن المشركين بالموصول وصلته "الذين لا يؤمنون بالآخرة" لأنهم قد عرفوا". (١)

١١٧-"فقال عمر – رضي الله عنه –: "أيها الناس عليكم بديوانكم لا يضل، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم".

وتفرع ﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ على الجمل الماضية تفريع العلة على المعلل. وحرف "إن" هنا مفيد للتعليل ومغن عن وفاء التفريع كما بينه عبد القاهر، فهي مؤكدة لما أفادته الفاء. والتعليل هنا لما فهم من مجموع المذكورات في الآية من أنه تعالى قادر على تعجيل هلاكهم وأنه أمهلهم حتى نسوا بأس الله فصاروا كالآمنين منه بحيث يستفهم عنهم: أهم آمنون من

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٢/١٣

ذلك أم لا.

[٤٨] ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون﴾

بعد أن نهضت براهين انفراده تعالى بالخلق بما ذكر من تعداد مخلوقاته العظيمة جاء الانتقال إلى دلالة من حال الأجسام التي على الأرض كلها مشعرة بخضوعها لله تعالى خضوعا مقارنا لوجودها وتقلبها آنا فآنا علم بذلك من علمه وجهله من جهله. وأنبأ عنه لسان الحال بالنسبة لما لا علم له، وهو ما خلق الله عليه النظام الأرضي خلقا ينطق لسان حاله بالعبودية لله تعالى، وذلك في أشد الأعراض ملازمة للذوات، ومطابقة لأشكالها وهو الظل.

وقد مضى تفصيل هذا الاستدلال عند قوله تعالى: ﴿وظلالهم بالغدو والآصال﴾ في سورة الرعد [١٥].

فالجملة معطوفة على الجمل التي قبلها عطف القصة على القصة.

والاستفهام إنكاري، أي قد رأوا، والرؤية بصرية.

وقرأ الجمهور ﴿أولم يروا﴾ بتحتية. وقراه حمزة والكسائي وخلف ﴿أولم يروا﴾ بالمثناة الفوقية على الخطاب على طريقة **الالتفات**.

و ﴿من شيء﴾ بيان للإبهام الذي في "ما" الموصولة، وإنما كان بيانا باعتبار ما جرى عليه من الوصف بجملة ﴿يتفيأ ظلاله﴾ الآية.

والتفيؤ: تفعل من فاء الظل فيئا، أي عاد بعد أن أزاله ضوء الشمس. لعل أصله من فاء إذا رجع بعد مغادرة المكان، وتفيؤ الظلال تنقلها من جهات بعد شروق الشمس وبعد". (١)

١١٨-"إلهين اثنين﴾ أي نهى الله عن اتخاذ إلهين لأن الله واحد، لأي والله هو مسمى إله فاتخاذ إلهين اثنين قلب لحقيقة الإلهية.

وحصر صفة الوحدانية في علم الجلالة بالنظر إلى أن مسمى ذلك العلم مساو لمسمى إله، إذ الإله منحصر في مسمى ذلك العلم.

وتفريع ﴿فإياي فارهبون﴾ يجوز أن يكون تفريعا على جملة ﴿لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ فيكون ﴿فإياي فارهبون﴾ من مقول القول، ويكون في ضمير المتكلم من قوله: ﴿فارهبون﴾ **التفات** من الغيبة إلى الخطاب.

ويجوز أن يكون تفريعا على فعل ﴿وقال الله﴾ فلا يكون من مقول القول، أي قال الله لا تتخذوا إلهين فلا ترهبوا غيري. وليس في الكلام **التفات** على هذا الوجه.

وتفرع على ذلك قوله تعالى: ﴿فإياي فارهبون﴾ بصيغة القصر، أي قصر قلب إضافيا، أي قصر الرهبة التامة منه عليه فلا اعتداد بقدرة غيره على ضر أحد. وهو رد على الذين يرهبون إله الشر فالمقصود هو المرهوب.

والاقتصار على الأمر بالرهبة وقصرها على كونها من الله يفهم منه الأمر بقصر الرغبة عليه لدلالة قصر الرهبة على اعتقاد

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٥/١٣

قصر القدرة التامة عليه تعالى فيفيد الرد على الذين يطعمون في إله الخير بطريق الأولى، وإنما اقتصر على الرهبة لأن شأن المزكية أن تكون عبادتهم عن خوف إله الشر لأن إله الخير هم في أمن منه فإنه مطبوع على الخير.

ووقع في ضمير ﴿فإياي﴾ **التفات** من الغيبة إلى التكلم لمناسبة انتقال الكلام من تقرير دليل وحدانية الله على وجه كلي إلى تعيين هذا الواحد أنه الله منزل القرآن تحقيقا لتقرير العقيدة الأصلية. وفي هذا **الالتفات** اهتمام بالرهبة لما في **الالتفات** من هر فهم المخاطبين. وتقدم تركيب نظيره بدون **التفات** في سورة البقرة.

واقتران فعل ﴿فارهبون﴾ بالفاء ليكون تفريعا على تفريع فيفيد مفاد التأكيد لأن تعلق فعل" ارهبون "بالمفعول لفظا يجعل الضمير المنفصل المذكور قبله في تقدير معمول لفعل آخر، فيكون التقدير: فإياي ارهبوا فارهبون، أي أمرتكم بأن تقصروا رهبتكم علي فارهبون امتثالا للأمر.

[٥٢] ﴿وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون﴾.". (١)

١١٩-"علق به قوله تعالى: ﴿بما آتيناهم﴾ أي من النعم. وكفر النعمة ليس هو الباعث على الإشراك فإن إشراكهم سابق على ذلك وقد استصحبوه عقب كشف الضر عنهم، ولكن شبهت مقارنة عودهم إلى الشرك بعد كشف الضر عنهم بمقارنة العلة الباعثة على عمل لذلك العمل. ووجه الشبه مبادرتهم لكفر النعمة دون تريث.

فاستعير لهذه المقارنة لام التعليل، وهي استعارة تبعية تمليحية تهكمية ومثلها كثير الوقوع في القرآن. وقد سمى كثير من النحاة هذه اللام لام العاقبة، ومثالها عندهم قوله تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا﴾ [القصص: من الآية٨]، وقد بيناها في مواضع آخرها عند قوله تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة﴾ في هذه السورة [النحل: من الآية٢٥] وضمير ﴿ليكفروا﴾ عائد إلى ﴿فريق﴾ [النحل:٥٤] باعتبار دلالته على جمع من الناس.

والإيتاء: الإعطاء. وهو مستعار للإنعام بالحالة النافعة، لأن شان الإعطاء أن يكون تمكينا بالمأخوذ المحبوب.

وعبر بالموصول ﴿بما آتيناهم﴾ لما تؤذن به الصلة من كونه نعمة تفظيعا لكفرانهم بها، لأن كفران النعمة قبيح عند جميع العقلاء.

وفرع عليه مخاطبتهم بأمرهم بالتمتع أمر إمهال وقلة اكتراث بهم وهو في معنى التخلية.

والتمتع: الانتفاع بالمتاع. والمتاع الشيء الذي ينتفع به انتفاعا محبوبا ويسر به. ويقال: تمتع بكذا واستمتع. وتقدم المتاع في ىخر سورة براءة.

والخطاب للفريق الذين يشركون بربهم على طريقة **الالتفات**. والأظهر أنه مقول لقول محذوف. لأنه جاء مفرعا على كلام خوطب به الناس كلهم كما تقدم، فيكون المفرع من تمام ما تفرع عليه. وذلك ينافي **الالتفات** الذي يقتضي أن يكون مرجع الضمير إلى مرجع ما قبله.

والمعنى: فتقول تمتعوا بالنعم التي أنتم فيها إلى أمد.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٠/١٣

وفرع عليه التهديد بأنهم سيعلمون عاقبة كفران النعمة بعد زوال التمتع. وحذف". [1]

١٢٠-"مفعول ﴿تعلمون﴾ لظهوره من قوله تعالى: ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ ، أي تعلمون جزاء كفركم.

[٥٦] ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون﴾

عطف حالة من أحوال كفرهم لها مساس بما أنعم الله عليهم من النعمة، فهي معطوفة على جملة ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ [النحل: من الآية٥٣] ويجوز أن تكون حالا من الضمير المجرور في قوله تعالى: ﴿وما بكم من نعمة﴾ على طريق **الالتفات**. ويجوز أن تكون معطوفة على ﴿يشركون﴾ من قوله تعالى: ﴿إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ [النحل: ٥٤] ما حكى هنا هو تفاريع دينهم الناشئة عن إشراكهم والتي هي من تفاريع كفران نعمة ربهم، إذ جعلوا في أموالهم حقا للأصنام التي لم ترزقهم شيئا. وقد مر ذلك في سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم﴾ [الأنعام: ١٣٦].

إلا أنه اقتصر هنا على ذكر ما جعلوه لشركائهم دون ما جعلوه لله لأن المقام هنا لتفصيل كفرانهم النعمة، بخلاف ما في سورة الأنعام فهو مقام تعداد أحوال جاهليتهم وإن كان كل ذلك منكرا عليهم، إلا أن بعض الكفر أشد من بعض.

والجعل: التصيير والوضع. تقول: جعلت لك في مالي كذا. وجيء هنا بصيغة المضارع للدلالة على تجدد ذلك منهم واستمراره، بخلاف قوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله﴾ [النحل: ٣٨] بأنه حكاية قضية مضت من عنادهم وجدالهم في أمر البعث.

ومفعول ﴿يعلمون﴾ محذوف لظهوره، وهو ضمير "ما"، أي لا يعلمونه. ومثل حذف هذا الضمير كثير في الكلام.

وما صدق صلة ﴿لا يعلمون﴾ وهو الأصنام، وإنما عبر عنها بهذه الصلة زيادة في تفظيع سخافة آرائهم، إذ يفرضون في أموالهم عطاء يعطونه لأشياء لا يعلمون حقائقها بله مبلغ ما ينالهم منها، وتخيلات يتخيلونها ليست في الوجود ولا في الإدراك ولا من الصلاحية للانتفاع في شيء، كما قال تعالى: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم". [2]

١٢١-"ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ [لنجم: من الآية٢٣]، وضمير ﴿يعلمون﴾ عائد إلى معاد ضمير ﴿يجعلون﴾.

ووصف النصب بأنه ﴿مما رزقناهم﴾ لتشنيع ظلمهم إذ تركوا المنعم فلم يتقربوا إليه بما يرضيه في أموالهم مما أمرهم بالإنفاق فيه كإعطاء المحتاج، وأنفقوا ذلك في التقرب إلى أشياء موهومة لم ترزقهم شيئا.

ثم وجه الخطاب إليهم على طريقة **الالتفات** لقصد التهديد. ولا مانع من **الالتفات** هنا لعدم وجود فاء التفريع كما في قوله تعالى: ﴿فتمتعوا﴾ [النحل: ٥٥]

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٤٤

(٢) التحرير والتنوير ١٣/١٤٥

وتصدير جملة التهديد والوعيد بالقسم لتحقيقه، إذ السؤال الموعود به يكون يوم البعث وهم ينكرونه فناسب أن يؤكد.
والقسم بالتاء يختص بما يكون المقسم عليه أمرا عجيبا ومستغربا، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ [يوسف: ٧٣]. وسيأتي في قوله تعالى: ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم﴾ [الانبياء: ٥٧]. فالإتيان في القسم هنا بحرف التاء مؤذن بأنهم يسألون سؤالا عجيبا بمقدار غرابة الجرم المسؤول عنه.
والسؤال كناية عما يترتب عليه من العقاب، لأن عقاب العادل يكون في العرف عقب سؤال المجرم عما اقترفه إذ لعل له ما يدفع به نفسه، فأجرى الله أمر الحساب يوم البعث على ذلك السنن الشريف. والتعبير عنه ب ﴿كنتم تفترون﴾ كناية عن استحقاقهم العقاب لأن الكذب على الله جريمة.
والإتيان بفعل الكون وبالمضارع للدلالة على أن الافتراء كان من شأنهم، وكان متجددا ومستمرا منهم، فهو أبلغ من أن يقال: عما تفترون، وعما افتريتم.
[٥٧] ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾
عطف على جملة ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم﴾.
هذا استدلال بنعمة الله عليهم بالبنين والبنات، وهي نعمة النسل، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ولهم ما يشتهون﴾ أي ما يشتهون مما رزقناهم من الذرية.
وأدمج في هذا الاستدلال وهذا الامتنان ذكر ضرب شنيع من ضروب كفرهم، وهو". (١)

١٢٢-"والإنصاف لما تدبروا به. وهو تعريض بالمشركين الذين لم يفهموا دلالة ذلك على الوحدانية. ولذلك اختير وصف السمع هنا المراد منه الإنصاف والامتثال لأن دلالة المطر وحياة الأرض به معروفة مشهورة ودلالة ذلك على وحدانية الله تعالى ظاهرة لا يصد عنها إلا المكابرة.
[٦٦] ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين﴾
هذه حجة أخرى ومنة من المنن الناشئة عن منافع خلق الأنعام، أدمج في منتها العبرة بما في دلالتها على بديع صنع الله تبعا لقوله تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء﴾ إلى قوله: ﴿لرؤوف رحيم﴾ [النحل: ٥-٧].
ومناسبة ذكر هذه النعمة هنا أن بألبان الأنعام حياة الإنسان كما تحيا الأرض بماء السماء، وأن لآثار ماء السماء أثرا في تكوين ألبان الحيوان بالمرعى.
واختصت هذه العبرة بما تنبه إليه من بديع الصنع والحكمة في خلق الألبان بقوله: ﴿مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا﴾ ، ثم بالتذكير بما في ذلك من النعمة على الناس إدماجا للعبرة بالمنة.
فجملة ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ معطوفة على جملة ﴿إن في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾ [النحل:٦٥]، أي كما كان لقوم يسمعون عبرة في إنزال الماء من السماء لكم في الأنعام عبرة أيضا، إذ قد كان المخاطبون وهم المؤمنون القوم الذين

(١) التحرير والتنوير ١٤٦/١٣

يسمعون.

وضمير الخطاب **التفات** من الغيبة. وتوكيدها بـ ﴿إن﴾ ولام الابتداء كتأكيد الجملة قبلها.

و ﴿الأنعام﴾: اسم جمع لكل جماعة من أحد أصناف الإبل والبقر والضأن والمعز.

والعبرة: ما يتعظ به ويعتبر. وقد تقدم في نهاية سورة يوسف.

وجملة ﴿نسقيكم مما في بطونه﴾ واقعة موقع البيان لجملة ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾.

والبطون: جمع بطن، وهو اسم للجوف الحاوية للجهاز الهضمي كله من معدة وكبد". (١)

١٢٣-"رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ [الروم:٢٨].

والغرض من التمثيل تشنيع مقالتهم واستحالة صدقها بحسب العرف، ثم زيادة التشنيع بأنهم رضوا لله ما يرضونه لأنفسهم، كقوله تعالى: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ إلى قوله: ﴿ولله المثل الأعلى﴾ [النحل:٥٧-٦٠].

وقرينة التمثيل والمقصد منه دلالة المقام.

وقوله تعالى: ﴿فما الذين فضلوا﴾ نفي. و "ما" نافية. والباء في ﴿برادي رزقهم﴾ الباء التي تزاد في خبر النفي ب "ما" و "ليس".

والراد: المعطي. كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "والخمس مردود عليكم"، أي فما هم بمعطين رزقهم لعبيدهم إعطاء مشاطرة بحيث يسوونهم بهم، أي فما ذلك بواقع.

وإسناد الملك إلى اليمين مجاز عقلي، لأن اليمين سبب وهمي للملك، لأن سبب الملك إما أسر وهو أثر للقتال بالسيف الذي تمسكه اليد اليمنى، وإما شراء ودفع الثمن يكون باليد اليمنى عرفا، فهي سبب وهمي ناشئ عن العادة.

وفرعت جملة ﴿فهم فيه سواء﴾ على جملة ﴿فما الذين فضلوا برادي رزقهم﴾، أي لا يشاطرون عبيدهم رزقهم فيستووا فيه، أي لا يقع ذلك فيقع هذا، فموقع هذه الجملة الاسمية شبيه بموقع الفعل بعد فاء السببية في جواب النفي.

وأما جملة ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ فصالحة لأن تكون مفرعة على جمل ﴿والله فضل بعضكم على بعض﴾ باعتبار ما تضمنته من الامتنان، أي تفضل الله عليكم جميعا بالرزق أفبنعمة الله تجحدون، استفهاما مستعملا في التوبيخ، بحيث أشركوا مع الذي أنعم عليهم آلهة لا حظ لها في الإنعام عليهم. وذلك جحود النعمة كقوله تعالى: ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له﴾ [العنكبوت:١٧]. وتكون جملة ﴿فما الذين فضلوا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فهم فيه سواء﴾ معترضة بين الجملتين.

وعلى هذا الوجه يكون في ﴿يجحدون﴾ على قراءة الجمهور بالتحتية **التفات** من الخطاب إلى الغيبة. ونكتته أنهم لما كان المقصود من الاستدلال المشركين فكانوا موضع التوبيخ ناسب أن يعرض عن خطابهم وينالهم المقصود من التوبيخ بالتعريض

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٦٠

كقول:". (١)

١٢٤-"أبى لك كسب الحمد رأي مقصر ... ونفس أضاق الله بالخير باعها

إذا هي حثته على الخير مرة ... عصاها وإن همت بشر أطاعها

ثم صرح بما وقع التعريض به بقوله: ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾.

وقرأ أبو بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب ﴿يجحدون﴾ بالمثناة الفوقية على مقتضى الظاهر ويكون الاستفهام مستعملا في التحذير.

وتصلح جملة ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ أن تكون مفرعة على جملة ﴿فما الذين فضلوا برادي رزقهم﴾ ، فيكون التوبيخ متوجها إلى فريق من المشركين وهم الذين فضلوا بالرزق وهم أولو السعة منهم وسادتهم وقد كانوا أشد كفرا بالدين وتألبا على للمسلمين، أي أيجحد الذين فضلوا بنعمة الله إذ أفاض عليهم النعمة فيكونوا أشد إشراكا به، كقوله تعالى: ﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا﴾ [المزمل:١١].

وعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى: ﴿يجحدون﴾ في قراءة الجمهور بالتحتية جاريا على مقتضى الظاهر. وفي قراءة أبي بكر عن عاصم بالمثناة الفوقية **التفاتا** من الغيبة إلى خطابهم إقبالا عليهم بالخطاب لإدخال الروع في نفوسهم.

وقد عدي فعل ﴿يجحدون﴾ بالباء لتضمنه معنى يكفرون، وتكون الباء لتوكيد تعلق الفعل بالمفعول مثل ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ [المائدة:٦]. وتقديم ﴿بنعمة﴾ على متعلقة وهو ﴿يجحدون﴾ للرعاية على الفاصلة.

[٧٢] ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون و بنعمت الله هم يكفرون﴾

عطف على التي قبلها، وهو استدلال ببديع الصنع في خلق النسل إذ جعل مقارنا للتأنس بين الزوجين، إذ جعل النسل منهما ولم يجعله مفارقا لأحد الأبوين أو كليهما.

وجعل النسل معروفا متصلا بأصوله بما ألهمه الإنسان من داعية حفظ النسب، فهي من الآيات على انفراده تعالى بالوحدانية كما قال تعالى في سورة الروم [٢١] ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. فجعلها آية تنطوي على آيات، ويتضمن ذلك الصنع نعما كثيرة، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿و بنعمت الله هم يكفرون﴾.". (٢)

١٢٥-"آل عمران، أو المطعومات والمشروبات اللذيذة الصالحة. وقد تقدم ذكر الطيبات عند قوله تعالى: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات﴾ في سورة العقود [٥]، وذكر الطيب في قوله تعالى: ﴿كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾ في سورة البقرة

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٣/١٣

(٢) التحرير والتنوير ١٧٤/١٣

.[١٦٨]
وفرع على هذه الحجة والمنة استفهام توبيخ على إيمانهم بالباطل البين، فتفريع التوبيخ عليه واضح الاتجاه.
والباطل: ضد الحق لأن ما لا يحق لا يعبد بحق. وتقديم المجرور في قوله تعالى: ﴿أفبالباطل﴾ على متعلقه للاهتمام بالتعريف بباطلهم.
والالتفات عن الخطاب السابق إلى الغيبية في قوله تعالى: ﴿أفبالباطل﴾ يجري الكلام فيه على نحو ما تقدم في قوله تعالى: ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾.
وقوله تعالى: ﴿و بنعمت الله هم يكفرون﴾ عطف على جملة التوبيخ، وهو توبيخ متوجه على ما تضمنه قوله تعالى: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ من الامتنان بذلك الخلق والرزق بعد كونهما دليلا على انفراد الله بالإلهية.
وتقديم المجرور في قوله تعالى: ﴿بنعمت الله هم يكفرون﴾ على عامله للاهتمام.
وضمير الغيبة في قوله تعالى: ﴿هم يكفرون﴾ ضمير فصل لتأكيد الحكم بكفرانهم النعمة لأن كفران النعمة أخفى من الإيمان بالباطل، لأن الكفران يتعلق بحالات القلب، فاجتمع في الجملة تأكيدان: التأكيد الذي أفاده التقديم، والتأكيد الذي أفاده ضمير الفصل.
والإتيان بالمضارع في ﴿يؤمنون﴾ و ﴿يكفرون﴾ للدلالة على التجدد والتكرير.
وفي الجمع بين ﴿يؤمنون﴾ و ﴿يكفرون﴾ محسن بديع الطباق.
[٧٣] ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون﴾.
عطف على جملتي التوبيخ وهو مزيد من التوبيخ فإن الجملتين المعطوف عليها أفادتا توبيخا على إيمانهم بالآلهة الباطل وكفرانهم بنعمة المعبود الحق.". (١)

١٢٦-"والجو: الفضاء الذي بين الأرض والسماء. وإضافته إلى السماء لأنه يبدو متصلا بالقبة الزرقاء في ما يخال الناظر.
والإمساك: الشد عن التفلت. وتقدم في قوله تعالى: ﴿فإمساك بمعروف﴾ في سورة البقرة [٢٢٩].
والمراد هنا: ما يمسكهن عن السقوط إلى الأرض من دون إرادتها، وإمساك الله إياها خلقه الأجنحة لها والأذناب، وجعله الأجنحة والأذناب قابلة للبسط، وخلق عظامها أخف من عظام الدواب بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابها ونهضت بأعصابها خفت خفة شديدة فسبحت في الهواء فلا يصلح ثقلها لأن يخرق ما تحتها من الهواء إلا إذا قبضت من أجنحتها وأذنابها وقوست أعصاب أصلابها عند إرادتها النزول إلى الأرض أو الانخفاض في الهواء. فهي تحوم في الهواء كيف شاءت ثم تقع متى شاءت أو عييت. فلولا أن الله خلقها على تلك الحالة لما استمسكت، فسمي ذلك إمساكا على وجه الاستعارة،

---
(١) التحرير والتنوير ١٧٧/١٣

وهو لطف بها.

والرؤية: بصرية. وفعلها يتعدى بنفسه، فتعديته بحرف ﴿إلى﴾ لتضمين الفعل معنى "ينظروا".

و ﴿مسخرات﴾. وجملة ﴿ما يمسكهن إلا الله﴾ حال ثانية.

وقرأ الجمهور ﴿ألم يروا﴾ بياء الغائب على طريقة **الالتفات** عن خطاب المشركين في قوله تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم﴾ [النحل:٧٨].

وقرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب وخلف ﴿ألم تروا﴾ بتاء الخطاب تبعا للخطاب المذكور.

والاستفهام إنكاري. معناه: إنكار انتفاء رؤيتهم الطير مسخرات في الجو بتنزيل رؤيتهم إياها منزلة عدم الرؤية، لانعدام فائدة الرؤية من إدراك ما يدل عليه المرئي من انفراد الله تعالى بالإلهية.

وجملة ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا، لأن الإنكار على المشركين عدم الانتفاع بما يرونه من الدلائل يثير سؤالا في نفس السامع: أكان عدم الانتفاع بدلالة رؤية الطير عاما في البشر، فيجاب بان المؤمنين يستدلون من ذلك بدلالات كثيرة.". (١)

١٢٧-"بأس السيوف، وقوله تعالى: ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم﴾ [الانبياء: ٨٠].

وجملة ﴿كذلك يتم نعمته عليكم﴾ تذييل لما ذكر من النعم، والمشار إليه هو ما في النعم المذكورة من الإتمام، أو إلى الإتمام المأخوذ من ﴿يتم﴾.

و "لعل" للرجاء، استعملت في معنى الرغبة، أي رغبة في أن تسلموا، أي تتبعوا دين الإسلام الذي يدعوكم إلى ما مآله شكر نعم الله تعالى.

وتقدم تأويل معنى الرجاء في كلام الله تعالى من سورة البقرة.

[٨٢] ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾

تفريع على جملة ﴿لعلكم تسلمون﴾ وقع اعتراضا بين جملة ﴿كذلك يتم نعمته عليكم﴾ [النحل:٨١] وجملة ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا﴾ [النحل:٨٤].

وقد حول الخطاب عنهم إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو نوع من **الالتفات** من أسلوب إلى أسلوب **والتفات** عمن كان الكلام موجها إليه بتوجيه الكلام إلى شخص آخر.

والمعنى: كذلك يتم نعمته عليكم لتسلموا فإن لم يسلموا فإنما عليك البلاغ.

والمقصود: تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على عدم استجابتهم.

والتولي: الإعراض. وفعل ﴿تولوا﴾ هنا بصيغة المضي، أي فإن أعرضوا عن الدعوة فلا تقصير منك ولا غضاضة عليك فإنك قد بلغت البلاغ المبين للمحجة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٩/١٣

والقصر إضافي، أي ما عليك إلا البلاغ لا تقليب قلوبهم إلى الإسلام، أو لا تولي جزاءهم على الإعراض، بل علينا جزاؤهم كقوله تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [الرعد:٤٠].
وجعل هذا جوابا لجملة ﴿فإن تولوا﴾ من إقامة السبب والعلة مقام المسبب والمعلول: وتقدير الكلام: فإن تولوا فلا تقصير ولا مؤاخذة عليك لأنك ما عليك إلا البلاغ. ونظير هذه قوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ [المائدة:٩٢].". (١)

١٢٨-"قرأه الجمهور ﴿وليجزين﴾ بياء الغيبة. والضمير عائد إلى اسم الجلالة من قوله تعالى: ﴿بعهد الله﴾ وما بعده، فهو الناهي والواعد فلا جرم كان هو المجازي على امتثال أمره ونهيه.
وقرأه أبن كثير وعاصم وابن ذكوان عن ابن عامر في إحدى روايتين عنه وأبو جعفر بنون العظمة فهو **التفات**.
و ﴿أجرهم﴾ منصوب على المفعولية الثانية ل"يجزين"بتضمينه معنى الإعطاء المتعدي إلى مفعولين.
والباء للسببية. و"أحسن"صيغة تفضيل مستعملة للمبالغة في الحسن. كما في قوله تعالى: ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾ [يوسف:٣٣]، أي بسبب عملهم البالغ في الحسن وهو عمل الدوام على الإسلام مع تجرع ألم الفتنة من المشركين. وقد أكد الوعد بلام القسم ونون التوكيد.
[٩٧] ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾
لما كان الوعد المتقدم بقوله تعالى: ﴿ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل:٩٦] خاصا بأولئك الذين نهوا عن أن يشتروا بعهد الله ثمنا قليلا عقب بتعميمه لكل من ساواهم في الثبات على الإسلام والعمل الصالح مع التبيين للأجر، فكانت هذه الجملة بمنزلة التذييل للتي قبلها، والبيان لما تضمنته من مجمل الأجر. وكلا الاعتبارين يوجب فصلهما عما قبلها.
وقوله تعالى: ﴿من ذكر أو أنثى﴾ تبيين للعموم الذي دلت عليه ﴿من﴾ الموصولة. وفي هذا البيان دلالة على أن أحكام الإسلام يستوي فيها الذكور والنساء عدا ما خصصه الدين بأحد الصنفين. وأكد هذا الوعد كما أكد المبين به.
وذكر "لنحيينه" ليبنى عليه بيان نوع الحياة بقوله تعالى: ﴿حياة طيبة﴾. وذلك المصدر هو المقصود، أي لنجعلن له حياة طيبة. وابتدئ الوعد بإسناد الإحياء إلى ضمير الجلالة تشريفا له كأنه قيل: فله حياة طيبة منا. ولما كانت حياة الذات لها مدة معينة كثر إطلاق الحياة على مدتها، فوصفها بالطيب بهذا الاعتبار، أي طيب ما يحصل فيها، فهذا". (٢)

١٢٩-"وضمير ﴿أكثرهم﴾ للذين قالوا إنما أنت مفتر، أي ليس كما قالوا ولكن أكثر القائلين ذلك لا يعلمون، أي لايفهمون وضع الكلام مواضعه وحمله محامله.

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٤/١٣

(٢) التحرير والتنوير ٢١٩/١٣

وفهم من الحكم على أكثرهم بعدم العلم أن قليلا منهم يعلمون أن ذلك ليس افتراء ولكنهم يقولون ذلك تلبيسا وبهتانا ولا يعلمون أن التنزيل من عند الله لا ينافي إبطال بعض الأحكام إذا اختلفت المصالح أو روعي الرفق.

ويجوز حمل لفظ أكثر على إرادة جميعهم كما تقدم في هذه السورة.

[١٠٢] ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾.

جواب عن قولهم ﴿إنما أنت مفتر﴾ [سورة النحل: ١٠١] فلذلك فصل فعل ﴿قل﴾ لوقوعه في المحاورة، أي قل لهم: لست بمفتر ولا القرآن بافتراء بل نزله روح القدس من الله. وفي أمره بان يقول لهم ذلك شد لعزمه لكيلا يكون تجاوزهم الحد في البهتان صارفا إياه عن محاورتهم.

فيعد أن أبطل الله دعواهم عليه أنه مفتر بطريقة النقض أمر رسوله أن يبين لهم ماهية القرآن. وهذه نكتة **الالتفات** في قوله تعالى: ﴿من ربك﴾ الجاري على خلاف مقتضى ظاهر حكاية المقول المأمور بان يقوله لأن مقتضى الظاهر أن يقول: من ربي، فوقع **الالتفات** إلى الخطاب تأنيسا للنبي صلى الله عليه وسلم بزيادة توغل الكلام معه في طريقة الخطاب.

واختير اسم الرب لما فيه من معنى العناية والتدبير.

و ﴿روح القدس﴾: جبريل. وتقدم عند قوله تعالى: ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ في سورة البقرة: [٨٧]. والروح: الملك، قال تعالى: ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ [سورة مريم: ١٧]، أي ملكا من ملائكتنا.

و ﴿القدس﴾: الطهر. وهو هنا مراد به معنياه الحقيقي والمجازي الذي هو الفضل وجلالة القدر.

وإضافة الروح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة، كقولهم: حاتم الجود. وزيد الخير. والمراد: حاتم الجواد. وزيد الخير. فالمعنى: الملك المقدس.

والباء في ﴿بالحق﴾ للملابسة، وهي ظرف مستقر في موضع الحال من الضمير". [١]

١٣٠-"كالتأكيد لوصف الحنيف بنفي ضده مثل ﴿وأضل فرعون قومه وما هدى﴾ [طه:٧٩].

ونفي كونه من المشركين بحرف ﴿لم﴾ لأن ﴿لم﴾ تقلب زمن الفعل المضارع إلى المضي، فتفيد انتفاء مادة الفعل في الزمن الماضي، وتفيد تجدد ذلك المنفي الذي هو من خصائص الفعل المضارع فيحصل معنيان: انتفاء مدلول الفعل بمادته، وتجدد الانتفاء بصيغته، فيفيد أن إبراهيم عليه السلام لم يتلبس بالإشراك قط؛ فإن إبراهيم – عليه السلام – لم يشرك بالله منذ صار مميزا وأنه لا يتلبس بالإشراك أبدا.

و ﴿شاكرا لأنعمه﴾ خبر رابع عن ﴿كان﴾. وهو مدح لإبراهيم – عليه السلام – وتعريض بذريته الذين أشركوا وكفروا نعمة الله مقابل قوله: ﴿فكفرت بأنعم الله﴾ [النحل:١١٢]. وتقدم قريبا الكلام على أنعم الله.

وجملة ﴿اجتباه﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا، لأن الثناء المتقدم يثير سؤال سائل عن سبب فوز إبراهيم بهذه المحامد، فيجاب بان الله اجتباه، كقوله تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالاته﴾ [الأنعام:١٢٤].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٩/١٣

والاجتباء: الاختيار، وهو افتعال من جبى إذا جمع. وتقدم في قوله تعالى: ﴿واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ في سورة الأنعام [٨٧].

والهداية إلى الصراط المستقيم: الهداية إلى التوحيد ودين الحنيفية.

وضمير ﴿آتيناه﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم تفننا في الأسلوب لتوالي ثلاثة ضمائر غيبة.

والحسنة في الدنيا: كل ما فيه راحة العيش من اطمئنان القلب بالدين، والصحة، والسلامة، وطول العمر، وسعة الرزق الكافي، وحسن الذكر بين الناس. وقد تقدم في قوله: ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة﴾ [البقرة:٢٠١].

والصلاح: تمام الاستقامة في دين الحق. واختير هذا الوصف إشارة إلى أن الله أكرمه بإجابة دعوته، إذ حكى عنه أنه قال: ﴿رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين﴾ [الشعراء:٨٣].

[١٢٣] ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾.". (١)

١٣١-"والعناية بشأنه، لأن إراءة الآيات تزيد يقين الرائي بوجودها الحاصل من قبل الرؤية. قال تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ [الأنعام:٧٥].

فإن فطرة الله جعلت إدراك المحسوسات أثبت من إدراك المدلولات البرهانية. قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [البقرة:٢٦٠]. ولذلك لم يقل الله بعد هذا التعليل: أو لم يطمئن قلبك، لأن اطمئنان القلب متسع المدى لا حد له فقد أنطق الله إبراهيم عن حكمة نبوءة، وقد بادر محمدا صلى الله عليه وسلم بإراءة الآيات قبل أن يسأله إياها توفيرا في الفضل.

قال علي بن حزم الظاهري وأجاد:

ولكن للعيان لطيف معنى ... له سأل المعاينة الكليم

واعلم أن تقوية يقين الأنبياء من الحكم الإلهية لأنهم بمقدار قوة اليقين يزيدون ارتقاء على درجة مستوى البشر والتحاقا بعلوم عالم الحقائق ومساواة في هذا المضمار لمراتب الملائكة.

وفي تغيير الأسلوب من الغيبة التي في اسم الموصول وضميريه إلى التكلم في قوله: ﴿باركنا... ولنريه من آياتنا﴾ سلوك لطريقة الالتفات المتبعة كثيرا في كلام البلغاء. وقد مضى الكلام على ذلك في قوله تعالى: ﴿ إياك نعبد﴾ في[الفاتحة:٥].

والالتفات هنا امتاز بالطائف: منها أنه لما استحضرت الذات العلية بجملة التسبيح وجملة الموصولية صار مقام الغيبة مقام مشاهدة فناسب أن يغير الإضمار إلى ضمائر المشاهدة وهو مقام التكلم.

ومنها الإيماء إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم عند حلوله بالمسجد الأقصى قد انتقل من مقام الاستدلال على عالم الغيب إلى مقام مصيره في عالم المشاهدة.

ومنها التوطئة والتمهيد إلى محمل معاد الضمير في قوله: ﴿إنه هو السميع البصير﴾ ، فيتبادر عود ذلك الضمير إلى غير من

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٥/١٣

عاد إليه ضمير ﴿نريه﴾ لأن الشأن تناسق الضمائر، ولأن العود إلى **الالتفات** بالقرب ليس من الأحسن.

فقوله: ﴿إنه هو السميع البصير﴾ الأظهر أن الضميرين عائدان إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وقاله". [(١)]

١٣٢-"وقوله : ﴿في عنقه ﴾ يجوز أن يكون كناية عن الملازمة والقرب، أي عمله لازم له لزوم القلادة. ومنه قول العرب تقلدها طوق الحمامة، فلذلك خصت بالعنق لأن القلادة توضع في عنق المرأة. ومنه قول الأعشى:

والشعر قلدته سلامة ذا فا ... ئش والشيء حيثما جعلا (١)

ويحتمل أن يكون تمثيلا لحالة لعلها كانت معروفة عند العرب وهي وضع علامات تعلق في الرقاب للذين يعينون لعمل ما أو ليؤخذ منهم شيء، وقد كان في الإسلام يجعل ذلك لأهل الذمة، كما قال بشار:

كتب الحب لها في عنقي ... موضع الخاتم من أهل الذمم

ويجوز أن يكون ﴿في عنقه﴾ تمثيلا بالبعير الذي يوسم في عنقه بسمة كيلا يختلط بغيره، أو الذي يوضع في عنقه جلجل لكيلا يضل عن صاحبه.

والمعنى على الجميع أن كل إنسان يعامل بعمله من خير أو شر لا ينقص له منه شيء. وهذا غير كتابة الأعمال التي ستذكر عقب هذا بقوله : ﴿ونخرج له يوم القيامة كتابا﴾ .

وعطف جملة ﴿ونخرج له يوم القيامة كتابا﴾ إخبار عن كون تلك الأعمال المعبر عنها بالطائر تظهر يوم القيامة مفصلة معينة لا تغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصيت للجزاء عليها.

وقرأ الجمهور ﴿ونخرج ﴾ بنون العظمة وبكسر الرار، وقرأه يعقوب بياء الغيبة وكسر الراء، والضمير عائد إلى الله المعلوم من المقام، وهو **التفات**. وقرأه أبو جعفر بياء الغيبة في أوله مبنيا للنائب على أن ﴿له﴾ نائب فاعل و ﴿كتابا ﴾ منصوبا على المفعولية وذلك جائز.

والكتاب: ما فيه ذكر الأعمال وإحصاؤها. والنشر: ضد الطي.

ومعنى ﴿ يلقاه﴾ يجده. استعير فعل يلقى لمعنى يجد تشبيها لوجدان النسبة بلقاء الشخص. والنشر كناية عن سرعة اطلاعه على جميع ما عمله بحيث إن الكتاب يحضر من

_

كذا في تفسير ابن عطية عليه السلام والذى في ديوان الأعشى:

فلدتك الشعر يا سلامة ذا ... التفضال والشيء حيثما جعلا". [(٢)]

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/١٤

(٢) التحرير والتنوير ٣٩/١٤

١٣٣-"والتصريف: أصله تعدد الصرف، وهو النقل من جهة إلى أخرى. ومنه تصريف الرياح، وهو هنا كناية عن التبيين بمختلف البيان و متنوعه. وتقدم في قوله تعالى: ﴿انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون﴾ في سورة الأنعام[٤٦].

وحذف مفعول ﴿صرفنا﴾ لأن الفعل نزل منزلة اللازم فلم يقدر له مفعول، أي، بينا البيان، أي ليذكروا ببيانه. ويذكروا: أصله يتذكروا، فأدغم التاء في الذال لتقارب مخرجيهما، وقد تقدم في أول سورة يونس، وهو من الذكر المضمون الذال الذي هو ضد النسيان.

وضمير ﴿ليذكروا﴾ عائد إلى معلوم من المقام دل عليه قوله: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾ [الإسراء:٤٠] أي ليذكر الذين خوطبوا بالتوبيخ في قوله : ﴿أفأصفاكم ربكم ﴾ [الإسراء:٤٠]، فهو **التفات** من الخطاب إلى الغيبة، أو من خطاب المشركين إلى خطاب المؤمنين.

وقوله: ﴿وما يزيدهم إلا نفورا﴾ تعجب من حالهم.

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف ﴿ليذكروا﴾ بسكون الذال وضم الكاف مخففة مضارع ذكر الذي مصدره الذكر بضم الذال .

وجملة ﴿وما يزيدهم إلا نفورا﴾ في موضع الحال، وهو حال مقصود منه التعجيب من حال ضلالتهم، إذ كانوا يزدادون نفورا من كلام فصل وبين لتذكيرهم. وشأن التفصيل أن يفيد الطمأنينة للمقصود. والنفور: هروب الوحشي والدابة بجزع وخشية من الأذى. واستعير هنا لإعراضهم تنزيلا لهم منزلة الدواب والأنعام.

[٤٢] ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا﴾

عود إلى إبطال تعدد الآلهة زيادة في استئصال عقائد المشركين من عروقها، فالجملة استئناف ابتدائي بعد جملة ﴿ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا﴾ [الإسراء:٣٩]. والمخاطب بالأمر بالقول هو النبي صلى الله عليه وسلم لدمغهم بالحجة المقنعة بفساد قولهم.وللاهتمام بها افتتحت بـ ﴿قل﴾ تخصيصا لهذا بالتبليغ وإن كان جميع القرآن مأموا بتبليغه.

وجملة ﴿كما تقولون﴾ معترضة للتنبيه على أن تعدد الآلهة لا تحقق له وإنما هو". (١)

١٣٤-"وهذا من المقول اعتراض بين أجزاء المقول، وهو مستأنف لأنه نتيجة لبطلان قولهم: إن مع الله آلهة، بما نهضت به الحجة عليهم من قوله: ﴿إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا﴾ [الإسراء:٤٢]. وقد تقدم الكلام على نظيره في قوله تعالى: ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ في سورة الأنعام[١٠٠].

والمراد بما يقولون ما يقولونه مما ذكر آنفا كقوله تعالى: ﴿ونرثه ما يقول﴾ [مريم:٨٠].

و﴿علوا﴾مفعول مطلق عامله ﴿تعالى﴾ . جيء به على غير قياس فعله للدلالة على أن التعالي هو الاتصاف بالعلو بحق

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٨٨

لا بمجرد الادعاء كقول سعدة أم الكميت بن معر:

تعاليت فوق الحق عن آل فقعس ... ولم تخش فيهم ردة اليوم أو غد

وقوله سبحانه: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ [المؤمنون:٢٤]،أي يدعي الفضل ولا فضل له . وهو منصوب على المفعولية المطلقة المبينة للنوع.

والمراد بالكبير الكامل في نوعه. وأصل الكبير صفة مشبهة: الموصوف بالكبر. والكبر: ضخامة جسم الشيء في متناول الناس، أي تعالى أكمل علو لا يشوبه شيء من جنس ما نسبوه إليه، لأن المنافاة بين استحقاق ذاته وبين نسبة الشريك له والصاحبة والولد بلغت في قوة الظهور إلى حيث لا تحتاج إلى زيادة لأن وجوب الوجود والبقاء ينافي آثار الاحتياج والعجز.

وقرأ الجمهور ﴿عما يقولون﴾ بياء الغيبة. وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف بتاء الخطاب على أنه **التفات**، أو هو من جملة المقول من قوله: ﴿قل لو كان معه آلهة﴾ [الإسراء:٤٢]على هذه القراءة.

[٤٤] ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا﴾

جملة﴿يسبح له﴾الخ. حال من الضمير في﴿سبحانه﴾أي نسبحه في حال أنه ﴿يسبح له السماوات السبع﴾ الخ، أي ﴿يسبح له﴾ العوالم وما فيها وتنزيهه عن النقائص.

واللام في قوله: ﴿له﴾ لام تعدية ﴿يسبح﴾ المضمن معنى يشهد بتنزيهه، أو هي اللام المسماة لام التبيين كالتي في قوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ [الشرح:١]

وفي قولهم: حمدت الله لك.". (١)

١٣٥-"والباء في ﴿بما كفرتم﴾ للسببية. و(ما)مصدرية، أي بكفركم، أي شرككم.

و(ثم)للترتيب الرتبي كشأنها في عطفها الجمل. وهو ارتقاء في التهديد بعدم وجود منقذ لهم، بعد تهديدهم بالغرق لأن الغريق قد يجد منقذا.

والتبيع: مبالغة في التابع، أي المتتبع غيره المطالب لاقتضاء شيء منه. أي لا تجدوا من يسعى إليه ولا من يطالب لكم بثأر. ووصف(تبيع) يناسب حال الضر الذي يلحقهم في البحر، لأن البحر لا يصل إليه رجال قبيلة القوم وأولياؤهم، فلو راموا الثأر لهم لركبوا البحر ليتابعوا آثار من ألحق بهم ضرا. فلذلك قيل هنا ﴿تبيعا﴾ وقيل في التي قبلها ﴿وكيلا﴾ كما تقدم.

وضمير(به)عائد إما إلى الإغراق المفهوم من ﴿يغرقكم﴾ ،وإما إلى المذكور من إرسال القاصف وغيره.

وقرأ الجمهور ألفاظ ﴿يخسف﴾ و ﴿يرسل﴾ و ﴿يعيدكم﴾ و ﴿فيرسل﴾ و ﴿فيغرقكم﴾ خمستها بالياء التحتية. وقرأها ابن كثير وأبو عمرو ـ بنون العظمة ـ على **الالتفات** من ضمير الغيبة الذي في قوله: ﴿فلما نجاكم إلى البر﴾ إلى ضمير

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٩١

التكلم. وقرأ أبو جعفر ورويس عن يعقوب﴿فتغرقكم﴾بمثناة فوقية. والضمير عائد إلى ﴿الريح﴾ على اعتبار التأنيث، أو ﴿على الرياح﴾ على قراءة أبي جعفر.

﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾

اعتراض جاء بمناسبة العبرة والمنة على المشركين، فاعترض بذكر نعمته على جميع الناس فأشبه التذييل لأنه ذكر به ما يشمل ما تقدم.

والمراد ببني آدم جميع النوع، فالأوصاف المثبتة هنا إنما هي أحكام للنوع من حيث هو كما هو شأن الأحكام التي تسند إلى الجماعات.

وقد جمعت الآية خمس منن: التكريم، وتسخير المراكب في البر، وتسخير المراكب في البحر، والرزق من الطيبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات.

فأما منة التكريم فهي مزية خص بها الله بني آدم من بني سائر المخلوقات الأرضية.". (١)

١٣٦-"معهم اجتمعوا بعد غروب الشمس عند الكعبة وبعثوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم. فأسرع إليهم حرصا على هداهم، فعاتبوه على تسفيه أحلامهم والطعن في دينهم، وعرضوا عليه ما يشاء من مال أو تسويد.وأجابهم بأنه رسول من الله إليهم لا ينبغي غير نصحهم، فلما رأوا منه الثبات انتقلوا إلى طلب بعض ما حكاه الله عنهم في هذه الآية. وروي أن الذي سأل ما حكي بقوله تعالى: ﴿أو ترقى في السماء﴾ [الإسراء: ٩٣]إلى آخره، هو عبد الله بن أبي أمية المخزومي.

وحكى الله امتناعهم عن الإيمان بحرف(لن)المفيد للتأبيد لأنهم كذلك قالوه.

والمراد بالأرض: أرض مكة، فالتعريف للعهد، ووجه تخصيصها أن أرضها قليلة المياه بعيدة عن الجنات.

والتفجير: مصدر فجر بالتشديد مبالغة غي الفجر، وهو الشق باتساع. ومنه سمي فجر الصباح فجرا لأن الضوء يشق الظلمة شقا طويلا عريضا، فالتفجير أشد من مطلق الفجر وهو تشقيق شديد باعتبار اتساعه. ولذلك ناسب الينبوع هنا والنهر في قوله تعالى: ﴿وفجرنا خلالهما نهرا﴾ [الكهف:٣٣]وقوله: ﴿فتفجر الأنهار﴾ .

وقرأه الجمهور - بضم التاء وتشديد الجيم - على أنه مضارع(فجر)المضاعف. وقرأه عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف - بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة - على أنه مضارع فجر كنصر، فلا **التفات** فيها للمبالغة لأن الينبوع يدل على المقصود أو يعبر عن مختلف أقوالهم الدالة على التصميم في الامتناع.

ومعنى ﴿لن نؤمن لك﴾ لن نصدقك أنك رسول الله إلينا.

والإيمان: التصديق. يقال: آمنه، أي صدقه. وكثر أن يعدى إلى المفعول باللام، قال تعالى: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ [يوسف:١٧]وقال: ﴿فآمن له لوط﴾ [العنكبوت:٢٦]. وهذه اللام من قبيل ما سماه في"مغني اللبيب"لام التبيين. وغفل

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٠/١٤

عن التمثيل لها بهذه الآية ونحوها، فإن مجرور اللام بعد فعل ﴿نؤمن﴾ مفعول لا التباس له بالفاعل وإنما تذكر اللام لزيادة البيان والتوكيد. وقد يقال: إنها لدفع التباس مفعول فعل"آمن" بمعنى صدق بمفعول فعل(آمن)إذا جعله أمينا. وتقدم قوله تعالى: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾ في سورة يونس:٨٣].

والينبوع: اسم للعين الكثيرة النبع التي لا ينضب ماؤها. وصيغة يفعول صيغة مبالغة". (١)

١٣٧-"ولما كان اقتراحهم اقتراح ملاجة وعناد أمره الله بأن يجيبهم بما يدل على التعجب من كرمهم بكلمة ﴿سبحان ربي﴾ التي تستعمل في التعجب كما تقدم في طالع هذه السورة، ثم بالاستفهام الإنكاري، وصيغة الحصر المقتضية قصر نفسه على البشرية والرسالة قصرا إضافيا، أي لست ربا متصرفا أخلق ما يطلب مني، فكيف آتي بالله والملائكة وكيف أخلق في الأرض ما لم يخلق فيها.

وقرأ الجمهور ﴿قل﴾ بصيغة فعل الأمر. وقرأه ابن كثير، وابن عامر ﴿قال﴾ بألف بعد القاف بصيغة الماضي على أنه حكاية لجواب الرسول صلى الله عليه وسلم عن قولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾ على طريقة **الالتفات**.

[٩٤،٩٥] ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا﴾

بعد أن عدت أشكال عنادهم ومظاهر تكذيبهم أعقبت ببيان العلة الأصلية التي تبعث على الجحود في جميع الأمم وهي توهمهم استحالة أن يبعث الله للناس برسالة بشرا مثلهم. فذلك التوهم هو مثار ما يأتونه من المعاذير. فالذين هذا أصل معتقدهم لا يرجى منهم أن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية، وما قصدهم من مختلف المقترحات إلا إرضاء أوهامهم بالتنصل من الدخول في الدين، فلو أتاهم الرسول بما سألوه لانتقلوا فقالوا: إن ذلك سحر، أو قلوبنا غلف، أو نحو ذلك. ومع ما في هذا من بيان أصل كفرهم هو أيضا رد بالخصوص لقولهم: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلا﴾ [الإسراء:٩٢]ورد لقولهم: ﴿ترقى في السماء﴾ إلى آخره.

وقوله: ﴿إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا﴾ يقتضي بصريحه أنهم قالوا بألسنتهم وهو مع ذلك كناية عن اعتقادهم ما قالوه. ولذلك جعل قولهم ذلك مانعا من أن يؤمنوا لأن اعتقاد قائليه يمنع من إيمانهم بضده ونطقهم بما يعتقدونه يمنع من يسمعونهم من متبعي دينهم.

وإلقاء هذا الكلام بصيغة الحصر وأداة العموم جعله تذييلا لما مضى من حكاية تفننهم في أساليب التكذيب والتهكم.

فالظاهر حمل التعريف في ﴿الناس﴾ على الاستغراق. أي ما منع جميع الناس أن". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٣/١٤

(٢) التحرير والتنوير ١٦٦/١٤

١٣٨-"و ﴿من﴾ استفهامية، وهو إنكار، أي لا أظلم ممن افترى. والمعنى: أنه أظلم من غيره. وليس المراد المساواة بينه وبين غيره، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾ [البقرة: ١١٤] والمعنى: أن هؤلاء افتروا على الله كذبا، وذلك أنهم أشركوا معه غيره في الإلهية فقد كذبوا عليه في ذلك إذ أثبتوا له صفة مخالفة للواقع.
وافتراء الكذب تقدم في قوله تعالى: ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾ [المائدة: ١٠٣] في سورة العقود.
ثم إن كان الكلام من مبدئه خطابا لقومهم أعلنوا به إيمانهم بينهم كما تقدم كانت الإشارة في قولهم ﴿هؤلاء قومنا﴾ على ظاهرها، وكان ارتقاء في التعريض لهم بالموعظة، وإن كان الكلام من مبدئه دائرا بينهم في خاصتهم كانت الإشارة إلى حاضر في الذهن كقوله تعالى: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾ [الأنعام: ٨٩] أي مشركو مكة.
[١٦] ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا﴾
يتعين أن يكون هذا من كلام بعضهم لبعض على سبيل النصح والمشورة الصائبة. وليس يلزم في حكاية أقوال القائلين أن تكون المحكيات كلها صادرة في وقت واحد، فيجوز أن يكونوا قال بعضهم لبعض ذلك بعد اليأس من ارعواء قومهم عن فتنتهم في مقام آخر. ويجوز أن يكون ذلك في نفس المقام الذي خاطبوا فيه قومهم بأن غيروا الخطاب من مواجهة قومهم إلى مواجهة بعضهم بعضا، وهو ضرب من **الالتفات**. فعلى الوجه الأول يكون فعل ﴿اعتزلتموهم﴾ مستعملا في إرادة الفعل مثل ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ [المائدة: ٦]،وعلى الوجه الثاني يكون الاعتزال قد حصل فيما بين مقام خطابهم قومهم وبين مخاطبة بعضهم بعضا. وعلى الاحتمالين فالقرآن اقتصر في حكاية أقوالهم على المقصد الأهم منها في الدلالة على ثباتهم دون ما سوى ذلك مما لا أثر له في الغرض وإنما هو مجرد قصص.
و ﴿إذ﴾ للظرفية المجازية بمعنى التعليل.
والاعتزال: التباعد والانفراد عن مخالطة الشيء، فمعنى اعتزال القوم ترك". (١)

١٣٩-"ونون المتكلم المشارك في قوله: ﴿ننبئكم﴾ يجوز أن تكون نون العظمة راجعة إلى ذات الله على طريقة **الالتفات** في الحكاية. ومقتضى الظاهر أن يقال: هل ينبئكم الله، أي سينبئكم ويجوز أن تكون للمتكلم المشارك راجعة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى الله تعالى لأنه ينبئهم بما يوحى إليه من ربه. ويجوز أن تكون راجعة للرسول وللمسلمين.
وقوله: ﴿الذين ضل سعيهم﴾ بدل من ﴿بالأخسرين أعمالا﴾ .
وفي هذا الإطناب زيادة التشويق إلى معرفة هؤلاء الأخسرين حيث أجرى عليهم من الأوصاف ما يزيد السامع حرصا على معرفة الموصوفين بتلك الأوصاف والأحوال.
والضلال: خطأ السبيل. شبه سعيهم غير المثمر بالسير في طريق غير موصلة.
والسعي: المشي في شدة. وهو هنا مجاز في العمل كما تقدم عند قوله ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها﴾ في سورة الإسراء [١٩]، أي عملوا أعمالا تقربوا بها للأصنام يحسبونها مبلغة إياهم أغراضا وقد أخطأوها وهم يحسبون أنهم يفعلون

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢/١٥

خيرا.

وإسناد الضلال إلى سعيهم مجاز عقلي. والمعنى: الذين ضلوا في سعيهم.

وبين ﴿يحسبون﴾ و ﴿يحسنون﴾ جناس مصحف، وقد مثل بهما في مبحث الجناس.

[١٠٥] ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾

جملة هي استئناف بياني بعد قوله: ﴿قل هل ننبئكم﴾ .

وجيء باسم الإشارة لتمييزهم أكمل تميز لئلا يلتبسوا بغيرهم على نحو قوله تعالى: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ .

وللتنبيه على أن المشار إليهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة من حكم بسبب ما أجري عليهم من الأوصاف.

والآيات: القرآن والمعجزات.

والحبط: البطلان والدحض.

وقوله: ﴿ربهم﴾ يجري على الوجه الأول في نون ﴿قل هل ننبئكم﴾ أنه إظهار في مقام". [١]

١٤٠-"الإضمار. ومقتضى الظاهر أن يقال: أولئك الذين كفروا بآياتنا. ويجري على الوجهين الثاني والثالث انه على مقتضى الظاهر.

ونون ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾ على الوجه الأول في نون ﴿قل هل ننبئكم﴾ جارية على مقتضى الظاهر.

وأما على الوجهين الثالث والرابع فإنها **التفات** عن قوله: ﴿بآيات ربهم﴾ ، ومقتضى الظاهر أن يقال: فلا يقيم لهم.

ونفي إقامة الوزن مستعمل في عدم الاعتداد بالشيء. وفي حقارته لأن الناس يزنون الأشياء المتنافس في مقاديرها والشيء التافه لا يوزن، فشبهوا بالمحقرات على طريقة المكنية وأثبت لهم عدم الوزن تخييلا.

وجعل عدم إقامة الوزن مفرعا على حبط أعمالهم لأنهم بحبط أعمالهم صاروا محقرين لا شيء لهم من الصالحات.

[١٠٦] ﴿ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا﴾

الإشارة إما إلى ما تقدم من وعيدهم في قوله ﴿إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا﴾ ، أي ذلك الإعداد جزاؤهم.

وقوله: ﴿جزاؤهم﴾ خبر عن اسم الإشارة. وقوله: ﴿جهنم﴾ بدل من ﴿جزاؤهم﴾ بدلا مطابقا لأن إعداد جهنم هو عين جهنم وإعادة لفظ جهنم أكسبه قوة التأكيد؛ وإما إلى مقدر في الذهن دل عليه السياق بينه ما بعده على نحو استعمال ضمير الشأن مع تقدير مبتدأ محذوف. والتقدير: الأمر والشأن ذلك جزاؤهم جهنم.

والباء للسببية، و ﴿ما﴾ مصدرية، أي بسبب كفرهم.

و ﴿اتخذوا﴾ عطف على ﴿كفروا﴾ فهو من صلة ﴿ما﴾ المصدرية. والتقدير: وبما اتخذوا آياتي ورسلي هزوا، أي باتخاذهم ذلك كذلك.

والرسل يجوز أن يراد به حقيقة الجمع فيكون إخبارا عن حال كفار قريش ومن سبقهم من الأمم المكذبين، ويجوز أن يراد به

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٢/١٥

الرسول الذي أرسل إلى الناس كلهم وأطلق عليه اسم الجمع تعظيما كما في قوله: ﴿نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾ [ابراهيم: ٤٤]." (١)

١٤١-"﴿قال ربك﴾ [مريم: من الآية٩] إلى التكلم في قوله: ﴿هو علي هين﴾ **التفاتا**. ومقتضى الظاهر: هو عليه هين.

والهين بتشديد الياء: السهل حصوله.

وجملة ﴿وقد خلقتك من قبل﴾ على الاحتمالين هي في موضع الحال من ضمير الغيبة الذي في قوله ﴿هو علي هين﴾ ، أي إيجاد الغلام لك هين علي في حال كوني قد خلقتك من قبل هذا الغلام ولم تكن موجودا، أي في حال كونه مماثلا لخلقي إياك، فكما لا عجب من خلق الولد في الأحوال المألوفة كذلك لا عجب من خلق الولد في الأحوال النادرة إذ هما إيجاد بعد عدم.

ومعنى ﴿ولم تك شيئا﴾ : لم تكن موجودا.

وقرأ الجمهور ﴿وقد خلقتك من قبل﴾ بتاء المتكلم.

وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف ﴿وقد خلقناك﴾ بنون العظمة.

[١٠] ﴿قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا﴾

أراد نصب علامة على وقوع الحمل بالغلام، لأن البشارة لم تعين زمنا، وقد يتأخر الموعود به لحكمة، فأراد زكريا أن يعلم وقت الموعود به. وفي هذا الاستعجال تعريض بطلب المبادرة به، ولذلك حذف متعلق ﴿آية﴾ . وإضافة ﴿آيتك﴾ [مريم: من الآية١٠] على معنى اللام، أي آية لك، أي جعلنا علامة لك.

ومعنى ﴿ألا تكلم الناس﴾ [مريم: من الآية١٠] أن لا تقدر على الكلام، لأن ذلك هو المناسب لكونه آية من قبل الله تعالى. وليس المراد نهيه عن كلام الناس، إذ لا مناسبة في ذلك للكون آية، وقد قدمنا تحقيق ذلك في سورة آل عمران.

وجعلت مدة انتفاء تكليمه الناس هنا ثلاث ليال، وجعلت في سورة آل عمران ثلاثة أيام فعلم أن المراد هنا ليال بأيامها وأن المراد في آل عمران أيام بلياليها.

وأكد ذلك هنا بوصفها ب ﴿سويا﴾ [مريم: من الآية١٠] أي ثلاث ليال كاملة، أي بأيامها.

وسوي: فعيل بمعنى مفعول، يستوي الوصف به الواحد والواحدة والمتعدد منهما.". (٢)

١٤٢-"آية للناس ورحمة كرامة للغلام، فوقع **التفات** من طريقة الغيبة إلى طريقة التكلم.

وجملة ﴿وكان أمرا مقضيا﴾ يجوز أن تكون في قول الملك، ويجوز أن تكون مستأنفه. وضمير ﴿كان﴾ عائد إلى الوهب

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٣/١٥

(٢) التحرير والتنوير ١٦/١٦

المأخوذ من قوله: ﴿لأهب لك غلاما﴾
وهذا قطع للمراجعة وإنباء بأن التخليق قد حصل في رحمها.
[٢٢] ﴿فحملته فانتبذت به مكانا قصيا * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا﴾
الفاء للتفريع والتعقيب، أي فحملت بالغلام في فور تلك المراجعة.
والحمل: العلوق، يقال: حملت المرأة ولدا، وهو الأصل، قال تعالى: ﴿حملته أمه كرها﴾ . ويقال: حملت به. وكأن الباء لتأكيد اللصوق، مثلها في ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ [المائدة: من الآية٦]. قال أبو كبير الهذلي:
حملت به في ليلة قرءودة ... كرها وعقد نطاقها لم يحلل
والانتباذ تقدم قريبا، وكذلك انتصاب ﴿مكانا﴾ تقدم.
و ﴿قصيا﴾ بعيدا، أي بعيدا عن مكان أهلها. قيل: خرجت إلى البلاد المصرية فارة من قومها أن يعزروها وأعانها خطيبها يوسف النجار وأنها ولدت عيسى عليه السلام في الأرض المصرية. ولا يصح.
وفي إنجيل لوقا: أنها ولدته في قرية بيت لحم من البلاد اليهودية حين صعدت إليها مع خطيبها يوسف النجار إذ كان مطلوبا للحضور بقرية أهله لأن ملك البلاد يجري إحصاء سكان البلاد، وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿فأتت به قومها تحمله﴾ .
والفاء في قوله ﴿فأجاءها المخاض﴾ للتعقيب العرفي، أي جاءها المخاض بعد تمام مدة الحمل، قيل بعد ثمانية أشهر من حملها.
و ﴿أجاءها﴾ معناه ألجأها، وأصله جاء، عدي بالهمزة فقيل: أجاءه، أي جعله جائيا. ثم أطلق مجازا على إلجاء شيء شيئا إلى شيء، كأنه يجئ به إلى ذلك الشيء، ويضطره إلى المجيء إليه. قال الفراء: أصله من جئت وقد جعلته العرب إلجاء. وفي المثل شر ما يجيئك إلى مخة عرقوب وقال زهير:". (١)

١٤٣-"والمعنى: لنميزن من كل فرقة تجمعها محلة خاصة من دين الضلال من هو تلك الشيعة أشد عصيانا لله وتجبرا عليه، وهذا تهديد لعظماء المشركين مثل أبي جهل وأمية بن خلف ونظرائهم.
و"أي" اسم موصول بمعنى "ما" و"من". والغالب أن يحذف صدر صلتها فتبنى على الضم. وأصل التركيب: أيهم هو أشد عتيا على الرحمان. وذكر صفة الرحمان هنا لتفظيع عتوهم، لأن شديد الرحمة بالخلق حقيق بالشكر له والإحسان لا بالكفر به والطغيان.
ولما كان هذا النزع والتمييز مجملا، فقد يزعم كل فريق أن غيره أشد عصيانا، أعلم الله تعالى أنه يعلم من هو أولى منهم بمقدار قلي النار فإنها دركات متفاوتة.
والصلي: مصدر صلي النار كرضي، وهو مصدر سماعي بوزن فعول. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف بكسر الصاد

(١) التحرير والتنوير ٢٤/١٦

إتباعا لحركة اللام، كما تقدم في ﴿جثيا﴾ .
وحرفا الجر يتعلقات بأفعلي التفضيل.
[٧١-٧٢] ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا * ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا﴾
لما ذكر انتزاع الذين هم أولى بالنار من بقية طوائف الكفر عطف عليه أن جميع طوائف الشرك يدخلون النار، دفعا لتوهم أن انتزاع من هو أشد على الرحمان عتيا هو قصارى ما ينال تلك الطوائف من العذاب، بأن يحسبوا أن كبراءهم يكونون فداء لهم من النار أو نحو ذلك، أي وذلك الانتزاع لا يصرف بقية الشيع عن النار فإن الله أوجب على جميعهم النار.
وهذه الجملة معترضة بين جملة ﴿فوربك لنحشرنهم﴾ الخ... وجملة ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا﴾ الخ...
فالخطاب في ﴿وإن منكم﴾ **التفات** عن الغيبة في قوله: ﴿لنحشرنهم﴾ و ﴿لنحضرنهم﴾ ؛ عدل عن الغيبة إلى الخطاب ارتقاء في المواجهة بالتهديد حتى لا يبقى مجال للالتباس المراد من ضمير الغيبة فإن ضمير الخطاب أعرف من ضمير الغيبة.
ومقتضى الظاهر أن يقال: وإن منهم إلا واردها. وعن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿وإن منهم﴾ .". (١)

١٤٤-"ومعنى ﴿لا يملكون﴾ لا يستطيعون، فإن الملك يطلق على المقدرة والاستطاعة. وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا﴾ [المائدة:٧٦]
[٨٨-٩٥] ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدا * تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾
عطف على جملة ﴿ويقول الأنسان أإذا ما مت﴾ [مريم: من الآية٦٦] أو على جملة ﴿واتخذوا من دون الله آلهة﴾ [مريم: من الآية٨١] إتماما لحكاية أقوالهم، وهو القول بأن لله ولدا، وهو قول المشركين: الملائكة بنات الله. وقد تقدم في سورة النحل وغيرها؛ فصريح الكلام رد على المشركين، وكنايته تعريض بالنصارى الذين شابهوا المشركين في نسبة الولد إلى الله، فهو تكملة للإبطال الذي في قوله تعالى آنفا: ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه﴾ [مريم: ٣٥] الخ.
والضمير عائد إلى المشركين، فيفهم منه أن المقصود من حكاية قولهم ليس مجرد الإخبار عنهم، أو تعليم دينهم ولكن تفظيع قولهم وتشنيعه، وإنما قالوا ذلك تأييدا لعبادتهم الملائكة والجن واعتقادهم شفعاء لهم.
وذكر ﴿الرحمان﴾ هنا حكاية لقولهم بالمعنى، وهم لا يذكرون اسم الرحمان ولا يقرون به، وقد أنكروه كما حكى الله عنهم ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾ [الفرقان: من الآية٦٠]. فهم إنما يقولون: ﴿اتخذ الله ولدا﴾ كما حكي عنهم في آيات كثيرة منها آية سورة الكهف. فذكر ﴿الرحمن﴾ هنا وضع للمرادف في موضع مرادفه. فذكر اسم ﴿الرحمن﴾ لقصد إغاظتهم بذكر اسم أنكروه.
وفيه أيضا إيماء إلى اختلال قولهم لمنافاة وصف الرحمان اتخاذ الولد كما سيأتي في قوله: ﴿وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا﴾

(١) التحرير والتنوير ٦٩/١٦

والخطاب في ﴿لقد جئتم﴾ للذين قالوا اتخذ الرحمان ولدا، فهو **التفات** لقصد إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد. كما تقدم في قوله آنفا: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ [مريم: من الآية٧١] فلا يحسن تقدير: قل لقد جئتم.". (١)

١٤٥-"قبيلة عك أو عكل وأنشدوا ليزيد بن مهلهل:

إن السفاهة طاها من شمائلكم ... لا بارك الله في القوم الملاعين

وذهب بعض المفسرين إلى اعتبارهما كلمة لغة عك أو عكل أو كلمة من الحبشية أو النبطية وأن معناها في لغة: عك يا إنسان، أو يا رجل. وفي ما عداها: يا حبيبي. وقيل: هي اسم سمى الله به نبيه صلى الله عليه وسلم وأنه على معنى النداء. أو هو قسم به. وقيل: هي اسم من أسماء الله تعالى على معنى القسم.

ورويت في ذلك آثار وأخبار ذكر بعضها عياض في الشفاء . ويجري فيها قول من جعل جميع هذه الحروف متحدة في المقصود منها. كقول من قال: هي أسماء للسور الواقعة فيها. ونحو ذلك مما تقدم في سورة البقرة. وإنما غرهم بذلك تشابه في النطق فلا نطيل بردها. وكذلك لا **التفات** إلى قول من زعموا أنه من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم.

[٢-٦] ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى * الرحمن على العرش استوى * له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾

افتتحت السورة بملاطفة النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله لم يرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك. أي تصيبه المشقة ويشده التعب، ولكن أراد أن يذكر بالقرآن من يخاف وعيده. وفي هذا تنويه أيضا بشأن المؤمنين الذين آمنوا بأنهم كانوا من أهل الخشية ولولا ذلك لما ادكروا بالقرآن.

وفي هذه الفاتحة تمهيد لما يرد من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالاضطلاع بأمر التبليغ. وبكونه من أولي العزم مثل موسى عليه السلام وأن لا يكون مفرطا في العزم كما كان آدم عليه السلام قبل نزوله إلى الأرض. وأدمج في ذلك التنويه بالقرآن لأن في ضمن ذلك تنويها بمن أنزل عليه وجاء به.

والشقاء: فرط التعب بعمل أو غم في النفس، قال النابغة:

إلا مقالة أقوام شقيت بهم ... كانت مقالتهم قرعا على كبدي

وهمزة الشقاء منقلبة عن الواو. يقال: شقاء وشقاوة بفتح الشين وشقوة بكسرها.". (٢)

١٤٦-"السؤال عنه توسل لتطلب بيان وراءه، فقال: ﴿هي عصاي﴾ بذكر المسند إليه، مع أن غالب الاستعمال حذفه في مقام السؤال للاستغناء عن ذكره في الجواب بوقوعه مسؤولا عنه، فكان الإيجاز يقتضي أن يقول: عصاي. فلما

---

(١) التحرير والتنوير ٨٤/١٦

(٢) التحرير والتنوير ٩٤/١٦

قال: ﴿هي عصاي﴾ كان الأسلوب أسلوب كلام من يتعجب من الاحتياج إلى الإخبار، كما يقول سائل لما رأى رجلا يعرفه وآخر لا يعرفه: من هذا معك؟ فيقول. فلان، فإذا لقيهما مرة أخرى وسأله: من هذا معك؟ أجابه: هو فلان، ولذلك عقب موسى جوابه ببيان الغرض من اتخاذها لعله أن يكون هو قصد السائل فقال: ﴿أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾ . ففصل ثم أجمل لينظر مقدار اقتناع السائل حتى إذا استزاده بيانا زاده.

والباء في قوله: ﴿بيمينك﴾ للظرفية أو الملابسة.

والتوكؤ: الاعتماد على شيء من المتاع، والاتكاء كذلك، فلا يقال: توكأ على الحائط ولكن يقال: توكأ على وسادة، وتوكأ على عصا.

والهش: الخبط، وهو ضرب الشجرة بعصا ليتساقط ورقها، وأصله متعد إلى الشجرة فلذلك ضمت عينه في المضارع، ثم كثر حذف مفعوله وعدي إلى ما لأجله يوقع الهش بعلى لتضمين "أهش" معنى أسقط. على غنمي الورق فتأكله، أو استعملت على بمعنى الاستعلاء المجازي كقولهم: هو وكيل على فلان.

ومآرب: جمع مأربة، مثلث الراء: الحاجة، أي أمور احتاج إليها. وفي العصا منافع كثيرة روي بعضها عن ابن عباس. وقد أفرد الجاحظ من كتاب البيان والتبيين بابا لمنافع العصا. ومن أمثال العرب: هو خير من تفارق العصا. ومن لطائف معنى الآية ما أشار إليه بعض الأدباء من أن موسى أطنب في جوابه بزيادة على ما في السؤال لأن المقام مقام تشريف ينبغي فيه طول الحديث.

والظاهر أن قوله: ﴿مآرب أخرى﴾ حكاية لقول موسى بمماثله، فيكون إيجازا بعد الإطناب، وكان يستطيع أن يزيد من ذكر فوائد العصا. ويجوز أن يكون حكاية لقول موسى بحاصل معناه، أي عد منافع أخرى، فالإيجاز من نظم القرآن لا من كلام موسى عليه السلام.

والضمير المشترك في ﴿قال ألقها﴾ عائد إلى الله تعالى على طريقة **الالتفات** من التكلم الذي في قوله: ﴿إنني أنا الله﴾ ؛ دعا إلى **الالتفات** وقوع هذا الكلام حوارا مع قول". (١)

١٤٧-"ولما ذكر منة خلق الأرض شفعها بمنة إخراج النبات منها بما ينزل عليها من السماء من ماء. وتلك منة تنبئ عن خلق السماوات حيث أجرى ذكرها لقصد ذلك التذكير، ولذا لم يقل: وصببنا الماء على الأرض، كما في آية ﴿أنا صببنا الماء صبا * ثم شققنا الأرض شقا﴾ [عبس:٢٥-٢٦]. وهذا إدماج بليغ.

والعدول عن ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله: ﴿فأخرجنا﴾ **التفات**. وحسنه هنا أنه بعد أن حج المشركين بحجة انفراده بخلق الأرض وتسخير السماء مما لا سبيل بهم إلى نكرانه ارتقى إلى صيغة المتكلم المطاع فإن الذي خلق الأرض وسخر السماء حقيق بأن تطيعه القوى والعناصر، فهو يخرج النبات من الأرض بسبب ماء السماء، فكان تسخير النبات أثرا لتسخير أصل تكوينه من ماء السماء وتراب الأرض.

---

(١) التحرير والتنوير ١١٠/١٦

ولملاحظة هذه النكتة تكرر في القرآن مثل هذا **الالتفات** عند ذكر الإنبات كما في قوله تعالى ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء﴾ [الأنعام: من الآية٩٩]، وقوله ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها﴾ [فاطر: من الآية٢٧]، وقوله: ﴿أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة﴾ ، ومنها قوله في سورة الزخرف: ﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا﴾ [الزخرف: من الآية١١] وقد نبه إلى ذلك في الكشاف ، ولله دره. ونظائره كثيرة في القرآن.

والأزواج: جمع زوج. وحقيقة الزوج أنه اسم لكل فرد من اثنين من صنف واحد. فكل أحد منهما هو زوج باعتبار الآخر، لأنه يصير بسبق الفرد الأول إياه زوجا. ثم غلب على الذكر والأنثى المقترنين من نوع الإنسان أو من الحيوان، قال تعالى: ﴿فاسلك فيها من كل زوجين اثنين﴾ [المؤمنون: من الآية٢٧، وقال: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ [القيامة:٣٩] وقال: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ . ولما شاعت فيه ملاحظة معنى اتحاد النوع تطرقوا من ذلك إلى استعمال لفظ الزوج في معنى النوع بغير قيد كونه ثانيا لآخر، على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق، قال تعالى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ [يس:٣٦]، ومنه قوله: ﴿فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ [لقمان: من الآية١٠]. وفي الحديث "من أنفق زوجين في سبيل الله ابتدرته حجبة الجنة..." الحديث، أي من أنفق نوعين مثل الطعام والكسوة، ومثل الخيل والرواحل. وهذا الإطلاق هو المراد هنا. أي فأنبتنا به أنواعا من نبات. وتقدم في سورة الرعد.". (١)

١٤٨-"وفي التفسير الوجيز للواحدي سأل إسماعيل القاضي "هو ابن إسحاق بن حماد" ابن كيسان عن هذه المسألة، فقال ابن كيسان: لما لم يظهر في المبهم إعراب في الواحد ولا في الجمع "أي في قولهم هذا وهؤلاء إذ هما مبنيان" جرت التثنية مجرى الواحد إذ التثنية يجب أن لا تغير. فقال له إسماعيل: ما أحسن هذا لو تقدمك أحد بالقول فيه حتى يؤنس به؟ فقال له ابن كيسان: فليقل به القاضي حتى يؤنس به، فتبسم.

وعلى هذا التوجيه يكون قوله تعالى: ﴿إن هذان لساحران﴾ حكاية لمقال فريق من المتنازعين، وهو الفريق الذي قبل هذا الرأي لأن حرف الجواب يقتضي كلاما سبقه.

ودخلت اللام على الخبر: إما على تقدير كون الخبر جملة حذف مبتدأها وهو مدخول اللام في التقدير، ووجود اللام ينبئ بأن الجملة التي وقعت خبرا عن اسم الإشارة جملة قسمية؛ وإما على رأي من يجيز دخول اللام على خبر المبتدأ في غير الضرورة.

ووجهت هذه القراءة أيضا بجعل "إن" حرف توكيد وإعراب اسمها المثنى جرى على لغة كنانة وبالحارث بن كعب الذين يجعلون علامة إعراب المثنى الألف في أحوال الإعراب كلها، وهي لغة مشهورة في الأدب العربي ولها شواهد كثيرة منها قول المتلمس:

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٣/١٦

فأطرق إطراق الشجاع ولو درى ... مساغا لنأباه الشجاع لصمما

وقرأه حفص بكسر الهمزة وتخفيف نون "إن" مسكنة على أنها مخففة "إن" المشددة. ووجه ذلك أن يكون اسم "إن" المخففة ضمير شأن محذوفا على المشهور. وتكون اللام في ﴿لساحران﴾ اللام الفارقة بين "إن" المخففة وبين "إن" النافية.

وقرأ ابن كثير بسكون نون "إن" على أنها مخففة من الثقيلة وبإثبات الألف في "هذان" وبتشديد نون ﴿هاذان﴾.

وأما قراءة أبي عمرو وحده ﴿إن هذين﴾ بتشديد نون "إن" وبالياء بعد ذال "هذين". فقال القرطبي: هي مخالفة للمصحف.

وأقول: ذلك لا يطعن فيها لأنها رواية صحيحة ووافقت وجها مقبولا في العربية.

ونزول القرآن بهذه الوجوه الفصيحة في الاستعمال ضرب من ضروب إعجازه لتجري تراكيبه على أفانين مختلفة المعاني متحدة المقصود. فلا التفات إلى ما روي من ادعاء أن كتابة "إن هاذان" خطأ من كاتب المصحف، وروايتهم ذلك عن أبان بن عثمان بن عفان". (١)

١٤٩-"إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ [القصص: من الآية٤٤] فهو جانب غربي، أي من جهة مغرب الشمس من الجبل، وهو الذي آنس موسى منه نارا.

وانتصب ﴿جانب الطور﴾ على الظرفية المكانية لأنه لاتساعه بمنزلة المكان المبهم.

ومفعول المواعدة محذوف، تقديره: المناجاة.

وتعدية ﴿وواعدناكم﴾ إلى ضمير جماعة بني إسرائيل وإن كانت مواعدة لموسى ومن معه الذين اختارهم من قومه باعتبار أن المقصد من المواعدة وحي أصول الشريعة التي تصير صلاحا. للأمة فكانت المواعدة مع أولئك كالموعدة مع جميع الأمة.

وقرأ الجميع ﴿ونزلنا عليكم﴾ الخ؛ فباعتبار قراءة حمزة، والكسائي، وخلف ﴿قد أنجيتكم وواعدتكم﴾ بتاء المفرد تكون قراءة ﴿ونزلنا﴾ بنون العظمة قريبا من الالتفات وليس عينه، لأن نون العظمة تساوي تاء المتكلم.

والسلوى تقدم في سورة البقرة. وكان ذلك في نصف الشهر الثاني من خروجهم من مصر كما في الإصحاح ١٦ من سفر الخروج.

وجملة ﴿كلوا﴾ مقول محذوف. تقديره: وقلنا أو قائلين. وتقدم نظيره في سورة البقرة.

وقرأ الجمهور ﴿ما رزقناكم﴾ بنون العظمة. وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف ﴿ما رزقتكم﴾ بتاء المفرد.

والطغيان: أشد الكبر. ومعنى النهي عن الطغيان في الرزق: النهي عن ترك الشكر عليه وقلة الاكتراث بعبادة المنعم.

وحرف "في" الظرفية استعارة تبعية؛ شبه ملابسة الطغيان للنعمة بحلول الطغيان فيها تشبيها للنعمة الكثيرة بالوعاء المحيط بالمنعم عليه على طريقة المكنية، وحرف الظرفية قرينتها.

والحلول: النزول والإقامة بالمكان؛ شبهت إصابة آثار الغضب إياهم بحلول الجيش ونحوه بديار قوم.

وقرأ الجمهور ﴿فيحل عليكم﴾ بكسر الحاء وقرأوا ﴿ومن يحلل عليه غضبي﴾ بكسر اللام الأولى على أنهما فعلا حل الدين

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٤/١٦

يقال: حل الدين إذا آن أجل أدائه. وقرأه الكسائي بالضم في الفعلين على أنه من حل بالمكان يحل إذا نزل به. كذا في الكشاف". (١)

١٥٠-"فأدمجت في هذا الاعتذار الإشارة إلى قضية صوغ العجل الذي عبدوه واغتروا بما موه لهم من أنه إلههم المنشود من كثرة ما سمعوا من رسولهم أن الله معهم أو أمامهم، ومما جاش في خواطرهم من الطمع في رؤيته تعالى.
وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وحفص عن عاصم، ورويس عن يعقوب ﴿حملنا﴾ بضم الحاء وتشديد الميم مكسورة. أي جملنا من حملنا، أو حملنا أنفسنا.
وقرأ أبو بكر عن عاصم، وحمزة، وأبو عمرو، والكسائي، وروح عن يعقوب بفتح الحاء وفتح الميم مخففة.
والأوزار: الأثقال. والزينة: الحلي والمصوغ. وقد كان بنو إسرائيل حين أزمعوا الخروج قد احتالوا على القبط فاستعار كل واحد من جاره القبطي حليا فضة وذهبا وأثاثا، كما في الإصحاح ١٢ من سفر الخروج. والمعنى: أنهم خشوا تلاشي تلك الزينة فارتأوا أن يصوغوها قطعة واحدة أو قطعتين ليتأتى لهم حفظها في موضع مأمون.
والقذف: الإلقاء. وأريد به هنا الإلقاء في نار السامري للصوغ، كما يومئ إليه الإصحاح ٣٢ من سفر الخروج. فهذا حكاية جوابهم لموسى عليه السلام مجملا مختصرا شأن المعتذر واه أن يكون خجلان من عذره فيختصر الكلام.
﴿فكذلك ألقى السامري * فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾
ظاهر حال الفاء التفريعية أن يكون ما بعدها صادرا من قائل الكلام المفرع عليه. والمعنى: فمثل قذفنا زينة القوم، أي في النار، ألقي السامري شيئا من زينة القوم فأخرج لهم عجلا. والمقصود من هذا التشبيه التخلص إلى قصة صوغ العجل الذي عبدوه.
وضميرا الغيبة في قوله: ﴿فأخرج لهم﴾ وقوله: ﴿فقالوا﴾ عائدان إلى غير المتكلمين. علق المتكلمون الإخراج والقول بالغائبين للدلالة على أن المتكلمين مع موسى لم يكونوا ممن اعتقد إلهية العجل ولكنهم صانعوا دهماء القوم، فيكون هذا من حكاية قول القوم لموسى. وعلى هذا درج جمهور المفسرين، فيكون من تمام المعذرة التي اعتذر بها المجيبون لموسى، ويكون ضمير ﴿فأخرج لهم﴾ **التفاتا** قصد القائلون به التبري من أن يكون إخراج العجل لأجلهم، أي أخرجه لمن رغبوا في ذلك.
وجعل بعض المفسرين هذا الكلام كله من جانب الله، وهو اختيار أبي مسلم". (٢)

١٥١-"[٧] ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ .
عطف جواب على جواب. والمقصود من هذا إبطال مقصودهم من قولهم: ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ إذ أرادوا أنه ليس بأهل للامتياز عنهم بالرسالة عن الله تعالى، فبين خطأهم في استدلالهم بأن الرسل الأولين الذين اعترفوا برسالتهم ما كانوا

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/١٥٩

(٢) التحرير والتنوير ١٦/١٦٦

إلا بشرا وأن الرسالة ليست إلا وحيا من الله لمن اختاره من البشر.

وقوله: ﴿إلا رجالا﴾ يقتضي أن ليس في النساء رسلا وهذا مجمع عليه. وإنما الخلاف في نبوءة النساء مثل مريم أخت موسى ومريم أم عيسى. ثم عرض بجهلهم وفضح خطأهم فأمرهم أن يسألوا أهل الذكر، أي العلم بالكتب والشرائع السالفة من الأحبار والرهبان.

وجملة: ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ الخ معترضة بين الجمل المتعاطفة.

وتوجيه الخطاب لهم بعد كون الكلام جرى على أسلوب الغيبة **التفات**، ونكتته أن الكلام لما كان في بيان الحقائق الواقعة أعرض عنهم في تقريره وجعل من الكلام الموجه إلى كل سامع وجعلوا فيه معبرا عنهم بضمائر الغيبة، ولما أريد تجهيلهم وإلجاؤهم إلى الحجة عليهم غير الكلام إلى الخطاب تسجيلا عليهم وتقريعا لهم بتجهيلهم.

[٨] ﴿وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين﴾ .

الجسد: الجسم الذي لا حياة فيه، وهو يرادف الجثة. هذا قول المحققين من أئمة اللغة مثل أبي إسحاق الزجاج في تفسير قوله تعالى: ﴿فأخرج لهم عجلا جسدا﴾ . وقد تقدم هناك، ومنه قوله تعالى: ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا﴾ . قيل هو شق غلام لا روح فيه ولدته إحدى نسائه، أي ما جعلناهم أجراما غير منبثة فيها الأرواح بحيث تنفي عنهم صفات البشر التي خاصتها أكل الطعام، وهذا رد لما يقولونه ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام﴾ مع قولهم هنا: ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ .

وذكر الجسد يقيد التهكم بالمشركين لأنهم لما قالوا ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام﴾ ، وسألوا أن يأتي بما أرسل به الأولون كان مقتضى أقوالهم أن الرسل الأولين". (١)

١٥٢-"في جميع الليل والنهار.

وتسبيح الملائكة بأصوات مخلوقة فيهم لا يعطلها تبليغ الوحي ولا غيره من الأقوال.

والفتور: الانقطاع عن الفعل.

[٢١] ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون﴾

"أم" هذه منقطعة عاطفة الجملة على الجملة عطف إضراب انتقالي هو انتقال من إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحجية دلالة القرآن إلى إبطال الإشراك، انتقالا من بقية الغرض السابق الذي تهيأ السامع للانتقال منه بمقتضى التخلص، الذي في قوله تعالى: ﴿وله من في السماوات والأرض ومن عنده﴾ كما تقدم، إلى التمحض لغرض إبطال الإشراك وإبطال تعدد الآلهة. وهذا الانتقال وقع اعتراضا بين جملة: ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ وجملة: ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ وليس إضراب الانتقال بمقتض عدم الرجوع إلى الغرض المنتقل إليه، و"أم" تؤذن بأن الكلام بعدها مسوق الاستفهام وهو استفهام إنكاري، أنكر عليه اتخاذهم آلهة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٧

وضمير "اتخذوا" عائد إلى المشركين المتبادرين من المقام في مثل هذه الضمائر. وله نظائر كثيرة في القرآن. ويجوز جعله التفاتا عن ضمير ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ ، ويجوز أن يكون متناسقا مع ضمائر ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام﴾ وما بعده.
ووصف الآلهة بأنها من الأرض تهكم بالمشركين، وإظهار لأفن رأيهم، أي جعلوا لأنفسهم آلهة من عالم الأرض أو مأخوذة من أجزاء الأرض من حجارة أو خشب تعريضا بأن ما كان مثل ذلك لا يستحق أن يكون معبودا، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ في الصافات.
وذكر الأرض هنا مقابلة لقوله تعالى: ﴿ومن عنده﴾ لأن المراد أهل السماء، وجملة: ﴿هم ينشرون﴾ صفة ثانية لـ ﴿آلهة﴾.
واقترانها بضمير الفصل يفيد التخصيص أن لا ينشر غير تلك الآلهة.
والمراد: إنشار". (١)

١٥٣-"وفي مادة النفح أنه عطاء قليل نزر، وبصميمة بناء المرة فيها، والتنكير، وإسناد المس إليها دون فعل آخر أربع مبالغات في التقليل، فما ظنك بعذاب يدفع قليله من حل به إلى الإقرار باستحقاقه إياه وإنشاء تعجبه من سوء حال نفسه.
والويل تقدم عند قوله تعالى: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ في سورة البقرة وعند قوله تعالى: ﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾ في أول سورة إبراهيم.
ومعنى ﴿إنا كنا ظالمين﴾ إنا كنا معتدين على أنفسنا إذ أعرضنا عن التأمل في صدق دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم.
فالظلم في هذه الآية مراد به الإشراك لأن إشراكهم معروف لديهم فليس مما يعرفونه إذا مستهم نفحة من العذاب.
[٤٧] ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾
يجوز أن تكون الواو عاطفة هذه الجملة على جملة: ﴿ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك﴾ الخ لمناسبة قولهم ﴿إنا كنا ظالمين﴾ ، ولبيان أنهم مجازون على جميع ما أسلفوه من الكفر وتكذيب الرسول بيانا بطريق ذكر العموم بعد الخصوص في المجازين، فشابه التذييل من أجل عموم قوله تعالى: ﴿فلا تظلم نفس شيئا﴾ ، وفي المجازي عليه من أجل قوله تعالى: ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها﴾.
ويجوز أن تكون الواو للحال من قوله: ﴿ربك﴾ ، وتكون نون المتكلم المعظم التفاتا لمناسبة الجزاء للأعمال كما يقال: أدى إليه الكيل صاعا بصاع، ولذلك فرع عليه قوله تعالى: ﴿فلا تظلم نفس شيئا﴾ .
ويجوز أن تكون الجملة معترضة وتكون الواو اعتراضية. والوضع حقيقته: حط الشيء ونصبه في مكان، وهو ضد الرفع.
ويطلق على صنع الشيء وتعيينه للعمل به وهو في ذلك مجاز.
والميزان: اسم آلة الوزن. وله كيفيات كثيرة تختلف باختلاف العوائد، وهي تتحد في كونها ذات طبقين متعادلين في الثقل يسميان كفتين بكسر الكاف وتشديد الفاء تكونان من خشب أو من حديد، وإذا كانتا من صفر سميتا صنجتين بصاد

(١) التحرير والتنوير ٢٨/١٧

مفتوحة ونون ساكنة، معلق كل طبق بخيوط في طرف يجمعهما عود من حديد أو خشب صلب، في". (١)

١٥٤-"وأصل الأمة: الجماعة التي حالها واحد، فأطلقت على ما تكون عليه الجماعة من الدين بقرينة أن الأمم ليست واحدة.

و ﴿أمة واحدة﴾ حال من ﴿أمتكم﴾ مؤكدة لما أفادته الإشارة التي هي العامل في صاحب الحال. وأفادت التمييز والتشخيص لحال الشرائع التي عليها الرسل أو التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم.

ومعنى كونها واحدة أنها توحد الله تعالى فليس دونه إله. وهذا حال شرائع التوحيد وبخلافها أديان الشرك فإنها لتعدد آلهتها تتشعب إلى عدة أديان لأن لكل صنم عبادة وأتباعا وإن كان يجمعها وصف الشرك فلذلك جنس عام وقد أومأ إلى هذا قوله تعالى: ﴿وأنا ربكم﴾ ، أي لا غيري. وسيأتي بسط القول في عربية هذا التركيب في تفسير سورة المؤمنين.

وأفاد قوله تعالى: ﴿وأنا ربكم﴾ الحصر، أي أنا لا غيري بقرينة السياق والعطف على ﴿أمة واحدة﴾ ، إذ المعنى: وأنا ربكم ربا واحدا، ولذلك فرع عليه الأمر بعبادته، أي فاعبدون دون غيري. وهذا الأمر مراعي فيه ابتداء حال السامعين من أمم الرسل، فالمراد من العبادة التوحيد بالعبادة والمحافظة عليها.

[٩٣] ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون﴾

عطف على جملة: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ أي أعرضوا عن قولنا و ﴿تقطعوا﴾ وضمائر الغيبة عائدة إلى مفهوم من المقام وهم الذين من الشأن التحدث عنهم في القرآن المكي بمثل هذه المذام، وهم المشركون. ومثل هذه الضمائر المراد منها المشركون كثير في القرآن. ويجوز أن تكون الضمائر عائدة إلى أمم الرسل. فعلى الوجه الأول الذي قدمناه في ضمائر الخطاب في قوله تعالى: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ يكون الكلام انتقالا من الحكاية عن الرسل إلى الحكاية عن حال أممهم في حياتهم أو الذين جاءوا بعدهم مثل اليهود والنصارى إذ نقضوا وصايا أنبيائهم. وعلى الوجه الثاني تكون ضمائر الغيبة **التفاتا**.

ثم يجوز أن تكون الواو عاطفة قصة على قصة لمناسبة واضحة كما عطف نظيرها بالفاء في سورة المؤمنين. ويجوز كونها للحال، أي أمرنا الرسل بملة الإسلام، وهي الملة الواحدة، فكان من ضلال المشركين أن تقطعوا أمرهم وخالفوا الرسل وعدلوا عن دين". (٢)

١٥٥-"التأذين بالحج فآل إلى كونه علة في التأذين بالحج.

ومعنى ﴿ليشهدوا﴾ ليحضروا منافع لهم، أي ليحضروا فيحصلوا منافع لهم إذ يحصل كل واحد ما فيه نفعه. وأهم المنافع ما وعدهم الله على لسان إبراهيم عليه السلام من الثواب. فكنى بشهود المنافع عن نيلها. ولا يعرف ما وعدهم الله على ذلك

---

(١) التحرير والتنوير ٥٩/١٧

(٢) التحرير والتنوير ١٠٣/١٧

بالتعيين. وأعظم ذلك اجتماع أهل التوحيد في صعيد واحد ليتلقى بعضهم عن بعض ما به كمال إيمانه.
وتنكير ﴿منافع﴾ للتعظيم المراد منه الكثرة وهي المصالح الدينية والدنيوية لأن في مجمع الحج فوائد جمة للناس: لأفرادهم من الثواب والمغفرة لكل حاج. ولمجتمعهم لأن في الاجتماع صلاحا في الدنيا بالتعارف والتعامل.
وخص من المنافع أن يذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام. وذلك هو النحر والذبح للهدايا. وهو مجمل في الواجبة والمتطوع بها. وقد بينته شريعة إبراهيم من قبل بما لم يبلغ إلينا. وبينه الإسلام بما فيه شفاء.
وحرف ﴿على﴾ متعلق بـ ﴿يذكروا﴾. وهو للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى الملابسة والمصاحبة، أي على الأنعام. وهو على تقدير مضاف، أي عند نحر بهيمة الأنعام أو ذبحها.
و"ما" موصولة، و ﴿من بهيمة الأنعام﴾ بيان لمدلول "ما". والمعنى: ليذكروا اسم الله على بهيمة الأنعام. وأدمج في هذا الحكم الامتنان بأن الله رزقهم تلك الأنعام. وهذا تعريض بطلب الشكر على هذا الرزق بالإخلاص لله في العبادة وإطعام المحاويج من عباد الله من لحومها. وفي ذلك سد لحاجة الفقراء بتزويدهم ما يكفيهم لعامهم. ولذلك فرع عليه ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ .
فالأمر بالأكل منها يحتمل أن يكون أمر وجوب في شريعة إبراهيم عليه السلام فيكون الخطاب في قوله: ﴿فكلوا﴾ لإبراهيم ومن معه.
وقد عدل عن الغيبة الواقعة في ضمائر ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ ، إلى الخطاب بذلك في قوله: ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس﴾ الخ. على طريقة **الالتفات** أو على تقدير قول محذوف مأمور به إبراهيم عليه السلام.". (١)

١٥٦-"الحق والاعتقاد الصحيح، فصاحبه كالذي يمشي النهار. ففي هذا إيماء إلى أن الإيلاج المقصود هو ظهور النهار بعد ظلمة الليل. أي ظهور الدين الحق بعد ظلمة الإشراك. ولذلك ابتدئ في الآية بإيلاج الليل في النهار، أي دخول ظلمة الليل تحت ضوء النهار.
وقوله: ﴿ويولج النهار في الليل﴾ تتميم لإظهار صلاحية القدرة الإلهية. وتقدم في سورة آل عمران ﴿تولج الليل في النهار﴾ .
وعطف ﴿وأن الله سميع بصير﴾ على السبب للإشارة إلى علم الله بالأحوال كلها فهو ينصر من ينصره بعلمه وحكمته ويعد بالنصر من علم أنه ناصره لا محالة، فلا يصدر منه شيء إلا عن حكمة.
[٦٢] ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾
اسم الإشارة هنا تكرير لاسم الإشارة الذي سبقه ولذلك لم يعطف. ثم أخبر عنه بسبب آخر لنصر المؤمنين على المشركين بأن الله هو الرب الحق الذي إذا أراد فعل وقدر فهو ينصر أولياءه وأن ما يدعوه المشركون من دون الله هو الباطل فلا

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/١٧٨

يستطيعون نصرهم ولا أنفسهم ينصرون. وهذا على حمل الباء في قوله: ﴿بأن الله هو الحق﴾ على معنى السببية، وهو محمل المفسرين. وسيأتي في سورة لقمان في نظيرها: أن الأظهر حمل الباء على الملابسة ليلتئم عطف ﴿وأن ما تدعون من دونه هو الباطل﴾.

والحق: المطابق للواقع، أي الصدق، مأخوذ من حق الشيء إذا ثبت. والمعنى: أنه الحق في الإلهية. فالقصر في هذه الجملة المستفاد من ضمير الفصل قصر حقيقي.

وأما القصر في قوله: ﴿وأن ما تدعون من دونه هو الباطل﴾ المستفاد من ضمير الفصل فهو قصر ادعائي لعدم الاعتداد بباطل غيرها حتى كأنه ليس من الباطل. وهذا مبالغة في تحقير أصنامهم لأن المقام مقام مناضلة وتوعد، وإلا فكثير من أصنام وأوثان غير العرب باطل أيضا.

وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر ﴿تدعون﴾ بالتاء الفوقية على **الالتفات** إلى خطاب المشركين لأن الكلام السابق الذي جرت عليهم فيه ضمائر الغيبة مقصود منه إسماعهم والتعريض باقتراب الانتصار عليهم. وقرأ البقية بالتحتية على طريقة". (١)

١٥٧-"في العبادة كل ضعيف ذليل فما قدروه حق قدره لأنه قوي عزيز فكيف يشاركه الضعيف الذليل. والعدول عن أن يقال: ما قدرتم الله حق قدره. إلى أسلوب الغيبة، **التفات** تعريضا بهم بأنهم ليسوا أهلا للمخاطبة توبيخا لهم، وبذلك يندمج في قوله: ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ تهديد لهم بأنه ينتقم منهم على وقاحتهم.

وتوكيد الجملة بحرف التوكيد ولام الابتداء مع أن مضمونها مما لا يختلف فيه التنزيل علمهم بذلك منزلة الإنكار لأنهم لم يجروا على موجب العلم حين أشركوا مع القوي العزيز ضعفاء أذلة.

والقوي: من أسمائه تعالى. وهو مستعمل في القدرة على كل مراد له. والعزيز: من أسمائه، وهو بمعنى: الغالب لكل معاند.

[٧٥] ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير﴾

لما نفت الآيات السابقة أن يكون للأصنام التي يعبدها المشركون مزية في نصرهم بقوله: ﴿وما للظالمين من نصير﴾ ، وقوله: ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ ونعى على المشركين تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ ، وقد كان من دواعي التكذيب أنهم أحالوا أن يأتيهم رسول من البشر ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ ، أي يصاحبه، ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ أعقب إبطال أقوالهم بأن الله يصطفي من شاء اصطفاه من الملائكة ومن الناس دون الحجارة، وأنه يصطفيهم ليرسلهم إلى الناس، أي لا ليكونوا شركاء. فلا جرم أبطل قوله: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس﴾ جميع مزاعمهم في أصنامهم.

فالجملة استئناف ابتدائي. والمناسبة ما علمت.

وتقديم المسند إليه وهو اسم الجلالة على الخبر الفعلي في قوله: ﴿الله يصطفي﴾ دون أن يقول: يصطفي، لإفادة الاختصاص،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٨/١٧

أي الله وحده هو الذي يصطفي لا أنتم تصطفون وتنسبون إليه.

والإظهار في مقام الإضمار هنا حيث لم يقل: هو يصطفي من الملائكة رسلا، لأن". (١)

١٥٨–"فاعلا فيقال: كسرته فتكسر، فلذلك كان تفاعل إذا جاء بمعنى فعل دالا على المبالغة كما صرح به الرضي في شرح الشافية، ولذلك تتفق صيغ المطاوعة وصيغ التكلف غالبا في نحو: تثنى، وتكبر، وتشامخ، وتقاعس. فمعنى تبارك الله أنه موصوف بالعظمة في الخير، أي عظمة ما يقدره من خير للناس وصلاح لهم.

وبهذا الاعتبار تكون الجملة تذييلا لأن تبارك لما حذف متعلقه كان عاما فيشمل عظمة الخير في الخلق وفي غيره. وكذلك حذف متعلق الخالقين يعم خلق الإنسان وخلق غيره كالجبال والسماوات.

[١٦,١٥] ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾

إدماج في أثناء تعداد الدلائل على تفرد الله بالخلق على اختلاف أصناف المخلوقات لقصد إبطال الشرك. وثم للترتيب الرتبي لأن أهمية التذكير بالموت في هذا المقام أقوى من أهمية ذكر الخلق لأن الإخبار عن موتهم توطئة للجملة بعده وهي قوله: ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ وهو المقصود.فهو كقوله: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ وهذه الجملة لها حكم الجملة الابتدائية وهي معترضة بين التي قبلها وبين جملة ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾ . ولكون ثم لم تفد مهلة في الزمان هنا صرح بالمهلة في قوله بعد ذلك. والإشارة إلى الخلق المبين آنفا، أي بعد ذلك التكوين العجيب والنماء المحكم أنتم صائرون إلى الموت الذي هو تعطيل أثر ذلك الإنشاء ثم مصيره إلى الفساد والاضمحلال. وأكد هذا الخبر بإن واللام مع كونهم لا يرتابون فيه لأنهم لما أعرضوا عن التدبر فيما بعد هذه الحياة كانوا بمنزلة من ينكرون أنهم يموتون. وتوكيد خبر ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ لأنهم ينكرون البعث. ويكون ما ذكر قبله من الخلق الأول دليلا على إمكان الخلق الثاني كما قال تعالى ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ ، فلم يحتج إلى تقوية التركيز بأكثر من حرف التأكيد وإن كان إنكارهم البعث قويا.

ونقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة **الالتفات**، ونكتته هنا أن المقصود التذكير بالموت وما بعده على وجه التعريض بالتخويف وإنما يناسبه الخطاب.

[١٧] ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾". (٢)

١٥٩–"منشئا أنشأ لهم السمع والأبصار، فصاحب الصلة هو الأولى بأن يعتبر مسندا إليه وهم لما عبدوا غيره نزلوا منزلة من جهل أنه الذي أنشأ لهم السمع فأتى لهم بكلام مفيد لقصر القلب أو الإفراد، أي الله الذي أنشأ ذلك دون أصنامكم. والخطاب للمشركين على طريقة **الالتفات**، أو لجميع الناس، أو للمسلمين، والمقصود منه التعريض بالمشركين.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٧/١٧

(٢) التحرير والتنوير ٢٢/١٨

والإنشاء: الإحداث، أي الإيجاد.

وجمع الأبصار والأفئدة باعتبار تعدد أصحابها. وأما إفراد السمع فجرى على الأصل في إفراد المصدر لأن أصل السمع أنه مصدر. وقيل: الجمع باعتبار المتعلقات فلما كان البصر يتعلق بأنواع كثيرة من الموجودات وكانت العقول تدرك أجناسا وأنواعا جمعا بهذا الاعتبار. وأفراد السمع لأنه لا يتعلق إلا بنوع واحد وهو الأصوات.

وانتصب ﴿قليلا﴾ عل الحال من ضمير ﴿لكم﴾ . وما مصدرية. والتقدير: في حال كونكم قليلا شكركم. فإن كان الخطاب للمشركين فالشكر مراد به التوحيد، أي فالشكر الصادر منكم قليل بالنسبة إلى تشريككم غيره معه في العبادة؛ وإن كان الخطاب لجميع الناس فالشكر عام في كل شكر نعمة وهو قليل بالنسبة لقلة عدد الشاكرين، لأن أكثر الناس مشركون كما قال تعالى: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ . وإن كان الخطاب للمسلمين والمقصود التعريض بالمشركين فالشكر عام وتقليله تحريض على الاستزادة منه ونبذ الشرك.

[٧٩] ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾

هو على شاكلة قوله: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار﴾ .

والذرء: البث. وتقدم في سورة الأنعام. وهذا امتنان بنعمة الإيجاد والحياة وتيسير التمكن من الأرض وإكثار النوع لأن الذرء يستلزم ذلك كله. وهذا استدلال آخر على انفراد الله تعالى بالإلهية إذ قد علموا أنه لا شريك له في الخلق فكيف يشركون معه الإلهية أصنافا هم يعلمون أنها لا تخلق شيئا، وهو أيضا استدلال على البعث لأن الذي أحيا الناس عن عدم قادر على إعادة إحيائهم بعد تقطع أوصالهم.

وقوبل الذرء بضده وهو الحشر والجمع، فإن الحشر يجمع كل من كان على الأرض من البشر، وفيه محسن الطباق.". (١)

١٦٠-"هذا إدماج لذكر أصل آخر من أصول الشرك وهو إحالة البعث بعد الموت. وبل للإضراب الإبطالي إبطالا لكونهم يعقلون، وإثبات لإنكارهم البعث مع بيان ما بعثهم على إنكاره وهو تقليد. والمعنى: أنهم لا يعقلون الأدلة لكنهم يتبعون أقوال آبائهم.

والكلام جرى على طريقة **الالتفات** من الخطاب إلى الغيبة لأن الكلام انتقل من التقريع والتهديد إلى حكاية ضلالهم فناسب هذا الانتقال مقام الغيبة لما في الغيبة من الإبعاد فالضمير عائد إلى المخاطبين.

والقول هنا مراد به ما طابق الاعتقاد لأن الأصل في الكلام مطابقة اعتقاد قائله، فالمعنى: بل ظنوا مثل ما ظن الأولون.

والأولون: أسلافهم في النسب أو أسلافهم في الدين من الأمم المشركين.

وجملة: ﴿قالوا أإذا متنا﴾ إلخ. بدل مطابق من جملة: ﴿قالوا مثل ما قال الأولون﴾ تفصيل لإجمال المماثلة، فالضمير الذي مع ﴿قالوا﴾ الثاني عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿قالوا﴾ الأول وليس عائدا على ﴿الأولون﴾ . ويجوز جعل قالوا الثاني استئنافا بيانيا لبيان ﴿ما قال الأولون﴾ ويكون الضمير عائدا إلى ﴿الأولون﴾ . والمعنى واحد على التقديرين. وعلى كلا

---

(١) التحرير والتنوير ٨٥/١٨

الوجهين فإعادة فعل ﴿قالوا﴾ من قبيل إعادة الذي عمل به في المبدل منه. ونكتته هنا التعجيب من هذا القول.
وقرأ الجمهور: ﴿أإذا متنا﴾ بهمزتين على أنه استفهام عن الشرط. وقرأه ابن عامر بهمزة واحدة على صورة الخبر والاستفهام مقدر في جملة: ﴿أإنا لمبعوثون﴾ .
وقرأ الجمهور: ﴿أإنا لمبعوثون﴾ بهمزتين على تأكيد همزة الاستفهام الأولى بإدخال مثلها على جواب الشرط. وقرأه نافع وأبو جعفر بدون همزة استفهام ووجود همزة الاستفهام داخلة على الشرط كاف في إفادة الاستفهام عن جوابه.
والاستفهام إنكاري، وإذا ظرف لقوله: ﴿لمبعوثون﴾ .
والجمع بين ذكر الموت والكون ترابا وعظاما لقصد تقوية الإنكار بتفظيع إخبار القرآن بوقوع البعث، أي الإحياء بعد ذلك التلاشي القوي.
وأما ذكر حرف إن في قولهم: ﴿أإنا لمبعوثون﴾ فالمقصود منه حكاية دعوى البعث". (١)

١٦١-"قد عرفت آنفا نكتة تكرير القول.
والملكوت: مبالغة في الملك بضم الميم. فالملكوت: الملك المقترن بالتصرف في مختلف الأنواع والعوالم لذلك جاء بعده ﴿كل شيء﴾ .
واليد: القدرة. ومعنى ﴿يجير﴾ يغيث ويمنع من يشاء من الأذى. ومصدره الإجارة فيفيد معنى الغلبة، وإذا عدي بحرف الاستعلاء أفاد أن المجرور مغلوب على أن لا ينال المجار بأذى، فمعنى ﴿لا يجار عليه﴾ لا يستطيع أحد أن يمنع أحدا من عقابه، فيفيد معنى العزة التامة.
وبني فعل ﴿يجار عليه﴾ للمجهول لقصد انتفاء الفعل عن كل فاعل فيفيد العموم مع الاختصار.
ولما كان تصرف الله هذا خفيا يحتاج إلى تدبر العقل لإدراكه عقب الاستفهام بقوله: ﴿إن كنتم تعلمون﴾ كما عقب الاستفهام الأول بمثله حثا لهم على علمه والاهتداء إليه.
ثم عقب بما يدل على أنهم إذا تدبروا علموا فقيل: ﴿سيقولون لله﴾ .
وقرأ الجمهور: ﴿سيقولون لله﴾ بلام الجر داخلة على اسم الجلالة مثل سالفه. وقرأه أبو عمرو ويعقوب بدون لام وقد علمت ذلك في نظيره السابق.
وأنى يجوز أن تكون بمعنى من أين كما تقدم في سورة آل عمران ﴿قال يا مريم أنى لك هذا﴾ والاستفهام تعجيبي. والسحر مستعار لترويج الباطل بجامع تخيل ما ليس بواقع واقعا. والمعنى: فمن أين اختل شعوركم فراج عليكم الباطل. فالمراد بالسحر ترويج أئمة الكفر عليهم الباطل حتى جعلوهم كالمسحورين.
[٩٠] ﴿بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون﴾ .
إضراب لإبطال أن يكونوا مسحورين، أي بل ليس الأمر كما خيل إليهم، فالذي أتيناهم به الحق يعني القرآن. والباء للتعدية

---

(١) التحرير والتنوير ٨٧/١٨

كما يقال: ذهب به. أي أذهبه. وهذا كقوله آنفا: ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾ .

والعدول عن الخطاب من قوله: ﴿فأنى تسحرون﴾ إلى الغيبة **التفات** لأنهم الموجه إليهم الكلام في هذه الجملة. والحق هنا: الصدق فلذلك قوبل بنسبتهم إلى الكذب فيما رموا به القرءان من قولهم: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ . وفي". [(١)]

١٦٢-"تقدم آنفا. وشرع هذا الجلد عقابا للرامي بالكذب أو بدون تثبت ولسد ذريعة ذلك.

وأسند فعل ﴿يرمون﴾ إلى اسم الموصول المذكر وضمائر ﴿تابوا﴾﴿وأصلحوا﴾ وكذلك وصف ﴿الفاسقون﴾ بصيغ التذكير. وعدي فعل الرمي إلى مفعول بصيغة الإناث كل ذلك بناء على الغالب أو على مراعاة قصة كانت سبب نزول الآية ولكن هذا الحكم في الجميع يشمل ضد أهل هذه الصيغة في مواقعها كلها بطريق القياس. ولا اعتداد بما يتوهم من فارق إلصاق المعرة بالمرأة إذا رميت بالزنى دون الرجل يرمى بالزنى لأن جعل العار على المرأة تزني دون الرجل يزني إنما هو عادة جاهلية لا **التفات** إليها في الإسلام فقد سوى الإسلام التحريم والحد والعقاب الآجل والذم العاجل بين المرأة والرجل.

وقد يعد اعتداء الرجل بزناه أشد من اعتداء المرأة بزناها لأن الرجل الزاني يضيع نسب نسله فهو جان على نفسه، وأما المرأة فولدها لاحق بها لا محالة فلا جناية على نفسها في شأنه، وهما مستويان في الجناية على الولد بإضاعة نسبه فهذا الفارق الموهوم ملغى في القياس.

أما عدم قبول شهادة القاذف في المستقبل فلأنه لما قذف بدون إثبات قد دل على تساهله في الشهادة فكان حقيقا بأن لا يؤخذ بشهادته.

والأبد: الزمن المستقبل كله.

واسم الإشارة للإعلان بفسقهم ليتميزوا في هذه الصفة الذميمة.

والحصر في قوله: ﴿وأولئك هم الفاسقون﴾ للمبالغة في شناعة فسقهم حتى كأن ماعداه من الفسوق لا يعد فسقا.

والاستثناء في قوله: ﴿إلا الذين تابوا﴾ حقه أن يعود إلى جميع ما تقدم قبله كما هو شأن الاستثناء عند الجمهور إلا أنه هنا راجع إلى خصوص عدم قبول شهادتهم وإثبات فسقهم وغير راجع إلى إقامة الحد، بقرينة قوله: ﴿من بعد ذلك﴾ ، أي بعد أن تحققت الأحكام الثلاثة فالحد قد فات على أنه قد علم من استقراء الشريعة أن الحدود الشرعية لا تسقطها توبة مقترف موجبها. وقال أبو حنيفة وجماعة: الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة جريا على أصله في عود الاستثناء الوارد بعد جمل متعاطفة.

والتوبة: الإقلاع والندم وظهور عزمه على أن لا يعود لمثل ذلك. وقد تقدم ذكر التوبة في ذكر النساء عند قوله تعالى: ﴿إنما التوبة على الله﴾ الآيات. وليس من". [(٢)]

---

(١) التحرير والتنوير ٩١/١٨

(٢) التحرير والتنوير ١٢٨/١٨

١٦٣-"دون عدد الجمع فإن من لم يظن خيرا رجلان، فعبر عنهما بالمؤمنين وامرأة فعبر عنها بالمؤمنات على حد قوله: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾ .

وقوله: ﴿بأنفسهم خيرا﴾ وقع في مقابلة: ﴿ظن المؤمنون والمؤمنات﴾ فيقتضي التوزيع، أي ظن كل واحد منهم بالآخرين ممن رموا بالإفك خيرا إذ لا يظن المرء بنفسه.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ أي يلمز بعشكم بعضا، وقوله: ﴿فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم﴾ .

روي أن أبا أيوب الأنصاري لما بلغه خبر الإفك قال لزوجه: ألا ترين ما يقال؟ فقالت له: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله سوءا؟ قال: لا. قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله فعائشة خير مني وصفوان خير منك. قال: نعم.

وتقديم الظرف وهو ﴿إذ سمعتموه﴾ على عامله وهو ﴿قلتم﴾ للاهتمام بمدلول ذلك الظرف تنبيها على أنهم كان من واجبهم أن يطرق ظن الخير قلوبهم بمجرد سماع الخير وأن يتبرؤا من الخوض فيه بفور سماعه.

والعدول عن ضمير الخطاب في إسناد فعل الظن إلى المؤمنين التفاوت، فمقتضى الظاهرة أن يقال: ظننتم بأنفسكم خيرا، فعدل عن الخطاب للاهتمام بالتوبيخ فإن **الالتفات** ضرب من الاهتمام بالخبر، وليصرح بلفظ الإيمان، دلالة على أن الاشتراك في الإيمان يقتضي أن لا يصدق مؤمن على أخيه وأخته في الدين ولا مؤمنة على أخيها وأختها في الدين قول عائب ولا طاعن. وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في مؤمن أن يبني الأمر فيها على الظن لا على الشك ثم ينظر في قرائن الأحوال وصلاحية المقام فإذا نسب سوء إلى عرف بالخير ظن أن ذلك إفك وبهتان حتى يتضح البرهان. وفيه تعريض بأن ظن السوء الذي وقع هو من خصال النفاق التي سرت لبعض المؤمنين عن غرور وقلة بصارة فكفى بذلك تشنيعا له.

وهذا توبيخ على عدم إعمالهم النظر في تكذيب قول ينادي حاله ببهتانه وعلى سكوتهم عليه وعدم إنكاره.

وعطف ﴿وقالوا هذا إفك مبين﴾ تشريع لوجوب المبادرة بإنكار ما يسمعه المسلم من الطعن في المسلم بالقول كما ينكره بالظن وكذلك تغيير المنكر بالقلب واللسان.". (١)

١٦٤-"النساء من الخلاخل قال: ما هذا الذي جاء فيه الحديث وتركه أحب إلى من غير تحريم. قال ابن رشد في شرحه: أراد أن الذي يحرم إنما هو أن يقصدن في مشيهن إلى إسماع قعقعة الخلاخل إظهارا بهن من زينتهن.

وهذا يقتضي النهي عن كل ما من شأنه أن يذكر الرجل بلهو النساء ويثير منه إليهن من كل ما يرى أو يسمع من زينة أو حركة كالتثني والغناء وكلم الغزل. ومن ذلك رقص النساء في مجالس الرجال ومن ذلك التلطخ بالطيب الذي يغلب عبيقه. وقد أومأ إلى علة ذلك قوله تعالى: ﴿ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ . ولعن النبي صلى الله عليه وسلم المستوشمات والمتفلجات للحسن.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٠/١٨

قال مكي بن أبي طالب ليس في كتاب الله آية أكثر ضمائر من هذه الآية جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات من مخفوض ومرفوع وسماها أبو بكر ابن العربي: آية الضمائر.

﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ أعقبت الأوامر والنواهي الموجهة إلى المؤمنين بأمر جميعهم بالتوبة إلى الله إيماء إلى أن فيما أمروا به ونهوا عنه دفاعا لداع تدعو إليه الجبلة البشرية من الاستحسان والشهوة فيصدر ذلك عن الإنسان عن غفلة ثم يتغلغل هو فيه فأمروا بالتوبة ليحاسبوا أنفسهم على ما يفلت منهم من ذلك اللمم المؤدي إلى ما هو أعظم.

والجملة معطوفة على جملة ﴿قل للمؤمنين﴾ . ووقع **التفات** من خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خطاب الأمة لأن هذا تذكير بواجب التوبة المقررة من قبل وليس استئناف تشريع.

ونبه بقوله: ﴿جميعا﴾ على أن المخاطبين هم المؤمنون والمؤمنات وإن كان الخطاب ورد بضمير التذكير على التغليب، وأن يؤملوا الفلاح إن هم تابوا وأنابوا.

وتقدم الكلام على التوبة في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿إنما التوبة على الله﴾ .

وكتب في المصحف أيه بهاء في آخره اعتبارا بسقوط الألف في حال الوصل مع كلمة ﴿المؤمنون﴾ . فقرأها الجمهور بفتح الهاء بدون ألف في الوصل. وقرأها أبو عامر بضم الهاء إتباعا لحركة أي. ووقف عليها أبو عمرو والكسائي بألف في آخرها. ووقف الباقون عليها بسكون الهاء على اعتبار ما رسمت به.". (١)

١٦٥-"عليه على وجه المجاز وأبقي لدلالة أصوات الطير اسم التسبيح لأنه يطلق مجازا على الدلالة بالصوت بعلاقة الإطلاق وذلك على التوزيع؛ ولولا إرادة ذلك لقيل: كل قد علم تسبيحه، أو كل قد علم صلاته.

والخطاب في قوله: ﴿ألم تر﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم. والمراد من يبلغ إليه، أو الخطاب لغير معين فيعم كل مخاطب كما هو الشأن في أمثاله.

والاستفهام مستعمل كناية عن التعجيب من حال فريق المشركين الذين هم من أصحاب العقول ومع ذلك قد حرموا الهدى لما لم يجعله الله فيهم. وقد جعل الهدى في العجماوات إذ جبلها على إدراك أثر نعمة الوجود والرزق. وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ .

والصافات: من صفات الطير: يراد به صفهن أجنحتهن في الهواء حين الطيران. وتخصيص الطير بالذكر من بين المخلوقات للمقابلة بين مخلوقات الأرض والسماء بذكر مخلوقات في الجو بين السماء والأرض ولذلك قيدت ب ﴿صافات﴾ .

وفعل ﴿علم﴾ مراد به المعرفة لظهور الفرق بين علم العقلاء بصلاتهم وعلم الطير بتسبيحها فإن الثاني مجرد شعور وقصد للعمل.

وضمائر ﴿علم صلاته وتسبيحه﴾ راجعة إلى ﴿كل﴾ لا محالة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٧١/١٨

ولو كان المراد بها التوزيع على من في السماوات والأرض والطير من جهة وعلى اسم الجلالة من جهة لوقع ضمير فصل بعد ﴿علم﴾ فلكان راجعا إلى الله تعالى.

والرؤية هنا بصرية لأن تسبيح العقلاء مشاهد لكل ذي بصر، وتسبيح الطير مشاهد باعتبار مسماه فما على الناظر إلا أن يعلم أن ذلك المسمى جدير باسم التسبيح.

وعلى هذا الاعتبار كان الاستفهام الإنكاري مكين الوقع.

وإن شئت قلت: إن جملة ﴿ألم تر﴾ جارية مجرى الأمثال في كلام البلغاء فلا **التفات** فيها إلى معنى الرؤية.

وقيل: الرؤية هنا قلبية. وأغنى المصدر عن المفعولين.

وجملة ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ تذييل وهو إعلام بسعة علم الله تعالى الشامل للتسبيح وغيره من الأحوال.". [(١)]

١٦٦-"وجملة ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ صالحة لتذييل الاحتمالات المتقدمة، وهي تعليل لما قبلها.

﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ تلقين آخر للرسول عليه الصلاة والسلام بما يرد بهتانهم بقلة الاكتراث بمواعيدهم الكاذبة وأن يقتصروا من الطاعة على طاعة الله ورسوله فيما كلفهم دون ما تبرعوا به كذبا، ويختلف معنى ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ بين معاني الأمر بإيجاد الطاعة المفقودة أو إيهام طلب الدوام على الطاعة على حسب زعمهم.

وأعيد الأمر بالقول للاهتمام بهذا القول فيقع كلاما مستقلا غير معطوف.

وقوله: ﴿فإن تولوا﴾ يجوز أن يكون تفريعا على فعل ﴿أطيعوا﴾ فيكون فعل ﴿تولوا﴾ من جملة ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم ويكون فعلا مضارعا بتاء الخطاب. وأصله: تتولوا بتاءين حذفت منهما تاء الخطاب للتخفيف وهو حذف كثير في الاستعمال. والكلام تبليغ عن الله تعالى إليهم، فيكون ضميرا ﴿عليه ما حمل﴾ عائدين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويجوز أن يكون تفريعا على فعل قل، أي فإذا قلت ذلك فتولوا ولم يطيعوا الخ، فيكون فعل ﴿تولوا﴾ ماضيا بتاء واحدة مواجها به النبي صلى الله عليه وسلم، أي فأن تولوا ولم يطيعوا فإنما عليك ما حملت من التبليغ وعليهم ما حملوا من تبعة التكليف. كمعنى قوله تعالى: ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾ في سورة النحل فيكون في ضمائر ﴿فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم﴾ **التفات**. وأصل الكلام: فإنما عليك ما حملت وعليهم ما حملوا. **والالتفات** محسن لا يحتاج إلى نكتة.

وبهذين الوجهين تكون الآية مفيدة معنيين: معنى من تعلق خطاب الله تعالى بهم وهو تعريض بتهديد ووعيد، ومعنى من موعظة النبي صلى الله عليه وسلم إياهم وموادعة بهم. وهذا كله تبكيت لهم ليعلموا أنهم لايضرون لتوليهم إلا أنفسهم.

ونظيره قوله في سور آل عمران: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾ هم اليهود ﴿يدعون إلى كتاب الله﴾ إلى قوله:

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٢٠٧

﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ .". (١)

١٦٧-"الأمة على حسب ما أمر به الدين أفراد الأمة كل فيما هو من عمل أمثاله الخليفة فمن دونه، وذلك في غالب أحوال تصرفاتهم، ولا **التفات** إلى الفلتات المناقضة فإنها معفو عنها إذا لم يسترسل عليها وإذا ما وقع السعي في تداركها.

والاستقامة في الخويصة هي موجب هذا الوعد وهي الإيمان وقواعد الإسلام، والاستقامة في المعاملة هي التي بها تيسير سبب الموعود به.

وقد بين الله تعالى أصول انتظام أمور الأمة في تضاعيف كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم مثل قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والأحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ . وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم﴾ وقوله في سياق الذم: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ وقوله: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ وبين الرسول عليه الصلاة والسلام تصرفات ولاة الأمور في شؤون الرعية ومع أهل الذمة ومع الأعداء في الغزو والصلح والمهادنة والمعاهدة، وبين أصول المعاملات بين الناس.

فمتى اهتم ولاة الأمور وعموم الأمة باتباع ما وضح لهم الشرع تحقق وعد الله إياهم بهذا الوعد الجليل.

وهذه التكاليف التي جعلها الله لصلاح أمور الأمة ووعد عليها بإعطاء الخلافة والتمكين والأمن صارت بترتيب تلك الموعدة عليها أسبابا لها، وكانت الموعدة كالمسبب عليها فشابهت من هذه الحالة خطاب الوضع، وجعل الإيمان عمودها وشرطا للخروج من عهدة التكليف بها وتوثيقا لحصول آثارها بأن جعله جالب رضاه وعنايته. فبه يتيسر للأمة تناول أسباب النجاح، وبهي يحف اللطف الإلهي بالأمة في أطوار مزاولتها واستجلابها بحيث يدفع عنهم العراقيل والموانع، وربما حف بهم اللطف والعناية عند تقصير لهم في القيام بها. وعند تخليطهم الصلاح بالفساد فرفق بهم ولم يعجل لهم الشر وتلوم لهم في إنزال العقوبة. وقد أشار إلى هذا قوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ يريد بذلك كله المسلمين. وقد مضى الكلام على ذلك في سورة الأنبياء كقوله: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ في سورة الحج.". (٢)

١٦٨-"وعلمت أيضا أن ليس المقصود من التعريف في ﴿المؤمنون﴾ معنى الكمال لأنه لو كان كذلك لم يحصل قصد التشهير بنفاق المنافقين.

والأمر: الشأن والحال المهم. وتقدم في قوله: ﴿وأولي الأمر منكم﴾ في سورة النساء.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٤/١٨

(٢) التحرير والتنوير ٢٢٧/١٨

والجامع: الذي من شأنه أن يجتمع الناس لأجله للتشاور أو التعلم. والمراد: ما يجتمع المسلمون لأجله حول الرسول عليه الصلاة والسلام في مجلسه أو في صلاة الجماعة. وهذا ما يقتضيه مع وعلى من قوله: ﴿معه على أمر جامع﴾ لإفادة مع معنى المشاركة وإفادة على معنى التمكن منه.

ووصف الأمر ب ﴿جامع﴾ على سبيل المجاز العقلي لأنه سبب الجمع. وتقدم في قوله تعالى: ﴿فأجمعوا أمركم﴾ في سورة يونس.

وعن مالك: أن هذه الآية نزلت في المنافقين يوم الخندق وذلك سنة خمس كان المنافقون يتسللون من جيش الخندق ويعتذرون بأعذار كاذبة.

وجملة ﴿إن الذين يستأذنونك﴾ إلى آخرها تأكيد لجملة ﴿إنما المؤمنون﴾ لأن مضمون معنى هذه الجملة هو مضمون معنى جملة ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله﴾ الآية. وقد تفنن في نظم الجملة الثانية بتغيير أسلوب الجملة الأولى فجعل مضمون المسند في الأولى مسندا إليه في الثانية والمسند إليه الأولى مسندا في الثانية ومآل الأسلوبين واحد لأن المآل الإخبار بأن هذا هو ذاك على حد: وشعر شعري، تنويها بشأن الاستئذان، وليبني عليها تفريع ﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم﴾ ليعلم المؤمنين الأعذار الموجبة للاستئذان، أي ليس لهم أن يستأذنوا في الذهاب إلا لشأن مهم من شؤونهم.

ووقع **الالتفات** من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿يستأذنونك﴾ تشريفا للرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب.

وقد خير الله رسوله في الإذن لمن استأذنه من المؤمنين لأنه أعلم بالشأن الذي قضاؤه أرجح الأمر الجامع لأن مشيئة النبي لاتكون عن هوى ولكن لعذر ومصلحة.

وقوله: ﴿واستغفر لهم الله﴾ مؤذن بأن ذلك الانصراف خلاف ما ينبغي لأنه لترجيح". (١)

١٦٩-"حاجته على الإعانة على حاجة الأمة.

وهذه الآية أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمة لأن من السنة أن يكون لكل اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع. وقد أشارت مشروعية الإمامة إلى ذلك النظام. ومن السنة أن لا يجتمع جماعة إلا أمروا عليهم أميرا فالذي يترأس الجمع هو قائم مقام ولي أمر المسلمين فهو في مقام النبي صلى الله عليه وسلم فلا ينصرف أحد عن اجتماعه إلا بعد أن يستأذنه، لأنه لو جعل أمر الانسلال لشهوة الحاضر لكان ذريعة لانفضاض الاجتماعات دون حصول الفائدة التي جمعت لأجلها، وكذلك الأدب أيضا في التخلف عن الاجتماع عند الدعوة إليه كاجتماع المجالس النيابية والقضائية والدينية أو التخلف عن ميقات الاجتماع المتفق عليه إلا لعذر واستئذان.

[٦٣] ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ .

لما كان الاجتماع للرسول في الأمور يقع بعد دعوته الناس للاجتماع وقد أمرهم الله أن لا ينصرفوا عن مجامع الرسول صلى

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٦/١٨

الله عليه وسلم إلا لعذر بعد إذنه أنبأهم بهذه الآية وجوب استجابة دعوة الرسول إذا دعاهم. وقد تقدم قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾ في سورة الأنفال. والمعنى: لا تجعلوا دعوة الرسول إياكم للحضور لديه مخيرين في استجابتها كما تتخيرون في استجابة دعوة بعضكم بعضا، فوجه الشبه المنفي بين الدعوتين هو الخيار في الإجابة. والغرض من هذه الجملة أن لا يتوهموا أن الواجب هو الثبات في مجامع الرسول إذا حضروها، وأنهم في حضورها إذا دعوا إليها بالخيار، فالدعاء على هذا التأويل مصدر دعاه إذا ناداه أو أرسل إليه ليحضر.

وإضافة ﴿دعاء﴾ إلى ﴿الرسول﴾ من إضافة المصدر إلى فاعله. ويجوز أن تكون إضافة ﴿دعاء﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله الفاعل المقدر ضمير المخاطبين. والتقدير: لا تجعلوا دعاءكم الرسول، فالمعنى نهيهم.

ووقع **الالتفات** من الغيبة إلى خطاب المسلمين حثا على تلقي الجملة بنشاط فهم، فالخطاب للمؤمنين الذي تحدث عنهم بقوله: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله﴾ وقوله: ﴿إن الذين يستأذنونك﴾ الخ. نهوا عن أن يدعوا الرسول عند". [١]

١٧٠-"وعلى كلا الوجهين فانتصاب ﴿يوم نحشرهم﴾ على المفعولية لفعل محذوف معلوم في سياق أمثاله، تقديره: اذكر ذلك اليوم لأنه لما توعدهم بالسعير وما يلاقون من هولها بين لهم حال ما قبل ذلك وهو حالهم في الحشر مع أصنامهم. وهذا مظهر من مظاهر الهول لهم في المحشر إذ يشاهدون خيبة آمالهم في آلهتهم إذ يرون حقارتها بين يدي الله وتبرؤها من عبادها وشهادتها عليهم بكفرانهم نعمة الله وإعراضهم عن القرآن، وإذ يسمعون تكذيب من عبدوهم من العقلاء من الملائكة وعيسى عليهم السلام والجن ونسبوا إليهم أنهم أمروهم بالضلالات.

وعموم الموصول من قوله ﴿وما يعبدون﴾ شامل لأصناف المعبودات التي عبدوها ولذلك أوثرت "ما" الموصولة لأنها تصدق على العقلاء وغيرهم. على ان التغليب هنا لغير العقلاء. والخطاب في ﴿أأنتم أضللتم﴾ للعقلاء بقرينة توجيه الخطاب.

فجملة ﴿قالوا سبحانك﴾ جواب عن سؤال الله إياهم: ﴿أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ ، فهو استئناف ابتدائي ولا يتعلق به ﴿يوم نحشرهم﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿نحشرهم﴾ بالنون و ﴿يقول﴾ بالياء ففيه **التفات** من التكلم إلى الغيبة. وقرأه ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب ﴿يحشرهم - يقول﴾ كليهما بالياء. وقرأ ابن عامر ﴿نحشرهم - نقول﴾ كليهما بالنون.

والاستفهام تقريري للاستنطاق والاستشهاد. والمعنى: أأنتم أضللتموهم أم ضلوا من تلقاء أنفسهم دون تضليل منكم. ففي الكلام حذف دل عليه المذكور.

وأخبر بفعل ﴿أضللتم﴾ عن ضمير المخاطبين المنفصل وبفعل ﴿ضلوا﴾ عن ضمير الغائبين المنفصل ليفيد تقديم المسند إليهما عل الخبرين الفعليين تقوي الحكم المقرر به لإشعارهم بأنهم لا مناص لهم من الإقرار بأحد الأمرين وأن أحدهم محقق الوقوع لا محالة. فالمقصود بالتقوية هو معادل همزة الاستفهام وهو ﴿أم هم ضلوا السبيل﴾ .

والمجيبون هم العقلاء من المعبودين الملائكة وعيسى عليهم السلام.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٧/١٨

وقولهم ﴿سبحانك﴾ كلمة تنزيه كني بها عن التعجب من قول فظيع، كقول الأعشى:

قد قلت لما جاءني فخره

...

سبحان من علقمة الفاخر.

وتقدم في [سورة النور: ١٦] ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ . واعلم أن ظاهر ضمير". [١]

١٧١-"الالتفات في قوله ﴿كذبوكم﴾ .

وفي الكلام حذف فعل قول يدل عليه المقام. والتقدير: إن قلتم هؤلاء آلهتنا فقد كذبوكم، وقد جاء التصريح بما يدل على القول المحذوف في قول عباس بن الأحنف.

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا

ثم القفول فقد جئنا خراسانا.

أي إن قلتم ذلك فقد جئنا خراسان. وفي حذف فعل القول في هذه الآية استحضار لصورة المقام كأنه مشاهد غير محكي وكأن السامع آخر الآية قد سمع لهذه المحاورة مباشرة دون حكاية فقرع سمعه شهادة الأصنام عليهم ثم قرع سمعه توجه خطاب التكذيب إلى المشهود عليهم، وهو تفنن بديع في الحكاية يعتمد على تخييل المحكي واقعا، ومنه قوله تعالى ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر﴾ [سورة القمر: ٤٨]. فجملة ﴿فقد كذبوكم﴾ الخ مستأنفة ابتدائية هو إقبال على خطاب الحاضرين وهو ضرب من الالتفات مثل قوله تعالى ﴿واستغفري لذنبك﴾ بعد قوله ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ [سورة يوسف: ٢٩].

والباء في قوله ﴿بما تقولون﴾ يجوز أن تكون بمعنى "في" للظرفية المجازية، أي كذبوكم تكذيبا واقعا فيما تقولون، ويجوز أن تكون للسببية، أي كذبوكم بسبب ما تقولون.

و"ما" موصولة. والذي قالوه هو ما يستفاد من السؤال والجواب وهو أنهم قالوا إنهم دعوهم إلى أن يعبدوهم.

وفرع على الإعلان بتكذيبهم إياهم تأييسهم من الانتفاع بهم في ذلك الموقف إذ بين لهم أنهم لا يستطيعون صرفا، أي صرف ضر عنهم، ولا نصرا، أي إلحاق ضر بمن يغلبهم. ووجه التفريع ما دل عليه قولهم ﴿سبحانك﴾ [الفرقان: ١٨] الذي يقتضي أنهم في موقف العبودية والخضوع.

وقرأ الجمهور ﴿يستطيعون﴾ بياء الغائب، وقرأه حفص بتاء الخطاب على أنه خطاب للمشركين الذين عبدوا الأصنام من دون الله.

﴿ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا﴾ .

تذييل للكلام يشمل عمومه جميع الناس، ويكون خطاب ﴿منكم﴾ لجميع المكلفين. ويفيد ذلك أن المشركين المتحدث

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢٥

عنهم معذبون عذابا كبيرا: والعذاب الكبير هو عذاب جهنم.". (١)

١٧٢-"يفصح المفسرون عن معنى هذه الجملة إفصاحا شافيا.

والالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله ﴿ثم جعلنا﴾ لأن ضمير المتكلم أدخل في الامتنان من ضمير الغائب فهو مشعر بأن هذا الجعل نعمة وهي نعمة النور الذي به تمييز أحوال المرئيات وعليه فقوله ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ ارتقاء في المنة.

والدليل: المرشد إلى الطريق والهادي إليه، فجعل امتداد الظل لاختلاف مقاديره كامتداد الطريق وعلامات مقادير مثل صوى الطريق، وجعلت الشمس من حيث كانت سببا في ظهور مقادير الظل كالهادي إلى مراحل، بطريقة التشبيه البليغ، فكما أن الهادي يخبر السائر أين ينزل من الطريق، كذلك الشمس بتسببها في مقادير امتداد الظل تعرف المستدل بالظل بأوقات أعماله ليشرع فيها.

وتعدية ﴿دليلا﴾ بحرف "على" تفيد أن دلالة الشمس على الظل هنا دلالة تنبيه على شيء قد يخفى كقول الشاعر:

إلا علي دليل١.

وشمل هذا حالتي المد والقبض.

وجملة ﴿ثم قبضناه إلينا﴾ الخ عطف على جملة ﴿مد الظل﴾ ، أو على جملة ﴿جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ لأن قبض الظل من آثار جعل الشمس دليلا على الظل.

و ﴿ثم﴾ الثانية مثل الأولى مفيدة التراخي الرتبي، لأن مضمون جملة ﴿ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا﴾ أهم في الاعتبار بمضمونها من مضمون ﴿جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ ، إذ في قبض دلالة من دلالة الشمس هي عكس دلالتها على امتداده فكانت أعجب إذ هي عمل ضد للعمل الأول، وصدور الضدين من السبب الواحد أعجب من صدور أحدهما السابق في الذكر.

والقبض: ضد المد فهو مستعمل في معنى النقص، أي نقصنا امتداده، والقبض هنا استعارة للنقص. وتعديته بقوله ﴿إلينا﴾ تخييل، شبه الظل بحبل أو ثوب طواه صاحبه بعد أن بسطه على طريقة المكنية، وحرف "إلى" ومجروره تخييل.

_

١ أوله:

إلى الله أشكو أنني لست ماشيا

...

ولا جائيا إلى على دليل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/١٩

أي: رقيب يدل علي.". (١)

١٧٣-"مناسبة الانتقال من الاستدلال باعتبار أحوال الظل والضحاء إلى الاعتبار بأحوال الليل والنهار ظاهرة فالليل يشبه الظل في أنه ظلمة تعقب نور الشمس.

ومورد الاستدلال المقصد المستفاد من تعريف جزأي الجملة وهو قصر إفراد، أي لا يشركه غيره في جعل الليل والنهار. أما كون الجعل المذكور بخلق الله فهم يقرون به؛ ولكنهم لما جعلوا له شركاء على الإجمال أبطلت شركتهم بقصر التصرف في الأزمان على الله تعالى لأنه إذا بطل تصرفهم في بعض الموجودات اختلت حقيقة الإلهية عنهم إذ الإلهية لا تقبل التجزئة.

و ﴿لكم﴾ متعلق بـ ﴿جعل﴾ أي من جملة ما خلق له الليل أنه يكون لباسا لكم. وهذا لا يقتضي أن الليل عود الظلمة إلى جانب من الكرة الأرضية المحتجب عن شعاع الشمس باستداراته فتحصل من ذلك فوائد جمة منها ما في قوله تعالى بعد هذا ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار...﴾ الخ.

وقد رجع أسلوب الكلام من المتكلم إلى الغيبة على طريقة **الالتفات.**

و ﴿لباسا﴾ مشبه به على طريقة التشبيه البليغ، أي ساترا لكم يستر بعضكم عن بعض، وفي هذا الستر منن كثيرة لقضاء الحوائج التي يجب إخفاؤها.

وتقديم الاعتبار بحالة ستر الليل على الاعتبار بحالة النوم لرعي مناسبة الليل بالظل كما تقدم، بخلاف قوله ﴿وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا الليل لباسا﴾ في سورة [النبأ: ٨ - ١٠]، فإن نعمة النوم أهم من نعمة الستر، ولأن المناسبة بين نعمة خلق الأزواج وبين النوم أشد.

وقد جمعت الآية استدلالا وامتنانا فهي دليل على عظم قدرة الخالق، وهي أيضا تذكير بنعمه، فإن في اختلاف الليل والنهار آيات جمة لما يدل عليه حصول الظلمة من دقة نظام دوران الأرض حول الشمس ومن دقة نظام خلق الشمس، ولما يتوقف عليه وجود النهار من تغير دوران الأرض ومن فوائد نور الشمس، ثم ما في خلال ذلك من نظام النوم المناسب للظلمة حين ترتخي أعصاب الناس فيحصل لهم بالنوم تجدد نشاطهم، ومن الاستعانة على التستر بظلمة الليل ومن نظام النهار من تجدد النشاط وانبعاث الناس للعمل وسآمتهم من الدعة، مع ما هو ملائم لذلك من النور الذي به إبصار ما يقصده العاملون.

والسبات له معان متعددة في اللغة ناشئة عن التوسع في مادة السبت وهو القطع.". (٢)

١٧٤-"مشاهدتهم من ذلك، والخاصة يدركون كيفية حدوث الرياح وهبوبها واختلافها، وذلك ناشيء عن التقاء حرارة جانب من الجو ببرودة جانب آخر. ثم إن الرياح بهبوبها حارة مرة وباردة أخرى تكون الأسحبة وتؤذن بالمطر فلذلك وصفت بأنها: نشر بين يدي المطر.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٥/١٩

(٢)

قرأ الجمهور ﴿أرسل الرياح﴾ بصيغة الجمع. وقرأ ابن كثير ﴿الريح﴾ بصيغة الإفراد على معنى الجنس. والقرأتان متحدتان في المعنى، ولكن غلب جمع الريح في ريح الخير وإفراد الريح في ريح العذاب قاله ابن عطية. وتقدم في قوله تعالى ﴿وتصريف الرياح﴾ في سورة البقرة.

وقرأ الجمهور ﴿بشرا﴾ بنون في أوله وبضمتين جمع نشور كرسول ورسل. وقرأ ابن عامر بضم فسكون على تخفيف الحركة. وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح النون وسكون الشين على أنه من الوصف بالمصدر، وكلها من النشر وهو البسط كما ينشر الثوب المطوي لأن الرياح تنشر السحاب. وقرأ عاصم بباء موحدة وسكون الشين جمع بشور من التبشير لأنها تبشر بالمطر. وتقدم قوله ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته﴾ في سورة [الأعراف: ٥٧].

والالتفات من الغيبة إلى المتكلم في قوله ﴿وأنزلنا - لنحيي - ونسقيه - ولقد صرفناه﴾ للداعي الذي قدمناه في قوله آنفا ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ [الفرقان: ٤٥ - ٤٦].

والمراد بـ ﴿رحمته﴾ المطر لأنه رحمة للناس والحيوان بما ينبته من الشجر والمرعى.

وجملة ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهورا﴾ عطف على جملة ﴿أرسل الرياح﴾ الخ، فهي داخلة في حيز القصر، أي وهو الذي أنزل من السماء ماء طهور. وضمير ﴿وأنزلنا﴾ **التفات** من الغيبة إلى التكلم لأن التكلم أليق بمقام الامتنان. وتقدم معنى إنزال الماء من السماء عند قوله ﴿أو كصيب من السماء﴾ في سورة [البقرة: ١٩].

والطهور بفتح الطاء من أمثلة المبالغة في الوصف بالمصدر كما يقال: رجل صبور. وماء المطر بالغ منتهى الطهارة إذ لم يختلط به شيء يكدره أو يقذره وهو في علم الكيمياء أنقى المياه لخلوه عن جميع الجراثيم فهو الصافي حقا. والمعنى: أن الماء النازل من السماء هو بالغ نهاية الطهارة في جنسه من المياه ووصف الماء بالطهور يقتضي أنه مطهر لغيره إذ العدول عن صيغة فاعل إلى صيغة فعول لزيادة معنى في الوصف، فاقتضاؤه في". (١)

١٧٥-"وجوز أن يكون ﴿ألا﴾ كلمة واحدة بمعنى "هلا" فإن هاءها تبدل همزة. وجعل ﴿يسجدوا﴾ مركبا من ياء النداء المستعملة تأكيدا للتنبيه وفعل أمر من السجود كقول ذي الرمة:

ألا يا اسلمي يا دار مي على البلى

وهو لا يلائم رسم المصحف إلا أن يقال إنه رسم كذلك على خلاف القياس. وقرأ الكسائي بتخفيف اللام على أنها ﴿ألا﴾ حرف الاستفتاح ويتعين أن يكون ﴿يسجدوا﴾ مركبا من ياء النداء وفعل الأمر، كما تقدم وفيه ما تقدم. والوقف في هذه على ﴿ألا﴾ .

وتزيين الأعمال تقدم في أول السورة عند قوله تعالى ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾ . وإسناده هنا للشيطان حقيقي. و ﴿السبيل﴾ مستعار للدين الذي باتباعه تكون النجاة من العذاب وبلوغ دار الثواب.

والخبء: مصدر خبأ الشيء إذا أخفاه. أطلق هنا على اسم المفعول، أي المخبوء على طريقة المبالغة في الخفاء كما هو

---

(١) التحرير والتنوير ٦٩/١٩

شأن الوصف بالمصدر. ومناسبة وقوع الصفة بالموصول في قوله ﴿الذي يخرج الخبء﴾ لحالة خبر الهدهد ظاهرة لأن فيها اطلاعا على أمر خفي. وإخراج الخبء: إبرازه للناس، أي إعطاؤه، أي إعطاء ما هو غير معلوم لهم من المطر وإخراج النبات وإعطاء الأرزاق، وهذا مؤذن بصفة القدرة. وقوله ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ مؤذن بعموم صفة العلم.

وقرأ الجمهور ﴿يخفون .. ويعلنون﴾ بياء الغيبة. وقرأه الكسائي وحفص عن عاصم بتاء الخطاب فهو **التفات**.

ومجيء جملة ﴿الله لا إله إلا هو﴾ عقب ذلك استئناف هو بمنزلة النتيجة للصفات التي أجريت على اسم الجلالة وهو المقصود من هذا التذييل، أي ليس لغير الله شبهة إلهية.

وقوله ﴿رب العرش العظيم﴾ أي مالك الفلك الأعظم المحيط بالعوالم العليا وقد تقدم. وفي هذا تعريض بأن عظمة ملك بلقيس وعظم عرشها ما كان حقيقا بأن يغرها بالإعراض عن عبادة الله تعالى لأن الله هو رب الملك الأعظم، فتعريف ﴿العرش﴾ للدلالة على معنى الكمال. ووصفه بـ ﴿العظيم﴾ للدلالة على كمال العظم في تجسم النفاسة.

وفي منتهى هذه الآية موضع سجود تلاوة تحقيقا للعمل بمقتضى قوله ﴿ألا يسجدوا﴾". (١)

١٧٦-"على إزالة الشبهة.

ونون الجمع في ﴿أنبتنا﴾ **التفات** من الغيبة إلى الحضور. ومن لطائفه هنا التنصيص على أن المقصود إسناد الإنبات إليه لئلا ينصرف ضمير الغائب إلى الماء لأن التذكير بالمنبت الحقيقي الذي خلق الأسباب أليق بمقام التوبيخ على عدم رعايتهم نعمه.

والإنبات: تكوين النبات.

والحدائق: جمع حديقة وهي البستان والجنة التي فيها نخل وعنب. سميت حديقة لأنهم كانوا يحدقون بها حائطا يمنع الداخل إليها صونا للعنب لأنه ليس كالنخل الذي يعسر اجتناء ثمره لارتفاع شجره فهي بمعنى: محدق بها. ولا تطلق الحديقة إلا على ذلك.

والبهجة: حسن المنظر لأن الناظر يبتهج به.

ومعنى ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ ليس في ملككم أن تنبتوا شجر تلك الحدائق، فاللام في ﴿لكم﴾ للملك و ﴿أن تنبتوا﴾ اسم ﴿كان﴾ و ﴿لكم﴾ خبرها. وقدم الخبر على الاسم للاهتمام بنفي ملك ذلك.

وجملة ﴿أإله مع الله﴾ استئناف هو كالنتيجة للجملة قبلها لأن إثبات الخلق والرزق والإنعام لله تعالى بدليل لا يسعهم إلا الإقرار به ينتج أنه لا إله معه.

والاستفهام إنكاري. و ﴿بل﴾ للإضراب عن الاستفهام الإنكاري تفيد معنى "لكن" باعتبار ما تضمنه الإنكار من انتفاء أن يكون مع الله إله فكان حق الناس أن لا يشركوا معه في الإلهية غيره فجيء بالاستدراك لأن المخاطبين بقوله ﴿وأنزل لكم﴾ وقوله ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ لم ينتفعوا بالدليل مع أنه دليل ظاهر مكشوف، فهم مكابرون في إعراضهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥١/١٩

عن الاهتداء بهذا الدليل، فهم يعدلون بالله غيره، أي يجعلون غيره عديلا مثيلا له في الإلهية مع أن غيره عاجز عن ذلك فيكون ﴿يعدلون﴾ من عدل الذي يتعدى بالباء، أو يعدلون عن الحق من عدل الذي يعدى بـ ﴿عن﴾ .
وسئل بعض عن العرب عن الحجاج فقال: "قاسط عادل". فظنوه أثنى عليه فبلغت كلمته للحجاج، فقال: أراد قوله تعالى ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾ أي وذلك قرينة على أن المراد بـ"عادل" أنه عادل عن الحق.". (١)

١٧٧-"معنى الوراثة لمن سبق، فكل حي هو خلف عن سلفه.والأمة خلف عن أمة كانت قبلها جيلا بعد جيل. وهذا كقوله تعالى حكاية لقول نوح ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ . وهذه مرتبة التحسيني.
وقد جمعت الآية الإشارة إلى مراتب المناسب وهو ما يجلب نفعا أو يدفع ضررا وهو من مسالك العلة في أصول الفقه.
ولما اقتضته الخلافة من تجدد الأبناء عقب الآباء والأجيال بعد الأجيال، وما اقتضته الاستجابة وكشف السوء من كثرة الداعين والمستائين عبر في أفعال الجعل التي تعلقت بها بصيغة المضارع الدال على التجدد بخلاف أفعال الجعل الأربعة التي في الآية قبلها.
ثم استؤنف عقب هذا الاستدلال باستفهام إنكاري تكريرا لما تقدم عقب الأدلة السابقة زيادة في تعداد خطئهم بقوله ﴿أإله مع الله قليلا ما تذكرون﴾ .
وانتصب ﴿قليلا﴾ على الحال من ضمير الخطاب في قوله ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي فعل ذلك لكم وأنتم في حال قلة تذكركم، فتفيد الحال معنى التعجب من حالهم.
والتذكر: من الذكر بضم الذال وهو ضد النسيان فهو استحضار المعلوم، أي قليلا استحضاركم الافتقار إلى الله وما أنتم فيه من إنعامه فتهتدوا بأنه الحقيق بأن لا تشركوا معه غيره. فالمقصود من التذكر التذكر المفيد استدلالا. و ﴿ما﴾ مصدرية والمصدر هو فاعل ﴿قليلا﴾ .
والقليل هنا مكنى به عن المعدوم لأن التذكر المقصود معدوم منهم، والكناية بالقليل عن المعدوم مستعملة في كلامهم. وهذه الكناية تمليح وتعريض، أي إن كنتم تذكرون فإن تذكركم قليل.
وأصل ﴿تذكرون﴾ تتذكرون فأدغمت تاء التفعيل في الذال لتقارب مخرجيهما تخفيفا وهو إدغام سماعي.
وقرأ الجمهور ﴿تذكرون﴾ بتاء الخطاب. وقرأه روح عن أبي عمرو وهشام عن ابن عامر بياء الغيبة على **الالتفات** من الخطاب إلى الغيبة، ففي قراءة الجمهور نكتة توجيه الخطاب إلى المشركين مكافحة لهم، وفي قراءة روح وهشام نكتة الإعراض عنهم لأنهم استأهلوا الإعراض بعد تذكرهم.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٦/١٩

(٢) التحرير والتنوير ٢٩٠/١٩

١٧٨-"في قوله تعالى بعد هذا ﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض﴾ [النمل: ٨٧] وهو في معنى قوله تعالى ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ [يس: ٥٩] فيحشر من كل أمة مكذبو رسولها.

والفوج: الجماعة من الناس. و ﴿من﴾ الداخلة على ﴿كل أمة﴾ تبعيضية. وأما ﴿من﴾ الداخلة على ﴿من يكذب﴾ فيجوز جعلها بيانية فيكون فوج كل أمة. وهذا الفوج هو زعماء المكذبين وأئمتهم فيكونون في الرعيل الأول إلى العذاب.

وهذا قول ابن عباس إذ قال: مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة، وكذلك يساق أمام كل طائفة زعماؤها. وتقدم تفسير ﴿فهم يوزعون﴾ في قصة سليمان من هذه السورة.

والمعنى هنا: أنهم يزجرون إغلاظا عليهم كما يفعل بالأسرى.

والقول في ﴿حتى إذا جاءوا﴾ كالقول في ﴿حتى إذا أتوا على واد النمل﴾ ولم يذكر الموضع الذي جاءوه لظهوره وهو مكان العذاب، أي جهنم كما قال في الآية ﴿حتى إذا ما جاءوها﴾ في [سورة فصلت: ٢٠].

و ﴿حتى﴾ في ﴿حتى إذا ما جاءوها﴾ ابتدائية. و ﴿إذا﴾ الواقعة بعد ﴿حتى﴾ ظرفية والمعنى: حتى حين جاءوا.

وفعل ﴿قال أكذبتم بآياتي﴾ هو صدر الجملة في التقدير وما قبله مقدم من تأخير للاهتمام. والتقدير: وقال أكذبتم بآياتي يوم نحشر من كل أمة فوجا وحين جاءوا. وفي ﴿قال﴾ **التفات** من التكلم إلى الغيبة.

وقوله ﴿أكذبتم بآياتي﴾ قول صادر من جانب الله تعالى يسمعونه أو يبلغهم إياه الملائكة.

والاستفهام يجوز أن يكون توبيخا مستعملا في لازمه وهو الإلجاء إلى الاعتراف بأن المستفهم عنه واقع منهم تبكيتا لهم، ولهذا عطف عليه قوله ﴿أماذا كنتم تعملون﴾ . فحرف ﴿أم﴾ فيه بمعنى "بل" للانتقال ومعادل همزة الاستفهام المقدرة محذوف دل عليه قوله ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾ . والتقدير: أكذبتم بآياتي أم لم تكذبوا فماذا كنتم تعملون إن لم". (١)

١٧٩-"يكب على الأذقان دوح الكنهبل.

وهذا من قبيل قوله تعالى ﴿سحروا أعين الناس﴾ [الأعراف: ١١٦] وقوله ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ [الأعراف: ١٤٩] وقول الأعشى:

وأقدم إذا ما أعين الناس تفرق.

﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ .

تذييل للزواجر المتقدمة، فالخطاب للمشركين الذين يسمعون القرآن على طريقة **الالتفات** من الغيبة بذكر الأسماء الظاهرة وهي من قبيل الغائب. وذكر ضمائرها ابتداء من قوله ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ [النمل: ٨٠] وما بعده من الآيات إلى هنا. ومقتضى الظاهر أن يقال: هل يجزون إلا ما كانوا يعملون فكانت هذه الجملة كالتلخيص لما تقدم وهو أن الجزاء على حسب عقائدهم وأعمالهم وما العقيدة إلا عمل القلب فلذلك وجه الخطاب إليهم بالمواجهة.

ويجوز أن تكون مقولا لقول محذوف يوجه إلى الناس يومئذ، أي لا يقال لكل فريق: ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٣١١

والاستفهام في معنى النفي بقرينة الاستثناء. وورود ﴿هل﴾ لمعنى النفي أثبته في "مغني اللبيب" استعمالا تاسعا قال "أن يراد بالاستفهام بها النفي ولذلك دخلت على الخبر بعدها "إلا" نحو ﴿هل جزاء الأحسان إلا الأحسان﴾ [الرحمن: ٦٠].

والباء في قوله:

ألا هل أخو عيش لذيذ بدائم.

وقال في آخر كلامه: إن من معاني الإنكار الذي يستعمل فيه الاستفهام إنكار وقوع الشيء وهو معنى النفي. وهذا تنفرد به ﴿هل﴾ دون الهمزة. قال الدماميني في "الحواشي الهندية" قوله: يراد بالاستفهام بـ ﴿هل﴾ النفي يشعر بأن ثمة استفهاما لكنه مجازي لا حقيقي اهـ.

وأقول: هذا استعمال كثير ومنه قول لبيد:

هل أنا إلا من ربيعة أو مضر.

وقول النابغة:

وهل علي بأن أخشاك من عار.". (١)

١٨٠-"على وجه التعظيم كما في قوله ﴿قال رب ارجعون﴾ . ويجوز أن يراد به خطاب فرعون داخلا فيه أهل دولته هامان والكهنة الذين ألقوا في نفس فرعون أن فتى من إسرائيل يفسد عليه مملكته. وهذا أحسن لأن فيه تمهيدا لإجابة سؤلها حين أسندت معظم القتل لأهل الدولة وجعلت لفرعون منه حظ الواحد من الجماعة فكأنها تعرض بأن ذلك ينبغي أن لا يكون عن رأيه فتهون عليه عدوله في هذا الطفل عما تقرر من قتل الأطفال. وقيل ﴿لا تقتلوه﴾ **التفات** عن خطاب فرعون إلى خطاب الموكلين بقتل أطفال إسرائيل كقوله ﴿يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك﴾ [يوسف: ٢٩].

فموقع جملة ﴿قرت عين لي ولك﴾ موقع التمهيد والمقدمة للعرض. وموقع جملة ﴿لا تقتلوه﴾ موقع التفريع عن المقدمة ولذلك فصلت عنها.

وأما جملة ﴿عسى أن ينفعنا﴾ فهي في موقع العلة لمضمون جملة ﴿لا تقتلوه﴾ فاتصالها بها كاتصال جملة ﴿قرت عين لي ولك﴾ بها، ولكن نظم الكلام قضى بهذا الترتيب البليغ بأن جعل الوازع الطبيعي عن القتل وهو وازع المحبة هو المقدمة لأنه أشد تعلقا بالنفس فهو يشبه المعلوم البديهي. وجعل الوازع العقلي بعد النهي علة لاحتياجه إلى الفكر، فتكون مهملة التفكير بعد سماع النهي الممهد بالوازع الطبيعي فلا يخشى جماح السامع من النهي ورفضه إياه.

ويتضمن قولها ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾ إزالة ما خامر نفس فرعون من خشية فساد ملكه على يد فتى إسرائيلي بأن هذا الطفل لا يكون هو المخوف منه لأنه لما انضم في أهلهم وسيكون ربيهم فإنه يرجى منه نفعهم وأن يكون لهم كالولد. فأقنعت فرعون بقياس على الأحوال المجربة في علاقة التربية والمعاشرة والتبني والإحسان، وإن الخير لا يأتي بالشر. ولذلك وقع بعده الاعتراض بقوله تعالى ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي وفرعون وقومه لا يعلمون خفي إرادة الله من الانتقام من

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٣/١٩

أمة القبط بسبب موسى. ولعل الله حقق لامرأة فرعون رجاءها فكان موسى قرة عين لها ولزوجها، فلما هلكا وجاء فرعون آخر بعدهما كان ما قدره الله من نصر بني إسرائيل.

واختير ﴿يشعرون﴾ هنا لأنه من العلم الخفي، أي لا يعلمون هذا الأمر الخفي.

[١٠] ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾". (١)

١٨١-"فعل ناشئ عن وسوسة الشيطان ولولاها لكان عمله جاريا على الأحوال المأذونة.

وفي هذا دليل على أن الأصل في النفس الإنسانية هو الخير وأنه الفطرة وأن الانحراف عنها يحتاج إلى سبب غير فطري وهو تخلل نزع الشيطان في النفس.

ومتعلق ﴿عدو﴾ محذوف لدلالة المقام أي عدو لآدم وذرية آدم.

ورتب على الأخبار عنه بالعداوة وصفه بالإضلال لأن العدو يعمل لإلحاق الضر بعدوه. و ﴿مبين﴾ وصف لـ ﴿مضل﴾ لا خبر ثان ولا ثالث.

[١٦] ﴿قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾

بدل اشتمال من جملة ﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾ [القصص: ١٥] لأن الجزم بكون ما صدر منه من عمل الشيطان وتغريره يشتمل على أن ذلك ظلم لنفسه، وأن يتوجه إلى الله بالاعتراف بخطئه ويفرع عليه طلب غفرانه. وسمى فعله ظلما لنفسه لأنه كان من أثر فرط الغضب لأجل رجل من شيعته، وكان يستطيع أن يملك من غضبه فكان تعجيله بوكز القبطي وكزة قاتلة ظلما جره لنفسه. وسماه في [سورة الشعراء: ٢٠] ضلالا ﴿قال فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾.

وأراد بظلمه نفسه أنه تسبب لنفسه في مضرة إضمار القبط قتله، وإنه تجاوز الحد في عقاب القبطي على مضاربته الإسرائيلي.

ولعله لم يستقص الظالم منهما وذلك انتصار جاهلي كما قال وداك ابن ثميل المازني يمدح قومه:

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم ... لأية حرب أم بأي مكان

وقد اهتدى موسى إلى هذا كله بالإلهام إذ لم تكن يومئذ شريعة إلهية في القبط. ويجوز أن يكون علمه بذلك مما تلقاه من أمه وقومها من تدين ببقايا دين إسحاق ويعقوب.

ولا **التفات** في هذا إلى جواز صدور الذنب من النبي لأنه لم يكن يومئذ نبيا، ولا مسألة صدور الذنب من النبي قبل النبوة؛ لأن تلك مفروضة فيما تقرر حكمه من الذنوب بحسب شرع ذلك النبي أو شرع نبي هو متبعه مثل عيسى عليه السلام قبل نبوءته لوجود شريعة التوراة وهو من أتباعها.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٠

(٢) التحرير والتنوير ٣١/٢٠

١٨٢-"إن في الكلام تقديما وتأخير وإن قوله ﴿من الرهب﴾ متعلق بقوله ﴿ولى مدبرا﴾ على أن ﴿من﴾ حرف للتعليل، أي أدبر لسبب الخوف، وهذا لا ينبغي **الالتفات** إليه إذ لا داعي لتقديم وتأخير ما زعموه على ما فيه من طول الفصل بين فعل ﴿ولى﴾ وبين ﴿من الرهب﴾ .

وقيل الجناح: اليد، ولا يحسن أن يكون مجازا عن اليد لأنه يفضي إما إلى تكرير مفاد قوله ﴿اسلك يدك في جيبك﴾ وحرف العطف مانع من احتمال التأكيد. وادعاء أن يكون التكرير لاختلاف الغرض من الأول والثاني كما في الكشاف بعيد، أو يؤول بأن وضع اليد على الصدر يذهب الخوف كما عزي إلى الضحاك عن ابن عباس وإلى مجاهد وهو تأويل بعيد. وهذا ميل إلى أن الجناح مجاز مرسل مراد به يد الإنسان. وللجناح حقيقة ومجازات مرسل بين مرسل واستعارة وقد ورد في القرآن وغيره في تصاريف معانيه وليس وروده في بعض المواضع بمعنى بقاض بحمله على ذلك المعنى حيثما وقع في القرآن. ولذا فالوجه أن قوله ﴿واضمم إليك جناحك﴾ تمثيل بحال الطائر إذا سكن عن الطير أو عن الدفاع جعل كناية عن سكون اضطراب الخوف. ويكون ﴿من﴾ هنا للبدلية أي اسكن سكون الطائر بدلا من أن تطير خوفا. وهذا مأخوذ من أحد وجهين ذكرهما الزمخشري قيل وأصله لأبي علي الفارسي.و ﴿الرهب﴾ معروف أنه الخوف كقوله تعالى ﴿ويدعوننا رغبا ورهبا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

والمعنى: انكفف عن التخوف من أمر الرسالة. وفي الكلام إيجاز وهو ما دل عليه قوله بعده ﴿قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون﴾ [القصص: ٣٣] فقوله ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ في معنى قوله تعالى ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ [القصص: ٣٥]

وقرأ الجمهور ﴿الرهب﴾ بفتح الراء والهاء، وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف بضم الراء وسكون الهاء. وقرأه حفص عن عاصم بفتح الراء وسكون الهاء وهي لغات فصيحة.

[٣٢] ﴿فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملأه إنهم كانوا قوما فاسقين﴾

تفريع على قوله ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ والإشارة إلى العصا وبياض اليد. والبرهان: الحجة القاطعة. و ﴿من﴾ للابتداء، و ﴿إلى﴾ للانتهاء المجازي أي حجتان على أن أرسل بهما إليهم.". (١)

١٨٣-"والمراد بإهلاك القرى إهلاك أهلها. وإنما علق الإهلاك بالقرى للإشارة إلى أن شدة الإهلاك بحيث يأتي على الأمة وأهلها وهو الإهلاك بالحوادث التي لا تستقر معها الديار بخلاف إهلاك الأمة فقد يكون بطاعون ونحوه فلا يترك أثرا في القرى.

وإسناد الخبر إلى الله بعنوان ربوبيته للنبي صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أن المقصود بهذا الإنذار هم أمة محمد الذين كذبوا فالخطاب للنبي عليه السلام لهذا المقصد. ولهذا وقع **الالتفات** عنه إلى ضمير المتكلم في قوله ﴿آياتنا﴾ للإشارة إلى أن الآيات من عند الله وأن الدين دين الله.

---

(١) التحرير والتنوير ٥١/٢٠

وضمير ﴿عليهم﴾ عائد إلى المعلوم من القرى وهو أهلها كقوله ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ [يوسف: ٨٢] ومنه قوله ﴿فليدع ناديه﴾ [العلق: ١٧].

وقد حصل في هذه الجملة تفنن في الأساليب إذ جمعت الاسم الظاهر وضمائر الغيبة والخطاب والتكلم.

ثم بين السبب بقوله ﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ أي ما كان من عادتنا في عبادنا أن نهلك أهل القرى في حالة ظلمهم أنفسهم بالإشراك، فالإشراك سبب الإهلاك وإرسال رسول شرطه، فيتم ظلمهم بتكذيبهم الرسول.

وجملة ﴿وأهلها ظالمون﴾ في موضع الحال، وهو حال مستثنى من أحوال محذوفة اقتضاها الاستثناء المفرغ، أي ما كنا مهلكي القرى في حال إلا في حال ظلم أهلها.

[٦٠] ﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون﴾

لما ذكرهم الله بنعمه عليهم تذكيرا أدمج في خلال الرد على قولهم ﴿إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ [القصص: ٥٧] بقوله ﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا﴾ [القصص: ٥٧] أعقبه بأن كل ما أوتوه من نعمة هو من متاع الحياة الدنيا كالأمن والرزق، ومن زينتها كاللباس والأنعام والمال، وأما ما عند الله من نعيم الآخرة من ذلك وأبقى لئلا يحسبوا أن هم فيه من الأمن والرزق هو الغاية المطلوبة فلا يتطلبوا ما به تحصيل النعيم العظيم الأبدي، وتحصيله بالإيمان. ولا يجعلوا ذلك موازنا لاتباع الهدى وإن كان في اتباع الهدى تفويت ما هم فيه من أرضهم وخيراتها لو سلم ذلك. هذا وجه مناسبة هذه الآية لما قبلها.". (١)

١٨٤-"و ﴿من شيء﴾ بيان لـ ﴿ما أوتيتم﴾ والمراد من أشياء المنافع كما دل عليه المقام لأن الإيتاء شائع في إعطاء ما ينفع.

وقد التفت الكلام من الغيبة من قوله ﴿أولم نمكن لهم حرما﴾ إلى الخطاب في قوله ﴿أوتيتم﴾ لأن ما تقدم من الكلام أوجب توجيه التوبيخ مواجهة إليهم.

والمتاع: ما ينتفع به زمنا ثم يزول.

والزينة: ما يحسن الأجسام.

والمراد بكون ما عند الله خيرا، أن أجناس الآخرة خير مما أوتوه في كمال أجناسها، وأما كونه أبقى فهو بمعنى الخلود.

وتفرع على هذا الخبر استفهام توبيخي وتقريري على عدم عقل المخاطبين لأنهم لما لم يستدلوا بعقولهم على طريق الخير نزلوا منزلة من أفسد عقله فسئلوا: أهم كذلك؟.

وقرأ الجمهور ﴿تعقلون﴾ بتاء الخطاب. وقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿يعقلون﴾ بياء الغيبة على **الالتفات** عن خطابهم لتعجب المؤمنين من حالهم، وقيل: لأنهم لما كانوا لا يعقلون نزلوا منزلة الغائب لبعدهم عن مقام الخطاب.

[٦١] ﴿أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٨٥/٢٠

أحسب أن موقع الفريع هنا أن مما أومأ إليه قوله ﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾ [القصص: ٦٠] ما كان المشركون يتبجحون به على المسلمين من وفرة الأموال ونعيم الترف حين كان معظم المسلمين فقراء ضعفاء قال تعالى ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾ [المطففين: ٣١] أي منعمين، وقال ﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا﴾ [المزمل: ١١] فيظهر من آيات القرآن أن المشركين كان من دأبهم التفاخر بما هم فيه من النعمة قال تعالى ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾ [هود: ١١٦] وقال ﴿وارجعوا إلى ما أترفتم فيه﴾ [الأنبياء: ١٣] فلما أنبأهم الله بأن ما هم فيه من الترف إن هو إلا متاع قليل، قابل ذلك بالنعيم الفائق الخالد الذي أعد للمؤمنين، وهي تفيد مع ذلك تحقيق معنى الجملة التي قبلها لأن الثانية زادت الأولى بيانا بأن ما أتوه زائل زوالا معوضا بضد المتاع والزينة وذلك قوله ﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ .". (١)

١٨٥-"من إثبات تعلقين لعلم الله تعالى: أحدهما قديم، والآخر تنجيزي حادث. ولا يفضي ذلك إلى اتصاف الله تعالى بوصف حادث لأن تعلق الصفة تحقق مقتضاها في الخارج لا في ذات موصوفها، وتقدم عند قوله تعالى ﴿إلا لنعلم من يتبع الرسول﴾ في [سورة البقرة: ١٤٣]، وقوله ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾ في [آل عمران: ١٤٠]. ولك أن تجعل العلم هنا مكنى به عن وعد الصادقين ووعيد الكاذبين لأن العلم سبب للجزاء بما يقتضيه فكانت الكناية مقصودة وهو المعنى الأهم.

وقد عدل في قوله ﴿فليعلمن الله﴾ عن طريق التكلم إلى طريق الغيبة بإظهار اسم الجلالة على أسلوب **الالتفات** لما في هذا الإظهار من الجلالة ليعلم أن الجزاء على ذلك جزاء مالك الملك.

وتعريف المتصدقين بصدق الإيمان بالموصول والصلة الماضوية لإفادة أنهم اشتهروا بحدثان صدق الإيمان وان صدقهم محقق.

وأما تعريف المتصفين بالكذب بطريق التعريف باللام وبصيغة اسم الفاعل فلإفادة أنهم عهدوا بهذا الوصف وتميزوا به مع ما في ذلك من التفنن والرعاية على الفاصلة.

روى الطبري عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: نزلت هذه الآية ﴿الم أحسب الناس أن يتركوا﴾ إلى قوله ﴿وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ١-٣] في عمار بن ياسر غذ كان يعذب في الله، أي وأمثاله عياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وسلمة ابن هشام ممن كانوا يعذبون بمكة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو لهم الله بالنجاة لهم وللمستضعفين من المؤمنين.

[٤] ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾

أعقب تثبيت المؤمنين على ما يصيبهم من فتون المشركين وما في ذلك من الوعد والوعيد بزجر المشركين على ما يعملونه من السيئات في جانب المؤمنين وأعظم تلك السيئات فتونهم المسلمين. فالمراد بالذين يعملون السيئات الفاتنون للمؤمنين. وهذا ووعيدهم بان الله لا يفلتهم. وفي هذا أيضا زيادة تثبيت للمؤمنين بأن الله ينصرهم من أعدائهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٨٦

ف ﴿أم﴾ للإضراب الانتقالي ويقدر بعدها استفهام إنكاري.

و ﴿السيئات﴾ : الأعمال السوء. وهي التنكيل والتعذيب وفتون المسلمين.". (١)

١٨٦-"وقرأ الجمهور ﴿أولم يروا﴾ بياء الغائب والضمير عائد إلى ﴿الذين كفروا﴾ في قوله ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا﴾، أو إلى معلوم من سياق الكلام. وعلى وجه أن يكون قوله ﴿وإن تكذبوا﴾ الخ خارجا عن مقالة إبراهيم يكون ضمير الغائب في ﴿أولم يروا﴾ **التفاتا**. **والالتفات** من الخطاب إلى الغيبة لنكتة إبعادهم عن شرف الحضور بعد الإخبار عنهم بأنهم مكذبون.

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف ﴿أولم تروا﴾ بالفوقية على طريقة ﴿وإن تكذبوا﴾ [العنكبوت: ١٨] على الوجهين المذكورين.

والهمزة للاستفهام الإنكاري عن عدم الرؤية، نزلوا منزلة من لم ير فأنكر عليهم.

والرؤية يجوز أن تكون بصرية١، والاستدلال بما هو مشاهدة من تجدد المخلوقات في كل حين بالولادة وبروز النبات دليل واضح لكل ذي بصر.

وإبداء الخلق: بدؤه وإيجاده بعد أن لم يكن موجودا. يقال: أبدأ بهمزة في أوله وبدأ بدونها وقد وردا معا في هذه الآية إذ قال ﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق﴾ [العنكبوت: ٢٠] ثم قال ﴿فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ ولم يجيء في أسمائه تعالى إلا المبدئ دون البادئ.

وأحسب أنه لا يقال (أبدأ) بهمز في أوله إلا إذا كان معطوفا عليه (يعيد) ولم أر من قيده بهذا.

والخلق: مصدر بمعنى المفعول، أي المخلوق كقوله تعالى ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ [لقمان: ١١].

وجيء ﴿يبدئ﴾ بصيغة المضارع لإفادة تجدد بدء الخلق كلما وجه الناظر بصره في المخلوقات، والجملة انتهت بقوله ﴿يبدئ الله الخلق﴾ . وأما جملة ﴿ثم يعيده﴾ فهي مستأنفة ابتدائية فليست معمولة لفعل ﴿يروا﴾ لأن إعادة الخلق بعد انعدامه ليست مرئية لهم ولا هم يظنونها فتعين أن تكون جملة ﴿ثم يعيده﴾ مستقلة معترضة بين جملة ﴿أولم يروا﴾ وجملة ﴿قل سيروا في الأرض﴾ . و ﴿ثم﴾ للتراخي الرتبي لأن أمر إعادة الخلق أهم وأرفع رتبة من بدئه لأنه غير مشاهد ولأنهم ينكرونه ولا ينكرون بدء الخلق قال في الكشاف:

-

١ سيجيء مقابل هذا بعد بضعة وعشرين سطرا.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٢/٢٠

(٢) التحرير والتنوير ١٥١/٢٠

١٨٧-"الوعيد الذي توعدوه في الدنيا.
ولما آيسهم من الانفلات بأنفسهم في جميع الأمكنة أعقبه بتأييسهم من الانفلات من الوعيد بسعي غيرهم لهم من أولياء يتوسطون في دفع العذاب عنهم بنحو السعاية أو الشفاعة، أو من نصراء يدافعون عنهم بالمغالبة والقوة.
[٢٣] ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم﴾
بيان لما في قوله ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ [العنكبوت: ٢١] وإنما عطف لما فيه من زيادة الإخبار بأنهم لا ينالهم الله برحمة وأنه يصيبهم بعذاب أليم.
والكفر بآيات الله: هو كفرهم بالقرآن. والكفر بلقائه: إنكار البعث.
واسم الإشارة يفيد أن ما سيذكره بعده نالهم من أجل ما ذكر قبل اسم الإشارة من أوصاف، أي أنهم استحقوا اليأس من الرحمة وإصابتهم بالعذاب الأليم لأجل كفرهم بالقرآن وإنكارهم البعث على أسلوب ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ [البقرة: ٥].
وأخبر عن يأسهم من رحمة الله بالفعل المضي تنبيها على تحقيق وقوعه. والمعنى: أولئك سييأسون من رحمة الله لا محالة.
والتعبير بالاسم الظاهر في قوله ﴿بآيات الله﴾ دون ضمير التكلم للتنويه بشأن الآيات حيث أضيفت إلى الاسم الجليل لما في الاسم الجليل من التذكير بأنه حقيق بأن لا يكفر بآياته. والعدول إلى التكلم في قوله ﴿رحمتي﴾ **التفات** عاد به أسلوب الكلام إلى مقتضى الظاهر، وإعادة اسم الإشارة لتأكيد التنبيه على استحقاقهم ذلك.
[٢٤] ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾
لما تم الاعتراض الواقع في خلال قصة إبراهيم عاد الكلام إلى بقية القصة بذكر ما أجابه به قومه.
والفاء تفريع على جملة ﴿إذ قال لقومه اعبدوا الله﴾ [العنكبوت: ١٦]
وجيء بصيغة حصر الجواب في قوله ﴿اقتلوه أو حرقوه﴾ للدلالة على أنهم لم". (١)

١٨٨-"وعن الخليل بن أحمد١ العلم معرفتان مجتمعتان، ففي قولك: عرفت زيدا قائما، يكون (قائما) حالا من (زيدا)، وفي قولك: علمت زيدا قائما، يكون (قائما) مفعولا ثانيا لـ(لعلمت) اهـ. يريد أن فعل (عرف) يدل على إدراك واحد وهو إدراك الذات، وفعل (علم) يدل على إدراكين هما إدراك الذات وإدراك ثبوت حكم لها، على نحو ما قاله أهل المنطق في التصور والتصديق، فلذلك لم يرد في الكتاب والسنة إسناد فعل المعرفة إلى الله فكيف يسند إليه ما يؤول بمعناها.
وجملة ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ تذييل لجملة ﴿إن الله يعلم﴾ لأن الجملة على كلا المعنيين في معاني ﴿ما﴾ تدل على أن الذي بين حقارة حال الأصنام واختلال عقول عابديها فلم يعبأ بفضحها وكشفها بما يسوءها مع وفرة أتباعها ومع أوهام أنها لا يمسها أحد بسوء إلا كانت ألبا عليه؛ فلو كان للأصنام حظ في الإلهية لما سلم من ضرها من يحقرها كقوله تعالى ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا﴾ [الإسراء: ٤٢] كما تقدم، وأنه لما فضح عقول عبادها لم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٥٦

يخشهم على أوليائه بله ذاته، فهو عزيز لا يغلب، وحكيم لا تنطلي عليه الأوهام والسفاسط بخلاف حال هاتيك وأولئك.
وقرأ الجمهور ﴿تدعون﴾ بالفوقية على طريق **الالتفات**. وقرأه أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالتحتية.
[٤٣] ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾
بعد أن بين الله لهم فساد معتقدهم في الأصنام، وأعقبه بتوقيفهم على جهلهم بذلك، نعى عليهم هنا أنهم ليسوا بأهل لتفهم تلك الدلائل التي قربت إليهم بطريقة التمثيل، فاسم الإشارة يبينه الاسم المبدل منه وهو ﴿الأمثال﴾ .
والإشارة إلى حاضر في الأذهان فإن كل من سمع القرآن حصل في ذهنه بعض تلك الأمثال. واسم الإشارة للتنويه بالأمثال المضروبة في القرآن التي منها هذا المثل بالعنكبوت.
وجملة ﴿نضربها للناس﴾ خبر عن اسم الإشارة. وهذه الجملة الخبرية مستعملة في الامتنان والطول لأن في ضرب الأمثال تقريبا لفهم الأمور الدقيقة. قال الزمخشري:

_

١ نقله عنه أبو بكر بن العربي في كتاب (العواصم من القواصم).". (١)

١٨٩-"ويتعلق ﴿يوم يغشاهم العذاب﴾ ب(محيطة)، أي تحيط بهم يوم يغشاهم العذاب. وفي قوله ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ تصوير للإحاطة. والغشيان: التغطية والحجب.
وقوله ﴿من فوقهم ﴾ بيان للغشيان لتصويره تفظيعا لحاله كقوله ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ وتأكيدا لمعنى الغشيان لرفع احتمال المجاز، فهو في موضع الحال من ﴿العذاب﴾ وهي حال مؤكدة.
وقوله ﴿ومن تحت أرجلهم﴾ احتراس عما قد يوهمه الغشيان من الفوقية خاصة، أي تصيبهم نار من تحتهم تتوهج إليهم وهم فوقها، ولما كان معطوفا على الحال بالواو وكان غير صالح لأن يكون قيدا ل ﴿يغشاهم﴾ لأن الغشيان هو التغطية فتقتضي العلو تعين تقدير فعل يتعلق به ﴿ومن تحت أرجلهم﴾ ، وهو أن يقدر عامل محذوف. وقد عد هذا العمل من خصائص الواو في العطف أن تعطف عاملا محذوفا دل عليه معموله- كقول عبد الله بن الزبعرى:
يا ليت زوجك قد غدا ... متقلدا سيفا ورمحا
يريد: وممسكا رمحا لأن الرمح لا يتقلد يصلح أن يكون مفعولا معه وأبو عبيدة والأصمعي والجرمي واليزيدي، ومن وافقهم يجعلون هذا من قبيل تضمين الفعل معنى فعل صالح للتعلق بالمذكور فيقدر في هذه الآية تضمين فعل ﴿يغشاهم﴾ معنى يصيبهم أو يأخذهم . والمقصود من هذا الكناية عن أن العذاب محيط بهم، فلذلك لم يذكر الجانبان الأيمن والأيسر لأن الغرض من الكناية قد حصل. والمقام مقام إيجاز لأنه مقام غضب وتهديد بخلاف قوله تعالى ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ [الأعراف: ١٧] لأنه حكاية لإلحاح الشيطان في الوسوسة.
وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي ﴿ويقول﴾ بالياء التحتية والضمير عائد إلى معلوم من المقام. فالتقدير: ويقول الله. وعدل

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٥/٢٠

عن ضمير التكلم على خلاف مقتضى الظاهر على طريقة الالتفات على رأي كثير من أئمة البلاغة، أو يقدر: ويقول الملك الموكل بجهنم، أو التقدير: ويقول العذاب، بأن يجعل الله للنار أصواتا كأنها قول القائل: ذوقوا. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بالنون وهي نون العظمة.

ومعنى ﴿ما كنتم تعملون﴾ جزاؤه لأن الجزاء لما كان بقدر المجزي أطلق عليه". (١)

١٩٠-"وقد فصلت هذه الدلائل على أربعة استئنافات متماثلة الأسلوب، ابتدئ كل واحد منهم باسم الجلالة مجرى عليه أخبار عن حقائق لا قبل لهم بدحضها لأنهم لا يسعهم إلا الإقرار ببعضها أو العجز عن نقض دليلها.

فالاستئناف الأول المبدوء بقوله: ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ ، والثاني المبدوء بقوله: ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم﴾ [الروم: ٤٠]، والثالث: المبدوء بقوله: ﴿الله الذي يرسل الرياح﴾ [الروم: ٤٨]، والرابع المبدوء بقوله: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾ [الروم: ٥٤].

فأما قوله: ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ فاستدلال بما لا يسعهم إلا الاعتراف به وهو بدء الخلق إذ لا ينازعون في أن الله وحده هو خالق الخلق ولذلك قال الله تعالى ﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم﴾ [الرعد: ١٦] الآية.

وأما قوله: ﴿ثم يعيده﴾ فهو إدماج لأنه إذا سلم له بدء الخلق كان تسليم إعادته أولى وأجدر. وحسن موقع الاستئناف وروده بعد ذكر أمم غابرة وأمم حاضرة خلف بعضها بعضا، وإذ كان ذلك مثالا لإعادة الأشخاص بعد فنائها وذكر عاقبة مصير المكذبين للرسل في العاجلة، ناسب في مقام الاعتبار أن يقام لهم الاستدلال على إمكان البعث ليقع ذكر ما يعقبه من الجزاء موقع الإقناع لهم.

وتقديم اسم الجلالة على المسند الفعلي لمجرد التقوي. و ﴿ثم﴾ هنا للتراخي الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل، وذلك أن شأن الإرجاع إلى الله أعظم من إعادة الخلق إذ هو المقصد من الإعادة ومن بدء الخلق. فالخطاب في ﴿ترجعون﴾ للمشركين على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

وقرأ الجمهور ﴿ترجعون﴾ بتاء الخطاب. وقرأه أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب بياء الغيبة على طريقة ما قبله.

[١٢، ١٣] ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون [١٢] ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين [١٣]﴾ .

عطف على جملة ﴿ثم إليه ترجعون﴾ [الروم: ١١] تبيينا لحال المشركين في وقت ذلك الإرجاع كأنه قيل: ثم إليه ترجعون ويومئذ يبلس المجرمون. وله مزيد اتصال بجملة ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى﴾ [الروم: ١٠]، وكان مقتضى الظاهر أن يقال ويومئذ يبلس المجرمون أو ويومئذ تبلسون، أي ويوم ترجعون إليه يبلس المجرمون، فعدل عن تقدير". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٣/٢٠

(٢) التحرير والتنوير ٢٤/٢١

١٩١-"العذاب لئلا يكون مجرد تأكيد بمدلول في الظرفية فإن التأسيس أوقع من التأكيد، ويجوز أن يكون محضرون بمعنى مأتي بهم إلى العذاب فقد كثر في القرآن استعمال محضر ونحوه بمعنى معاقب، قال تعالى: ﴿ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون﴾ [الصافات: ١٥٨]، واسم الإشارة تنبيه على أنهم أحرياء بتلك العقوبة لأجل ما ذكر قبل اسم الإشارة كقوله: ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ [البقرة: ٥].

وكتب في رسم المصحف ﴿ولقائي﴾ بهمزة على ياء تحتية للتنبيه على أن الهمزة مكسورة وذلك من الرسم التوفيقي، ومقتضى القياس أن تكتب الهمزة في السطر بعد الألف.

[١٧، ١٨] ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون [١٧] وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون [١٨]﴾.

الفاء تقتضي اتصال ما بعدها بما قبلها وهي فاء فصيحة، أو عطف تفريع على ما قبلها وقد كان أول الكلام قوله: ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ [الروم: ٨]، والضمير عائد إلى أكثر الناس في قوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [الروم: ٦] والمراد بهم الكفار فالتفريع أو الإفصاح ناشئ عن ذلك فيكون المقصود من ﴿سبحان الله﴾ إنشاء تنزيه الله تعالى عما نسبوه إليه من العجز عن إحياء الناس بعد موتهم وإنشاء ثناء عليه.

والخطاب في ﴿تمسون﴾ و ﴿تصبحون﴾ تابع للخطاب الذي قبله في قوله: ﴿ثم إليه ترجعون﴾ [الروم: ١١]، وهو موجه إلى المشركين على طريقة الالتفات من ضمائر الغيبة المبتدئة من قوله: ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم﴾ [الروم: ١١] إلى آخرها كما علمت آنفا. وهذا هو الأنسب باستعمال مصدر ﴿سبحان﴾ في مواقع استعماله في الكلام وفي القرآن مثل قوله تعالى: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ [الزمر: ٦٧] وهو الغالب في استعمال مصدر ﴿سبحان﴾ في الكلام إن لم يكن هو المتعين كما تقتضيه أقوال أئمة اللغة. وهذا غير استعمال نحو قوله تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ [الطور: ٤٨]

وقول الأعشى في داليته:

وسبح على حين العشيات والضحى

وقوله: ﴿حين تمسون﴾ ، و ﴿وحين تصبحون﴾ [النور: ٤٨]، و ﴿وعشيا﴾ ، و ﴿وحين تظهرون﴾ ظروف متعلقة بما في إنشاء التنزيه من معنى الفعل، أي ينشأ تنزيه الله في هذه الأوقات". (١)

١٩٢-"نسبة إلى بلاد الملايو.

وجعل ذلك آيات في قوله: ﴿إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ لما علمت من تفاصيل دلائله وعلله، أي آيات لجميع الناس، وهو نظير قوله آنفا ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [الروم: ٢١].

واللام في قوله: ﴿للعالمين﴾ نظير ما تقدم في الآية قبلها. وجعل ذلك آيات للعالمين لأنه مقرر معلوم لديهم بمكنهم الشعور بآياته بمجرد التفات الذهن دون إمعان نظر. وقرأ الجمهور ﴿للعالمين﴾ بفتح اللام. وقرأه حفص بكسر اللام أي لأولي

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٧

العلم.

[٢٣] ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ [٢٣]﴾.

هذه آية رابعة وهي كائنة في أعراض من أعراض الناس لا يخلو عنها أحد من أفرادهم، إلا أنها أعراض مفارقة غير ملازمة فكانت دون الأعراض التي أقيمت عليها الآية الثالثة ولذلك ذكرت هذه الآية بعدها.

وحالة النوم حالة عجيبة من أحوال الإنسان والحيوان إذ جعل الله له في نظام أعصاب دماغه قانونا يسترد به قوة مجموعه العصبي بعد أن يعتريه فشل الإعياء من إعمال عقله وجسده فيعتريه شبه موت يخدر إدراكه ولا يعطل حركات أعضائه الرئيسية ولكنه يثبطها حتى يبلغ من الزمن مقدارا كافيا لاسترجاع قوته فيفيق من نومته وتعود إليه حياته كاملة، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ في سورة البقرة [٢٥٥]. والمنام مصدر ميمي للنوم أو هو اسم مصدر.

وقوله: ﴿بالليل والنهار﴾ متعلق بـ ﴿منامكم﴾ . والباء للظرفية بمعنى "في" فالناس ينامون بالليل ومنهم من ينام بالنهار في القائلة وبخاصة أهل الأعمال المضنية إذا استراحوا منها في منتصف النهار خصوصا في البلاد الحارة أو في فصل الحر.

والابتغاء من فضل الله: طلب الرزق بالعمل لأن فضل الله الرزق، وجعل هذا كناية عن الهبوب إلى العمل لأن الابتغاء يستلزم الهبوب من النوم، وذلك آية أخرى لأنه نشاط القوة بعد أن خارت وفشلت. ولكون ابتغاء الرزق من خصائص النهار أطلق هنا فلم يقيد بالليل والنهار. ولك أن تجعل عدم تقييده بمثل ما قيد به ﴿منامكم﴾ للاستغناء بدلالة القيد". (١)

١٩٣-"والإيتاء: إعطاء النافع، أي بما أنعمنا عليهم من النعم التي هي نعمة الإيجاد والرزق وكشف الضر عنهم. ثم التفت عن الغيبة إلى الخطاب بقوله: ﴿فتمتعوا﴾ توبيخا لهم وإنذارا. وجيء بفاء التفريع في قوله: ﴿فتمتعوا﴾ لأن الإنذار والتوبيخ مفرعان عن الكلام السابق. والأمر في "تمتعوا" مستعمل في التهديد والتوبيخ. والتمتع: الانتفاع بالملائم وبالنعمة مدة تنقضي.

والفاء في ﴿فسوف تعلمون﴾ تفريع للإنذار على التوبيخ، وهو رشيق. و"سوف تعلمون" إنذار بأنهم يعلمون في المستقبل شيئا عظيما، والعلم كناية عن حصول الأمر الذي يعلم، أي عن حلول مصائب بهم لا يعلمون كنهها الآن، وهو إيماء إلى عظمتها وأنها غير مترقبة لهم. وهذا إشارة إلى ما سيصابون به يوم بدر من الاستئصال والخزي وهم كانوا يستعجلون بعذاب من جنس ما عذب به الأمم الماضية مثل عاد وثمود، وكانت الغاية واحدة؛ فإن إصابتهم بعذاب سيوف المسلمين أبلغ في كون استئصالهم بأيدي المؤمنين مباشرة، وأظهر في إنجاء المؤمنين من عذاب لا يصيب الذين ظلموا خاصة وذلك هو المراد في قوله تعالى: ﴿إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ [الدخان: ١٥، ١٦]. والبطشة الكبرى: بطشة يوم بدر.

[٣٥] ﴿أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾ [٣٥]

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦/٢١

﴿أم﴾ منقطعة، فهي مثل "بل" للإضراب وهو إضراب انتقالي. وإذ كان حرف ﴿أم﴾ حرف عطف فيجوز أن يكون ما بعدها إضرابا عن الكلام السابق فهو عطف قصة على قصة بمنزلة ابتداء، والكلام توبيخ ولوم متصل بالتوبيخ الذي أفاده قوله: ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ [الروم: ٣٤]. وفيه **التفات** من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عن مخاطبتكم إلى مخاطبة المسلمين تعجيبا من حال أهل الشرك. ويجوز أن يكون ما بعدها متصلا بقوله: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ [الروم: ٢٩] فهو عطف ذم على ذم وما بينهما اعتراض.

وحيثما وقعت ﴿أم﴾ فالاستفهام مقدر بعدها لأنها ملازمة لمعنى الاستفهام. فالتقدير: بل أنزلنا عليهم سلطانا وهو استفهام إنكاري، أي ما أنزلنا عليهم سلطانا، ومعنى الاستفهام الإنكاري أنه تقرير على الإنكار كأن السائل يسأل المسؤول ليقر بنفي المسؤول عنه.". (١)

١٩٤-"والإحياء، وهي مصادر الأفعال المذكورة. وأفرد اسم الإشارة بتأويل المذكور.

وجملة ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ مستأنفة لإنشاء تنزيه الله تعالى عن الشريك في الإلهية. وموقعها بعد الجملتين السابقتين موقع النتيجة بعد القياس، فإن حاصل معنى الجملة الأولى أن الإله الحق وهو مسمى اسم الجلالة هو الذي خلق ورزق ويميت ويحيي، فهذا في قوة مقدمة هي صغرى قياس، وحاصل الجملة الثانية أن لا أحد من الأصنام بفاعل ذلك، وهذه في قوة مقدمة هي كبرى قياس وهو من الشكل الثاني، وحاصل معنى تنزيه الله عن الشريك أن لا شيء من الأصنام بإله. وهذه نتيجة قياس من الشكل الثاني. ودليل المقدمة الصغرى إقرار الخصم، ودليل المقدمة الكبرى العقل. وقرأ الجمهور ﴿تشركون﴾ بفوقية على الخطاب تبعا للخطاب في ﴿آتيتم﴾ [الروم: ٣٩]. وقرأه حمزة والكسائي وخلف بتحتية على **الالتفات** من الخطاب إلى الغيبة.

[٤١] ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون [٤١]﴾

موقع هذه الآية ومعناها صالح لعدة وجوه من الموعظة، وهي من جوامع كلم القرآن. والمقصد منها هو الموعظة بالحوادث ماضيها وحاضرها للإقلاع عن الإشراك وعن تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم فأما موقعها فيجوز أن تكون متصلة بقوله قبلها ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ الآيات [الروم: ٩]، فلما طولبوا بالإقرار على ما رأوه من آثار الأمم الخالية، أو أنكر عليهم عدم النظر في تلك الآثار، أتبع ذلك بما أدى إليه طريق الموعظة من قوله: ﴿هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ [الروم: ٢٧]، ومن ذكر الإنذار بعذاب الآخرة، والتذكير بدلائل الوحدانية ونعم الله تعالى، وتفريع استحقاقه تعالى الشكر لذاته ولأجل إنعامه استحقاقا مستقرا إدراكه في الفطرة البشرية، وما تخلل ذلك من الإرشاد والموعظة، عاد الكلام إلى التذكير بأن ما حل بالأمم الماضية من المصائب ما كان إلا بما كسبت أيديهم، أي بأعمالهم، فيوشك أن يحل مثل ما حل بهم بالمخاطبين الذين كسبت أيديهم مثل ما كسبت أيدي أولئك.

فموقع هذه الجملة على هذا الوجه موقع النتيجة من مجموع الاستدلال أو موقع الاستئناف البياني بتقدير سؤال عن سبب

---

(١) التحرير والتنوير ٥٥/٢١

ما حل بأولئك الأمم. ويجوز أن تقع هذه الآية موقع التكملة لقوله: ﴿وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم﴾ [الروم: ٣٣] الآية، فهي خبر مستعمل". (١)

١٩٥-"بن جبير عن ابن عباس: أن قوله تعالى: ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام﴾ [لقمان: ٢٧] إلى آخر الآيتين أو الثلاث نزلت بسبب مجادلة كانت من اليهود أن أحبارهم قالوا: يا محمد أرأيت قوله: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ [الإسراء: ٨٥] إيانا تريد أم قومك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا أردت. قالوا: ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان كل شئ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها في علم الله قليل، فأنزل الله عليه ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام﴾ الآيات. وذلك مروي بأسانيد ضعيفة وعلى تسليمها فقد أجيب بأن اليهود جادلوا في ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بأن لقنوا ذلك وفدا من قريش إليهم إلى المدينة، وهذا أقرب للتوفيق بين الأقوال. وهذه الروايات وإن كانت غير ثابتة بسند صحيح إلا أن مثل هذا يكتفي فيه بالمقبول في الجملة. قال أبو حيان: سبب نزول هذه السورة أن قريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة لقمان مع ابنه، أي سألوه سؤال تعنت واختبار. وهذا الذي ذكره أبو حيان يؤيد تصدير السورة بقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ [لقمان: ٦].

وهذه السورة هي السابعة والخمسون في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة الصافات وقبل سورة سبأ. وعدت آياتها ثلاثا وثلاثين في عد أهل المدينة ومكة، وأربعا وثلاثين في عد أهل الشام والبصرة والكوفة.

أغراض هذه السورة

الأغراض التي اشتملت عليها هذه السورة تتصل بسبب نزولها الذي تقدم ذكره أن المشركين سألوا عن قصة لقمان وابنه، وإذا جمعنا بين هذا وبين ما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ [لقمان: ٦] من أن المراد به النضر بن الحارث إذ كان يسافر إلى بلاد الفرس فيقتني كتب اسفنديار ورستم وبهرام، وكان يقرؤها على قريش ويقول: يخبركم محمد عن عاد وثمود وأحثكم أنا عن رستم واسفنديار وبهرام، فصدرت هذه السورة بالتنويه بهدى القرآن ليعلم الناس أنه لا يشتمل إلا على ما فيه هدى وإرشاد للخير ومثل الكمال النفساني، فلا **التفات** فيه إلى أخبار الجبابرة وأهل الضلال إلا في مقام التحذير مما هم فيه ومن عواقبه، فكان صدر هذه السورة تمهيدا لقصة لقمان، وقد تقدم الإلماع إلى هذا في قوله تعالى في أول سورة يوسف [٣] ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ ، ونبهت عليه في المقدمة السابعة بهذا التفسير. وانتقل من ذلك إلى تسفيه النضر بن الحارث وقصصه الباطلة.". (٢)

١٩٦-"لما ذكر عذاب من يضل عن سبيل الله اتبع ببشارة المحسنين الذين وصفوا بأنهم يقيمون الصلاة إلى قوله: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ [لقمان: ٥].

---

(١) التحرير والتنوير ٦٣/٢١

(٢) التحرير والتنوير ٨٧/٢١

وانتصب ﴿وعد الله﴾ على المفعول المطلق النائب عن فعله، وانتصب ﴿حقا﴾ على الحال المؤكدة لمعنى عاملها كما تقدم في صدر سورة يونس. وإجراء الاسمين الجليلين على ضمير الجلالة لتحقيق وعده لأنه لعزته لا يعجزه الوفاء بما وعد، ولحكمته لا يخطئ ولا يذهل عما وعد،فموقع جملة ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ موقع التذييل بالأعم.

[١٠، ١١] ﴿خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين﴾.

استئناف للاستدلال على الذين دأبهم الإعراض عن آيات الله بأن الله هو خالق المخلوقات فلا يستحق غيره أن تثبت له الإلهية فكان ادعاء الإلهية لغير الله هو العلة للإعراض عن آيات الكتاب الحكيم، فهم لما أثبتوا الإلهية لما لا يخلق شيئا كانوا كمن يزعم أن الأصنام مماثلة لله تعالى في أوصافه فلذلك يقتضي انتفاء وصف الحكمة عنه كما هو منتف عنها. ولذا فإن موقع هذه الآيات موقع دليل الدليل، وهو المقام المعبر عنه في علم الاستدلال بالتدقيق، وهو ذكر الشيء بدليله ودليل دليله، فالخطاب في قوله: ﴿ترونها﴾ و ﴿بكم﴾ للمشركين، وقد تقدم في وسورة الرعد [٢] قوله: ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها﴾ ، وتقدم في أول سورة النحل [١٥] قوله: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ ، والمعنى خوف أن تميد بكم أو لئلا تميدكم كما بين هنالك. وتقدم في سورة البقرة [١٦٤] قوله: ﴿وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح﴾
.

وقوله: ﴿وأنزلنا من السماء ماء﴾ هو نظير قوله في سورة البقرة [١٦٤] ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ وقوله في سورة الرعد [١٧] ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية﴾ .

والالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿وأنزلنا﴾ للاهتمام بهذه النعمة التي هي أكثر دورانا عند الناس. وضمير ﴿فيها﴾ عائد إلى الأرض.

والزوج: الصنف، وتقدم في قوله تعالى: ﴿فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى﴾ في طه [٥٣] وقوله: ﴿وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ في سورة الحج [٥].". (١)

١٩٧-"والكريم: النفيس في نوعه، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿إني ألقي إلي كتاب كريم﴾ في سورة النمل [٢٩].

وقد أدمج في أثناء دلائل صفة الحكمة الامتنان بما في ذلك من منافع للخلق بقوله: ﴿ان تميد بكم وبث فيها من كل دابة﴾ فإن من الدواب المبثوثة ما ينتفع به الناس من أكل لحوم أوانسها ووحوشها والانتفاع بألبانها وأصوافها وجلودها وقرونها وأسنانها والحمل عليها والتجمل بها في مرابطها وغدوها ورواحها، ثم من نعمة منافع النبات من الحب والثمر والكلأ والكمأة. وإذ كانت البحار من جملة الأرض فقد شمل الانتفاع بدواب البحر فالله كما أبدع الصنع أسبغ النعمة فأرانا آثار الحكمة والرحمة.

وجملة ﴿هذا خلق الله﴾ إلى آخرها نتيجة الاستدلال بخلق السماء والأرض والجبال والدواب وإنزال المطر. واسم الإشارة إلى

---

(١) التحرير والتنوير ٩٣/٢١

ما تضمنه قوله: ﴿خلق السماوات﴾ إلى قوله: ﴿من كل زوج كريم﴾ . والإتيان به مفردا بتأويل المذكور والانتقال من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿خلق الله﴾ **التفاتا** لزيادة التصريح بأن الخطاب وارد من جانب الله بقرينة قوله: ﴿هذا خلق الله﴾ . وكذلك يكون الانتقال من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿ماذا خلق الذين من دونه﴾ **التفاتا** لمراعاة العود إلى الغيبة في قوله: ﴿خلق الله﴾ . ويجوز أن تكون الرؤية من قوله: ﴿فأروني﴾ علمية، أي فأنبئوني، والفعل معلقا عن العمل بالاستفهام بـ ﴿ماذا﴾ . فيتعين أن يكون ﴿فأروني﴾ تهكما لأنهم لا يمكن لهم أن يكافحوا الله زيادة على كون الأمر مستعملا في التعجيز، لكن التهكم أسبق للقطع بأنهم لا يتمكنون من مكافحة الله قبل أن يقطعوا بعجزهم عن تعيين مخلوق خلقه من دون الله قطعا نظريا.

وصوغ أمر التعجيز من مادة الرؤية البصرية أشد في التعجيز لاقتضائها الاقتناع منهم بأن يحضروا شيئا يدعون أن آلهتهم خلقته. وهذا كقول حطائط بن يعقر النهشلي١ وقيل حاتم الطائي:

أريني جوادا مات هزلا٢ لعلني ... أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا

أي: أحضري جوادا مات من الهزال وأرينيه لعلي أرى مثل ما رأيتيه.

والعرب يقصدون في مثل هذا الغرض الرؤية البصرية، ولذلك يكثر أن يقول: ما

_

١ حطائط بضم الحاء: القصير.

٢ هزلا بفتح الهاء: الهزال.". (١)

١٩٨-"إلى القرآن ينتزرون انفحام الرسول صلى الله عليه وسلم وهو لحكمته لا تنحصر كلماته لأن الحكمة الحق لا نهاية لها.

وقرأ الجمهور برفع ﴿والبحر﴾ على أن الجملة الاسمية في موضع الحال والواو واو الحال وهي حال من ﴿ما في الأرض من شجرة﴾ ، أي تلك الأشجار كائنة في حال كون البحر مدادا لها، والواو يحصل بها من الربط والاكتفاء عن الضمير لدلالتها على المقارنة. وقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿والبحر﴾ بالنصب عطفا على اسم "إن".

[٢٨] ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾

استئناف بياني متعلق بقوله: ﴿إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا﴾ [لقمان: ٢٣] لأنه كلما ذكر أمر البعث هجس في نفوس المشركين استحالة إعادة الأجسام بعد اضمحلالها فيكثر في القرآن تعقيب ذكر البعث بالإشارة إلى إمكانه وتقريبه. وكانوا أيضا يقولون: إن الله خلقنا أطوارا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحما وعظما فكيف يبعثنا خلقا جديدا في ساعة واحدة وكيف يحيي جميع الأمم والأجيال التي تضمنته الأرض في القرون الكثيرة، وكان أبي بن خلف وأبو الأسد - أو أبو الأسدين - ونبيه، ومنبه، ابنا الحجاج من بني سهم، يقولون ذلك وربما أسر به بعضهم. وضميرا المخاطبين مراد بهما جميع الخلق فهما

---

(١) التحرير والتنوير ٩٤/٢١

بمنزلة الجنس، أي ما خلق جميع الناس أول مرة ولا بعثهم، أي خلقهم ثاني مرة إلا كخلق نفس واحدة لأن خلق نفس واحدة هذا الخلق العجيب دال على تمام قدرة الخالق تعالى فإذا كان كامل القدرة استوى في جانب قدرته القليل والكثير والبدء والإعادة.

وفي قوله: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم﴾ **التفات** من الغيبة إلى الخطاب لقصد مجابهتهم بالاستدلال المفحم.

وفي قوله: ﴿كنفس واحدة﴾ حذف مضاف دل عليه ﴿ما خلقكم ولا بعثكم﴾ . والتقدير: إلا كخلق وبعث نفس واحدة.

وذلك إيجاز كقول النابغة:

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتي ... على وعل في ذي المطارة عاقل

التقدير: على مخافة وعل. والمقصود: إن الخلق الثاني كالخلق الأول في جانب القدرة.

وجملة ﴿إن الله سميع بصير﴾ : إما واقعة موقع التعليل لكمال القدرة على ذلك الخلق العجيب استدلالا بإحاطة علمه تعالى بالأشياء والأسباب وتفاصيلها وجزئياتها ومن". (١)

١٩٩-"كقول جرير:

كانت حنيفة أثلاثا فثلثهم ... من العبيد وثلث من مواليها

أي: والثلث الآخر من أنفسهم.

والختار: الشديد الختر، والختر: أشد الغدر.

وجملة ﴿وما يجحد﴾ إلى آخرها تذييل لأنها تعم كل جاحد سواء من جحد آية سير الفلك وهول البحر ويجحد نعمة الله عليه بالنجاة ومن يجحد غير ذلك من آيات الله ونعمه. والمعنى: ومنهم جاحد بآياتنا. وفي الانتقال من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿بآياتنا﴾ **التفات**.

والباء في ﴿بآياتنا﴾ لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول مثل قوله: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ [المائدة: ٦] وقول النابغة:

لك الخير إن وارت بك الأرض واحدا

وقوله تعالى: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ [الإسراء: ٥٩].

[٣٣] ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾

إن لم يكن ﴿يا أيها الناس﴾ خطابا خاصا بالمشركين فهو عام لجميع الناس كما تقرر في أصول الفقه، فيعم المؤمن والمشرك والمعطل في ذلك الوقت وفي سائر الأزمان إذ الجميع مأمورون بتقوى الله وأن الخطوات الموصلة إلى التقوى متفاوتة على حسب تفاوت بعد السائرين عنها، وقد كان فيما سبق من السورة حظوظ للمؤمنين وحظوظ للمشركين فلا يبعد أن تعقب بما يصلح لكلا الفريقين، وإن كان الخطاب خاصا بالمشركين جريا على ما روي عن ابن عباس أن ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٤/٢١

لأهل مكة، فالمراد بالتقوى: الإقلاع عن الشرك.
وموقع هذه الآية بعد ما تقدمها من الآيات موقع مقصد الخطبة بعد مقدماتها إذ كانت المقدمات الماضية قد هيأت النفوس إلى قبول الهداية والتأثر بالموعظة الحسنة، وإن لاصطياد الحكماء فرصا يحرصون على عدم إضاعتها، وأحسن مثلها قول الحريري في". (١)

٢٠٠-"نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير [٣٤]﴾ كان من جملة غرورهم في نفي البعث أنهم يجعلون عدم إعلام الناس بتعيين وقته أمارة على أنه غير واقع، قال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ [يونس: ٤٨] وقال: ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ [الشورى: ١٧، ١٨]، فلما جرى في الآيات قبلها ذكر يوم القيامة أعقبت بأن وقت الساعة لا يعلمه إلا الله.
فجملة ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا لوقوعها جوابا عن سؤال مقدر في نفوس الناس. والجمل الأربع التي بعدها إدماج لجمع نظائرها تعليما للأمة. وقال الواحدي والبغوي: إن رجلا من محارب حصفة من أهل البادية سماه في "الكشاف" الحارث بن عمرو وقع في "تفسير القرطبي" وفي "أسباب النزول" للواحدي تسميته الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى النبيء صلى الله عليه وسلم فقال: متى الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب؟ وتركت امرأتي حبلى فما تلد؟ وماذا اكسب غدا؟ وبأي أرض أموت؟، فنزلت هذه الآية، ولا يدري سند هذا. ونسب إلى عكرمة ومقاتل، ولو صح لم يكن منافيا لاعتبار هذه الجملة استئنافا بيانيا فإنه مقتضى السياق.
وقد أفاد التأكيد بحرف ﴿إن﴾ تحقيق علم الله تعالى بوقت الساعة وذلك يتضمن تأكيد وقوعها. وفي كلمة ﴿عنده﴾ إشارة إلى اختصاصه تعالى بذلك العلم لأن العندية شأنها الاستئثار. وتقديم ﴿عند﴾ وهو ظرف مسند على المسند إليه يفيد التخصص بالقرينة الدالة على أنه ليس مراد به مجرد التقوي.
وجملة ﴿وينزل الغيث﴾ عطف على جملة الخبر. والتقدير: وإن الله ينزل الغيث، فيفيد التخصيص بتنزيل الغيث. والمقصود أيضا عنده علم وقت نزول الغيث وليس المقصود مجرد الإخبار بأنه ينزل الغيث لأن ذلك ليس مما ينكرونه ولكن نظمت الجملة بأسلوب الفعل المضارع ليحصل مع الدلالة على الاستئثار بالعلم به الامتنان بذلك المعلوم الذي هو نعمة.
وفي اختيار الفعل المضارع إفادة أنه يجدد إنزال الغيث المرة بعد المرة عند احتياج الأرض. ولا **التفات** إلى من قدروا: ﴿ينزل الغيث﴾ ، بتقدير "أن" المصدرية على طريقة قول طرفة:". (٢)

٢٠١-"فدلائلها كثيرة من غير هذه الآية. "ولعل" مستعارة تمثيلا لإرادة اهتدائهم والحرص على حصوله.
[٤] ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع

(١) التحرير والتنوير ١٣١/٢١
(٢) التحرير والتنوير ١٣٥/٢١

أفلا تتذكرون﴾

لما كان الركن الأعظم من أركان هدى الكتاب هو إثبات الوحدانية للإله وإبطال الشرك عقب الثناء على الكتاب بإثبات هذا الركن.

وجيء باسم الجلالة مبتدأ لإحضاره في الأذهان بالاسم المختص به قطعا الدابر عقيدة الشريك في الإلهية، وخبر المبتدأ جملة ﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾ ، ويكون قوله: ﴿الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما﴾ صفة لاسم الجلالة.

وجيء باسم الموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر وأنه الانفراد بالربوبية لجميع الخلائق في السماوات والأرض وما بينهما، ومن أولئك المشركون المعنيون بالخبر. والخطاب موجه إلى المشركين على طريقة **الالتفات**.

والولي: مشتق من الولاء بمعنى العهد والحلف والقرابة. ومن لوازم حقيقة الولاء النصر والدفاع عن المولى. وأريد بالولي المشارك في الربوبية.

والشفيع: الوسيط في قضاء الحوائج من دفع ضر أو جلب نفع. والمشركون زعموا أن الأصنام آلهة ركاء لله في الإلهية ثم قالوا: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ [يونس: ١٨] وقالوا: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر: ٣].

و ﴿من﴾ في قوله: ﴿من دونه﴾ ابتدائية في محل الحال من ضمير ﴿لكم﴾ ، و"دون" بمعنى غير، و ﴿من﴾ في قوله: ﴿من ولي﴾ زائدة لتأكيد النفي، أي: لا ولي لكم ولا شفيع لكم غير الله فلا ولاية للأصنام ولا شفاعة لها إبطالا لما زعموه لأصنامهم من الوصفين إبطالا راجعا إلى إبطال الإلهية عنها. وليس المراد أنهم لا نصير لهم ولا شفيع إلا الله لأن الله لا ينصرهم على نفسه ولا يشفع لهم عند نفسه، قال الله تعالى: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ [محمد: ١١] وقال: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وتقدم تفسير نظيره ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم". (١)

٢٠٢-"والمهين: الشيء الممتهن الذي لا يعبأ به. والغرض من إجراء هذا الوصف عليه الاعتبار بنظام التكوين إذ جعل الله تكوين هذا الجنس المكتمل التركيب العجيب الآثار من نوع ماء مهراق لا يعبأ به ولا يصان.

والتسوية: التقويم، قال تعالى ﴿لقد خلقنا الأنسان في أحسن تقويم﴾ [التين: ٤]. والضمير المنصوب في ﴿سواه﴾ عائد إلى ﴿نسله﴾ لأنه أقرب مذكور ولأنه ظاهر العطف بـ ﴿ثم﴾ وإن كان آدم قد سوي ونفخ فيه من الروح، قال تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [ص: ٧٢]. وذكر التسوية ونفخ الروح في جانب النسل يؤذن بأن أصله كذلك، فالكلام إيجاز.

وإضافة الروح إلى ضمير الجلالة للتنويه بذلك السر العجيب الذي لا يعلم تكوينه إلا هو تعالى، فالإضافة تفيد أنه من أشد المخلوقات اختصاصا بالله تعالى وإلا فالمخلوقات كلها لله.

والنفخ: تمثيل لسريان اللطيفة الروحانية في الكثيفة الجسدية مع سرعة الإيداع، وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿فإذا سويته

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٦/٢١

ونفخت فيه من روحي﴾ في سورة الحجر [٢٩].

والانتقال من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وجعل لكم﴾ **التفات** لأن المخاطبين من أفراد الناس وجعل السمع والأبصار والأفئدة للناس كلهم غير خاص بالمخاطبين فلما انتهض الاستدلال على عظيم القدرة وإتقان المراد من المصنوعات المتحدث عنهم بطريقة الغيبة الشامل للمخاطبين وغيرهم ناسب أن يلتفت إلى الحاضرين بنقل الكلام إلى الخطاب لأنه آثر بالامتنان وأسعد بما يرد بعده من التعريض بالتوبيخ في قوله: ﴿قليلا ما تشكرون﴾ . والامتنان بقوى الحواس وقوى العقل أقوى من الامتنان بالخلق وتسويته لأن الانتفاع بالحواس والإدراك متكرر متجدد فهو محسوس بخلاف التكوين والتقويم فهو محتاج إلى النظر في آثاره.

والعدول عن أن يقال: وجعلكم سامعين مبصرين عالمين إلى ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ لأن ذلك أعرق في الفصاحة، ولما تؤذن به اللام من زيادة المنة في هذا الجعل إذ كان جعلا لفائدتهم ولأجلهم، ولما في تعليق الأجناس من السمع والأبصار والأفئدة بفعل الجعل من الروعة والجلال في تمكن التصرف، ولأن كلمة ﴿الأفئدة﴾ أجمع من كلمة عاقلين لأن الفؤاد يشمل الحواس الباطنة كلها والعقل بعض منها". (١)

٢٠٣-"واللام في قوله: ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾ لام كي، أي: أخذنا منهم ميثاقا غليظا لنعظم جزاء للذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ولنشدد العذاب جزاء للذين يكفرون بما جاءتهم به رسل الله، فيكون من دواعي ذكر هذا الميثاق هنا أنه توطئة لذكر جزاء الصادقين وعذاب الكافرين زيادة على ما ذكرنا من دواعي ذلك آنفا. وهذه علة من علل أخذ الميثاق من النبيءين وهي آخر العلل حصولا فأشعر ذكرها بأن لهذا الميثاق عللا تحصل قبل أن يسأل الصادقون عن صدقهم، وهي ما في الأعمال المأخوذ ميثاقهم عليها من جلب المصالح ودرء المفاسد، وذلك هو ما يسأل العاملون عن عمله من خير وشر.

وضمير ﴿يسأل﴾ عائد إلى الله تعالى على طريقة **الالتفات** من التكلم إلى الغيبة.

والمراد بالصادقين أمم الأنبياء الذين بلغهم ما أخذ على أنبيائهم من الميثاق، ويقابلهم الكافرون الذين كذبوا أنبياءهم أو الذين صدقوهم ثم نقضوا الميثاق من بعد، فيشملهم اسم الكافرين.

والسؤال: كناية عن المؤاخذة لأنها من ثواب جواب السؤال أعني إسداد الثواب للصادقين وعذاب الكافرين، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أي: لا يتعقب أحد فعله ولا يؤاخذه على ما لا يلائمه، وقول كعب بن زهير:

وقيل: إنك منسوب ومسؤول

وجملة ﴿وأعد للكافرين﴾ عطف على جملة ﴿ليسأل الصادقين﴾ وغير فيها الأسلوب للدلالة على تحقيق عذاب الكافرين حتى لا يتوهم أنهم يسألون سؤال من يسمع جوابهم أو معذرتهم، ولإفادة أن إعداد عذابهم أمر مضى وتقرر في علم الله.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٥١

[٩] ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا﴾.

ابتداء لغرض عظيم من أغراض نزول هذه السورة والذي حف بآيات وعبر من ابتدائه ومن عواقبه تعليما للمؤمنين وتذكيرا ليزيدهم يقينا وتبصيرا. فافتتح الكلام بتوجيه الخطاب إليهم لأنهم أهله وأحقاء به، ولأن فيه تخليد كرامتهم ويقينهم وعناية الله بهم ولطفه لهم وتحقيرا لعدوهم ومن يكيد لهم، وأمروا أن يذكروا هذه النعمة ولا ينسوها لأن في ذكرها تجديدا للاعتزاز بدينهم والثقة بربهم والتصديق لنبيهم صلى الله عليه وسلم.

واختيرت للتذكير بهذا اليوم مناسبة الأمر بعدم طاعة الكافرين والمنافقين لأن من". (١)

٢٠٤-"الأحزاب وكانوا وسيلة إلقاء الرعب في نفوسهم.

وجملة ﴿وكان الله بما تعملون بصيرا﴾ في موقع الحال من اسم الجلالة في قوله: ﴿نعمة الله﴾ ، وهي إيماء إلى أن الله نصرهم على أعدائهم لأنه عليم بما لقيه المسلمون من المشقة والمصابرة في حفر الخندق والخروج من ديارهم إلى معسكرهم خارج المدينة وبذلهم النفوس في نصر دين الله فجازاهم الله بالنصر المبين كما قال: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ [الحج: ٤٠].

وقرأ الجمهور ﴿بما تعملون بصيرا﴾ بتاء الخطاب. وقرأه أبو عمرو وحده بياء الغيبة ومحملها على **الالتفات**.

والجنود الأول جمع جند، وهو الجمع المتحد المتناصر ولذلك غلب على الجمع المجتمع لأجل القتال فشاع الجند بمعنى الجيش.

وذكر جنود هنا بلفظ الجمع مع أن مفرده مؤذن بالجماعة مثل قوله تعالى: ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ [ص: ١١] فجمعه هنا لأنهم كانوا متجمعين من عدة قبائل لكل قبيلة جيش خرجوا متساندين لغزو المسلمين في المدينة، ونظيره قوله تعالى: ﴿فلما فصل طالوت بالجنود﴾ في سورة البقرة [٢٤٩].

والجنود الثاني جمع جند بمعنى الجماعة من صنف واحد. والمراد بهم ملائكة أرسلوا لنصر المؤمنين وإلقاء الرعب والخوف في قلوب المشركين.

[١٠، ١١] ﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا﴾

﴿إذ جاءوكم﴾ بدل من ﴿إذ جاءتكم جنود﴾ [الأحزاب: ٩] بدل مفصل من مجمل. والمراد بـ"فوق" و ﴿أسفل﴾ فوق جهة المدينة وأسفلها.

و ﴿وإذ زاغت الأبصار﴾ عطف على البدل وهو من جملة التفصيل، والتعريف في ﴿الأبصار﴾ و ﴿القلوب﴾ و ﴿الحناجر﴾ للعهد، أي: أبصار المسلمين وقلوبهم وحناجرهم، أو تجعل اللام فيها عوضا عن المضافات إليها، أي زاغت أبصاركم وبلغت قلوبكم حناجركم.

والزيغ: الميل عن الاستواء إلى الانحراف. فزيغ البصر أن لا يرى ما يتوجه إليه، أو أن يريد التوجه إلى صوب فيقع إلى صوب

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٠١

آخر من شدة الرعب والانذعار.

و ﴿الحناجر﴾ : جمع حنجرة – بفتح الحاء المهملة وسكون النون وفتح الجيم –: منتهى الحلقوم وهي رأس الغلصمة. وبلوغ القلوب الحناجر تمثيل لشدة اضطراب القلوب من". (١)

٢٠٥–"تقديره: وكحلن العيون، لأن العيون لا تزجج ولكنها تكحل حين تزجج الحواجب وذلك من التزين.

﴿ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا﴾ .

عطف على جملة ﴿قل من ذا الذي يعصمكم﴾ ، أو هي معترضة بين أجزاء القول، والتقديران متقاربان لأن الواو الاعتراضية ترجع إلى العاطفة. والكلام موجه إلى النبيء صلى الله عليه وسلم وليس هو من قبيل **الالتفات**. والمقصود لازم الخبر وهو إعلام النبيء عليه الصلاة والسلام ببطلان تحيلاتهم وأنهم لا يجدون نصيرا غير الله وقد حرمهم الله النصر لأنهم لم يعقدوا ضمائرهم على نصر دينه ورسوله. والمراد بالولي: الذي يتولى نفعهم، وبالنصير: النصير في الحرب فهو أخص.

[١٨، ١٩] ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا﴾.

﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير﴾.

استئناف بياني ناشئ عن قوله: ﴿من ذا الذي يعصمكم من الله﴾ [الأحزاب: ١٧] لأن ذلك يثير سؤالا يهجس في نفوسهم أنهم يخفون مقاصدهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يشعر بمرادهم من الاستئذان، فأمر أن يقول لهم ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم﴾ أي: فالله ينبئ رسوله بكم بأن فعل أولئك تعويق للمؤمنين. وقد جعل هذا الاستئناف تخلصا لذكر فريق آخر من المعوقين.

و ﴿قد﴾ مفيد للتحقيق لأنهم لنفاقهم ومرض قلوبهم يشكون في لازم هذا الخبر وهو إنباء الله رسوله عليه الصلاة والسلام بهم، أو لأنهم لجهلهم الناشئ عن الكفر يظنون أن الله لا يعلم خفايا القلوب. وذلك ليس بعجيب في عقائد أهل الكفر. ففي "صحيح البخاري" عن ابن مسعود: "اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي كثيرة شحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع". (٢)

٢٠٦–"و ﴿من رجالكم﴾ وصف لـ ﴿أحد﴾ ، وهو احتراس لأن النبيء صلى الله عليه وسلم أبو بنات. والمقصود: نفي أن يكون أبا لأحد من الرجال في حين نزول الآية لأنه كان ولد له أولاد أو ولدان بمكة من خديجة وهم الطيب والطاهر

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٤/٢١

(٢) التحرير والتنوير ٢١٥/٢١

"أو هما اسمان لواحد" والقاسم، وولد له إبراهيم بالمدينة من مارية القبطية، وكلهم ماتوا صبيانا ولم يكن منهم موجود حين نزول الآية.

والمنفي هو وصف الأبوة المباشرة لأنها الغرض الذي سيق الكلام لأجله والذي وهم فيه من وهم فلا **التفات** إلى كونه جدا للحسن والحسين ومحسن أبناء ابنته فاطمة رضي الله عنها إذ ليس ذلك بمقصود. ولا يخطر ببال أحد نفي أبوته لهم بمعنى الأبوة العليا، أو المراد أبوة الصلب دون أبوة الرحم.

وإضافة "رجال" إلى ضمير المخاطبين والعدول عن تعريفه باللام لقصد توجيه الخطاب إلى الخائضين في قضية تزوج زينب إخراجا للكلام في صيغة التغليط والتغليظ.

وأما توجيهه بأنه كالاحتراز عن أحفاده وانه قال: ﴿من رجالكم﴾ وأما الأحفاد فهم من رجاله ففيه سماجة وهو أن يكون في الكلام توجيه بأن محمدا صلى الله عليه وسلم بريء من المخاطبين اعني المنافقين وليس بينه وبينهم الصلة الشبيهة بصلة الأبوة الثابتة بطريقة لحن الخطاب من قوله تعالى: ﴿وأزواجه أمهاتكم﴾ [الأحزاب: ٦] كما تقدم.

واستدراك قوله: ﴿ولكن رسول الله﴾ لرفع ما قد يتوهم من نفي أبوته، من انفصال صلة التراحم والبر بينه وبين الأمة فذكروا بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كالأب لجميع أمته في شفقته ورحمته بهم، وفي برهم وتوقيرهم إياه، شأن كل نبي مع أمته.

والواو الداخلة على ﴿لكن﴾ زائدة و ﴿لكن﴾ عاطفة ولم ترد ﴿لكن﴾ في كلام العرب عاطفة إلا مقترنة بالواو كما صرح به المرادي في "شرح التسهيل" . وحرف ﴿لكن﴾ مفيد الاستدراك.

وعطف صفة ﴿وخاتم النبيءين﴾ على صفة ﴿رسول الله﴾ تكميل وزيادة في التنويه بمقامه صلى الله عليه وسلم وإيماء إلى أن في انتفاء أبوته لأحد من الرجال حكمة قدرها الله تعالى وهي إرادة أن لا يكون إلا مثل الرسل أو أفضل في جميع خصائصه.

وإذا قد كان الرسل لم يخل عمود أبنائهم من نبي كان كونه خاتم النبيءين مقتضيا أن لا يكون له أبناء بعد وفاته لأنهم لو كانوا أحياء بعد وفاته ولم تخلع عليهم خلعة النبوءة". (١)

٢٠٧-"بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ [الروم: ٨].

والمراد بـ ﴿ما بين أيديهم﴾ ما يستقبله كل أحد منهم من الكائنات السماوية والأرضية، وبـ ﴿ما خلفهم﴾ ما هو وراء كل أحد منها فإنهم لو شاءوا لنظروا إليه بأن يلتفتوا إلى ما وراءهم، وذلك مثل أن ينظروا النصف الشمالي من الكرة السماوية في الليل ثم ينظروا النصف الجنوبي منها فيروا كواكب ساطعة بعضها طالع من مشرقه وبعضها وبعضها هاو إلى مغربه وقمرا مختلف الأشكال باختلاف الأيام، وفي النهار بأن ينظروا إلى الشمس بازغة وآفلة،وما يقارن ذلك من إسفار وأصيل وشفق. وكذلك النظر إلى جبال الأرض وبحارها وأوديتها وما عليها من أنواع الحيوان واختلاف أصنافه.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٧٢

و ﴿من﴾ في قوله: ﴿من السماء والأرض﴾ تبعيضية.

والسماء والأرض أطلقتا على محوياتهما كما أطلقت القرية على أهلها في قوله: ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف: ٨٢].

وجملة ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض﴾ اعتراض بالتهديد فمناسبة التعجيب الإنكاري بما يذكرهم بقدرة صانع تلك المصنوعات العظيمة على عقاب الذين أشركوا معه غيره والذين ضيقوا واسع قدرته وكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم وما يخطر في عقولهم ذكر الأمم التي أصابها عقاب بشيء من الكائنات الأرضية كالخسف أو السماوية كإسقاط كسف من الأجرام السماوية مثل ما أصاب قارون من الخسف وما أصاب أهل الأيكة من سقوط الكسف.

وقرأ الكسائي وحده نخسبهم بإدغام الفاء في الباء، قال أبو علي: وذلك لا يجوز لأن الباء أضعف في الصوت من الفاء فلا تدغم الفاء في الباء، وإن كانت الباء تدغم في الفاء كقولك: اضرب فلانا، وهذا كما تدغم الباء في الميم كقولك: اضرب مالكا، ولا تدغم الميم في الباء كقولك: اضمم بكرا، لأن الباء انحطت عن الميم بفقد الغنة التي في الميم، وهذا رد للرواية بالقياس وهو غصب.

والكسف بكسر الكاف وسكون السين في قراءة الجمهور، وهو القطعة من الشيء. وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا﴾ في سورة الإسراء [٩٢].

وقرأ الجمهور: ﴿نخسف﴾ و ﴿نسقط﴾ بنون العظمة. وقرأها حمزة والكسائي وخلف بياء الغائب على **الالتفات** من مقام التكلم إلى مقام الغيبة، ومعاد الضميرين معروف من سياق الكلام.". (١)

٢٠٨-"وأولادا﴾ [سبأ: ٣٥] فتكون ضمائر الخطاب موجهة إلى الذين قالوا: ﴿نحن أكثر أموالا وأولادا﴾.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة: ﴿إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء﴾ [سبأ: ٣٦]، فيكون مما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم ويبلغه عن الله تعالى، ويكون في ضمير: ﴿عندنا﴾ **التفات**، وضمائر الخطاب تكون عائدة إلى الذين قالوا: ﴿نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾ [سبأ: ٣٥] وفيها وجه ثالث ننبه عليه قريبا.

وهو ارتقاء من إبطال الملازمة إلى الاستدلال على أنهم ليسوا بمحل الرضي من الله تعالى على طريقة النقض التفصيلي المسمى بالمناقضة أيضا في علم المناظرة. وهو مقام الانتقال من المنع إلى الاستدلال على إبطال دعوى الخصم،فقد أبطلت الآية أن تكون أموالهم وأولادهم مقرة عند الله تعالى وأنه لا يقرب إلى الله إلا الإيمان والعمل الصالح.

وجيء بالجملة المنفية في صيغة حصر بتعريف المسند إليه والمسند،لأن هذه الجملة أريد منها نفي قولهم: ﴿نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾ أي لا أنتم، فكان كلامهم في قوة حصر التقريب إلى الله في كثرة الأموال والأولاد فنفي ذلك بأسره.

وتكرير ﴿لا﴾ النافية بعد العاطف في: ﴿ولا أولادكم﴾ لتأكيد تسلط النفي على كلا المذكورين ليكون كل واحدا مقصودا بنفي كونه مما يقرب إلى الله ومتلفتا إليه.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٣

ولما كانت الأموال والأولاد جمعي تكسير عوملا معاملة المفرد المؤنث فجيء بخبرهما اسم موصول المفرد المؤنث على تأويل جماعة الأموال وجماعة الأولاد ولم يتلفت إلى تغلب الأولاد على الأموال فيخبر عنهما معا بـ"الذين" ونحوه.

وعدل عن أن يقال: بالتي تقربكم إلينا، إلى: ﴿تقربكم عندنا﴾ لأن التقريب هنا مجاز في التشريف والكرامة لا تقريب مكان.

والزلفى: اسم للقرب مثل الرجعي وهو مفعول مطلق نائب عن المصدر، أي تقربكم تقريبا، ونظيره: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتا﴾ [نوح: ١٧].

وقوله: ﴿إلا من آمن وعمل صالحا﴾ استثناء منقطع. و ﴿إلا﴾ بمعنى "لكن" المخففة النون التي هي للاستدراك وما بعدها كلام مستأنف وذلك من استعمالات الاستثناء المنقطع؛ فإنه إذا كان ما بعد ﴿إلا﴾ ليس من جنس المستثنى منه كان الاستثناء منقطعا، ثم إن كان ما بعد ﴿إلا﴾ مفردا فإن ﴿إلا﴾ تقدر بمعنى "لكن" أخت "إن" عند أهل الحجاز". (١)

٢٠٩-"العجيبة من إقدامه وثباته حتى كأنهم يبصرونه في تلك الحالة. ولم يؤت بفعل الإرسال في هذه الآية بصيغة المضارع بخلاف قوله في سورة الروم [٤٨] ﴿الله الذي يرسل الرياح﴾ الآية لأن القصد هنا استدلال بما هو واقع إظهارا لإمكان نظيره وأما آية سورة الروم فالمقصود منها الاستدلال على تجديد صنع الله ونعمه.

والقول في الرياح والسحاب تقدم غير مرة أولها في سورة البقرة.

وفي قوله: ﴿فسقناه﴾ بعد قوله: ﴿والله الذي أرسل الرياح﴾ **التفات** من الغيبة إلى التكلم.

وقوله: ﴿كذلك النشور﴾ سبيله سبيل قوله: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق﴾ [فاطر: ٥] الآيات من إثبات البعث مع تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عنه، إلا أن ما قبله كان مأخوذا من فحوى الدلالة لما ظهرت في برهان صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وبارقة الإمكان ما يسوق أذهانهم إلى استقامة التصديق بوقوع البعث.

والإشارة في قوله: ﴿كذلك النشور﴾ إلى المذكور من قوله: ﴿فأحيينا به الأرض﴾ . والأظهر أن تكون الإشارة إلى مجموع الحالة المصورة أي مثل ذلك الصنع المحكم المتقن نصنع صنعا يكون به النشور بأن يهيئ الله حوادث سماوية أو أرضية أو مجموعة منها حتى إذا استقامت آثارها وتهيأت أجسام لقبول أرواحها أمر الله بالنفخة الأولى والثانية فإذا الأجساد قائمة ماثلة أمر الله بنفخ الأرواح بالأجنة عند استكمال تهيئتها لقبول الأرواح.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم تقريب ذلك بمثل هذا مما رواه أحمد وابن أبي شيبه وقريب منه في "صحيح مسلم" عن عروة بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم: "قيل لرسول الله: كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: هل مررت في واد أهلك ممحلا ثم مررت به يهتز خضرا؟ قيل نعم: فكذلك يحي الله الموتى وتلك آيته في خلقه". وفي بعض الروايات عن ابن رزين العقيلي أن السائل أبو رزين.

وقرأ الجمهور: ﴿الرياح﴾ بصيغة الجمع. وقرأ حمزة والكسائي ﴿الريح﴾ بالإفراد، والمعروف بلام الجنس يستوي فيه المفرد

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٧٨

والجمع.". (١)

٢١٠-"والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ليدفع عنه اغتمامه من مشاهدة عدم انتفاع المشركين بالقرآن.
وضرب اختلاف الظواهر في أفراد الصنف الواحد مثلا لاختلاف البواطن تقريبا للأفهام، فكان هذا الاستئناف من الاستئناف البياني لأن مثل هذا التقريب مما تشرئب إليه الأفهام عند سماع قوله: ﴿إن الله يسمع من يشاء﴾ [فاطر: ٢٢].
والرؤية بصرية، والاستفهام تقريري، وجاء التقرير على النفي على ما هو المستعمل كما بيناه عند قوله تعالى: ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم﴾ في سورة الأعراف [١٤٨] وفي آيات أخرى.
وضمير ﴿فأخرجنا﴾ **التفات** من الغيبة إلى التكلم.
والألوان: جمع لون وهو عرض، أي كيفية تعرض لسطوح الأجسام يكيفه النور كيفيات مختلفة على اختلاف ما يحصل منها عند انعكاسها إلى عدسات الأعين من شبه الظلمة وهو لون السواد وشبه الصبح هو لون البياض، فهما الأصلان للألوان، وتنشق منها ألوان كثيرة وضعت لها أسماء اصطلاحية وتشبيهة. وتقدم عند قوله تعالى: ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها﴾ في سورة البقرة [٦٩]، وتقدم في سورة النحل.
والمقصود من الاعتبار هو اختلاف ألوان الأصناف من النوع الواحد كاختلاف ألوان التفاح مع ألوان السفرجل، وألوان العنب مع ألوان التين، واختلاف ألوان الأفراد من الصنف الواحد تارات كاختلاف ألوان التمور والزيتون والأعناب والتفاح والرمان.
وذكر إنزال الماء من السماء إدماج في الغرض للاعتبار بقدرة الله مع ما فيه من اتحاد أصل نشأة الأصناف والأنواع كقوله تعالى: ﴿تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ [الرعد: ٤] وذلك أرعى للاعتبار.
وجيء بالجملتين الفعليتين في ﴿أنزل﴾ و"أخرجنا" لأن إنزال الماء وإخراج الثمرات متجدد آنا فآنا.
والالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿أنزل﴾ وقوله: "أخرجنا" لأن الاسم الظاهر أنسب بمقام الاستدلال على القدرة لأنه الاسم الجامع لمعاني الصفات.
وضمير التكلم أنسب بما فيه امتنان.
وقدم الاعتبار باختلاف أحوال الثمرات لأن في اختلافها سعة تشبه سعة اختلاف". (٢)

٢١١-"واتبع ما هو علامة قبول الإيمان والعلم به بعلامة أخرى وهي إقامة الصلاة كما تقدم في سورة البقرة [٢] ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون﴾ فإنها أعظم الأعمال البدنية،ثم أتبعت بعمل عظيم من الأعمال في المال وهي الإنفاق، والمراد بالإنفاق حيثما أطاق في القرآن هو الصدقات واجبها ومستحبها وما ورد الإنفاق في السور المكية إلا والمراد به

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٦/٢٢

(٢) التحرير والتنوير ١٥٥/٢٢

الصدقات المستحبة إذ لم تكن الزكاة قد فرضت أيامئذ، على أنه قد تكون الصدقة مفروضة دون نصب ولا تحديد ثم حددت بالنصب والمقادير.

وجيء في جانب إقامة الصلاة والإنفاق بفعل المضي لأن فرض الصلاة والصدقة قد تقرر وعملوا به فلا تجدد فيه، وامتثال الذي كلفوا يقتضي أنهم مداومون عليه.

وقوله: ﴿مما رزقناهم﴾ إدماج للامتنان وإيماء إلى أنه إنفاق شكر على نعمة الله عليهم بالرزق فهم يعطون منه أهل الحاجة.

ووقع **الالتفات** من الغيبة من قوله: ﴿كتاب الله﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿مما رزقناهم﴾ لأنه المناسب للامتنان.

وانتصب ﴿سرا وعلانية﴾ على الصفة لمصدر ﴿أنفقوا﴾ محذوف، أي إنفاق سر وإنفاق علانية والمصدر مبين للنوع.

والمعنى: أنهم لا يريدون من الإنفاق إلا مرضاة الله تعالى لا يراءون به، فهم ينفقون حيث لا يراهم أحد وينفقون بمرأى من الناس فلا يصدهم مشاهدة الناس عن الإنفاق.

وفي تقديم السر إشارة إلى أنه أفضل لانقطاع شائبة الرياء منه، وذكر العلانية للإشارة إلى أنهم لا يصدهم مرأى المشركين عن الإنفاق فهم قد أعلنوا بالإيمان وشرائعه حب من حب أو كره من كره.

و ﴿يرجون تجارة﴾ هو خبر ﴿إن﴾ .

والخبر مستعمل في إنشاء التبشير كأنه قيل: ليرجوا تجارة، وزاده التعليل بقوله: ﴿ليوفيهم أجورهم﴾ قرينة على إرادة التبشير.

والتجارة مستعارة لأعمالهم من تلاوة وصلاة وإنفاق.

ووجه الشبه مشابهة ترتب الثواب على أعمالهم بترتب الربح على التجارة.". (١)

٢١٢-"والمعنى: ليرجوا أن تكون أعمالهم كتجارة رابحة.

والبوار: الهلاك. وهلاك التجارة: خسارة التاجر. فمعنى ﴿لن تبور﴾ أنها رابحة. و ﴿لن تبور﴾ صفة ﴿تجارة﴾ . والمعنى: أنهم يرجون عدم بوار التجارة.

فالصفة مناط التبشير والرجاء لا أصل التجارة لأن مشابهة العمل الفظيع لعمل التاجر شيء معلوم.

و ﴿ليوفيهم﴾ متعلق بـ ﴿يرجون﴾ ، أي بشرناهم بذلك وقدرناه لهم لنوفيهم أجورهم ووقع **الالتفات** من التكلم في قوله: ﴿مما رزقناهم﴾ إلى الغيبة رجوعا إلى سياق الغيبة من قوله: ﴿يتلون كتاب الله﴾ أي ليوفي الله الذين يتلون كتابه.

والتوفية: جعل الشيء وافيا، أي تاما لا نقيصة فيه ولا غبن.

وأسجل عليهم الفضل بأنه يزيدهم على ما تستحقه أعمالهم ثوابا من فضله، أي كرمه، وهو مضاعفة الحسنات الواردة في قوله تعالى: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة﴾ [البقرة: ٢٦١] الآية.

وذيل هذا الوعد بما يحققه وهو أن الغفران والشكران من شأنه، فإن من صفاته الغفور الشكور، أي الكثير المغفرة والشديد الشكر.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٦٠

فالمغفرة تأتي على تقصير العباد المطيعين، فإن طاعة الله الحق التي هي بالقلب والعمل والخواطر لا يبلغ حق الوفاء بها إلا المعصوم ولكن الله تجاوز عن الأمة فيما حدثت به أنفسها، وفيما همت به ولم تفعله. وفي اللمم، وفي محو الذنوب الماضية بالتوبة، والشكر كناية عن مضاعفة الحسنات على أعمالهم فهو يشكر بالعمل لأن الذي يجازى على عمل عمله المجزي بجزاء وافر يدل جزاؤه على أنه حمد للفاعل فعله.

وأكد هذا الخبر بحرف التأكيد زيادة في تحقيقه، ولما في التأكيد من الإيذان بكون ذلك علة لتوفية الأجور والزيادة فيها.

وفي الآية ما يشمل ثواب قراء القرآن، فإنهم يصدق عنهم أنهم من الذين يتلون كتاب الله ويقيمون الصلاة ولو لم يصاحبهم التدبر في القرآن فإن للتلاوة حظها من الثواب والتنور بأنوار كلام الله.

[٣١] ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله". (١)

٢١٣-"فيه النذارة، وقسم اتبعوا الذكر وخافوا الله فانتفعوا بالنذارة. وبين أن أكثر القوم حقت عليهم كلمة العذاب، أي علم الله أنهم لا يؤمنون بما جبل عليه عقولهم من النفور عن الخير، فحقق في علمه وكتب أنهم لا يؤمنون، فالفاء لتفريع انتفاء إيمان أكثرهم على القول الذي حق على أكثرهم.

و ﴿حق﴾ : بمعنى ثبت ووقع فلا يقبل نقضا. و ﴿القول﴾ : مصدر أريد به ما أراده الله تعالى بهم فهو قول من قبيل الكلام النفسي، أو مما أوحى الله به إلى رسله.

والتعريف في ﴿القول﴾ تعريف الجنس، والمقول محذوف لدلالة تفريعه عليه.

والتقدير: ﴿لقد حق القول﴾ ، أي القول النفسي وهو المكتوب في علمه تعالى أنهم لا يؤمنون.

[٨] ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون [٨]﴾.

هذه الجملة بدل اشتمال من جملة: ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ فإن انتفاء إيمانهم يشتمل على ما تضمنته هذه الآية من جعل أغلال في أعناقهم حقيقة أو تمثيلا.

والجعل: تكوين الشيء، أي جعلنا حالهم كحال من في أعناقهم أغلال فهي إلى الأذقان فهم مقمحون، فيجوز أن يكون تمثيلا بأن شبهت حالة إعراضهم عن التدبر في القرآن ودعوة الإسلام والتأمل في حججه الواضحة بحال قوم جعلت في أعناقهم أغلال غليظة ترتفع إلى أذقانهم فيكونون كالمقمحين، أي الرافعين رؤوسهم الغاضين أبصارهم لا يلتفتون يمينا ولا شمالا فلا ينظرون إلى شيء مما حولهم فتكون تمثيلية.

وذكر ﴿فهي إلى الأذقان﴾ لتحقيق كون الأغلال ملزوزة إلى عظام الأذقان بحث إذا أراد المغلول منهم الالتفات أو أن يطاطئ رأسه وجعه ذقنه فلازم السكون وهذه حالة تخييل هذه الأغلال وليس كل الأغلال مثل هذه الحالة.

وهذا التمثيل قابل لتوزيع أجزاء المركب التمثيلي إلى تشبيه كل جزء من الحالين بجزء من الحالة الأخرى بأن يشبه ما في نفوسهم من النفور عن الخير بالأغلال، ويشبه إعراضهم عن التأمل والإنصاف بالإقماح.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٦١

فالفاء في قوله: ﴿فهي إلى الأذقان﴾ عطف على جملة ﴿جعلنا في أعناقهم". (١)

٢١٤-"والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا وقوله: ﴿اليوم﴾ ظرف متعلق بـ ﴿نختم﴾ .
والقول في لفظ ﴿اليوم﴾ كالقول في نظائره الثلاثة المتقدمة، وهو تنويه بذكره بحصول هذا الحال العجيب فيه، وهو انتقال النطق من موضعه المعتاد إلى الأيدي والأرجل.
وضمائر الغيبة في ﴿أفواههم ، أيديهم ، أرجلهم ، يكسبون﴾ عائدة على الذين خوطبوا بقوله: ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ [يس: ٦٣] على طريقة **الالتفات**. وأصل النظم: اليوم نختم على أفواهكم وتكلمنا أيديكم وتشهد أرجلكم بما كنتم تكسبون. ومواجهتهم بهذا الإعلام تأسيس لهم بأنهم لا ينعهم إنكار ما أطلعوا عليه من صحائف إعمالهم كما قال تعالى: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ [الإسراء: ١٤].
وقد طوي في هذه الآية ما ورد تفصيله في آي أخر فقد قال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٢- ٢٣] وقال ﴿وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ [يونس: ٢٨- ٢٩] .
وفي "صحيح مسلم" عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يخاطب العبد ربه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني، فيقول الله: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، فيختم على فيه. فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل" ، وإنما طوي ذكر الداعي إلى خطابهم بهذا الكلام لأنه لم يتعلق به غرض هنا فاقتصر على المقصود.
وقد يخيل تعارض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ [النور: ٢٤] ولا تعارض لأن آية يس في أحوال المشركين وآية سورة النور في أحوال المنافقين. والمراد بتكلم الأيدي تكلهما بالشهادة، والمراد بشهادة الأرجل نطقها بالشهادة، ففي كلتا الجملتين احتباك. والتقدير: وتكلمنا أيديهم فتشهد وتكلمنا أرجلهم فتشهد.
ويتعلق: ﴿بما كانوا يكسبون﴾ بكل من فعلي ﴿تكلمنا، وتشهد﴾ على وجه التنازع. وما يكسبونه: هو الشرك وفروعه. وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وما ألحقوا به من الأذى.". (٢)

٢١٥-"وجيء بصيغة القصر المفيدة قصر الوحي على الاتصال بالكون ذكرا وقرآنا قصر قلب، أي ليس شعرا كما زعمتم. فحصل بذلك استقصاء الرد عليهم وتأكيد قوله: ﴿وما علمناه الشعر﴾ . من كون القرآن شعرا.
والذكر: مصدر وصف به الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وصفا للمبالغة، أي إن هو إلا مذكر للناس بما

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٨/٢٢
(٢) التحرير والتنوير ٢٥٦/٢٢

نسوه أو جهلوه. وقد تقدم الكلام على الذكر عند قوله تعالى: ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ في سورة الحجر [٦].

والقرآن: مصدر قرأ، أطلق على اسم المفعول، أي الكلام المقروء، وتقدم بيانه عند قوله تعالى: ﴿وما تتلو منه من قرآن﴾ في سورة يونس [٦١].

والمبين: هو الذي أبان المراد بفصاحة وبلاغة.

ويتعلق قوله: ﴿لينذر﴾ بقوله: ﴿علمناه﴾ باعتبار ما اتصل به من نفي كونه شعرا ثم إثبات كونه ذكرا وقرآنا، أي لأن جملة ﴿إن هو إلا ذكر﴾ بيان لما قبلها في قوة أن لو قيل: وما علمناه إلا ذكرا وقرآنا مبينا لينذر أو لتنذر. وجعله ابن عطية متعلقا بـ ﴿مبين﴾ .

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ﴿لينذر﴾ بتاء الخطاب على **الالتفات** من ضمير الغيبة في قوله: ﴿علمناه﴾ إلى ضمير الخطاب. وقرأه الباقون بياء الغائب، أي النبي الذي علمناه.

والإنذار: الإعلام بأمر يجب التوقي منه.

ولاحي: مستعار لكامل العقل وصائب الإدراك، وهذا تشبيه بليغ، أي من كان مثل الحي في الفهم.

والمقصود منه: التعريض بالمعرضين عن دلائل القرآن بأنهم كالأموات لا انتفاع لهم بعقولهم كقوله تعالى: ﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾ [النمل: ٨٠].

وعطف ﴿ويحق القول على الكافرين﴾ على ﴿لينذر﴾ عطف المجاز على الحقيقة لأن اللام النائب عنه واو العطف ليس لام تعليل ولكنه لام عاقبة كاللام في قوله تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا﴾ [القصص: ٨]. ففي الواو استعارة تبعية، وهذا قريب من استعمال المشترك في معنييه. وفي هذه العاقبة احتباك إذ التقدير: لتنذر من كان". (١)

٢١٦-"أي تأتوننا صادينا عن اليمين،أي عن الخير.فهذا وجه تفسير الآية الذي اعتمده ابن عطية والزمخشري وقد اضطرب كثير في تفسيرها.قال ابن عطية ما خلاصته:"اضطرب المتأولون في معنى قولهم: ﴿عن اليمين﴾ فعبر عنه ابن زيد وغيره بطريق الجنة ونحو هذا من العبارات التي هي تفسير بالمعنى ولا تختص بنفس اللفظة،وبعضهم أيضا نحا في تفسيره إلى ما يخص اللفظة فتحصلا من ذلك معان منها: أن يريد باليمين القوة والشدة قلت وهو عن ابن عباس والفراء فكأنهم قالوا إنكم كنتم تغروننا بقوة منكم،ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا:تأتوننا من الجهة التي يحسنها تمويهكم وإغواؤكم وتظهرون فيها أنها جهة الرشد "وهو عن الزجاج والجبائي" ومما تحتمله الآية أن يريدوا: إنكم كنتم تأتوننا،أي تقطعون بنا عن أخبار الخير واليمن،فعبروا عنها باليمين،ومن المعاني أن يريدوا أنكم تجيئون من جهة الشهوات وعدم النظر لأن جهة يمين الإنسان فيها كبده وجهة شماله فيها قلبه وأن نظر الإنسان في قلبه وقيل تحلفون لنا".اهـ.

وجواب الزعماء بقولهم: ﴿بل لم تكونوا مؤمنين﴾ إضراب إبطال لزعم الأتباع أنهم الذين صدوهم عن طريق الخير أي بل هم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٧٠

يكونوا ممن يقبل الإيمان لأن تسليط النفي على فعل الكون دون أن يقال: بل لم تؤمنوا،مشعر بأن الإيمان لم يكن من شأنهم،أي بل كنتم أنتم الآبين قبول الإيمان.و ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾ أي من قهر وغلبة حتى نكرهكم على رفض الإيمان،ولذلك أكدوا هذا المعنى بقولهم: ﴿بل كنتم قوما طاغين﴾ ،أي كان الطغيان وهو التكبر عن قبول دعوة رجل منكم شأنكم وسجيتكم، فلذلك أقحموا لفظ ﴿قوما﴾ بين "كان" وخبرها لأن استحضارهم بعنوان القومية في الطغيان يؤذن بأن الطغيان من مقومات قوميتهم كما قدمنا عند قوله تعالى: ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ في سورة البقرة[١٦٤].

وفرعوا على كلامهم اعترافهم بأنهم جميعا استحقوا العذاب فقولهم: ﴿فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون﴾ ،تفريع الاعتراض،أي كان أمر ربنا بإذاقتنا عذاب جهنم حقا. وفعل "حق" بمعنى ثبت.

وجملة ﴿إنا لذائقون﴾ بيان لـ ﴿قول ربنا﴾ .وحكي القول بالمعنى على طريقة **الالتفات** ولولا **الالتفات** لقال:"إنكم لذائقون" أو إنهم "لذئقون".ونكتة **الالتفات** زيادة التنصيص على المعنى بذوق العذاب.

وحذف مفعول "ذائقون" لدلالة المقام عليه وهو الأمر بقوله تعالى: ﴿فاهدوهم إلى". (١)

٢١٧-"بهمزة الاستفهام،أي بل أخلقنا الملائكة إناثا.وضمير ﴿خلقنا﴾ **التفات** من الغيبة إلى التكلم وهو إذا استفتاهم يقول لهم:أم خلق الملائكة،كما تقدم،والاستفهام إنكاري وتعجيبي من جرأتهم وقولهم بلا علم.

وجملة ﴿وهم شاهدون﴾ في موضع الحال وهي قيد للإنكار،أي كانوا حاضرين حين خلقنا الملائكة فشهدوا أنوثة الملائكة لأن هذا لا يثبت لأمثالهم إلا بالمشاهدة إذ لا قبل لهم بعلم ذلك إلا المشاهدة. وبقي أن يكون ذلك بالخبر القاطع فذلك ما سينفيه بقوله: ﴿أم لكم سلطان مبين﴾ [الصافات:١٥٦]، وذلك لأن أنوثة الملائكة ليست من المستحيل ولكنه قول بلا دليل.

وضمير ﴿وهم شاهدون﴾ محكي بالمعنى في الاستفتاء.والأصل:وأنتم شاهدون،كما تقدم آنفا.

[١٥١.١٥٢] ﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون﴾

ارتقاء في تجهيلهم بأنهم يقولون المستحيل فضلا على القول بلا دليل فلذلك سماه إفكا.والجملة معترضة بين جمل الاستفتاء. و ﴿ألا﴾ حرف تنبيه للاهتمام بالخبر.والإفك:الكذب أي قولهم هذا بعض من أكذوباتهم.ولذلك أعقبه بعطف ﴿وإنهم لكاذبون﴾ مؤكدا ب"إن" واللام،أي شأنهم الكذب في هذا وفي غيره من باطلهم، فليست الجملة تأكيدا لقوله: ﴿من إفكهم﴾ كيف وهي معطوفة.

[١٥٣.١٥٧] ﴿أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾

عود إلى الاستفتاء،ولذلك لم تعطف لأن بينها وبين ما قبلها كمال الاتصال،فالمعنى:وقل لهم:اصطفى البنات.

قرأه الجمهور ﴿أصطفى﴾ بهمزة قطع مفتوحة على أنها همزة الاستفهام وأما همزة الوصل التي في الفعل فمحذوفة لأجل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٥

الوصل.وقرأه أبو جعفر بهمزة وصل على أن همزة الاستفهام محذوفة.

والكلام ارتقاء في التجهيل،أي لو سلمنا أن الله اتخذ ولدا فلماذا اصطفى البنات". (١)

٢١٨-"والإشارة إذن إلى ما هو مشاهد عندهم من النعيم.

وقرأ الجمهور: ﴿توعدون﴾ بتاء الخطاب فهو على الاحتمال الأول **التفات** من الغيبة إلى الخطاب لتشريف المتقين بعز الحضور لخطاب الله تعالى،وعلى الاحتمال الثاني الخطاب لهم على ظاهره.وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحده ﴿يوعدون﴾ بياء الغيبة فهو على الاحتمال الأول **التفات** عن توجيه الخطاب إليهم إلى توجيهه للطاغين لزيادة التنكيل عليهم.والإشارة إلى المذكور من "حسن المآب"، وعلى الاحتمال الثاني كذلك وجه الكلام إلى أهل المحشر لتنديم الطاغين وإدخال الحسرة والغم عليهم. والإشارة إلى النعيم المشاهد.

واللام في ﴿ليوم الحساب﴾ لام العلة،أي وعدتموه لأجل يوم الحساب.والمعنى لأجل الجزاء يوم الحساب،فلما كان الحساب مؤذنا بالجزاء جعل اليوم هو العلة.وهذه اللام تفيد معنى التوقيت تبعا كقوله تعالى: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ [الإسراء:٧٨]تنزيلا للوقت منزلة العلة.ولذلك قال الفقهاء:أوقات الصلوات أسباب.

[٥٤] ﴿إن هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾

يجري محمل اسم الإشارة هذا على الاحتمالين المذكورين في الكلام السابق.

والعدول عن الضمير إلى اسم الإشارة لكمال العناية بتمييزه وتوجيه ذهن السامع إليه.وأطلق الرزق على النعمة كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم:"لو أن أحدهم قال حين يضاجع أهله:اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ثم ولد لهما ولد لم يمسه شيطان أبدا"فسمى الولد رزقا.

والتوكيد بـ ﴿إن﴾ للاهتمام.والنفاد:الانقطاع والزوال.

[٥٥.٥٦] ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد﴾

اسم الإشارة ﴿هذا﴾ مستعمل في الانتقال من غرض إلى غرض تنهية للغرض الذي قبله.والقول فيه كالقول في ﴿هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب﴾ .والتقدير:هذا شأن المتقين،أو هذا الشأن،أو هذا كما ذكر.

وجملة ﴿يصلونها﴾ حال من ﴿جهنم﴾ وهي حال مؤكد لمعنى اللام الذي هو عامل في "الطاغين" فإن معنى اللام أنهم تختص بهم جهنم واختصاصها بهم هو ذوق عذابها لأن". (٢)

٢١٩-"التوبيخ على الإعراض عن النبأ العظيم،وحجة على تحقق النبأ بسبب أنه موحى به من الله وليس للرسول صلى الله عليه وسلم سبيل إلى عمله لولا وحي الله إليه به.وذكر فعل ﴿كان﴾ دال على ان المنفي علمه بذلك فيما مضى

---

(١) التحرير والتنوير ٩٠/٢٣

(٢) التحرير والتنوير ١٧٦/٢٣

من الزمن قبل أن يوحى إليه بذلك كما قال تعالى: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ [آل عمران:٤٤]وقوله: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين﴾ [القصص:٤٤].

والباء في قوله: ﴿بالملأ الأعلى﴾ على كل المعنيين للنبأ،لتعديه ﴿علم﴾ لتضمينه معنى الإحاطة،وهو استعمال شائع في تعدية العلم.ومنه ما في حديث سؤال الملكين في "الصحيح" فيقال له:"ما علمك بهذا الرجل".ويجوز على المعنى الثاني في النبأ أن تكون الباء ظرفية،أي ما كان لي علم كائن في الملأ الأعلى،أي ما كنت حاضرا في الملأ الأعلى فهي كالباء في قوله: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ [القصص:٤٤].

والملأ:الجماعة ذات الشأن،ووصفه بـ ﴿الأعلى﴾ لأن المراد ملأ السماوات وهم الملائكة ولهم علو حقيقي وعلو مجازي بمعنى الشرف.

و ﴿إذ يختصمون﴾ ظرف متعلق بفعل ﴿ما كان لي من علم﴾ أي حين يختصم أهل الملأ الأعلى على أحد التأويلين،أي في حين تنازع الملائكة وإبليس في السماء.والتعبير بالمضارع في موضع المضي لقصد استحضار الحالة،أو حين يختصم الطاغون وأتباعهم في النار بين يدي الملأ الأعلى،أي ملائكة النار أو ملائكة المحشر،والمضارع على أصله من الاستقبال.

والاختصام:افتعال من خصمه،إذا نازعه وخالفه فهو مبالغة في خصم.

وجملة ﴿إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين﴾ مبينة لجملة ﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾ ،أي ما علمت بذلك النبأ إلا بوحي من الله وإنما أوحى الله إلي ذلك لأكون نذيرا مبينا.

وقد ركبت هذه الجملة من طريقين للقصر:إحداهما طريق النفي والاستثناء،والأخر طريق ﴿أنما﴾ المفتوحة الهمزة وهي أخت "إنما" المكسورة الهمزة في معانيها التي منها إفادة الحصر،ولا **التفات** إلى قول من نفوا إفادتها الحصر فإنها مركبة من "أن" المفتوحة الهمزة و"ما" الكافة وليست "أن" المفتوحة الهمزة إلا "إن" المكسورة تغير كسرة همزتها". (١)

٢٢٠-"انتقال إلى الاستدلال بخلق الناس وهو الخلق العجيب.وأدمج فيه الاستدلال بخلق أصلهم وهو نفس واحدة تشعب منها عدد عظيم وبخلق زوج آدم ليتقوم ناموس التناسل.والجملة يجوز أن تكون في موضع الحال من ضمير الجلالة،ويجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا تكريرا للاستدلال.

والخطاب للمشركين بدليل قوله بعده: ﴿فأنى تصرفون﴾ ،وهو **التفات** من الغيبة إلى الخطاب،ونكتته أنه لما أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم عنهم بطريق الغيبة أقبل على خطابهم ليجمع في توجيه الاستدلال إليهم بين طريقي التعريض والتصريح.وتقدم نظير هذه الجملة في سورة الأعراف،إلا أن في هذه الجملة عطف قوله: ﴿جعل منها زوجها﴾ بحرف ﴿ثم﴾ الدال على التراخي الرتبي لأن مساقها الاستدلال على الوحدانية وإبطال الشريك بمراتبه،فكان خلق آدم دليلا على عظيم قدرته تعالى وخلق زوجه من نفسه دليلا أخر مستقل الدلالة على عظيم قدرته.فعطف بحرف ﴿ثم﴾ الدال على عطف

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٧/٢٣

الجمل على التراخي الرتبي إشارة إلى استقلال الجملة المعطوفة بها بالدلالة مثل الجملة المعطوفة هي عليها،فكان خلق زوج آدم منه أدل على عظيم القدرة من خلق الناس من تلك النفس الواحدة ومن زوجها لأنه خلق لم تجر به عادة فكان ذلك الخلق أجلب لعجب السامع من خلق الناس فجيء له بحرف التراخي المستعمل في تراخي المنزلة لا في تراخي الزمن لأن زمن خلق زوج آدم سابق على خلق الناس.فأما آية الأعراف فمساقها مساق الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد،فذكر الأصلان للناس معطوفا أحدهما على الآخر بحرف التشريك في الحكم الذي هو الكون أصلا لخلق الناس.

وقد تضمنت الآية ثلاث دلائل على عظم القدرة خلق الناس من ذكر وأنثى بالأصالة وخلق الذكر الأول بالإدماج وخلق الأنثى بالأصالة أيضا.

﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾

استدلال بما خلقه الله تعالى من الأنعام عطف على الاستدلال بخلق الإنسان لأن المخاطبين بالقرآن يومئذ قوام حياتهم بالأنعام ولا تخلو الأمم يومئذ من الحاجة إلى الأنعام ولم تزل الحاجة إلى الأنعام حافة بالبشر في قوام حياتهم.

وهذا اعتراض بين جملة ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ وبين ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم﴾ لمناسبة أزواج الأنعام لزوج النفس الواحدة.

وأدمج في هذا الاستدلال امتنان بما فيها من المنافع للناس لما دل عليه قوله:". (١)

٢٢١-"هذا مثال لتقلب المشركين بين إشراكهم مع الله غيره في العبادة،وبين إظهار احتياجهم إليه،فذلك عنوان على مبلغ كفرهم وأقصاه.والجملة معطوفة على جملة ﴿ذلكم الله ربكم له الملك﴾ [الزمر:٦]الآية لاشتراك الجملتين في الدلالة على أن الله منفرد بالتصرف مستوجب للشكر،وعلى أن الكفر به قبيح،وتتضمن الاستدلال على وحدانية إلهية بدليل من أحوال المشركين به فإنهم إذا مسهم الضر لجأوا إليه وحده،وإذا أصابتهم نعمة أعرضوا عن شكره وجعلوا له شركاء.

فالتعريف في ﴿الأنسان﴾ تعريف الجنس ولكن عمومه هنا عموم عرفي لفريق من الإنسان وهم أهل الشرك خاصة لأن قوله: ﴿وجعل لله أندادا﴾ لا يتفق مع حال المؤمنين.

والقول بأن المراد:انسان معين وأنه عتبة بن ربيعة،أو أبو جهل،خروج عن مهيع الكلام،وإنما هذان وأمثالهما من جملة هذا الجنس.وذكر الإنسان إظهار في مقام الإضمار لأن المقصود به المخاطبون بقوله: ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ إلى قوله: ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ [الزمر:٧ ، ٦]،فكان مقتضى الظاهر أن يقال:وإذا مسكم الضر دعوتم ربكم الخ،فعدل إلى الإظهار لما في معنى الإنسان من مراعاة ما في الإنسانية من التقلب والاضطراب إلا من عصمة الله بالتوفيق كقوله تعالى: ﴿ويقول الأنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا﴾ [مريم:٦٦]،وقوله: ﴿أيحسب الأنسان ألن نجمع عظامه﴾ [القيامة:٣]وغير ذلك ولأن في اسم الإنسان مناسبة مع النسيان الآتي في قوله: ﴿نسي ما كان يدعو إليه من قبل﴾ .

وتقدم نظير لهذه الآية في قوله: ﴿وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه﴾ في سورة الروم[٣٣].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٤

والتخويل:الإعطاء والتمليك دون قصد عوض.وعينه واو لا محالة.وهو مشتق من الخول بفتحتين وهو اسم للعبيد والخدم،ولا التفات إلى فعل خال بمعنى:افتخر،فتلك مادة أخرى غير ما اشتق منه فعل خول.

والنسيان:ذهول الحافظة عن الأمر المعلوم سابقا.

وما صدق ﴿ما﴾ في قوله: ﴿ما كان يدعو إليه من قبل﴾ هو الضر،أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إليه،أي إلى كشفه عنه،ومفعول ﴿يدعو﴾ محذوف دل عليه قوله: ﴿دعا ربه﴾ ،وضمير ﴿إليه﴾ عائد إلى ﴿ما﴾ ،أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إليه، أي إلى كشفه.ويجوز أن يكون ﴿ما﴾ صادقا على الدعاء كما تدل عليه الصلة ويكون الضمير المجرور بـ"إلى" عائدا إلى ﴿ربه﴾ ،أي نسي الدعاء،وضمن الدعاء معنى الابتهال". (١)

٢٢٢-"الغرض،ولك أن تجعل نظم الكلام على ترتيبه في اللفظ فتجعل جملة ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ استئنافا وتصير جملة ﴿ويخوفونك﴾ حالا.

ووقع التعبير عن النبي صلى الله عليه وسلم بالاسم الظاهر وهو ﴿عبده﴾ دون ضمير الخطاب لأن المقصود توجيه الكلام إلى المشركين،وحذف المفعول الثاني لـ ﴿كاف﴾ لظهور أن المقصود كافيك أذاهم، فأما الأصنام فلا تستطيع أذى حتى يكفاه الرسول صلى الله عليه وسلم.والاستفهام إنكار عليهم ظنهم أن لا حامي للرسول صلى الله عليه وسلم من ضر الأصنام.والمراد بـ ﴿عبده﴾ هو الرسول صلى الله عليه وسلم لا محالة وبقرينة ﴿ويخوفونك﴾ .

وفي استحضار الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف العبودية وإضافته إلى ضمير الجلالة،معنى عظيم من تشريفه بهذه الإضافة وتحقيق أنه غير مسلمة إلى أعدائه.

والخطاب في ﴿ويخوفونك﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم وهو التفات من ضمير الغيبة العائد على ﴿عبده﴾ ،ونكتة هذا الالتفات هو تمحيض قصد النبي بمضمون هذه الجملة بخلاف جملة ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ كما علمت آنفا.

و ﴿الذين من دونه﴾ هم الأصنام.عبر عنهم وهم حجارة بموصول العقلاء لكثرة استعمال التعبير عنهم في الكلام بصيغ العقلاء.و ﴿من دونه﴾ صلة الموصول على تقدير محذوف يتعلق به المجرور دل عليه السياق،تقديره:اتخذوهم من دونه أو عبدوهم من دونه.

ووقع في "تفسير البيضاوي" أن سبب نزول هذه الآية هو خبر توجيه النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى هدم العزى وأن سادن العزى قال لخالد:"أحذركها يا خالد فإن لها شدة لا يقوم لها شيء،فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس فانزل الله هذه الآية.وتأول الخطاب في قوله: ﴿ويخوفونك﴾ بأن تخويفهم خالدا أرادوا به تخويف النبي صلى الله عليه وسلم فتكون هذه الآية مدنية وسياق الآية ناب عنه.ولعل بعض من قال هذا إنما أراد الاستشهاد لتخويف المشركين النبي صلى الله عليه وسلم من أصنامهم بمثال مشهور.

وقرأ الجمهور ﴿بكاف عبده﴾ .وقرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف ﴿عباده﴾ بصيغة الجمع أي النبي صلى الله عليه

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢/٢٤

وسلم والمؤمنين فإنهم لما خوفوا النبي صلى الله عليه وسلم فقد أرادوا تخويفه وتخويف أتباعه وأن الله كفاهم شرهم.
﴿ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل﴾
اعتراض بين جملة ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ الآية وجملة ﴿أليس الله بعزيز ذي". (١)

٢٢٣-"وعطف على هذا التأييس تهويل آخر في عظم ما ينالهم من العذاب وهو ما في الموصول من قوله: ﴿ما لم يكونوا يحتسبون﴾ من الإيهام الذي تذهب فيه نفس السامع إلى كل تصوير من الشدة.ويجوز جعل الواو للحال،أي لافتدوا به في حال ظهور ما لم يكونوا يحتسبون.
و ﴿من الله﴾ متعلق ب)بدا(.و ﴿من﴾ ابتدائية،أي ظهر لهم مما أعد الله لهم الذي لم يكونوا يظنونه.
والاحتساب:مبالغة في الحساب بمعنى الظن مثل:اقترب بمعنى قرب.والمعنى:ما لم يكونوا يظنونه وذلك كناية عن كونه متجاوزا أقصى ما يتخيله المتخيل حين يسمع أوصافه،فلا **التفات** في هذه الكناية إلى كونهم كانوا مكذبين بالبعث فلم يكن يخطر ببالهم، ونظير هذا الوعد بالخبر قوله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة:١٧].
و ﴿سيئات﴾ جمع سيئة،وهو وصف أضيف إلى موصوفه وهو الموصول ﴿ما كسبوا﴾ أي مكسوباتهم السيئات.وتأنيثها باعتبار شهرة إطلاق السيئة على الفعلة وإن كان فيما كسبوه ما هو من فاسد الاعتقاد كاعتقاد الشركاء لله وإضمار البغض للرسول والصالحين والأحقاد والتحاسد فجرى تأنيث الوصف على تغليب السيئات العملية مثل الغضب والقتل والفواحش تغليبا لفظيا لكثرة الاستعمال.
وأوثر فعل ﴿كسبوا﴾ على فعل:عملوا،لقطع تبرمهم من العذاب بتسجيل أنهم اكتسبوا أسبابه بأنفسهم،كما تقدم آنفا في قوله: ﴿وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾ [الزمر:٢٤]دون: تعلمون.
والحوق:الإحاطة،أي أحاط بهم فلم ينفلتوا منه،وتقدم الخلاف في اشتقاقه في قوله تعالى: ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم﴾ في سورة الأنعام[١٠].
و ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ هو عذاب الآخرة،أي يستهزئون بذكره تنزيلا للعقاب منزلة مستهزأ به فيكون الضمير المجرور استعارة مكنية.ولك أن تجعل الباء للسببية وتجعل متعلق ﴿يستهزئون﴾ محذوفا، أي يستهزئون بالنبي صلى الله عليه وسلم بسبب ذكره العذاب.وتقديم ﴿به﴾ على ﴿يستهزئون﴾ للاهتمام به وللرعاية على الفاصلة.". (٢)

٢٢٤-"التأكيد تحقيق للقصر. وقد ذكر التفتزاني في "شرح المفتاح" في مبحث ضمير الفصل أن القصر يؤكد.
وقرأ نافع وهشام عن ابن عامر ﴿تدعون﴾ بتاء الخطاب على **الالتفات** من الغيبة إلى الخطاب لقرع أسماع المشركين بذلك.
وقرأ الجمهور بياء الغيبة على الظاهر.

---

(١) التحرير والتنوير ٩١/٢٤
(٢) التحرير والتنوير ١٠٧/٢٤

[٢٢.٢١] ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب﴾

انتقال من إنذارهم بعذاب الآخرة على كفرهم إلى موعظتهم وتحذيرهم من أن يحل بهم عذاب الآخرة كما حل بأمم أمثالهم. فالواو عاطفة جملة ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾ على جملة ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ [غافر: ١٨]الخ. والاستفهام تقريري على ما هو الشائع في مثله من الاستفهام الداخل على نفي في الماضي بحرف "لم"، والتقرير موجه للذين ساروا من قريش ونظروا آثار الأمم الذين أبادهم الله جزاء تكذيبهم رسلهم، فهم شاهدوا ذلك في رحلتيهم رحلة الشتاء ورحلة الصيف وإنهم حدثوا بما شاهدوه من تضمهم نواديهم ومجالسهم فقد صار معلوما للجميع، فبهذا الاعتبار أسند الفعل المقرر به إلى ضمير الجمع على جملة.

والمضارع الواقع بعد "لم" والمضارع الواقع في جوابه منقلبان إلى المضي بواسطة "لم". وتقدم شبيه هذه الآية في آخر سورة فاطر وفي سورة الروم.

والضمير المنفصل في قوله: ﴿كانوا هم﴾ ؤضمير فصل عائد إلى ﴿الظالمين﴾ [غافر: ١٨]وهم كفار قريش الذين أريدوا بقوله: ﴿وأنذرهم﴾ [غافر: ١٨]، وضمير الفصل لمجرد توكيد الحكم وتقويته وليس مرادا به قصر المسند على المسند إليه، أي قصر الأشدية على ضمير ﴿كانوا﴾ إذ ليس للقصر معنى هنا كما تقدم في قوله تعالى: ﴿إنني أنا الله﴾ في سورة طه[١٤]وهذا ضابط التفرقة بين ضمير الفصل الذي يفيد القصر وبين الذي يفيد مجرد التأكيد. واقتصار القزويني في "تلخيص المفتاح" على إفادة ضمير الفصل الاختصاص تقصير تبع فيه كلام "المفتاح" وقد نبه عليه سعد الدين في "شرحه على التلخيص".". (١)

٢٢٥-"ثم يتوسع فيه فيطلق على إلهام الله تعالى المخلوقات لما تتطلبه مما فيه صلاحها كقوله ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا﴾ [النحل:٦٨] أي جبلها على إدراك ذلك وتطلبه، ويطلق على تسخير الله تعالى بعض مخلوقاته لقبول أثر قدرته كقوله ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ [الزلزلة:١] إلى قوله ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ [الزلزلة:٥]

والوحي في السماء يقع على جميع هذه المعاني من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازاته، فهو أوحى في السماوات بتقدير نظم جاذبيتها، وتقادير سير كواكبها، وأوحى فيها بخلق الملائكة فيها، وأوحى إلى الملائكة بما يتلقونه من الأمر بما يعلمون، قال تعالى ﴿وهم بأمره يعملون﴾ [الانبياء:٢٧] وقال ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ [الانبياء:٢٠]

و ﴿أمرها﴾ بمعنى شأنها، وهو يصدق بكل ما هو من ملابساتها من سكانها وكواكبها وتماسك جرمها والجاذبية بينها وبين ما يجاورها. وذلك مقابل قوله في خلق الأرض ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها﴾ [فصلت:١٠] وانتصب ﴿أمرها﴾ على نزع الخافض، أي بأمرها أو على تضمين أوحى معنى قدر أو أودع.

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٦/٢٤

ووقع الالتفات من طريق الغيبة إلى طريق التكلم في قوله ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ تجديدا لنشاط السامعين لطول استعمال طريق الغيبة ابتداء من قوله ﴿بالذي خلق الأرض في يومين﴾ [فصلت:٩] مع إظهار العناية بتخصيص هذا الصنع الذي ينفع الناس دينا ودنيا وهو خلق النجوم الدقيقة والشهب بتخصيصه بالذكر من بين عموم ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ فما السماء الدنيا إلا من جملة السماوات، وما النجوم، والشهب إلا من جملة أمرها

والمصابيح جمع مصباح، وهو ما يوقد بالنار في الزيت للإضاءة وهو مشتق من الصباح لأنهم يحاولون أن يجعلوه خلفا عن الصباح. والمراد بالمصابيح: النجوم استعير لها المصابيح لما يبدو من نورها.

وانتصب ﴿حفظا﴾ على أنه مفعول لأجله لفعل محذوف دل عليه فعل ﴿زينا﴾ . والتقدير: وجعلناها حفظا. والمراد: حفظا للسماء من الشياطين المسترقة للسمع. وتقدم الكلام على نظيره في سورة الصافات.". (١)

٢٢٦-"القصر، أي لا علي ولا عظيم غيره لأن من عداه لا يخلو عن افتقار إليه فلا علو له ولا عظمة. وهذا قصر قلب، أي دون آلهتكم فلا علو لها كما تزعمون. قال أبو سفيان أعل هبل.

وتقدم معنى هاتين الجملتين في خلال آية الكرسي من سورة البقرة.

[٥] ﴿تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم﴾

﴿تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن﴾

جملة مستأنفة مقررة لمعنى جملة ﴿وهو العلي العظيم﴾ [البقرة: ٢٥٥] ولذلك لم تعطف عليها، أي يكاد السماوات على عظمتهن يتشققن من شدة تسخرهن فيما يسخرهن الله له من عمل لا يخالف ما قدره الله لهن، وأيضا قد قيل: إن المعنى: يكاد السماوات يتفطرن من كثرة ما فيهن من الملائكة والكواكب وتصاريف الأقدار، فيكون في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم "أطت السماء وحقها أن تئط. والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمده" ١ ويرجحه تعقيبه بقوله تعالى ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم﴾ كما سيأتي.

وقرأ نافع وحده والكسائي ﴿يكاد﴾ بتحتية في أوله. وقرأه الباقون بفوقية وهما وجهان جائزان في الفعل المسند إلى جمع غير المذكر السالم وخاصة مع عدم التأنيث الحقيقي. وتقدم في سورة مريم [٩٠] قوله ﴿تكاد السماوات يتفطرن منه﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿يتفطرن﴾ بتحتية ثم فوقية وأصله مضارع التفطر، وهو مطاوع التفطير الذي هو تكرير الشق. وقرأه أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب بتحتية ثم نون وهو مضارع: انفطر، مطاوع الفطر مصدر فطر الثلاثي، إذا شق، وليس المقصود منه على القراءتين قبول أثر الفاعل إذ لا فاعل هنا للشق وإنما المقصود الخبر بحصول الفعل، وهذا كثير، كقولهم: انشق ضوء الفجر، فلا التفات هنا لما يقصد غالبا في مادة التفعل من تكرير الفعل إذ لا فاعل للشق هنا ولا لتكرره، فاستوت القراءتان في باب البلاغة، على أن استعمال صيغ المطاوعة في اللغة ذو أنحاء كثيرة واعتبارات كما نبه عليه كلام

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٥

الرضي

–

١ أخرجه ابن مردويه عن أنس وهو حديث حسن.". (١)

٢٢٧–"منزلة من يحسب أنه وكيل على إيمانهم وحصل من هذا التنزيل تعريض بهم بأنهم لا يضرون الرسول صلى الله عليه وسلم إذا لم يصدقوه.

[٧] ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ [الشورى:٧]

عطف على جملة ﴿كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله﴾ [الشورى: ٣] إلخ باعتبار المغايرة بين المعطوفة والمعطوف عليها بما في المعطوفة من كون الموحى به قرآنا عربيا، وما في المعطوف عليها من كونه من نوع ما أوحي به إلى الذين من قبله. والقول في ﴿وكذلك أوحينا﴾ كالقول في ﴿كذلك يوحي إليك﴾ [الشورى: ٣]

وإنما أعيد ﴿وكذلك أوحينا﴾ ليبنى عليه ﴿قرآنا عربيا﴾ لما حجز بينهما من الفصل. وأصل النظم: كذلك يوحي إليك الله العزيز الحكيم قرآنا عربيا مع ما حصل بتلك الإعادة من التأكيد لتقرير ذلك المعنى أفضل تقرير.

والعدول عن ضمير الغائب إلى ضمير العظمة **التفات**.

وفي هذا إشارة إلى أنه لا فرق بين ما أوحي إليك وما أوحي إلى من قبلك، إلا اختلاف اللغات كما قال تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ [ابراهيم: ٤]

والقرآن مصدر: قرأ، مثل: غفران وسبحان، وأطلق هنا على المقروء مبالغة في الاتصاف بالمقروئية لكثرة ما يقرأه القارئون وذلك لحسنه وفائدته، فقد تضمن هذا الاسم معنى الكمال بين المقروءات. و ﴿عربيا﴾ نسبة إلى العربية، أي لغة العرب لأن كونه قرآنا يدل على أنه كلام، فوصفه بكونه ﴿عربيا﴾ يفيد أنه كلام عربي.

وقوله ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾ تعليل ل ﴿أوحينا إليك قرآنا عربيا﴾ لأن كونه عربيا يليق بحال المنذرين به وهم أهل مكة ومن حولها، فأولئك هم المخاطبون بالدين ابتداء لما اقتضته الحكمة الإلهية من اختيار الأمة العربية لتكون أول من يتلقى الإسلام وينشره بين الأمم، ولو روعي فيه جميع الأمم المخاطبين بدعوة الإسلام لاقتضى أن ينزل بلغات لا تحصى، فلا جرم اختار الله له أفضل اللغات واختار إنزاله على أفضل البشر.

و ﴿أم القرى﴾ مكة، وكنيت: أم القرى لأنها أقدم المدن العربية فدعاها العرب: أم القرى، لأن الأم تطلق على أصل الشيء مثل: أم الرأس، وعلى مرجعه مثل قولهم للراية:". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٠١/٢٥

(٢) التحرير والتنوير ١٠٦/٢٥

٢٢٨-"إلى التمييز بين المصيب والمخطئ، ومراتب الخطأ في ذلك، على أنه لا يناسب سياق الآيات سابقها وتاليها ولا لأغراض السور المكية. وقد احتج بهذه الآية نفاة القياس، وهو احتجاج لا يرتضيه نطاس.

﴿ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب﴾

يجوز أن تكون الجملة مقول قول محذوف يدل عليه قوله ﴿لتنذر أم القرى﴾ [الشورى: ٧] الآية، فتكون كلاما مستأنفا لأن الإنذار يقتضي كلاما منذرا به، ويجوز أن تكون متصلة بجملة ﴿وما اختلفتم فيه من شيء﴾ تكملة للكلام الموجه من الله ويكون في قوله ﴿ربي﴾ **التفاتا** من الخطاب إلى التكلم، والتقدير: ذلكم الله ربكم، وتكون جملتا ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ معترضتين.

والإشارة لتمييز المشار إليه وهو المفهوم من ﴿فحكمه إلى الله﴾ وهذا التمييز لإبطال التباس ماهية الإلهية والربوبية على المشركين إذ سموا الأصنام آلهة وأربابا وأوثر اسم الإشارة الذي يستعمل للبعيد لقصد التعظيم بالبعد الاعتباري اللازم للسمو وشرف القدر، أي ذلكم الله العظيم. ويتوصل من ذلك إلى تعظيم حكمه، فالمعنى: الله العظيم في حكمه هو ربي الذي توكلت عليه فهو كافيني منكم.

والتوكل: تفعل من الوكل، وهو التفويض في العمل، وتقدم عند قوله تعالى، ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ في سورة آل عمران [١٥٩]

والإنابة: الرجوع، والمراد بها هنا الكناية عن ترك الاعتماد على الغير لأن الرجوع إلى الشيء يستلزم عدم وجود المطلوب عند غيره، وتقدمت الإنابة عند قوله تعالى ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ [هود:٧٥]

وجيء في فعل ﴿توكلت﴾ بصيغة الماضي وفي فعل ﴿أنيب﴾ بصيغة المضارع للإشارة إلى أن توكله على الله كان سابقا من قبل أن يظهر له تنكر قومه له، فقد صادف تنكرهم منه عبدا متوكلا على ربه، وإذا كان توكله قد سبق تنكر قومه فاستمراره بعد ان كشروا له عن أنياب العدوان محقق.

وأما فعل ﴿أنيب﴾ فجيء فيه بصيغة المضارع للإشارة إلى تجدد الإنابة وطلب المغفرة. ويعلم تحققها في الماضي بمقارنتها لجملة ﴿عليه توكلت﴾ لأن المتوكل منيب، ويجوز أن يكون ذلك من الاحتباك. والتقدير: عليه توكلت وأتوكل وإليه أنبت وأنيب.". (١)

٢٢٩-"وتقديم المتعلقين في ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ لإفادة الاختصاص، أي لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه.

﴿فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرأكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى:١١]

﴿فاطر السماوات والأرض﴾

---

(١) التحرير والتنوير ١١٢/٢٥

خبر ثان عن الضمير في قوله تعالى ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ [الشورى: ٩] وما بينهما اعتراض كما علمت آنفا أعقب به أنه على كل شيء قدير، فإن خلق السماوات والأرض من أبرز آثار صفة القدرة المنفرد بها.
والفاطر: الخالق، وتقدم في أول سورة فاطر.[١]
﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرأكم فيه﴾
جملة في موضع الحال من ضمير ﴿فاطر﴾ لأن مضمونها حال من أحوال فطر السماوات والأرض فإن خلق الإنسان والأنعام من أعجب أحوال خلق الأرض.
ويجوز كونها خبرا ثالثا عن ضمير ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ [الشورى: ٩]
والمعنى: قدر في تكوين نوع الإنسان أزواجا لأفراده، ولما كان ذلك التقدير مقارنا لأصل تكوين النوع جيء فيه بالفعل الماضي.
والخطاب في قوله ﴿لكم﴾ للناس كلهم. والخطاب **التفات** من الغيبة. واللام للتعليل. وتقديم ﴿لكم﴾ على غيره من معمولات ﴿جعل﴾ ليعرف أنه معمول لذلك الفعل فلا يتوهم أنه صفة ل ﴿أزواجا﴾ ، وليكون التعليل به ملاحظا في المعطوف بقوله ﴿ومن الأنعام أزواجا﴾
والأزواج: جمع زوج وهو الذي ينضم إلى فرد فيصير كلاهما زوجا للآخر والمراد هنا: الذكور والإناث من الناس، أي جعل لمجموعكم أزواجا، فللذكور أزواج من الإناث، وللنساء أزواج من الرجال، وذلك لأجل الجميع لأن بذلك الجعل حصلت لذة التأنس ونعمة النسل.
ومعنى ﴿من أنفسكم﴾ من نوعكم، ومن بعضكم، كقوله ﴿فسلموا على أنفسكم﴾ [النور: ٦١] وقوله ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء: ٢٩]. وكون الأزواج من أنفسهم كمال في". (١)

٢٣٠-"وصى به إبراهيم وموسى وعيسى، والشيء الموحى به إليك. ولعل هذا من نكت الإعجاز المغفول عنها.
وفي العدول من الغيبة إلى التكلم في قوله ﴿والذي أوحينا إليك﴾ بعد قوله ﴿شرع لكم﴾ **التفات**.
وذكر في جانب الشرائع الأربع السابقة فعل ﴿وصى﴾ وفي جانب شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فعل الإيحاء لأن الشرائع التي سبقت شريعة الإسلام كانت شرائع مؤقتة مقدرا ورود شريعة بعدها فكان العمل بها كالعمل الذي يقوم به مؤتمن على شيء حتى يأتي صاحبه، وليقع الاتصال بين فعل ﴿أوحينا إليك﴾ وبين قوله في صدر السورة ﴿كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾ [الشورى:٣].
و ﴿أن﴾ في قوله ﴿أن أقيموا الدين﴾ يجوز أن تكون مصدرية، فإنها قد تدخل على الجملة الفعلية التي فعلها متصرف، والمصدر الحاصل منها في موضع بدل الاشتمال من ﴿ما﴾ الموصولة الأولى أو الأخيرة. وإذا كان بدلا من إحداهما كان في معنى البدل من جميع أخواتها لأنها سواء في المفعولية لفعل ﴿شرع﴾ بواسطة العطف فيكون الأمر بإقامة الدين والنهي عن

---

(١) التحرير والتنوير ١١٣/٢٥

التفرق فيه مما اشتملت عليه وصاية الأديان.

ويجوز أن تكون تفسيرية لمعنى ﴿وصى﴾ لأنه يتضمن معنى القول دون حروفه. فالمعنى: أن إقامة الدين واجتماع الكلمة عليه أوصى الله بها كل رسول من الرسل الذين سماهم. وهذا الوجه يقتضي أن ما حكي شرعه في الأديان السابقة هو هذا المعنى وهو إقامة الدين المشروع كما هو، والإقامة مجملة يفسرها ما في كل دين من الفروع. وإقامة الشيء: جعله قائما، وهي استعارة للحرص على العمل به كقوله ﴿ويقيمون الصلاة﴾ وقد تقدم في سورة البقرة.[٣]

وضمير ﴿أقيموا﴾ مراد به: أمم أولئك الرسل ولم يسبق لهم ذكر في اللفظ لكن دل على تقديرهم ما في فعل ﴿وصى﴾ من معنى التبليغ.وأعقب الأمر بإقامة الدين بالنهي عن التفرق في الدين.

والتفرق: ضد التجمع، وأصله: تباعد الذوات، أي اتساع المسافة بينها ويستعار كثيرا لقوة الاختلاف في الأحوال والآراء كما هنا، وهو يشمل التفرق بين الأمة بالإيمان بالرسول، والكفر به، أي لا تختلفوا على أنبيائكم، ويشمل التفرق بين الذين آمنوا بأن يكونوا نحلا وأحزابا، وذلك اختلاف الأمة في أمور دينها، أي في أصوله وقواعده". (١)

٢٣١-"والتعريف في ﴿السيئات﴾ تعريف الجنس المراد به الاستغراق وهو عام مخصوص بغير الشرك قال تعالى ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ [النساء: ٤٨] ولك أن تجعله عوضا عن المضاف إليه، أي عن سيئات عباده فيعم جميع العباد عموما مخصوصا بالأدلة لهذا الحكم كما في الوجه الأول.

وجملة ﴿ويعلم ما تفعلون﴾ معترضة بين المتعاطفات أو في موضع الحال، والمقصود: أنه لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده خيرها وشرها وقرأ الجمهور ﴿ما يفعلون﴾ بياء الغيبة، أي ما يفعل عباده. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتاء الخطاب على طريقة **الالتفات.**

والاستجابة: مبالغة في الإجابة، وخصت الاستجابة في الاستعمال بامتثال الدعوة أو الأمر.

وظاهر النظم أن فاعل ﴿يستجيب﴾ ضمير يعود إلى ما عاد إليه ضمير ﴿وهو الذي يقبل التوبة﴾ وأن ﴿الذين آمنوا﴾ مفعول ﴿يستجيب﴾ وأن الجملة معطوفة على جملة ﴿يقبل التوبة﴾

والغالب في الاستعمال أن يقال: استجاب له، كقوله ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ [غافر: ٦٠] وقد يحذفون اللام فيعدونه بنفسه، كقول كعب بن سعد:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندا

فلم يستجبه عند ذاك مجيب

والمعنى: أن الله يستجيب لهم ما يرجونه منه من ثواب، وما يدعونه.

ويجوز أن يكون ﴿الذين آمنوا﴾ فاعل ﴿يستجيب﴾ أي يستجيبون لله فيطيعونه وتكون جملة ﴿ويستجيب﴾ عطفا على مجموع جملة ﴿وهو الذي يقبل التوبة﴾ أي ذلك شأنه وهذا شأن عباده المؤمنين.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢١/٢٥

ومعنى ﴿ويزيدهم من فضله﴾ على الوجهين أنه يعطيهم ما أملوا من دعائهم وعملهم وأعظم مما أملوا حين استجابوا له ولرسوله، وأنه يعطيهم من الثواب أكثر مما عملوا من الصالحات إذ جعل لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف كما في الحديث، وأنه يعطيهم من خير الدنيا ما لم يسألوه إياه كل ذلك لأنه لطيف بهم ومدبر لمصالحهم.

ولما كانت الاستجابة والزيادة كرامة للمؤمنين، أظهر اسم ﴿الذين آمنوا﴾ وجيء به موصولا للدلالة على أن الإيمان هو وجه الاستجابة لهم والزيادة لهم.

وجملة ﴿والكافرون لهم عذاب شديد﴾ اعتراض عائد إلى ما سبق من قوله ﴿ترى". (١)

٢٣٢-"و ﴿من﴾ للتعليل، أي خاشعين خشوعا ناشئا عن الذل، أي ليس خشوعهم لتعظيم الله والاعتراف له بالعبودية لأن ذلك الاعتقاد لم يكن من شأنهم في الدنيا.

وجملة ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿خاشعين﴾ لأن النظر من طرف خفي حالة للخاشع الذليل، والمقصود من ذكرها تصوير حالتهم الفظيعة. وفي قريب من هذا المعنى قول النابغة يصف سبايا:

ينظرن شزرا إلى من جاء عن عرض

بأوجه منكرات الرق أحرار

وقول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

والطرف: أصله مصدر، وهو تحريك جفن العين، يقال: طرف من باب ضرب، أي حرك جفنه، وقد يطلق على العين من تسمية الشيء بفعله، ولذلك لا يثنى ولا يجمع قال تعالى ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ [ابراهيم: ٤٣] ووصفه في هذه الآية ب ﴿خفي﴾ يقتضي أنه أريد به حركة العين، أي ينظرون نظرا خفيا، أي لا حدة له فهو كمسارقة النظر، وذلك من هول ما يرونه من العذاب، فهم يحجمون عن مشاهدته للروع الذي يصيبهم منها، ويبعثهم ما في الإنسان من حب الاطلاع على أن يتطلعوا لما يساقون إليه كحال الهارب الخائف ممن يتبعه، فتراه يمعن في الجري ويلتفت وراءه الفينة بعد الفينة لينظر هل اقترب منه الذي يجري وراءه وهو في تلك **الالتفاتة** أفات خطوات من جريه لكن حب الاطلاع يغالبه.

و ﴿من﴾ في قوله ﴿من طرف خفي﴾ للابتداء المجازي. والمعنى: ينظرون نظرا منبعثا من حركة الجفن الخفية.

وحذف مفعول ﴿ينظرون﴾ للتعميم أي ينظرون العذاب، وينظرون أهوال الحشر وينظرون نعيم المؤمنين من طرف خفي.

﴿وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾

يترجح أن الواو للحال لا للعطف، والجملة حال من ضمير الغيبة في ﴿تراهم﴾ ، أي تراهم في حال الفظاعة الملتبسين بها، وتراهم في حال سماع الكلام الذام لهم الصادر من المؤمنين إليهم في ذلك المشهد. وحذفت "قد" مع الفعل الماضي لظهور قرينة الحال.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٣/٢٥

وهذا قول المؤمنين يوم القيامة إذ كانوا يومئذ مطمئنين من الأهوال شاكرين ما سبق". (١)

٢٣٣-"والانحياز إلى الشيء، فالملجأ: المكان الذي يصير إليه المرء للتوقي فيه، ويطلق مجازا على الناصر، وهو المراد هنا، أي ما لكم من شيء يقيكم من العذاب.

والنكير: اسم مصدر أنكر، أي ما لكم إنكار لما جوزيتم به، أي لا يسعكم إلا الاعتراف دون تنصل.

﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الأنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الأنسان كفور﴾

الفاء للتفريع على قوله ﴿استجيبوا لربكم﴾ [الشورى: ٤٧] الآية، وهو جامع لما تقدم كما علمت إذ أمر الله نبيه بدعوتهم للإيمان من قوله في أول السورة ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها﴾ [الشورى: ٧] ثم قوله ﴿فلذلك فادع واستقم﴾ [الشورى: ١٥] وما تخلل ذلك واعترضه من تضاعيف الأمر الصريح والضمني إلى قوله ﴿استجيبوا لربكم﴾ [الشورى: ٤٧] الآية. ثم فرع على ذلك كله إعلام الرسول صلى الله عليه وسلم بمقامه وعمله إن أعرض معرضون من الذين يدعوهم وبمعذرته فيما قام به وأنه غير مقصر، وهو تعريض بتسليته على ما لاقاه منهم، والمعنى: فإن أعرضوا بعد هذا كله فما أرسلناك حفيظا عليهم ومتكفلا بهم إذ ما عليك إلا البلاغ.

وإذ قد كان ما سبق من الأمر بالتبليغ والدعوة مصدرا بقوله أوائل السورة ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل﴾ [الشورى:٦]

لا جرم ناسب أن يفرع على تلك الأوامر بعد تمامها مثل ما قدم لها فقال ﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ﴾

وهذا الارتباط هو نكتة الالتفات من الخطاب الذي في قوله ﴿استجيبوا لربكم﴾ [الشورى: ٤٧] الآية، إلى الغيبة في قوله هنا ﴿فإن أعرضوا﴾ وإلا لقيل: فإن أعرضتم.

والحفيظ تقدم في صدر السورة وقوله ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾ ليس هو جواب الشرط في المعنى ولكنه دليل عليه، وقائم مقامه، إذ المعنى: فإن أعرضوا فلست مقصرا في دعوتهم، ولا عليك تبعة صدهم إذ ما أرسلناك حفيظا عليهم، بقرينة قوله ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾

وجملة ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ بيان لجملة ﴿فما أرسلناك عليهم". (٢)

٢٣٤-"إلى اجتلاب اسم العدد الكثير أن كثرة وقوع هذا الحكم أدخل في زجرهم عن مثله وأدخل في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتحصيل صبره، لأن كثرة وقوعه تؤذن بأنه سنة لا تتخلف، وذلك أزجر وأسلى.

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٤/٢٥

(٢) التحرير والتنوير ١٨٨/٢٥

و ﴿الأولين﴾ جمع الأول، وهو هنا مستعمل في معنى الماضين السابقين كقوله تعالى ﴿ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين﴾ [الصافات:٧١] فإن الذين أهلكوا قد انقرضوا بقطع النظر عمن عسى أن يكون خلفهم من الأمم.
والاستثناء في قوله ﴿إلا كانوا به يستهزئون﴾ استثناء من أحوال، أي ما يأتيهم نبي في حال من أحوالهم إلا يقارن استهزاؤهم إتيان ذلك النبي إليهم.
وجملة ﴿وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون﴾ في موضع الحال من ﴿الأولين﴾ ، وهذا الحال هو المقصود من الإخبار.وجملة ﴿فأهلكنا أشد منهم﴾ تفريع وتسبب عن جملة ﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين﴾
وضمير ﴿أشد منهم﴾ عائد إلى قوم مسرفين الذين تقدم خطابهم فعدل عن استرسال خطابهم إلى توجيهه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الغرض الأهم من هذا الكلام هو تسلية الرسول ووعده بالنصر. ويستتبع ذلك التعريض بالذين كذبوه فإنهم يبلغهم هذا الكلام كما تقدم.
ويظهر أن تغيير أسلوب الإضمار تبعا لتغيير المواجهة بالكلام لا ينافي اعتبار **الالتفات** في الضمير لأن مناط **الالتفات** هو اتحاد مرجع الضميرين مع تأتي الاقتصار على طريقة الإضمار الأولى، وهل تغيير توجيه الكلام إلا تقوية لمقتضى نقل الإضمار، ولا تفوت النكتة التي تحصل من **الالتفات** وهي تجديد نشاط السامع بل تزداد قوة بازدياد مقتضياتها.
وكلام الكشاف ظاهر في أن نقل الضمير هنا **التفات** وعلى ذلك قرره شارحوه، ولكن العلامة التفتزاني قال ومثل هذا ليس من **الالتفات** في شيء هـ. ولعله يرى أن اختلاف المواجهة بالكلام الواقع فيه الضميران طريقة أخرى غير طريقة **الالتفات**، وكلام الكشاف فيه احتمال، وخصوصيات البلاغة واسعة الأطراف.
والذين هم أشد بطشا من كفار مكة: هم الذين عبر عنهم ب ﴿الأولين﴾ ووصفوا بأنهم يستهزئون بمن يأتيهم من نبي.
وهذا تركيب بديع في الإيجاز لأن قوله ﴿فأهلكنا أشد منهم بطشا﴾ يقتضي كلاما مطويا تقديره: فلا نعجز عن إهلاك المسرفين وهم أقل بطشا.
وهذا في معنى قوله تعالى ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك". (١)

٢٣٥-"وذكرت صلتان فيهما دلالة عل الانفراد بالقدرة العظيمة. وعلى النعمة عليهم، ولذلك أقحم لفظ ﴿لكم﴾ في الموضعين ولم يقل: الذي جعل الأرض مهادا وجعل فيها سبلا كما في قوله ﴿ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا﴾ [النبأ: ٦,٧] لأن ذلك مقام الاستدلال على منكري البعث، فسيق لهم الاستدلال بإنشاء المخلوقات العظيمة التي لا تعد إعادة خلق الإنسان بالنسبة إليها شيئا عجيبا.
ولم يكرر اسم الموصول في قوله ﴿وجعل لكم فيها سبلا﴾ لأن الصلتين تجتمعان في الجامع الخيالي إذ كلتاهما من أحوال الأرض فجعلهما كجعل واحد. وضمائر الخطاب الأحد عشر الواقعة في الآيات الأربع من قوله ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدا﴾ إلى قوله ﴿مقرنين﴾ ليست من قبيل **الالتفات** بل هي جارية على مقتضى الظاهر.

---
(١) التحرير والتنوير ٢١٦/٢٥

والمهاد: اسم لشيء يمهد، أي يوطأ ويسهل لما يحل فيه، وتقدم في قوله ﴿هم من جهنم مهاد﴾ في سورة الأعراف.[٤١] ووجه الامتنان أنه جعل ظاهر الأرض منبسطا وذلك الانبساط لنفع البشر الساكنين عليها. وهذا لا ينافي أن جسم الأرض كروي كما هو ظاهر لأن كرويتها ليست منفعة للناس. وقرأ عاصم ﴿مهدا﴾ بدون ألف بعد الهاء وهو مراد به المهاد.
والسبل: جمع سبيل، وهو الطريق، ويطلق السبيل على وسيلة الشيء كقوله ﴿يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ [الشورى: من الآية٤٤]. ويصح إرادة المعنيين هنا لأن في الأرض طرقا يمكن سلوكها، وهي السهول وسفوح الجبال وشعابها، أي لم يجعل الأرض كلها جبالا فيعسر على الماشين سلوكها، بل جعل فيها سبلا سهلة وجعل جبالا لحكمة أخرى ولأن الأرض صالحة لاتخاذ طرق مطروقة سابلة.
ومعنى جعل الله تلك الطرق بهذا المعنى: أنه جعل للناس معرفة السير في الأرض واتباع بعضهم آثار بعض حتى تتعبد الطرق لهم وتتسهل ويعلم السائر، أي تلك السبل يوصله إلى مقصده.
وفي تيسير وسائل السير في الأرض لطف عظيم لأن به تيسير التجمع والتعارف واجتلاب المنافع والاستعانة على دفع الغوائل والأضرار والسير في الأرض قريبا أو بعيدا من أكبر مظاهر المدنية الإنسانية، ولأن الله جعل في الأرض معايش الناس من النبات والثمر وورق الشجر والكمأة والفقع وهي وسائل العيش فهي سبل مجازية. وتقدم نظير". (١)

٢٣٦-"هذه الآية في سورة طه.
والاهتداء: مطاوع هداه فاهتدى. والهداية حقيقتها: الدلالة على المكان المقصود، ومنه سمي الدال على الطرائق هاديا، وتطلق على تعريف الحقائق المطلوبة ومنه ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ [المائدة: ٤٤]. والمقصود هنا المعنى الثاني، أي رجاء حصول علمكم بوحدانية الله وبما يجب له، وتقدم في ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة:٦].
ومعنى الرجاء المستفاد من "لعل" استعارة تمثيلية تبعية، مثل حال من كانت وسائل الشيء حاضرة لديه بحال من يرجى لحصول المتوسل إليه.
[١١] ﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون﴾
انتقل من الاستدلال والامتنان بخلق الأرض إلى الاستدلال والامتنان بخلق وسائل العيش فيها، وهو ماء المطر الذي به تنبت الأرض ما يصلح لاقتيات الناس.
وأعيد اسم الموصول للاهتمام بهذه الصلة اهتماما يجعلها مستقلة فلا يخطر حضورها بالبال عند حظور الصلتين اللتين قبلها فلا جامع بينها وبينهما في الجامع الخيالي. وتقدم الكلام على نظيره في سورة الرعد وغيرها فاعيد اسم الموصول لأن مصداقه هو فاعل جميعها.
والإنشاء: الإحياء كما في قوله ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ [عبس:٢٢]
وعن ابن عباس أنه أنكر على من قرأ ﴿كيف ننشزها﴾ [البقرة: ٢٥٩] بفتح النون وضم الشين وتلا ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٩/٢٥

[عبس:٢٢] فأصل الهمزة فيه للتعدية وفعله المجرد نشر بمعنى حيي، يقال: نشر الميت، برفع الميت قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا

...

يا عجبا للميت الناشر

وأصل النشر بسط ما كان مطويا وتفرعت من ذلك معاني الإعادة والانتشار.

والنشر هنا مجاز لأن الإحياء للأرض مجاز، وزاده حسنا هنا أن يكون مقدمة لقوله ﴿كذلك تخرجون﴾

وضمير ﴿فأنشرنا﴾ **التفات** من الغيبة إلى التكلم. والميت ضد الحي.

ووصف البلدة به مجاز شائع قال تعالى ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها﴾ [يس: ٣٣].". (١)

٢٣٧-"﴿وأصفاكم بالبنين﴾ ومحل الاستدلال أن الإناث مكروهة عندهم فكيف يجعلون لله أبناء إناثا وهلا جعلوها ذكورا. وليست لهم معذرة عن الفساد المنجر إلى معتقدهم بالطريقتين لأن الإبطال الأول نظري يقيني. والإبطال الثاني جدلي بديهي قال تعالى ﴿ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى﴾ [النجم:٢٢,٢١] فهذه حجة ناهضة عليهم لاشتهارها بينهم.

ولما ادعت سجاح بنت الحارث النبوءة في بني تميم أيام الردة وكان قد ادعى النبوءة قبلها مسيلمة الحنفي، والأسود العنسي، وطليحة بن خويلد الأسدي، قال عطارد بن حاجب التميمي.

أضحت نبيئتنا أنثى نطيف بها ... وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

وأوثر فعل ﴿اتخذ﴾ هنا لأنه يشمل الاتخاذ بالولادة، أي بتكوين الانفصال عن ذات الله تعالى بالمزاوجة مع سروات الجن، ويشمل ما هو دون ذلك وهو التبني فعلى كلا الفرضين يتوجه إنكار أن يكون ما هو لله أدون مما هو لهم كما قال تعالى ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ [النحل: ٦٢]. وقد أشار إلى هذا قوله ﴿وأصفاكم بالبنين﴾ فهذا ارتقاء في إبطال معتقدهم بإبطال فرض أن يكون الله تبنى الملائكة، سدا على المشركين باب التأول والتنصل من فساد نسبتهم البنات إلى الله، فلعلهم يقولون: ما أردنا إلا التبني، كما تنصلوا حين دمغتهم براهين بطلان إلهية الأصنام فقالوا ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر: ٣]، وقالوا ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ [يونس: ١٨]

واعلم أن ما تؤذن به ﴿أم﴾ حيثما وقعت من تقدير استفهام بعدها هو هنا استفهام في معنى الإنكار وتسلط الإنكار على اتخاذ البنات مع عدم تقدم ذكر البنات لكون المعلوم من جعل المشركين لله جزءا أن المجعول جزءا له هو الملائكة وأنهم يجعلون الملائكة إناثا، فذلك معلوم من كلامهم.

وجملة ﴿وأصفاكم بالبنين﴾ في موضع الحال.

والنفي الحاصل من الاستفهام الإنكاري منصب إلى قيد الحال، فحصل إبطال اتخاذ الله البنات بدليلين، لأن إعطاءهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٢٢٠

البنين واقع فنفي اقترانه باتخاذه لنفسه البنات يقتضي انتفاء اتخاذه البنات فالمقصود اقتران الإنكار بهذا القيد.
وبهذا يتضح أن الواو في جملة ﴿وأصفاكم﴾ ليست واو العطف لأن إنكار أن يكون أصفاهم بالبنين لا يقتضي نفي الأولاد الذكور عن الله تعالى.والخطاب في ﴿وأصفاكم﴾ موجه إلى الذين جعلوا له من عباده جزءا، وفيه **التفات** من الغيبة إلى الخطاب ليكون الإنكار والتوبيخ أوقع عليهم لمواجهتهم به.". (١)

٢٣٨-"وتنكير ﴿بنات﴾ لأن التنكير هو الأصل في أسماء الأجناس. وأما تعريف ﴿البنين﴾ باللام فهو تعريف الجنس المتقدم في قوله ﴿الحمد لله﴾ في سورة الفاتحة.[٢] والمقصود منه هنا الإشارة إلى المعروف عندهم المتنافس في وجوده لديهم وتقدم عند قوله ﴿يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور﴾ في سورة الشورى.[٤٩]
وتقديم ﴿البنات﴾ في الذكر على ﴿البنين﴾ لأن ذكرهن أهم هنا إذ هو الغرض المسوق له الكلام بخلاف مقام قوله ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا﴾ في سورة الإسراء.[٤٠] ولما في التقديم من الرد على المشركين في تحقيرهم البنات وتطيرهم منهن مثل ما تقدم في سورة الشورى.
والإصفاء: إعطاء الصفوة، وهي الخيار من شيء.
وجملة ﴿وإذا بشر أحدهم﴾ يجوز ان تكون في موضع الحال من ضمير النصب في ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾ ومقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير الخطاب في قوله ﴿أحدهم﴾ فعدل عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة على طريق **الالتفات** ليكونوا محكيا حالهم إلى غيرهم تعجيبا من فساد مقالتهم وتشنيعا بها إذ نسبوا لله بنات دون الذكور وهو نقص، وكانوا ممن يكره البنات ويحقرهن فنسبتها إلى الله مفض إلى الاستخفاف بجانب الإلهية.
والمعنى: أأتخذ مما يخلق بنات الله وأصفاكم بالبنين في حال أنكم إذا بشر أحدكم بما ضربه للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا.
ويجوز أن تكون اعتراضا بين جملة ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات﴾ وجملة ﴿أومن ينشأ في الحلية﴾ [الزخرف: ١٨].
واستعمال البشارة هنا تهكم بهم كقوله ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ [الانشقاق:٢٤] لأن البشارة إعلام بحصول أمر مسر.
و"ما" في قوله ﴿بما ضرب للرحمن مثلا﴾ موصولة، أي بشر بالجنس الذي ضربه، أي جعله مثلا وشبها لله في الإلهية، وإذ جعلوا جنس الأنثى جزءا لله، أي منفصلا منه فالمبشر به جنس الأنثى، والجنس لا يتعين. فلا حاجة إلى تقدير بشر بمثل ما ضربه للرحمن مثلا.
والمثل: الشبيه.
والضرب: الجعل والصنع، ومنه ضرب الدينار، وقولهم: ضربة لازب، فما صدق". (٢)

(١) التحرير والتنوير ٢٢٦/٢٥
(٢) التحرير والتنوير ٢٢٧/٢٥

٢٣٩-"﴿عليهم﴾ **التفات** بل المقام لضمير الغيبة.

والصحاف: جمع صفحة، إناء مستدير واسع الفم ينتهي أسفله بما يقارب التكوير. والصفحة: إناء لوضع الطعام أو الفاكهة مثل صحاف الفغفوري الصيني تسع شبع خمسة، وهي دون القصعة التي تسع شبع عشرة. وقد ورد أن عمر بن الخطاب اتخذ صحافا على عدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فلا يؤتى إليه بفاكهة أو طرفة إلا أرسل إليهن منها في تلك الصحاف.

والأكواب: جمع كوب بضم الكاف وهو إناء للشراب من ماء أو خمر مستطيل الشكل له عنق قصير في أعلى ذلك العنق فمه وهو مصب ما فيه، وفمه أضيق من جوفه، والأكثر أن لا تكون له عروة يمسك منها فيمسك بوضع اليد على عنقه، وقد تكون له عروة قصيرة، وهو أصغر من الإبريق إلا أنه لا خرطوم له ولا عروة في الغالب. وأما الإبريق فله عروة وخرطوم.

وحذف وصف الأكواب لدلالة وصف صحاف عليه، أي وأكواب من ذهب. وهذه الأكواب تكون للماء وتكون للخمر.

وجملة ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس﴾ إلخ حال من ﴿الجنة﴾ ، وهي من بقية القول.

وضمير ﴿فيها﴾ عائد إلى ﴿الجنة﴾ ، وقد عم قوله ﴿ما تشتهيه الأنفس﴾ كل ما تتعلق الشهوات النفسية بنواله وتحصيله، والله يخلق في أهل الجنة الشهوات اللائقة بعالم الخلود والسمو.

﴿وتلذ﴾ مضارع لذ بوزن علم: إذا أحس لذة، وحق فعله أن يكون قاصرا فيعدى إلى الشيء الذي به اللذة بالباء فيقال: لذ به، وكثر حذف الباء وإيصال الفعل إلى المجرور بنفسه فينتصب على نزع الخافض، وكثر ذلك في الكلام حتى صار الفعل بمنزلة المتعدي فقالوا: لذه. ومنه قوله هنا ﴿وتلذ الأعين﴾ التقدير، وتلذه الأعين. والضمير المحذوف هو رابط الصلة بالموصول. ولذة الأعين في رؤية الأشكال الحسنة والألوان التي تنشرح لها النفس، فلذة الأعين وسيلة للذة النفوس فعطف ﴿وتلذ الأعين﴾ على ﴿ما تشتهيه الأنفس﴾ عطف ما بينه وبين المعطوف عليه عموم وخصوص، فقد تشتهي الأنفس نا لا تراه الأعين كالمحادثة مع الأصحاب وسماع الأصوات الحسنة والموسيقى. وقد تبصر الأعين ما لم تسبق للنفس شهوة رؤيته أو ما اشتهت النفس طعمه أو سمعه فيؤتى به في". (١)

٢٤٠-"والتقدير: مع تنزيه عن تحقق ذلك في نفس الأمر. فيكون لهذه الجملة حكم التالي في جزأي القياس الشرطي الاستثنائي. وليس في ضمير ﴿يصفون﴾ **التفات** لأن تقدير الكلام: قل لهم إن كان للرحمن ولد.

ويجوز أن تكون كلاما مستأنفا من جانب الله تعالى لإنشاء تنزيهه عما يقولون فتكون معترضة بين جملة ﴿قل إن كان للرحمن ولد﴾ وجملة ﴿وهو الذي في السماء إله﴾ [الزخرف:٨٤] ولهذه الجملة معنى التذييل لأنها نزهت الله عن جميع ما يصفونه به من نسبة الولد وغير ذلك.

ووصفه بربوبية أقوى الموجودات وأعمها وأعظمها، لأنه يفيد انتفاء أن يكون له ولد لانتفاء فائدة الولادة، فقد تم خلق العوالم ونظام نمائها ودوامها، وعلم من كونه خالقها أنه غير مسبوق بعدم وإلا لاحتاج إلى خالق يخلقه، واقتضى عدم السبق

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٢٨٩

بعدم أنه لا يلحقه فناء فوجود الولد له يكون عبثا.

[٨٣] ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾

اعتراض بتفريع عن تنزيه الله عما ينسبونه إليه من الولد والشركاء، وهذا تأييس من إجداء الحجة فيهم وأن الأولى به متاركتهم في ضلالهم إلى أن يحين يوم يلقون فيه العذاب الموعود. وهذا متحقق في أئمة الكفر الذين ماتوا عليه، وهم الذين كانوا متصدين لمحاجة النبي صلى الله عليه وسلم ومجادلته والتشغيب عليه مثل أبي جهل، وأمية بن خلف، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، والوليد بن المغيرة، والنضر بن عبد الدار، ممن قتلوا يوم بدر.

و"اليوم" هنا محتمل ليوم بدر وليوم القيامة وكلاهما قد وعدوه، والوعد هنا بمعنى الوعيد كما دل عليه السياق.

والخوض حقيقته: الدخول في لجة الماء ماشيا، ويطلق مجازا على كثرة الحديث، والأخبار والاقتصار على الاشتغال بها، وتقدم في قوله ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ في سورة الأنعام.[٨٦]

والمعنى: فأعرض عنهم في حال خوضهم في الأحاديث ولعبهم في مواقع الجد حين يهزأون بالإسلام. واللعب: المزح والهزم.". (١)

٢٤١-"يصفون﴾ [الزخرف:٨٢].

وقد تأكد انفراده بربوبية أعظم الموجدات ثلاث مرات بقوله ﴿رب العرش﴾ وقوله ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾ [الزخرف: ٨٤] وقوله ﴿الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾

فكم من خصائص ونكت تنهال على المتدبر من آيات القرآن التي لا يحيط بها إلا الحكيم العليم.

ولما كان قوله ﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ مفيدا التصرف في هذه العوالم مدة وجودها ووجود ما بينها أردفه بقوله ﴿وعنده علم الساعة وإليه ترجعون﴾ للدلالة على أن له مع ملك العوالم الفانية ملك العوالم الباقية، وأنه المتصرف في تلك العوالم بما فيها بالتنعيم والتعذيب، فكان قوله ﴿وعنده علم الساعة﴾ توطئة لقوله ﴿وإليه ترجعون﴾ وإدماجا لإثبات البعث.

وتقديم المجرور في ﴿وإليه ترجعون﴾ لقصد التقوي إذ ليس المخاطبون بمثبتين رجعى إلى غيره فإنهم لا يؤمنون بالبعث أصلا.

وأما قولهم للأصنام ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ [يونس: ١٨] فمرادهم أنهم شفعاء لهم في الدنيا أو هو على سبيل الجدل ولذلك أتبع بقوله ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقرأ الجمهور ﴿ترجعون﴾ بالفوقية على **الالتفات** من الغيبة إلى الخطاب للمباشرة بالتهديد. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالتحتية تبعا لأسلوب الضمائر التي قبله، وهم متفقون على أنه مبني للمجهول.

[٨٦] ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾

لما أنبأهم أن لله ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة أعلمهم أن ما يعبدونه من دون الله لا يقدر على أن يشفع لهم في الدنيا إبطالا لزعمهم أنهم شفعاؤهم عند الله.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٢٩٨

ولما كان من جملة من عبدوا دون الله الملائكة استثناهم بقوله ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ أي فهم يشفعون، وهذا في معنى قوله ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون﴾ [الانبياء:٢٦] ثم قال ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وقد". (١)

٢٤٢-"رب﴾ وبقرينة أنه قال ﴿إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ وبقرينة إجابته بقوله ﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾ [الزخرف: ٨٩]، والأولى أن يكون ضمير الغائب **التفاتا** عن الخطاب في قوله ﴿ولئن سألتهم من خلقهم﴾ [الزخرف: ٨٧]، فإنه بعد ما مضى من المحاجة ومن حكاية إقرارهم بأن الله الذي خلقهم، ثم إنهم لم يتزحزحوا عن الكفر قيد أنملة، حصل اليأس للرسول من إيمانهم فقال ﴿يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ التجاء إلى الله فيهم وتفويضا إليه ليجري حكمه عليهم.

وهذا من استعمال الخبر في التحسر أو الشكاية وهو خبر بمعنى الإنشاء مثل قوله تعالى ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾ [الفرقان:٣٠]

أي لم يعملوا به فلم يؤمنوا، ويؤيد هذا تفريع ﴿فاصفح عنهم﴾ [الزخرف: ٨٩] ففي ضمير الغيبة **التفات** لأن الكلام كان جاريا على أسلوب الخطاب من قوله ﴿ولئن سألتهم من خلقهم﴾ [الزخرف: ٨٧] فمقتضى الظاهر: وقولك: يا رب إلخ.

ويحسن هذا **الالتفات** أنه حكاية لشيء في نفس الرسول فجعل الرسول بمنزلة الغائب لإظهار أن الله لا يهمل نداءه وشكواه على حد قوله تعالى ﴿عبس وتولى﴾ [عبس:١]. وإضافة القيل إلى ضمير الرسول مشعرة بأنه تكرر منه وعرف به عند ربه، أي عرف بهذا وبما في معناه من نحو ﴿يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾ وقوله ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقرأ الجمهور ﴿وقيله﴾ بنصب اللام على اعتبار أنه مصدر نصب على أنه مفعول مطلق بدل من فعله.

والتقدير: وقال: الرسول قيله، والجملة معطوفة على جملة ﴿ولئن سألتهم من خلقهم﴾ [الزخرف: ٨٧] أو على جملة ﴿فأنى يؤفكون﴾ أي وقال الرسول حينئذ يا رب إلخ. ونظيره قول كعب بن زهير:

تمشي الوشاة جنابيها وقيلهم ... إنك يا بن أبي سلمى لمقتول

على رواية ﴿قيلهم﴾ ونصبه، أي ويقولون: قيلهم وهي رواية الأصمعي.

ويجوز أن يكون النصب على المفعول به لقوله ﴿لا نسمع﴾ ، والتقدير: بلى ونعلم قيله وهذا اختيار الفراء والأخفش، وقال المبرد والزجاج: هو منصوب بفعل مقدر دل عليه قوله ﴿وعنده علم الساعة﴾ [الزخرف: ٨٥] أي ويعلم قيله.

وقرأ عاصم وحمزة بجر لام "قيله" ويجوز في جره وجهان:". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠١/٢٥

(٢) التحرير والتنوير ٣٠٣/٢٥

٢٤٣-"بين أوقات القائلين. ولا يصح أن يكون قولا واحدا في وقت واحد لأن المجنون لا يكون معلما ولا يتأثر بالتعليم.

[١٥] ﴿إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون﴾

يجيء على ما فسر به جميع المفسرين قوله ﴿ربنا اكشف عنا العذاب﴾ [الدخان: ١٢]، أن هذه الجملة جواب لسؤالهم، ويجيء على ما درجنا عليه أن تكون هذه الجملة إعلاما للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يكشف العذاب المتوعد به المشركون مدة، فيعودون إلى ما كانوا فيه، وعليه فضمير ﴿إنكم عائدون﴾ **التفات** إلى خطاب المشركين ، أي يمسكون عن ذلك مدة وهي المدة التي أرسلوا فيها وفدهم إلى المدينة ليسأل الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله بكشف القحط عنهم فإنهم أيامئذ يمسكون عن الطعن والذم رجاء أن يدعو لهم ثم يعودون لما كانوا فيه، كما قال تعالى ﴿وإذا مس الأنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله﴾ [الزمر: ٨] كما اقتضى أن العذاب عائد إليهم بعد عودتهم إلى ما كانوا فيه من أسباب إصابتهم بالعذاب.

فمعنى ﴿إنا كاشفو العذاب﴾ : إنا كاشفوه في المستقبل بقرينة قوله قبله ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ [الدخان:١٠] المقتضي أنه يحصل في المستقبل، والآية متصل بعضها ببعض وكذلك معنى ﴿ إنكم عائدون﴾ ، أي في المستقبل. واسم الفاعل يكون مرادا به الحصول في المستقبل بالقرينة.

روي أنهم كشف عنهم القحط بعد استسقاء النبي صلى الله عليه وسلم، فحيوا وحييت أنعامهم ثم عادوا فعادوهم القحط كمال سبع سنين، ولعلها عقبها فتح مكة.

وجملة ﴿إنكم عائدون﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا لأنهم إذا سمعوا ﴿إنا كاشفو العذاب قليلا﴾ تطلعوا إلى ما سيكون بعد كشفه، وتطلع المؤمنون إلى ما تصير إليه حال المشركين بعد كشف العذاب هل يقلعون عن الطعن فكان قوله ﴿إنكم عائدون﴾ مبينا لما يتساءلون عنه.

[١٦] ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾

هذا هو الانتقام الذي وعد به الرسول صلى الله عليه وسلم وتوعد به أيمة الكفر. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن قوله ﴿إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون﴾ فإن السامع يثار في نفسه سؤال عن جزائهم حيث يعودون إلى التولي والطعن فأجيب بأن". (١)

٢٤٤-"﴿ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم﴾ عطف على ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ وهذا تذكير بنعمة السلامة مما ارتبك فيه غيرهم. وذلك مما يحمد الله عليه كما ورد أن من آداب من يرى غيره في شدة أو بأس أن يقول: الحمد لله الذي عافاني مما هو فيه.

وضمير ﴿وقاهم﴾ عائد إلى ضمير المتكلم في ﴿وزوجناهم﴾ على طريقة **الالتفات**.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٣٢٠

و ﴿فضلا﴾ حال من المذكورات. والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم.

وذكر الرب إظهار في مقام الإضمار ومقتضى الظاهر أن يقال: فضلا منه أو منا. ونكتة هذا الإظهار تشريف مقام النبي صلى الله عليه وسلم والإيماء إلى أن ذلك إكرام له لإيمانهم به.

وجملة ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ تذييل، والإشارة في ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ لتعظيم الفضل ببعد المرتبة. وأتي بضمير الفصل لتخصيص الفوز بالفضل المشار إليه وهو قصر لإفادة معنى الكمال كأنه لا فوز غيره.

﴿فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون فارتقب إنهم مرتقبون﴾

الفاء للتفريع إشارة إلى أن ما بعدها متفرع عما قبلها حيث كان المذكور بعد الفاء فذلكة للسورة، أي إجمال لأغراضها بعد تفصيلها فيما مضى إحضارا لتلك الأغراض وضبطا لترتب علتها.

وضمير ﴿يسرناه﴾ عائد إلى الكتاب المفهوم من المقام والمذكور في قوله ﴿والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ [الدخان: ٣] إلخ، والذي كان جل غرض السورة في إثبات إنزاله من الله كما أشار إليه افتتاحها بالحروف المقطعة، وقوله ﴿والكتاب المبين﴾ فهذا التفريع مرتبط بذلك الافتتاح وهو من رد العجز على الصدر. فهذا التفريع تفريع لمعنى الحصر الذي في قوله ﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾ لبيان الحكمة في إنزال القرآن باللسان العربي فيكون تفريعا على ما تقدم في السورة وما تخلله وتبعه من المواعظ.

ويجوز أن يكون المفرع قوله ﴿لعلهم يتذكرون﴾ وقدم عليه ما هو توطئة له اهتماما بالمقدم وتقدير النظم فلعلهم يتذكرون بهذا لما يسرناه لهم بلسانهم.

والقصر المستفاد من "إنما" قصر قلب وهو رد على المشركين إذ قد سهل لهم طريق". (١)

٢٤٥-"أي على مخافة وعل.

واسم ﴿بعد﴾ مستعمل في حقيقته.

والمراد بالحديث: الكلام، يعني القرآن كقوله ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ [الزمر: ٢٣] وكما وقع إضافة حديث إلى ضمير القرآن في قوله في الأعراف [١٨٥] ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ وفي آخر المرسلات [٥٠] ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾

وعطف و ﴿آياته﴾ على ﴿حديث﴾ لأن المراد بها الآيات غير القرآن من دلائل السماوات والأرض مما تقدم في قوله ﴿إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين﴾ [الجاثية:٣].

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر وروح عن يعقوب ﴿يؤمنون﴾ بالتحتية. وقرأه أبو عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ورويس عن يعقوب بالتاء الفوقية فهو **التفات**.

[٧-١٠] ﴿ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٣٤٣

من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم﴾

﴿ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا﴾

أعقب ذكر المؤمنين الموقنين العاقلين المنتفعين بدلالة آيات الله وما يفيده مفهوم تلك الصفات التي أجريت عليهم من تعريض بالذين لم ينتفعوا بها، بصريح ذكر أولئك الذين لم يؤمنوا ولم يعقلوها كما وصف لذلك قوله ﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾ [الجاثية: ٦].

وافتتح ذكره بالويل له تعجيلا لإنذاره وتهديده قبل ذكر حاله. و"ويل له" كلمة دعاء بالشكر وأصل الويل الشر وحلوله. و"الأفاك" القوي الإفك، أي الكذب. والأثيم مبالغة أو صفة مشبهة وهو يدل على المبالغ في اقتراف الآثام، أي الخطايا. وفسره الفيروز آبادي في القاموس بالكذاب وهو". (١)

٢٤٦-"وقوله ﴿ليجزي قوما بما كانوا يكسبون﴾ تعليل للأمر المستفاد من قوله ﴿يغفروا﴾ أي ليغفروا ويصفحوا عن أذى المشركين فلا ينتصروا لأنفسهم ليجزيهم الله على إيمانهم وعلى ما أوذوا في سبيله فإن الانتصار للنفس توفية للحق وماذا عساهم يبلغون من شفاء أنفسهم بالتصدي للانتقام من المشركين على قلتهم وكثرة أولئك فإذا توكلوا على نصر ربهم كان نصره لهم أتم وأخضد لشوكة المشركين كما قال نوح ﴿أني مغلوب فانتصر﴾ [القمر: ١٠] وهذا من معنى قوله تعالى ﴿وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل﴾ [الحجر: ٨٥] وكان مقتضى الظاهر أن يقال ليجزيهم بما كانوا يكسبون. فعدل إلى الإظهار في مقام الإضمار ليكون لفظ ﴿قوما﴾ مشعرا بأنهم ليسوا بمضيعة عند الله فإن لفظ"قوم" مشعر بفريق له قوامه وعزته ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا﴾ [محمد١١]

وتنكير ﴿قوما﴾ للتعظيم، فكأنه قيل: ليجزي أيما قوم، أي قوما مخصوصين. وهذا مدح لهم وثناء عليهم. ونحوه ما ذكر الطيبي عن ابن جني عن أبي علي الفارسي في قوله الشاعر:

أفآت بنو مروان ظلما دماءنا ... وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل

قال: أبو علي: هو تعالى أعرف المعارف وسماه الشاعر: حكما عدلا وأخرج اللفظ مخرج التنكير، ألا ترى كيف آل الكلام من لفظ التنكير إلى معنى التعريف ا هـ. والأظهر أن ﴿قوما﴾ مراد به الإبهام وتنوينه للتنكير فقط.

والمعنى: ليجزي الله كل قوم بما كانوا يكسبون من خير أو شر بما يناسب كسبهم فيكون وعيدا للمشركين المعتدين على المؤمنين ووعدا للمؤمنين المأمورين بالصفح والتجاوز عن أذى المشركين، وهذا وجه عدم تعليق الجزاء بضمير الموقنين لأنه أريد العموم فليس ثمة إظهار في مقام الإضمار ويؤيد هذا قوله ﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ [الجاثية: ١٥]. وهذا كالتفصيل للإجمال الذي في قوله ﴿ليجزي قوما بما كانوا يكسبون﴾ ولذلك فصلت الجملة ولم تعطف على

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٢/٢٥

سابقتها، وتقدم نظيره في سورة فصلت. وقرأ الجمهور ﴿ليجزي قوما﴾ بتحتية في أوله، والضمير المستتر عائد إلى اسم الجلالة في قوله ﴿أيام الله﴾ وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف بنون العظمة في أوله على **الالتفات**. وقرأه أبو جعفر بتحية في أوله مضمومة وبفتح الزاي على البناء للجمهول ونصب ﴿قوما﴾ . وتأويلها أن نائب الفاعل مصدر مأخوذ من فعل ﴿يجزي﴾ . والتقدير: ليجزي الجزاء. و ﴿قوما﴾ مفعول ثان لفعل "يجزى" من باب كسا وأعطى.". (١)

٢٤٧-"المرسل لأنه أوجز من تعداد الأهوال الحاصلة منذ البعث إلى قضاء الجزاء على الأعمال.

وإضافة يوم إلى ضمير المخاطبين في ﴿يومكم﴾ باعتبار أن ذلك اليوم ظرف لأحوال تتعلق بهم فإن الإضافة تكون لأدنى ملابسة، إلا ترى أنه أضيف إلى ضمير المؤمنين في قوله تعالى ﴿وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ [الانبياء: ١٠٣].

ووصف اليوم باسم الإشارة تمييزه أكمل تمييز تكميلا لتعريفه بالإضافة لئلا يلتبس عليهم بيوم آخر.

وعطف ﴿ومأواكم النار﴾ على ﴿اليوم ننساكم﴾ ليعلموا أن تركهم في النار ترك مؤبد فأن المأوى هو مسكن الشخص الذي يأوي إليه بعد أعماله، فالمعنى أنكم قد أويتم إلى النار فأنتم باقون فيها، وتقدم نظير قوله ﴿وما لكم من ناصرين﴾ قريبا، والمقصود تخطئة زعمهم السابق أن الأصنام تنفعهم في الشدائد.

و ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ﴿مأواكم﴾ والباء للسببية، أي ذلكم المأوى بسبب اتخاذكم آيات الله، وهي آيات القرآن هزؤا، أي مستهزأ بها، ﴿هزؤا﴾ مصدر مراد به اسم المفعول مثل خلق.

وتغرير الحياة الدنيا إياهم سبب أيضا لجعل النار مأواهم. والتغرير: الإطماع الباطل. ومعنى تغرير الحياة الدنيا إياهم: أنهم قاسوا أحوال الآخرة على أحوال الدنيا فظنوا أن الله لا يحيي الموتى وتطرقوا من ذلك إلى إنكار الجزاء في الآخرة على ما يعمل في الدنيا وغرهم أيضا ما كانوا عليه من العزة والمنعة فخالوه منتهى الكمال فلم يصيخوا إلى داعي الرشد وعظة النصح وأعرضوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن القرآن المرشد ولولا ذلك لأقبلوا على التأمل فيما دعوا إليه فاهتدوا فسلموا من عواقب الكفر ولكون هذه المغررات حاصلة في الحياة الدنيا أسند التغرير إلى الحياة على سبيل المجاز العقلي لأن ذلك أجمع لأسباب الغرور.

وفرع على ذلك ﴿فاليوم لا يخرجون منها﴾ بالفاء وهذا من تمام الكلام الذي قيل لهم لأن وقوع كلمة ﴿اليوم﴾ في أثنائه يعين أنه من القيل الذي يقال لهم يومئذ. واتفق القراء على قراءة ﴿لا يخرجون﴾ بياء الغيبة. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: لا تخرجون، بأسلوب الخطاب مثل سابقه ولكن عدل عن طريقة الخطاب إلى الغيبة على وجه **الالتفات**. ويحسنه هنا أنه تخييل للإعراض عنهم بعد توبيخهم وتأييسهم وصرف بقية". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦١/٢٥

(٢) التحرير والتنوير ٣٨٩/٢٥

٢٤٨-"ورجع هو وأتباعه وكانوا ثلث الجيش وذلك سنة ثلاث من الهجرة، أي بعد نزول هذه الآية بنحو ثلاث سنين.

وقوله ﴿فلو صدقوا الله﴾ جواب كما تقدم، وفي الكلام إيجاز لأن قوله ﴿لكان خيرا﴾ يؤذن بأنه إذا عزم الأمر حصل لهم ما لا خير فيه. ولفظ ﴿خيرا﴾ ضد الشر بوزن فعل، وليس هو هنا بوزن أفعل.

[٢٢] ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾

مقتضى تناسق النظم أن هذا مفرع على قوله ﴿فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم﴾ [محمد: من الآية٢١] لأنه يفهم منه أنه إذا عزم الأمر تولوا عن القتال وانكشف نفاقهم فتكون إتماما لما في الآية السابقة من الإنباء بما سيكون من المنافقين يوم أحد. وقد قال عبد الله بن أبي: علام نقتل أنفسنا هاهنا؟ وربما قال في كلامه: وكيف نقاتل قريشا وهم من قومنا، وكان لا يرى على أهل يثرب أن يقاتلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ويرى الاقتصار على أنهم آووه. والخطاب موجه إلى الذين في قلوبهم مرض على **الالتفات**.

والاستفهام مستعمل في التكذيب لما سيعتذرون به لانخزالهم ولذلك جيء فيه ب ﴿هل﴾ الدالة على التحقيق لأنها في الاستفهام بمنزلة "قد" في الخبر، فالمعنى: أفيتحقق إن توليتم أنكم تفسدون في الأرض وتقطعون أرحامكم وأنتم تزعمون أنكم توليتم إبقاء على أنفسكم وعلى ذوي قرابة أنسابكم على نحو قوله تعالى ﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾ [البقرة: من الآية٢٤٦] وهذا توبيخ كقوله تعالى ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم﴾ [البقرة: من الآية٨٥] والمعنى: أنكم تقعون فيما زعمتم التفادي منه وذلك بتأييد الكفر وإحداث العداوة بينكم وبين قومكم من الأنصار. فالتولي هنا هو الرجوع عن الوجهة التي خرجوا لها كما في قوله تعالى ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم﴾ [البقرة: من الآية٢٤٦] وقوله ﴿أفرأيت الذي تولى﴾ [النجم:٣٣] وقوله ﴿فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾ [طه:٦٠]. وبمثله فسر ابن جريج وقتادة على تفاوت بين التفاسير. ومن المفسرين من حمل التولي على أنه مطاوع ولاه إذا أعطاه ولاية، أي ولاية الحكم والإمارة على الناس وبه فسر أبو العالية والكلبي وكعب الأحبار. وهذا بعيد من اللفظ ومن النظم وفيه تفكيك لاتصال نظم الكلام وانتقال بدون مناسبة، وتجاوز بعضهم ذلك فأخذ يدعي أنها نزلت في الحرورية ومنهم من جعلها فيما يحدث بين بني أمية وبني". (١)

٢٤٩-"من إضافة الموصوف إلى الصفة.

والمراد: ظنهم بالله أنهم لم يعد الرسول صلى الله عليه وسلم بالفتح ولا أمره بالخروج إلى العمرة ولا يقدر للرسول صلى الله عليه وسلم النصر لقلة أتباعه وعزة أعدائه، فهذا ظن سوء بالرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا المناسب لقراءته بالفتح.

وأما ﴿دائرة السوء﴾ في قراءة الجمهور فهي الدائرة التي تسوء أولئك الظانين بقرينة قوله ﴿عليهم﴾، ولا **التفات** إلى كونها محمودة عند المؤمنين إذ ليس المقام لبيان ذلك والإضافة مثل إضافة ﴿ظن السوء﴾ ، وأما في قراءة ابن كثير وأبي عمرو

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٩٤

فإضافة ﴿دائرة﴾ المضموم من إضافة الأسماء، أي الدائرة المختصة بالسوء والملازمة له لا من إضافة الموصوف. وليس في قراءتهما خصوصية زائدة على قراءة الجمهور ولكنها جمعت بين الاستعمالين ففتح السوء الأول متعين وضم الثاني جائز وليس براجح والاختلاف اختلاف في الرواية.

وجملة ﴿عليهم دائرة السوء﴾ دعاء أو وعيد، ولذلك جاءت بالاسمية لصلوحيتها لذلك بخلاف جملة ﴿وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم﴾ فإنها إخبار عما جنوه من سوء فعلهم فالتعبير بالماضي منه أظهر.

[٧] ﴿ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما﴾

هذا نظير ما تقدم آنفا إلا أن هذا أوثر بصفة عزيز دون عليم لأن المقصود من ذكر الجنود هنا الإنذار والوعيد بهزائم تحل بالمنافقين والمشركين فكما ذكر ﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾ فيما تقدم للإشارة إلى أن نصر النبي صلى الله عليه وسلم يكون بجنود المؤمنين وغيرهما ذكر ما هنا للوعيد بالهزيمة فمناسبة صفة عزيز، أي لا يغلبه غالب.

[٩،٨] ﴿إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا﴾

لما أريد الانتقال من الوعد بالفتح والنصر وما اقتضاه ذلك مما اتصل به ذكره، إلى تبيين ما جرى في حادثة الحديبية وإبلاغ كل ذي حظ من تلك القضية نصيبه المستحق ثناء أو غيره صدر ذلك بذكر مراد الله من إرسال رسوله صلى الله عليه وسلم ليكون ذلك كالمقدمة للقصة وذكرت حكمة الله تعالى في إرساله ما له مزيد اختصاص بالواقعة المتحدث عنها، فذكرت". (١)

٢٥٠-"أن نكثه عائد عليه بالضر كما دل عليه حرف ﴿على﴾ .

و ﴿إنما﴾ للقصر وهو لقصر النكث على مدلول ﴿على نفسه﴾ ليراد لا يضر بنكثه إلا نفسه ولا يضر الله شيئا فإن نكث العهد لا يخلو من قصد إضرار بالمنكوث، فجيء بقصر القلب لقلب قصد الناكث على نفسه دون على النبي صلى الله عليه وسلم. ويقال: أوفى بالعهد وهي لغة تهامة، ويقال: وفي بدون همز وهي لغة عامة العرب، ولم تجيء في القرآن إلا الأولى.

قالوا: ولم ينكث أحد ممن بايع.

والظاهر عندي: أن سبب المبايعة قد انعدم بالصلح الواقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة وأن هذه الآية نزلت فيما بين ساعة البيعة وبين انعقاد الهدنة وحصل أجر الإيفاء بالنية عدمه لو نزل ما عاهدوا الله عليه. وقرأ نافع وابن كثير وأن عامر ورويس عن يعقوب ﴿فسنؤتيه﴾ بنون العظمة على **الالتفات** من الغيبة إلى المتكلم. وقرأه الباقون بياء الغيبة عائدا ضميره على اسم الجلالة.

﴿[١١] ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا﴾

﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٠/٢٦

لما حذر من النكث ورغب في الوفاء أتبع ذلك بذكر التخلف عن الانضمام إلى جيش النبي صلى الله عليه وسلم حين الخروج إلى عمرة الحديبية وهو ما فعله الأعراب الذين كانوا نازلين حول المدينة وهم ست قبائل: غفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع، وأسلم، والديل، بعد أن بايعوه على الخروج معه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد المسير إلى العمرة استنفر من حول المدينة منهم ليخرجوا معه فيرهبه أهل مكة فلا يصدوه عن عمرته فتثاقل أكثرهم عن الخروج معه. وكان من أهل البيعة زيد بن خالد الجهني من جهينة وخرج مع النبي صلى الله عليه وسلم من أسلم مائة رجل منهم مرداس بن مالك الأسلمي، والد عباس الشاعر، وعبد الله بن أبي أوفى، وزاهر ابن الأسود، وأهبان بضم الهمزة بن أوس، وسلمة بن الأكوع الأسلمي، ومن غفار خفاف بضم الخاء المعجمة بن أيماء بفتح الهمزة بعدها تحتية ساكنة، ومن مزينة عائذ بن عمرو. وتخلف عن الخروج معه معظمهم وكانوا يومئذ لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ولكنهم لم يكونوا منافقين، وأعدوا للمعذرة بعد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم أنهم شغلتهم أموالهم". (١)

٢٥١-"دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم، وعن ابن عباس وعطاء بن أبي رباح، وعطاء الخراساني، والحسن هم فارس والروم.

وجملة ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾ إما حال من ضمير ﴿تدعون﴾ ، وإما بدل اشتمال من مضمون ﴿تدعون﴾.

و﴿أو﴾ للترديد بين الأمرين والتنويع في حالة تدعون، أي تدعون إلى قتالهم وإسلامهم، وذلك يستلزم الإمعان في مقاتلتهم والاستمرار فيها ما لم يسلموا، فبذلك كان ﴿أو يسلمون﴾ حالا معطوفا على جملة ﴿تقاتلونهم﴾ وهو حال من ضمير ﴿تدعون﴾.

وقوله ﴿وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما﴾ تعبير بالتوالي الذي مضى، وتحذير من ارتكاب مثله في مثل هذه الدعوة بأنه تول يوقع في الإثم لأنه تول عن دعوة إلى واجب وهو القتال للجهاد.

فالتشبيه في قوله ﴿كما توليتم من قبل﴾ تشبيه في مطلق التولي لقصد التشويه وليس تشبيها فيما يترتب على ذلك التولي.

[١٧] ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما﴾

جملة معترضة بين جملة ﴿وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما﴾ وبين جملة ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ الآية قصد منها نفي الوعيد عن أصحاب الضرارة تنصيصا على العذر للعناية بحكم التولي والتحذير منه.

وجملة ﴿من يطع الله﴾ الخ تذييل لجملة ﴿فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا﴾ [الفتح: ١٦] الآية لما تضمنته من إيتاء الأجر لكل مطيع من المخاطبين وغيرهم، والتعذيب لكل متول كذلك، مع ما في جملة ﴿ومن يطع الله﴾ من بيان أن الأجر هو إدخال الجنات، وهو يفيد بطريق المقابلة أن التعذيب الأليم بإدخالهم جهنم.

وقرأ نافع وابن عامر ﴿ندخله﴾ ﴿ونعذبه﴾ بنون العظمة على الالتفات من الغيبة إلى التكلم. وقرأ الجمهور ﴿يدخله﴾

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٥/٢٦

بالياء التحتية جريا على أسلوب الغيبة بعود الضمير إلى اسم الجلالة.

[١٩,١٨] ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما﴾". (١)

٢٥٢-"الإشارة إلى الحكمة التي اقتضت مشيئة الله رحمة أولئك.

وجواب ﴿لولا﴾ يجوز اعتباره محذوفا دل عليه جواب ﴿لو﴾ المعطوفة على ﴿لولا﴾ في قوله ﴿لو تزيلوا﴾، ويجوز اعتبار جواب ﴿لو﴾ مرتبطا على وجه تشبيه التنازع بين شرطي ﴿لولا﴾ و﴿لو﴾ لمرجع الشرطين إلى معنى واحد وهو الامتناع فإن ﴿لولا﴾ حرف امتناع لوجود أي تدل على امتناع جوابها لوجود شرطها. و﴿لو﴾ حرف امتناع لامتناع، أي تدل على امتناع جوابها لامتناع شرطها فحكم جوابيهما واحد، وهو الامتناع، وإنما يختلف شرطاهما فشرط ﴿لو﴾ منتف وشرط ﴿لولا﴾ مثبت.

وضمير ﴿تزيلوا﴾ عائد إلى ما دل عليه قوله ﴿ولولا رجال مؤمنون﴾ الخ من جمع مختلط فيه المؤمنون والمؤمنات مع المشركين كما دل عليه قوله ﴿لم تعلموهم﴾

والتزيل: مطاوع زيله إذا أبعده عن مكان، وزيلهم، أي أبعد بعضهم عن بعض، أي فرقهم قال تعالى ﴿فزيلنا بينهم﴾ [يونس: ٢٨] وهو هنا بمعنى التفرق والتميز من غير مراعاة مطاوعة لفعل فاعل لأن أفعال المطاوعة كثيرا ما تطلق لإرادة المبالغة لدلالة زيادة المبنى على زيادة المعنى وذلك أصل من أصول اللغة.

والمعنى: لو تفرق المؤمنون والمؤمنات عن أهل الشرك لسلطنا المسلمين على المشركين فعذبوا الذين كفروا عذاب السيف. فإسناد التعذيب إلى الله تعالى لأنه يأمر به ويقدر النصر للمسلمين كما قال تعالى ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ في سورة براءة. [١٤]

و"من" في قوله ﴿منهم﴾ للتبعيض، أي لعذبنا الذين كفروا من ذلك الجمع المتفرق المتميز مؤمنهم عن كافرهم، أي حين يصير الجمع مشركين خلصا وحدهم.

وجملة ﴿لو تزيلوا﴾ إلى آخرها بيان لجملة ﴿ولولا رجال مؤمنون﴾ إلى آخرها، أي لولا وجود رجال مؤمنين الخ مندمجين في جماعة المشركين غير مفترقين لو افترقوا لعذبنا الكافرين منهم.

وعدل عن ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله ﴿لعذبنا الذين كفروا﴾ على طريقة **الالتفات**.

[٢٦] ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٥/٢٦

(٢) التحرير والتنوير ١٦٢/٢٦

٢٥٣-"الله بكل شيء عليما﴾

ظرف متعلق بفعل ﴿صدوكم﴾ [الفتح: ٢٥] أي صدوكم صدا لا عذر لهم فيه ولا داعي إليه إلا حمية الجاهلية، وإلا فإن المؤمنين جاءوا مسالمين معظمين حرمة الكعبة سائقين الهدايا لنفع أهل الحرم فليس من الرشد أن يمنعوا عن العمرة ولكن حمية الجاهلية غطت على عقولهم فصمموا على منع المسلمين، ثم آل النزاع بين الطائفتين إلى المصالحة على أن يرجع المسلمون هذا العام وعلى أن المشركين يمكنوهم من العمرة في القابل وأن العامين سواء عندهم ولكنهم أرادوا التشفي لما في قلوبهم من الإحن على المسلمين.

فكان تعليق هذا الظرف بفعل ﴿وصدوكم﴾ مشعرا بتعليل الصد بكونه حمية الجاهلية ليفيد أن الحمية متمكنة منهم تظهر منها آثارها فمنها الصد عن المسجد الحرام.

والحمية: الأنفة، أي الاستنكاف من أمر لأنه يراه غضاضة عليه وأكثر إطلاق ذلك على استكبار لا موجب له فإن كان لموجب فهو إباء الضيم.

ولما كان صدهم الناس عن زيارة البيت بلا حق لأن البيت بيت الله لا بيتهم كان داعي المنع مجرد الحمية قال تعالى ﴿وما كانوا أولياءه﴾ [الأنفال: من الآية٣٤] و﴿جعل﴾ بمعنى وضع، كقول الحريري في المقامة الأخيرة اجعل الموت نصب عينيك ، وقول الشاعر:

وإثمد يجعل في العين ١

وضمير ﴿جعل﴾ يجوز أن يكون عائدا إلى اسم الجلالة في قوله ﴿ليدخل الله في رحمته﴾ من قوله ﴿لعذبنا الذين كفروا﴾ [الفتح: من الآية٢٥] والعدول عن ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة **التفات**.

و ﴿الذين كفروا﴾ مفعول أول ل ﴿جعل﴾ . و ﴿الحمية﴾ بدل اشتمال من ﴿الذين كفروا﴾ و ﴿في قلوبهم﴾ في محل المفعول الثاني ل ﴿جعل﴾ ، أي تخلقوا بالحمية فهي دافعة بهم إلى أفعالهم لا يراعون مصلحة ولا مفسدة فكذلك حين صدوكم عن المسجد الحرام.

---

١ أوله:

الناس كالأرض ومنها هم ... من خشن الطبع ومن لين

فحجر تدمي به أرجل ... .الخ

؟؟

؟؟

؟؟

؟؟". (١)

٢٥٤-"هذا﴾ [ق:٢٢] أي يوبخ عند مشاهدة العذاب بكلمة ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ في حال قوله قرينه ﴿هذا ما لدي عتيد﴾

وهاء الغائب في قوله ﴿قرينه﴾ عائدة إلى ﴿كل نفس﴾ [ق: ٢١] أو إلى الإنسان.

وقرين فعيل بمعنى مفعول، أي مقرون إلى غيره. وكأن فعل قرن مشتق من القرن بالتحريك وهو الحبل وكانوا يقرنون البعير بمثله لوضع الهودج، فاستعير القرين للملازم. وهذا ليس **بالتفات** إذ ليس هو تغيير ضمير ولكنه تعيين أسلوب الكلام وأعيد عليه ضمير الغائب المفرد باعتبار معنى ﴿نفس﴾ أي شخص، أو غلب التذكير على التأنيث.

واسم الإشارة في قوله ﴿هذا ما لدي﴾ الخ، يفسره قوله ﴿هذا ما لدي﴾

و ﴿ما﴾ في قوله ﴿ما لدي﴾ موصولة بدل من اسم الإشارة. و ﴿لدي﴾ صلة ، و ﴿عتيد﴾ خبر عن اسم الإشارة.

واختلف المفسرون في المراد بالقرين في هذه الآية على ثلاثة أقوال: فقال قتادة والحسن والضحاك وابن زيد ومجاهد في أحد قوليه هو الملك الموكل بالإنسان الذي يسوقه إلى المحشر أي هو السائق الشهيد. وهذا يقتضي أن يكون القرين في قوله الآتي ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ [ق: من الآية٢٧] بمعنى غير معنى القرين في قوله ﴿وقال قرينه هذا ما لدي عتيد﴾ .

وعن مجاهد أيضا: أن القرين شيطان الكافر الذي كان يزين له الكفر في الدنيا أي الذي ورد في قوله تعالى ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ [فصلت: ٢٥].

وعن ابن زيد أيضا: أن قرينه صاحبه من الإنس، أي الذي كان قرينه في الدنيا.

وعلى الاختلاف في المراد بالقرين يختلف تفسير قوله ﴿هذا ما لدي عتيد﴾ . فإن كان القرين الملك كانت الإشارة بقوله ﴿هذا﴾ إلى العذاب الموكل به ذلك الملك؛ وإن كان القرين شيطانا أو أنسانا كانت الإشارة محتملة لأن تعود إلى العذاب كما في الوجه الأول، أو أن تعود إلى معاد ضمير الغيبة في قوله ﴿قرينه﴾ وهو في نفس الكافر، أي هذا الذي معي، فيكون ﴿لدي﴾ بمعنى: معي، إذ لا يخلو أحد من صاحب يأنس بمحادثته والمراد به قرين الشرك المماثل.

وقد ذكر الله من كان قرينا للمؤمن من المشركين واختلاف حاليهما يوم الجزاء بقوله". (٢)

٢٥٥-"لكانت مؤاخذته بها ظلما شديدا. ولعل صاحب الكشاف يرمي إلى مذهبه من استواء السيئات، والتعبير بالعبيد دون التعبير بالناس ونحوه لزيادة تقرير معنى الظلم في نفوس الأمة، أي لا أظلم ولو كان المظلوم عبدي فإذا كان الله الذي خلق العباد قد جعل مؤاخذة من لم يسبق له تشريع ظلما فما بالك بمؤاخذة الناس بعضهم بعضا بالتبعات دون تقدم إليهم بالنهي من قبل، ولذلك يقال: لا عقوبة إلا على عمل فيه قانون سابق قبل فعله.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٣/٢٦

(٢) التحرير والتنوير ٢٥٨/٢٦

[٣٠] ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾

ظرف متعلق ب ﴿قال لا تختصموا لدي﴾ [ق: ٢٨]. والتقدير: قال لهم في ذلك القول يوم يقول قولا آخر لجهنم ﴿هل امتلأت﴾ . ومناسبته تعليقه به أن هذا القول لجهنم مقصود به ترويع المدفوعين إلى جهنم أن لا يطمعوا في أن كثرتهم يضيق بها سعة جهنم فيطمع بعضهم أن يكون ممن لا يوجد له مكان فيها، فحكاه الله في القرآن عبرة لمن يسمعه من المشركين وتعليما لأهل القرآن المؤمنين ولذلك استوت قراءة ﴿يقول﴾ بالياء، وهي لنافع وأبي بكر عن عاصم جريا على مقتضى ظاهر ما سبقه من قوله ﴿قال لا تختصموا لدي﴾ وقراءة الباقين بالنون على **الالتفات** بل هو **التفات** تابع لتبديل طريق الإخبار من الحديث عن غائب إلى خطاب حاضر.

والقول الأول حقيقي وهو كلام يصدر من جانب الله بمحض خلقه دون واسطة. فلذلك أسند إلى الله كما يقال القرآن كلام الله.

والاستفهام في ﴿هل امتلأت﴾ . مستعمل في تنبيه أهل العذاب إلى هذا السؤال على وجه التعريض.

وأما القول لجهنم فيجوز أن يكون حقيقة بأن يخلق الله في أصوات لهيبها أصواتا ذات حروف يلتئم منها كلام، ويجوز أن يكون مجازا عن دلالة حالها على أنها تسع ما يلقى فيها من أهل العذاب بأن يكشف باطنها للمعروضين عليها حتى يروا سعتها كقول الراجز:

امتلأ الحوض وقال: قطني

والاستفهام في ﴿هل من مزيد﴾ مستعمل للتشويق والتمني.". (١)

٢٥٦-"أنكروا اسمه الرحمان ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾ [الفرقان: ٦٠]

والمعنى على الذين خشوا: خشي صاحب هذا الاسم، فأنتم لا حظ لكم في الجنة لأنكم تنكرون أن الله رحمان بلة أن تخشوه.

ووصف قلب ب ﴿منيب﴾ على طريقة المجاز العقلي لأن القلب سبب الإنابة لأنه الباعث عليها.

وجملة ﴿ادخلوها بسلام﴾ من تمام مقول القول المحذوف. وهذا الإذن من كمال إكرام الضيف أنه إن دعي إلى الوليمة أو جيء به فإنه إذا بلغ المنزل قيل له: ادخل بسلام.

والباء في ﴿بسلام﴾ للملابسة. والسلام: السلامة من كل أذى من تعب أو نصب، وهو دعاء.

ويجوز أن يراد به أيضا تسليم الملائكة عليهم حين دخولهم الجنة مثل قوله ﴿سلام قولا من رب رحيم﴾ [يس:٥٨]

ومحل هذه الجملة من التي قبلها الاستئناف البياني لأن ما قبلها يثير ترقب المخاطبين للإذن بإنجاز ما وعدوا به.

وجملة ﴿ذلك يوم الخلود﴾ يجوز أن تكون مما يقال للمتقين على حد قوله ﴿فادخلوها خالدين﴾ [الزمر: من الآية٧٣]، والإشارة إلى اليوم الذي هم فيه. وكان اسم الإشارة للبعيد للتعظيم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٦٤

ويجوز أن تكون الإشارة إلى اليوم المذكور في قوله ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت﴾ [ق: ٣٠] فإنه بعد أن ذكر ما يلاقيه أهل جهنم وأهل الجنة أعقبه بقوله ﴿ذلك يوم الخلود﴾ ترهيبا وترغيبا، وعلى هذا الوجه الثاني تكون هذه الجملة معترضة اعتراضا كوجها إلى المتقين يوم القيامة أو إلى السامعين في الدنيا.

وعلى كلا الوجهين فإضافة ﴿يوم﴾ إلى ﴿الخلود﴾ باعتبار أن أول أيام الخلود هي أيام ذات مقادير غير معتادة، أو باعتبار استعمال ﴿يوم﴾ بمعنى مطلق الزمان.

وبين كلمة ﴿ادخلوها﴾ وكلمة ﴿الخلود﴾ الجناس المقلوب الناقص، ثم إن جملة ﴿لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾ يجوز أن تكون من بقية ما يقال للمتقين ابتداء من قوله ﴿هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ﴾ فيكون ضمير الغيبة **التفاتا** وأصله: لكم ما تشاؤون. ويجوز أن تكون مما خوطب به الفريقان في الدنيا وعلى الاحتمالين فهي مستأنفة استئنافا بيانيا. و ﴿لدينا مزيد﴾ أي زيادة على ما يشاؤون مما لم يخطر ببالهم، وذلك زيادة في". (١)

٢٥٧-"هذا تحد لهم بكذبهم فلذلك اكتفى بأن يأتي بعضهم بحجة دون تكليف جميعهم بذلك على نحو قوله: ﴿فأتوا بسورة مثله﴾ [البقرة:٢٣] أي فليأت من يتعهد منهم بالاستماع بحجة. وهذا بمنزلة التذييل للكلام على نحو ما تقدم في قوله: ﴿قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾ [الطور:٣١] وقوله: ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ [الطور:٣٤].

[٣٩] ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾.

لما جرى نفي أن تكون لهم مطالعة الغيب من الملأ الأعلى إبطالا لمقالاتهم في شؤون الربوبية أعقب ذلك بإبطال نسبتهم لله بنات استقصاء لإبطال أوهامهم في المغيبات من العالم العلوي، فهذه الجملة معترضة بين جملة ﴿أم لهم سلم﴾ [الطور:٣٨] وجملة ﴿أم تسألهم أجرا﴾ [الطور: ٤٠]، ويقدر الاستفهام إنكارا لأن يكون لله البنات.

ودليل الإنكار لنفس الأمر استحالة الولد على الله تعالى ولكن لما كانت عقول أكثر المخاطبين بهذا الرد غير مستعدة لإدراك دليل الاستحالة، وكان اعتقادهم البنات لله منكرا، تصدي لدليل الإبطال وسلك في إبطاله دليل إقناعي يتفطنون به إلى خطل رأيهم وهو قوله ﴿ولكم البنون﴾ .

فجملة ﴿ولكم البنون﴾ في موضع الحال من ضمير الغائب، أي كيف يكون لله البنات في حال أن لكم بنين وهم يعلمون أن صنف الذكور أشرف من صنف الإناث على الجملة كما أشار إليه قوله تعالى ﴿ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى﴾ [ا لنجم:٢١، ٢٢] فهذا مبالغة في تشنيع قولهم فليس المراد أنهم لو نسبوا لله البنين لكان قولهم مقبولة لأنهم لم يقولوا ذلك فلا طائل تحت إبطاله.

وتغير أسلوب الغيبة المتبع ابتداء من قوله ﴿أم يقولون شاعر﴾ إلى أسلوب الخطاب **التفات** مكافحة لهم بالرد بجملة الحال.

وتقديم ﴿لكم﴾ على ﴿البنون﴾ لإفادة الاختصاص، أي لكم البنون دونه فهم لهم بنون وبنات، وزعموا أن الله ليس له إلا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٦٧

البنات.

وأما تقديم المجرور على المبتدأ في قوله ﴿أم له البنات﴾ فللاهتمام باسم الجلالة وقد أنهي الكلام بالفاصلة لأنه غرض مستقل.

[٤٠]﴿أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون﴾ .". (١)

٢٥٨-"حقيقيا لأن لهاته الأصنام مسميات وهي الحجارة أو البيوت التي يقصدونها بالعبادة ويجعلون لها سدنة.

وجملة ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ تعليل لمعنى القصر بطريقة الاكتفاء لأن كونها لا حقائق لها في عالم الشهادة أمر محسوس إذ ليست إلا حجارة.

وأما كونها لا حقائق لها من عالم الغيب فلأن عالم الغيب لا طريق إلى إثبات ما يحتويه إلا بإعلام من عالم الغيب سبحانه، أو بدليل العقل كدلالة العالم على وجود الصانع وبعض صفاته والله لم يخبر أحدا من رسله بأن للأصنام أرواحا أو ملائكة، مثل ما أخبر عن حقائق الملائكة والجن والشياطين.

والسلطان: الحجة، وإنزالها من الله: الإخبار بها، وهذا كناية عن انتفاء أن تكون عليها حجة لأن وجود الحجة يستلزم ظهورها، فنفي إنزال الحجة بها من باب:

على لا حب لا يهتدي بمناره

أي لا منار له فيهتدي به.

وعبر عن الإخبار الموحى به بفعل أنزل لأنه إخبار يرد من العالم العلوي فشبه بالدلاء جسم من أعلى إلى أسفل.

وكذلك عبر عن إقامة دلائل الوجود بالإنزال لأن النظر الفكري من خلق الله وشبه بالإنزال كقوله ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ ، فاستعمال ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ من استعمال اللفظ في معنييه المجازيين. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى ﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم﴾ في سورة الحج،[١٧] وتقدم في سورة يوسف[٤٠] قوله: ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ .

وأكد نفي إنزال السلطان بحرف "من" الزائدة لتوكيد نفي الجنس.

﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ .

هذا تحويل عن خطاب المشركين الذي كان ابتداؤه من أول السورة وهو من ضروب **الالتفات**، وهو استئناف بياني فضمير ﴿يتبعون﴾ عائد إلى الذين كان الخطاب موجها إليهم.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٨٤/٢٧

(٢) التحرير والتنوير ١١٣/٢٧

٢٥٩-"القول في موقعها كالقول في موقع جملة ﴿وأن سعيه سوف يرى﴾ [النجم:٤٠] سواء، فيجوز أن تكون هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿وأن سعيه سوف يرى﴾ فتكون تتمة لما في صحف موسى وإبراهيم، ويكون الخطاب في قوله ﴿إلى ربك﴾ **التفاتا** من الغيبة إلى الخطاب والمخاطب غير معين فكأنه قيل: وأن إلى ربه المنتهى، وقد يكون نظيرها من كلام إبراهيم ما حكاه الله عنه بقوله ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ [الصافات:٩٩].

ويجوز أنها ليست مما اشتملت عليه صحف موسى وإبراهيم ويكون عطفها عطف مفرد على مفرد، فيكون المصدر المنسبك من ﴿أن﴾ ومعمولها مدخولا للباء، أي لم ينبأ بأن إلى ربك المنتهى، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. وعليه فلا نتطلب لها نظيرا من كلام إبراهيم عليه السلام.

ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى حكمه المحض الذي لا تلابسه أحكام هي في الظاهر من تصرفات المخلوقات مما هو شأن أمور الدنيا، فالكلام على حذف مضاف دل عليه السياق.

والتعبير عن الله بلفظ ﴿ربك﴾ تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم والتعريض بالتهديد لمكذبيه لأن شأن الرب الدفاع عن مربوبه.

وفي الآية معنى آخر وهو أن يكون المنتهى مجازا عن انتهاء السير، بمعنى الوقوف، لأن الوقوف انتهاء سير السائر، ويكون الوقوف تمثيلا لحال المطيع لأمر الله تشبيها لأمر الله الذي تحدد به الحوائط على نحو قول أبي الشيص:

وقف الهوي بي حيث أنت فليس لي ... متأخر عنه ولا متقدم

كما عبر عن هذا المعنى بالوقوف عند الحد في قوله تعالى ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ [البقرة: ٢٢٩]. والمعنى: التحذير من المخالفة لما أمر الله ونهى.

وفي الآية معنى ثالث وهو انتهاء دلالة الموجودات على وجود الله ووحدانيته لأن الناظر إلى الكائنات يعلم أن وجودها ممكن غير واجب فلا بد لها من موجود، فإذا خليت الوسوسة للناظر أن يفرض للكائنات موجدا مما يبدو له من نحو الشمس أو القمر أو النار لما يرى فيها من عظم الفاعلية، لم يلبث أن يظهر له أن ذلك المفروض لا يخلو من تغير يدل على حدوثه فلا بد له من محدث أوجد فإذا ذهب الخيال يسلسل مفروضات الإلهية". (١)

٢٦٠-"بالنذر﴾ [القمر:٢٣]، وبذلك أنتظم الكلام أتم انتظام.

وقرأ الجمهور ﴿سيعلمون﴾ بياء الغيبة. وقرأ ابن عامر وحمزة ﴿سيعلمون﴾ بتاء الخطاب وهي تحتمل أن يكون هذا حكاية كلام من الله لصالح على تقدير: قلنا له: قل لهم، ففيه حذف قول. ويحتمل أن يكون خطابا من الله لهم بتقدير: قلنا لهم ستعلمون. ويحتمل أن يكون خطابا للمشركين على جعل الجملة معترضة.

والمراد من قوله ﴿غدا﴾ الزمن المستقبل القريب كقولهم في المثل: إن مع اليوم غدا، أي إن مع الزمن الحاضر زمنا مستقبلا. يقال في تسلية النفس من ظلم ظالم ونحوه، وقال الطرماح:

---

(١) التحرير والتنوير ١٤١/٢٧

وقبل غد يا ويح قلبي من غد ... إذا راح أصحابي ولست برائح

يريد يوم موته. والمراد به في الآية يوم نزول عذابهم المستقرب.

وتبيينه في قوله :﴿إنا مرسلو الناقة فتنة لهم﴾ [القمر: ٢٧] الخ، أي حين يرون المعجزة وتلوح لهم بوارق العذاب يعلمون أنهم الكذابون الأشرون لا صالح. وعلى الوجه الثاني في ضمير ﴿سيعلمون﴾ يكون الغد مرادا به: يوم انتصار المسلمين في بدر ويوم فت مكة، أي سيعلمون من الكذاب المماثل للكذاب في قصة ثمود.

[٢٧،٢٩] ﴿إنا مرسلوا نا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر [٢٧] ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر [٢٨] فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾ .

هذه الجملة بيان لجملة ﴿سيعلمون غدا من الكذاب الأشر﴾ [القمر:٢٦] باعتبار ما تضمنه الجملة المبينة بفتح الياء من الوعيد وتقريب زمانه وإن فيه تصديق الرسول الذي كذبوه.

وضمير ﴿لهم﴾ جار على مقتضى الظاهر على قراءة الجمهور ﴿سيعلمون﴾ بياء الغائبة، وإما على قراءة ابن عامر وحمزة ﴿سيعلمون﴾ بتاء الخطاب فضمير ﴿لهم﴾ **التفات**.

وإرسال الناقة إشارة إلى قصة معجزة صالح أنه أخرج لهم ناقة من صخرة وكانت تلك المعجزة مقدمة الأسباب التي عجل لهم العذاب لأجلها، فذكر هذه القصة في جملة". (١)

٢٦١-"قبيل النحت نحو: بسمل، وهلل، لعدم وجود حرف من الكلمات الموجودة في الجملة كلها.

والخطاب في قوله: ﴿منكم﴾ يجوز أن يكون للمسلمين، فيكون ذكر هذا الوصف لتعميم بيانا لمدلول الصلة من قوله: ﴿الذين يظهرون﴾ لئلا يتوهم إرادة معين بالصلة.

و ﴿من﴾ بيانية كشأنها بعد الأسماء المبهمة فعلم أن هذا الحكم تشريع عام لكل مظاهر. وليس خصوصية لخولة ولا لأمثالها من النساء ذوات الخصاصة وكثرة الأولاد.

وأما ﴿من﴾ في قوله: ﴿من نسائهم﴾ فابتدائية متعلقة بـ ﴿يظهرون﴾ بتضمنه معنى البعد إذ هو كان طلاقا والطلاق يبعد أحد الزوجين عن الآخر، فاجتلب له حرف الابتداء. كما يقال: خرج من البلد.

وقد تبين أن المتعارف في صيغة الظهار أن تشتمل على ما يدل على الزوجة والظهر والأم دون **التفات** إلى ما يربط هذه الكلمات الثلاثة من دون الربط من أفعال وحروف نحو: أنت علي كظهر أمي، وأنت مني مثل ظهر أمي أو كوني لي كظهر أمي، أو نحو ذلك.

فأما إذا فقد بعض الألفاظ الثلاثة أو جميعها. نحو: وجهك علي كظهر أمي. أو كجنب أمي، أو كظهر جدتي، أو ابنتي، من كل كلام يفيد تشبيه الزوجة، أو إلحاقها بإحدى النساء من محارمه بقصد تحريم قربانها، فذلك كله من الظهار في أشهر أقوال مالك وأقوال أصحابه وجمهور الفقهاء، ولا ينتقل إلى صيغة الطلاق أو التحريم لأن الله أراد التوسعة على الناس وعدم

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٠/٢٧

المؤاخذة.

ولم يشر القرآن إلى اسم الظهر ولا إلى اسم الأم إلا مراعاة للصيغة المتعارفة بين الناس يومئذ بحيث لا ينتقل الحكم من الظهار إلى صيغة الطلاق إلا إذا تجرد عن تلك الكلمات الثلاث تجردا واضحا.

والصور عديدة وليست الإحاطة بها مفيدة، وذلك من مجال الفتوى وليس من مهيع التفسير.

وجملة ﴿ما هن أمهاتهم﴾ . خبر عن ﴿الذين﴾ ، أي ليس أزواجهم أمهات لهم كقول أحدهم: أنت علي كظهر أمي، أي لا تصير الوزج لذلك أما لقائل تلك المقالة.". (١)

٢٦٢-"يجوز أن تكون عطفا على مجموع الكلام الذي قبلها ابتداء من قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة﴾ [الصف: ١٠] على احتمال أن ما قبلها كلام صادر من جانب الله تعالى، عطف غرض على غرض فيكون الأمر من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يبشر المؤمنين. ولا يتأتى في هذه الجملة فرض عطف الإنشاء على الإخبار إذ ليس عطف جملة على جملة بل جملة على مجموع جمل على نحو ما اختاره الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات﴾ [البقرة: الآية في أوائل سورة البقرة [٢٥] وما بينه من كلام السيد الشريف في حاشية الكشاف.

وأما على احتمال أن يكون قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم﴾ إلى آخره مسوقا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول ﴿هل أدلكم على تجارة﴾ بتقدير قول محذوف، أي قل يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم، إلى آخره، فيكون الأمر في ﴿وبشر﴾ **التفاتا** من قبيل التجريد. والمعنى: وابشر المؤمنين.

وقد تقدم القول في عطف الإنشاء على الإخبار عند قوله تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ [البقرة: في أوائل سورة البقرة[٢٥].

والذي استقر عليه رأيي الآن أن الاختلاف بين الجملتين بالخبرية والإنشائية اختلاف لفظي لا يؤثر بين الجملتين اتصالا ولا انقطاعا لأن الاتصال والانقطاع أمران معنويان وتابعان للأغراض فالعبرة بالمناسبة المعنوية دون الصيغة اللفظية وفي هذا مقنع حيث فاتني التعرض لهذا الوجه عند تفسير آية سورة البقرة.١

-

١في قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ إلى قوله: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ .

في الكشاف فإن قلت: علام عطف هذا الأمر- ﴿أي وبشر الذين آمنوا﴾ - ولم يسبق أمر أو نهي يصح عطفه عليه؟

قلت: ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهي — أي مشاكل إنشائي- يعطف عليه إنما المتعمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين اهـ.

قال السيد في حاشية الكشاف: العطف قد يكون بين المفردات وما في حكمها من الجمل التي لها محل من الإعراب. وقد

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٢٨

يكون بين الجمل التي لا محل لها، وقد يكون بين قصتين بأن يعطف مجموع جمل متعددة مسوقة لمقصود، على مجموع جمل أخرى مسوقة لمقصود آخر، فيعتبر حينئذ التناسب بين القصتين دون آحاد الجمل الواقعة فيهما.". (١)

٢٦٣-"ويجوز أن يراد: واستغنى الله عن إعادة دعوتهم لأن فيما أظهر لهم من البينات على أيدي رسلهم ما هو كاف لحصول التصديق بدعوة رسلهم لولا المكابرة فلذلك عجل لهم العذاب.

وعلى الوجهين متعلق ﴿استغنى﴾ محذوف دل عليه قوله: ﴿فكفروا﴾ . وقوله: ﴿بالبينات﴾ والتقدير: واستغنى الله عن إيمانهم.

وجملة ﴿والله غني حميد﴾ تذييل، أي غني عن كل شيء فيما طلب منهم، حميد لمن امتثل وشكر.

[٧] ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ . هذا ضرب ثالث من ضروب كفر المشركين المخاطبين بقوله: ﴿ألم يأتكم﴾ [التغابن:٥] الخ، وهو كفرهم بإنكارهم البعث والجزاء.

والجملة ابتدائية. وهذا الكلام موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بقرينة قوله: ﴿قل بلى﴾ . وليس هذا من الإظهار في مقام الإضمار ولا من **الالتفات** بل هو ابتداء غرض مخاطب به غير من كان الخطاب جاريا معهم.

وتتضمن الجملة تصريحا بإثبات البعث وذلك الذي أوتي إليه فيما مضى يفيد بالحق في قوله: ﴿خلق السماوات والأرض بالحق﴾ [التغابن: ٣] وبقوله: ﴿يعلم ما في السماوات والأرض﴾ [التغابن: ٤] كما علمته آنفا.

والزعم: القول الموسوم بمخالفة الواقع خطأ فمنه الكذب الذي لم يتعمد قائله أن يخالف الواقع في ظن سامعه. ويطلق على الخبر المستغرب المشكوك في وقوع ما أخبر به، وعن شريح: لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا أراد بالكنية الكناية. فبين الزعم والكذب عموم وخصوص وجهي.

وفي الحديث "بئس مطية الرجل إلى الكذب زعموا" ١، أي قول الرجل زعموا كذا. وروي أهل الأدب أن الأعشى لما أنشد قيس بن معد يكرب: الكندي قوله في مدحه:

_

رواه أبو داود عن حذيفة بن اليمان بسند فيه انقطاع.". (٢)

٢٦٤-"وإنما جعل الإيمان بصدق القرآن داخلا في حيز فاء التفريع لأن ما قبل الفاء تضمن أنهم كذبوا بالقرآن من قوله: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا﴾ [التغابن:٦] كما قال المشركون من أهل مكة والإيمان بالقرآن يشمل الإيمان بالبعث فكان قوله تعالى: ﴿والنور الذي أنزلنا﴾ شاملا لما سبق الفاء من قوله: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا﴾ [التغابن: ٧] الخ.

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٦/٢٨

(٢) التحرير والتنوير ٢٤٢/٢٨

وفي قوله: ﴿الذي أنزلنا﴾ **التفات** من الغيبة إلى المتكلم لزيادة الترغيب في الإيمان بالقرآن تذكيرا بأنه منزل من الله لأن ضمير التكلم أشد دلالة على معاده من ضمير الغائب، ولتقوية داعي المأمور.

وجملة ﴿والله بما تعملون خبير﴾ تذييل لجملة ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ يقتضي وعدا إن آمنوا ووعيدا إن لم يؤمنوا.

وفي ذكر اسم الجلالة إظهار في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلة جارية مجرى المثل والكلم الجوامع، ولأن الاسم الظاهر أقوى دلالة من الضمير لاستغنائه عن تطلب المعاد.وفيه من تربية المهابة ما في قول الخليفة أمير المؤمنين يأمركم بكذا.

والخبير: العليم، وجيء هنا بصفة ﴿الخبير﴾ دون: البصير، لأن ما يعلمونه منه محسوسات ومنه غير محسوسات كالمعتقدات، ومنها الإيمان بالبعث، فعلق بالوصف الدال على تعلق العلم الإلهي بالموجودات كلها، بخلاف قوله فيما تقدم و ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير﴾ [التغابن:٢] فإن لكفر الكافرين وإيمان المؤمنين آثارا ظاهرة محسوسة فعلقت بالوصف الدال على تعلق العلم الإلهي بالمحسوسات.

[٩، ١٠] ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾.

﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ .

متعلق بفعل ﴿ثم لتنبؤن بما عملتم﴾ [التغابن:٧] الذي هو كناية عن ﴿تجازون﴾ على". (١)

٢٦٥-"جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم﴾.والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾.

معطوفة على جملة ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ [التغابن: ٨] وهو تفصيل لما أجمل في قوله: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ الذي هو تذييل.

و ﴿من﴾ شرطية والفعل بعدها مستقبل، أي من يؤمن من المشركين بعد هذه الموعظة نكفر عنه ما فرط من سيئاته.

والمراد بالسيئات: الكفر وما سبقه من الأعمال الفاسدة.

وتكفير السيئات: العفو عن المؤاخذة بها وهو مصدر كفر مبالغة في كفر. وغلب استعماله في العفو عما سلف من السيئات وأصله: استعارة الستر للإزالة مثل الغفران أيضا.

وانتصب ﴿صالحا﴾ على الصفة لمصدر وهو مفعول مطلق محذوف تقديره: عملا صالحا.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿نكفر﴾ و ﴿ندخله﴾ بنون العظمة على **الالتفات** من الغيبة إلى التكلم لأن مقام إقبال فناسبه ضمير المتكلم.

وقرأهما الباقون بياء الغيبة على مقتضى الظاهر لأن ضمير الجلالة يؤذن بعناية الله بهذا الفريق.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٥/٢٨

وجملة ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ تذييل.

وقوله: ﴿والذين كفروا وكذبوا﴾ ، أي كفروا وكذبوا من قبل واستمروا على كفرهم وتكذيبهم فلم يستجيبوا لهذه الدعوة ثبت لهم أنهم أصحاب النار. ولذلك جيء في جانب الخبر عنهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبات لعراقتهم في الكفر والتكذيب.

وجيء لهم باسم الإشارة لتميزهم تمييزا لا يلتبس معه غيرهم بهم مثل قوله: ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ [البقرة:٥] مع ما يفيده اسم الإشارة من أن استحقاقهم لملازمة النار ناشئ عن الكفر والتكذيب بآيات الله وهذا وعيد.

وجملة ﴿وبئس المصير﴾ اعتراض تذييلي لزيادة تهويل الوعيد.". (١)

٢٦٦-"تحقق الإيمان كما في حديث معاذ أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له: "إنك ستأتي قوما أهل كتاب فأول ما تدعوهم إليه فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة " الحديث.

وتفريع ﴿فإن توليتم﴾ تحذير من عصيان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

والتولي مستعار للعصيان وعدم قبول دعوة الرسول.

وحقيقة التولي الانصراف عن المكان المستقر فيه واستعير التولي للعصيان تشنيعا له مبالغة في التحذير منه، ومثله قوله تعالى: في خطاب المؤمنين ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم﴾ [محمد:٣٨]، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون﴾ [الأنفال:٢٠].

والتعريف في قوله: ﴿رسولنا﴾ بالإضافة لقصد تعظيم شأنه بأنه صلى الله عليه وسلم رسول رب العالمين. وهذا الضمير **التفات** من الغيبة إلى التكلم يفيد تشريف الرسول بعز الإضافة إلى المتكلم.

ومعنى الحصر قوله: ﴿فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ قصر الرسول صلى الله عليه وسلم على كون واجبه البلاغ، قصر موصوف على صفة فالرسول صلى الله عليه وسلم مقصور على لزوم البلاغ له لا يعدو ذلك إلى لزوم شيء آخر. وهو قصر قلب تنزيلا لهم في حالة العصيان المفروض منزلة من يعتقد أن الله لو شاء لألجأهم إلى العمل بما أمرهم به إلهابا لنفوسهم بالحث على الطاعة.

ووصف ﴿البلاغ﴾ بـ ﴿المبين﴾ ، أي الواضح عذر للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ادعى ما أمر به على الوجه الأكمل قطعا للمعذر عن عدم امتثال ما أمر به.

وباعتبار مفهوم القصر جملة فإنما على رسولنا البلاغ المبين كانت جوابا للشرط دون حاجة إلى تقدير جواب تكون هذه الجملة دليلا عليه أو علة له.

[١٣] ﴿الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ .

﴿الله لا إله إلا هو﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٩/٢٨

جملة معترضة بين جملة ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ [التغابن:١٢] وجملة ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ .". (١)

٢٦٧-"ومن العلماء من جوز الانتقال للضرورة وجعلوا ذلك محمل حديث فاطمة بنت قيس فإنها خيف عليها في مكان وحش وحدث بينها وبين أهل زوجها شر وبذاء قال سعيد بن المسيب تلك امرأة استطالت على أحمائها بلسانها أنها كانت لسنة فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنتقل وهذا الاختلاف قريب من أن يكون اختلافا لفظيا لاتفاق الجميع عدا عمر بن الخطاب على أن انتقالها كان لعذر قبله النبي صلى الله عليه وسلم فتكون تلك القضية مخصصة للآية ويجري القياس عليها إذا تحققت علة القياس.

أما قول عمر بن الخطاب لا ندع كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة أحفظت أم نسيت. فهو دحض لرواية فاطمة ابنة قيس بشك له فيه فلا تكون معارضة لآية حتى يصار إلى الجمع بالتخصيص والترخيص. وقال ابن العربي: قيل إن عمر لم يخصص القرآن بخبر الواحد.

وأما تحديد منه خروج المعتدة من بيتها فلا خلاف في أن مبيتها في غير بيتها حرام. وأما خروجها نهارا لقضاء شؤون نفسها فجوزه مالك والليث بن سعد وأحمد للمعتدة مطلقا.

وقال الشافعي: المطلقة الرجعية لا تخرج ليلا ولا نهارا والمبتوتة تخرج نهارا. وقال أبو حنيفة: تخرج المعتدة عدة الوفاة نهارا ولا تخرج غيرها، لا ليلا ولا نهارا.

وفي صحيح مسلم أن مروان بن الحكم أرسل إلى فاطمة بنت قيس يسألها عن حديثها فلما أبلغ إليه قال: لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة سنأخذ بالعصمة التي وجدنا عليها الناس. فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان: فبيني وبينكم القرآن قال الله عز وجل: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾ . هذا لمن كان له رجعة فأي أمر يحدث بعد الثلاث فكيف تقولون لا نفقة لها إذا لم تكن حاملا فعلام تحسبونها فظنت أن ملازمة بيتها لاستقصاء الصلة بينها وبين مفارقها وأنها ملزمة بذلك لأجل الإنفاق.

والذي تخلص لي أن حكمة السكنى للمطلقة أنها حفظ الأعراض فإن المطلقة يكثر **التفات** العيون لها وقد يتسرب سوء الظن إليها فيكثر الاختلاف عليها ولا تجد ذا عصمة يذب عنها فلذلك شرعت لها السكنى ولا تخرج إلا لحاجياتها فهذه حكمة من قبيل المظنة فإذا طرأ على الأحوال ما أوقعها في المشقة أو أوقع الناس في مشقة من جرائها أخرجت". (٢)

٢٦٨-"﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٢/٢٨

(٢) التحرير والتنوير ٢٧٢/٢٨

عطف على الأمر بالتقوى والتنويه بالمتقين والعناية بهم هذا الوعد على امتثالهم بالنعيم الخالد بصيغة الشرط للدلالة على أن ذلك نعيم مقيد حصوله لراغبيه بأن يؤمنوا ويعملوا الصالحات.

و﴿صالحا﴾ نعت لموصوف محذوف دل عليه ﴿يعمل﴾ أي عملا صالحا، وهو نكرة في سياق الشرط تفيد العموم كإفادته في سياق النفي. فالمعنى: ويعمل جميع الصالحات، أي المأمور بها أمرا جازما بقرينة استقراء أدلة الشريعة.

وتقدم نظير هذه الآية في مواضع كثيرة من القرآن.

وجملة ﴿قد أحسن الله له رزقا﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿ندخله﴾ ولذلك فذكر اسم الجلالة إظهار في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلة بنفسها.

والرزق: كل ما ينتفع به وتنكيره هنا للتعظيم، أي رزقا عظيما.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر ﴿ندخله﴾ بنون العظمة. وقرأه الباقون بالتحتية على أنه عائد إلى اسم الجلالة من قوله ﴿ومن يؤمن بالله﴾ وعلى قراءة نافع وابن عامر يكون فيه سكون **الالتفات**.

[١٢] ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾ .

اسم الجلالة خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو الله. وهذا من حذف المسند إليه لمتابعة الاستعمال كما سماه السكاكي، فإنه بعد أن جرى ذكر شؤون من عظيم شؤون الله تعالى ابتداء من قوله: ﴿واتقوا الله ربكم﴾ [الطلاق:١] إلى هنا، فقد تكرر اسم الجلالة وضميره والإسناد إليه زهاء ثلاثين مرة فاقتضى المقام عقب ذلك أن يزاد تعريف الناس بهذا العظيم، ولما صار البساط مليئا بذكر اسمه صح حذفه عند الإخبار عنه إيجازا وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ في سورة مريم[٦٥]، وكذلك عند قوله: ﴿صم بكم عمي﴾ [البقرة: ١٨]، وقوله: ﴿من مقام إبراهيم﴾ في سورة البقرة [١٢٥].

فالجملة على هذا الوجه مستأنفة استئنافا ابتدائيا.". (١)

٢٦٩-"أن آسيا مع أوروبا قارة، وإفريقيا قارة، وأستراليا قارة، وأميريكا الشمالية قارة، وأميريكا الجنوبية قارة، وجرولندة في الشمال، والقارة القطبية الجنوبية. ولا **التفات** إلى الأجزاء المتفرقة من الأرض في البحار، وتكون ﴿من﴾ تبعيضية لأن هذه القارات الاصطلاحية أجزاء من الأرض.

وقرأ الجميع ﴿مثلهن﴾ بالنصب. وقرأه عاصم في غير المتواتر بالرفع على أنه مبتدأ.

ومعنى ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾ أمر الله بالتكوين أو بالتكليف يبلغ إلى الذين يأمرهم الله به من الملائكة ليبلغوه. أو لمن يأمرهم الله من الرسل ليبلغوه عنه، أو من الناس ليعلموا بما فيه، كل ذلك يقع فيما بين السماء والأرض.

واللام في قوله ﴿لتعلموا﴾ لام كي وهي متعلقة بـ ﴿خلق﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٣/٢٨

والمعنى: أن مما أراده الله من خلقه السماوات والأرض، أن يعلم الناس قدرة الله على كل شيء وإحاطة علمه بكل شيء. لأن خلق تلك المخلوقات العظيمة وتسخيرها وتدبير نظامها في طول الدهر يدل أفكار المتأملين على أن مبدعها يقدر على أمثالها فيستدلوا بذلك على أنه قدير على كل شيء لأن دلالتها على إبداع ما هو دونها ظاهرة، ودلالتها على ما هو أعظم منها وإن كانت غير مشاهدة، فقياس الغائب على الشاهد يدل على أن خالق أمثالها قادر على ما هو أعظم. وأيضا فإن تدبير تلك المخلوقات بمثل ذلك الإتقان المشاهد في نظامها، دليل على سعة علم مبدعها وأحاطته بدقائق ما هو دونها، وأن من كان علمه بتلك المثابة لا يظن بعلمه إلا الإحاطة بجميع الأشياء.

فالعلم المراد من قوله: ﴿لتعلموا﴾ صادق على علمين: علم يقيني مستند إلى أدلة يقينية مركبة من الدلالة الحسية والعقلية، وعلم ظني مستند إلى الأدلة الظنية والقرائن. وكلا العلمين موصل إلى الاستدلال في الاستدلال الخطابي بفتح الخاء.". (١)

٢٧٠-"لأجل ما فيهما من همزة تعدية أو تضعيف. وإن كان لم يسمع فعل مجرد لهما وهو مما أميت في كلامهم استغناء بفعل علم. والأكثر أن يتعديا إلى ما زاد على المفعول بحرف جر نحو: نبأت به. وقد يحذف حرف الجر فيعديان إلى مفعولين، كقوله هنا ﴿من أنبأك هذا﴾ أي بهذا، وقول الفرزدق:

نبئت عبد الله بالجو أصبحت ... كراما مواليها لآما ما صميمها

حمله سيبويه على حذف الحرف.

وقد يضمنان معنى: اعلم، فيعديان إلى ثلاثة مفاعيل كقول النابغة:

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها ... يهدي إلي غرائب الأشعار

ولكثرة هذا الاستعمال ظن أنه معنى لهما وأغفل التضمين فنسب إلحاقهما ب﴿اعلم﴾ إلى سيبويه والفارسي والجرجاني وألحق الفراء خبر وأخبر، وألحق الكوفيون حدث.

قال زكريا الأنصاري: لم تسمع تعديتها إلى ثلاثة في كلام العرب إلا إذا كانت مبنية إلى المجهول.

وقرأ الجمهور ﴿عرف﴾ بالتشديد. وقرأه الكسائي ﴿عرف﴾ بتخفيف الراء، أي علم بعضه وذلك كناية عن المجازاة، أي جازى عن بعضه التي أفشته باللوم أو بالطلاق على رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ولم يصح وقد يكنى عن التوعد بفعل العلم. ونحوه كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ [النساء:٦٣]. وقول العرب للمسيء: لأعرفن لك هذا. وقولك: لقد عرفت ما صنعت.

[٤] ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ .

التفات من ذكر القصتين إلى موعظة من تعلقت بهما فهو استئناف خطاب وجهة الله إلى حفصة وعائشة لأن إنباء النبي صلى الله عليه وسلم بعلمه بما أفشته القصد منه الموعظة والتحذير والإرشاد إلى رأب ما انثلم من واجبها نحو زوجها. وإذ

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٦/٢٨

قد كان ذلك إثما لأنه إضاعة لحقوق الزوج وخاصة بإفشاء سره ذكرها بواجب التوبة منه.
وخطاب التثنية عائد إلى المنبئة والمنأبة فأما المنبئة فمعادها مذكور في الكلام بقوله: ﴿إلى بعض أزواجه﴾ [التحريم:٣]." .
(١)

٢٧١-"استعمال النهي كقولهم: لا أعرفنك تفعل كذا.
وجملة ﴿وغدوا على حرد قادرين﴾ في موضع الحال بتقدير "قد"، أي انطلقوا في حال كونهم غادين قادرين على حرد.
وذكر فعل ﴿غدوا﴾ في جملة الحال لقصد التعجيب من ذلك الغدو النحس كقول امرئ القيس:
وبات وباتت له ليلة ... كليلة ذي العائر الأرمد
بعد قوله:
تطاول ليلك بالأثمد ... وبات الخلي ولم ترقد
يخاطب نفسه على طريقة فيها **التفات** أو **التفاتان**.
والحرد: يطلق على المنع وعلى القصد القوي، أي السرعة وعلى الغضب.
وفي إيثار كلمة ﴿حرد﴾ في الآية نكتة من نكت الإعجاز المتعلق بشرف اللفظ ورشاقته من حيث المعنى، ومن جهة تعلق المجرور به بما يناسب كل معنى من معانيه، أي بأن يتعلق ﴿على حرد﴾ ب ﴿قادرين﴾ ، أو بقوله: ﴿غدوا﴾ ، فإذا علق ب ﴿قادرين﴾ ، فتقديم المتعلق يفيد تخصيصا، أي قادرين على المنع، أي منع الخير أو منع ثمر جنتهم غير قادرين على النفع.
والتعبير بقادرين على الحرد دون أن يقول: وغدوا حادرين تهكم لأن شأن فعل القدرة أن يذكر في الأفعال التي يشق على الناس إتيانها قال تعالى: ﴿لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾ [البقرة: ٢٦٤] وقال: ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ [القيامة:٤] فقوله: ﴿ على حرد قادرين﴾ على هذا الاحتمال من باب قولهم: فلان لا يملك إلا الحرمان أو لا يقدر إلا على الخيبة.
وإذا حمل الحرد على معنى السرعة والقصد كان ﴿على حرد﴾ متعلقا ب ﴿غدوا﴾ مبينا لنوع الغدو، أي غدوا غدو سرعة واعتناء، فتكون ﴿على﴾ بمعنى باء المصاحبة، والمعنى: غدوا بسرعة ونشاط، ويكون قادرين حالا من ضمير ﴿غدوا﴾ حالا مقدرة، أي مقدرين أنهم قادرون على تحقيق ما أرادوا.
وفي الكلام تعريض بأنهم خابوا دل عليه قوله بعده ﴿فلما رأوها قالوا إنا لضالون﴾". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٨/٢٨
(٢) التحرير والتنوير ٧٩/٢٩

٢٧٢-"استسخروا به على المسلمين في معرض جحود أن يكون بعث، وفرضهم أنه على تقدير وقوع البعث والجزاء لا يكون للمسلمين مزية وفضل عند وقوعه.

وعن مقاتل لما نزلت آية ﴿ إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ [القلم:٣٤] قالت قريش: إن كان ثمة جنة نعيم فلنا فيها مثل حظنا وحظهم في الدنيا، وعن ابن عباس أنهم قالوا: إنا نعطى يومئذ خيرا مما تعطون فنزل قوله: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ الآية.

والهمزة للاستفهام الإنكاري، فرع إنكار التساوي بين المسلمين والكافرين على ما سبق من اختلاف جزاء الفريقين فالإنكار متسلط على ما دار بين المشركين من القول عند نزول الآية السابقة أو عند نزول ما سبقها من آي القرآن التي قابلت بين جزاء المؤمنين وجزاء المشركين كما يقتضيه صريحا قوله: ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ إلى قوله: ﴿إن لكم لما تحكمون﴾ [القلم: من الآية٣٩].

وإنكار جعل الفريقين متشابهين كناية عن إعطاء المسلمين جزاء الخير في الأخوة وحرمان المشركين منه، لأن نفي التساوي وارد في معنى التضاد في الخير والشر في القرآن وكلام العرب قال تعالى: ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون﴾ [السجدة:١٨]، وقال: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال: ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ [ص:٢٨] وقال السموأل أو الحارثي:

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم ... فليس سواء عالم وجهول

وإذا انتفى أن يكون للمشركين حظ في جزاء الخير انتفى ما قالوه من أنهم أفضل حظا في الآخرة من المسلمين كما هو حالهم في الدنيا بطريق فحوى الخطاب.

وقوله: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ كلام موجه إلى المشركين وهم المقصود ب ﴿المجرمين﴾ ، عبر عنهم بطريق الإظهار دون ضمير الخطاب لما في وصف ﴿المجرمين﴾ من المقابلة ليكون في الوصفين إيماء إلى سبب نفي المماثلة بين الفريقين.

فلذلك لم يكن ضمير الخطاب في قوله: ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ **التفاتا** عن ضمائر الغيبة من قوله: ﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ [القلم:٩] وقوله: ﴿إنا بلوناهم﴾ [القلم: ١٧]." (١)

٢٧٣-"وإنما تغير الضمير إلى ضمير الخطاب تبعا لتغير توجيه الكلام، لأن شرط **الالتفات** أن يتغير الضمير في سياق واحد.

و ﴿ما لكم﴾ استفهام إنكاري لحالة حكمهم، ف ﴿ما لكم﴾ مبتدأ وخبر وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله﴾ في سورة [البقرة: ٢٤٦].

و ﴿كيف تحكمون﴾ استفهام إنكاري ثان في موضع الحال من ضمير ﴿لكم﴾ ، أي انتفى أن يكون لكم شيء في حال حكمكم، أي فإن ثبت لهم كان منكرا باعتبار حالة حكمهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٨٦

والمعنى: لا تحكمون أنكم مساوون للمسلمين في جزاء الآخرة أو مفضلون عليهم.
[٣٧-٣٨] ﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون، إن لكم فيه لما تخيرون﴾ .
إضراب انتقال من توبيخ إلى احتجاج على كذبهم.
والاستفهام المقدر مع ﴿أم﴾ إنكار لأن يكون لهم كتاب إنكارا مبنيا على الفرض وإن كانوا لم يدعوه.
وحاصل هذا الانتقال والانتقالات الثلاثة بعده وهي ﴿أم لكم أيمان علينا﴾ [القلم: ٣٩] الخ، ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ [القلم:٤٠] ﴿أم لهم شركاء﴾ [القلم: ٤١] الخ أن حكمكم هذا لا يخلو من أن يكون سنده كتابا سماويا نزل من لدنا، وإما أن يكون سنده عهدا منا بأنا نعطيكم ما تقترحون، وإما أن يكون لكم كفيل علينا، وإما أن يكون تعويلا على نصر شركائكم.
وتقديم ﴿لكم﴾ على المبتدأ وهو ﴿كتاب﴾ لأن المبتدأ نكرة ونكيره مقصود للنوعية فكان تقديم الخبر لازما.
وضمير ﴿فيه﴾ عائد إلى الحكم المفاد من قوله: ﴿كيف تحكمون﴾ [القلم: ٣٦]، أي كتاب في الحكم.
و"في" للتعليل أو الظرفية المجازية كما تقول ورد كتاب في الأمر بهذا أو في النهي عن كذا فيكون ﴿فيه﴾ ظرفا مستقرا صفة ل ﴿كتاب﴾ . ويجوز أن يكون الضمير عائد إلى ﴿كتاب﴾ ويتعلق المجرور بفعل ﴿تدرسون﴾ . جعلت الدراسة العميقة بمزيد التبصر في ما يتضمنه الكتاب بمنزلة الشيء المظروف في الكتاب كما تقول: لنا درس في كتاب سيبويه.". (١)

٢٧٤-"المعنى الثاني: أن يكون من الحسم وهو القطع، أي حاسمة مستأصلة. ومنه سمي السيف حساما لأنه يقطع، أي حسمتهم فلم تبق منهم أحدا. وعلى هذين المعنيين فهو صفة ل ﴿سبع ليال وثمانية أيام﴾ أو حال منها.
والمعنى الثالث: أن يكون حسوم مصدرا كالشكور والدخول فينتصب على المفعول لأجله وعامله ﴿سخرها﴾ ، أي سخرها عليهم لاستئصالهم وقطع دابرهم.
وكل هذه المعاني صالح لأن يذكر مع هذه الأيام، فإيثار هذا اللفظ من تمام بلاغة القرآن وإعجازه.
وقد سمي أصحاب الميقات من المسلمين أياما ثمانية منصفة بين أواخر فبراير وأوائل مارس معروفة في عادة نظام الجو بأن تشتد فيها الرياح غالبا، أيام الحسوم على وجه التشبيه، وزعموا أنها تقابل أمثالها من العام الذي أصيبت فيه عاد بالرياح، وهو من الأوهام، ومن ذا الذي رصد تلك الأيام.
ومن أهل اللغة من زعم أن أيام الحسوم هي الأيام التي يقال لها: أيام العجوز أو العجز، وهي آخر فصل الشتاء ويعدها العرب خمسا أو سبعة لها أسماء معروفة مجموعة في أبيات تذكر في كتب اللغة، وشتان بينها وبين حسوم عاد في العدة والمدة.
وفرع على ﴿سخرها عليهم﴾ أنهم صاروا صرعى كلهم يراهم الرائي لو كان حاضرا تلك الحالة.
والخطاب في قوله: ﴿فترى﴾ خطاب لغير معين، أي فيرى الرائي لو كان راء، وهذا أسلوب في حكاية الأمور العظيمة الغائبة تستحضر فيه تلك الحالة كأنها حاضرة ويتخيل في المقام سامع حاضر شاهد مهلكهم أو شاهدهم بعده، وكلا

---

(١) التحرير والتنوير ٨٧/٢٩

المشاهدتين منتف في هذه الآية، فيعتبر خطابا فرضيا فليس هو **بالتفات** ولا هو من خطاب غير المعين، وقريب منه قوله تعالى: ﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل﴾ [الشورى: ٤٥]، وقوله: ﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا﴾ [الانسان:٢٠]، وعلى دقة هذا الاستعمال أهمل المفسرون التعرض له عدا كلمة للبيضاوي.

والتعريف في ﴿القوم﴾ للعهد الذكري، والقوم: القبيلة، وهذا تصوير لهلاك جميع القبيلة.

وضمير ﴿فيها﴾ عائد إلى الليالي والأيام.". (١)

٢٧٥-"وإنما خص هذان بالذكر دون قولهم: إفتراه، أو هو مجنون، لأن الوصف بكريم كاف في نفي أن يكون مجنونا أو كاذبا إذ ليس المجنون ولا الكاذب بكريم، فأما الشاعر والكاهن فقد كانا معدودين عندهم من أهل الشرف.

والمعنى: ما هو قول شاعر ولا قول كاهن تلقاه من أحدهما ونسبه إلى الله تعالى.

و ﴿قليلا﴾ في قوله: ﴿قليلا ما تؤمنون﴾ ﴿قليلا ما تذكرون﴾ مراد به انتفاء ذلك من أصله على طريقة التمليح القريب من التهكم كقوله: ﴿فلا يؤمنون إلا قليلا﴾ [النساء: ٤٦]، وهو أسلوب عربي، قال ذو الرمة:

أنيحت ألقت بلدة فوق بلدة ... قليل بها الأصوات إلا بغامها

فإن استثناء بغام راحلته دال على أنه أراد من قليل عدم الأصوات.

والمعنى: لا تؤمنون ولا تذكرون، أي عندما تقولون هو شاعر وهو مجنون، ولا نظر إلى إيمان من آمن منهم من بعد. وقد تقدم في سورة البقرة [٨٨] قوله: ﴿فقليلا ما يؤمنون﴾ .

وانتصب ﴿فقليلا﴾ في الموضعين على الصفة لمصدر محذوف يدل عليه ﴿يؤمنون﴾ و ﴿تذكرون﴾ ، أي تؤمنون إيمانا قليلا، وتذكرون تذكرا قليلا.

و ﴿ما﴾ مزيدة للتأكيد كقول حاتم الطائي:

قليلا به ما يحمدنك وارث ... إذا نال مما كنت تجمع مغنما

وجملتا ﴿قليلا ما تؤمنون﴾ ﴿قليلا ما تذكرون﴾ معترضتان، أي انتفى أن يكون قول شاعر، وانتفى أن يكون قول كاهن، وهذا الانتفاء لا يحصل إيمانكم ولا تذكركم لأنكم أهل عناد.

وقرأ الجمهور ﴿ما تؤمنون﴾ ، و ﴿ما تذكرون﴾ كليهما بالمثناة الفوقية، وقرأهما ابن كثير وهشام عن ابن عامر واختلف الرواة عن ابن ذكوان عن ابن عامر ويعقوب بالياء التحتية على **الالتفات** من الخطاب إلى الغيبة، وحسن ذلك كونهما معترضتين.

وأوثر نفي الإيمان عنهم في جانب انتفاء أن يكون قول شاعر، ونفي التذكر في جانب انتفاء أن يكون قول كاهن، لأن نفي كون القرآن قول شاعر بديهي إذ ليس فيه ما يشبه الشعر من اتزان أجزاءه في المتحرك والساكن والتقفية المتماثلة في

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/١٠٩

جميع أواخر". (١)

٢٧٦-"إذا لسعته النحل لم يرج لسعها ... وحالفها في بيت نوب عواسل

أي لم يخف لسعها واستمر على اشتيار العسل. قال الفراء: إنما يوضع الرجاء موضع الخوف لأن مع الرجاء طرفا من الخوف من الناس ومن ثم استعمل الخوف بمعنى العلم كقوله تعالى: ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾ الآية[البقرة:٢٢٩]. والمعنى: لا تخافون عظمة الله وقدرته بالعقوبة.

وعلى تأويل الوقار قال قتادة: الوقار: العاقبة، أي ما لكم لا ترجون لله عاقبة، أي عاقبة الإيمان، أي أن الكلام كناية عن التوبيخ على تركهم الإيمان بالله، وجعل أبو مسلم الأصفهاني: الوقار بمعنى الثبات، قال: ومنه قوله تعالى: ﴿وقرن في بيوتكن﴾ [الأحزاب:٣٣] أي اثبتن، ومعناه: ما لكم لا تثبتون وحدانية الله.

وتتركب من هذين التأويلين معان أخرى من كون الوقار مسندا في التقرير إلى فاعله أو إلى مفعوله، وهي لا تخفى.

وأما قوله: ﴿لله﴾ فالأظهر أنه متعلق ب ﴿ترجون﴾ ، ويجوز في بعض التأويلات الماضية أن يكون متعلقا ب ﴿وقارا﴾ : إما تعلق فاعل المصدر بمصدره فتكون اللام في قوله: ﴿لله﴾ لشبه الملك، أي الوقار الذي هو تصرف الله في خلقه إن شاء أن يوقركم، أي يكرمكم بالنعيم، وأما تعلق مفعول المصدر، أي أن توقروا الله وتخشوه ولا تتهاونوا بشأنه تهاون من لا يخافه فتكون اللام لام التقوية.

وجملة ﴿وقد خلقكم أطوارا﴾ حال من ضمير ﴿لكم﴾ أو ضمير ﴿ترجون﴾ ، أي في حال تحققكم أنه خلقكم أطوارا.

فأما أنه خلقهم فموجب للاعتراف بعظمته لأنه مكونهم وصانعهم فحق عليهم الاعتراف بجلاله.

وأما كون خلقهم أطوارا فلأن الأطوار التي يعلمونها دالة على رفقه بهم في ذلك التطور، فذلك تعريض بكفرهم النعمة، ولأن الأطوار دالة على حكمة الخالق وعلمه وقدرته، فإن تطور الخلق من طور النطفة إلى طور الجنين إلى طور خروجه طفلا إلى طور الصبا إلى طور بلوغ الأشد إلى طور الشيخوخة وطور الموت على الحياة وطور البلى على الأجساد بعد الموت، كل ذلك والذات واحدة، فهو دليل على تمكن الخالق من كيفيات الخلق والتبديل في الأطوار، وهم يدركون ذلك بأدنى **التفات** الذهن، فكانوا محقوقين بأن". (٢)

٢٧٧-"والعدول عن الإضمار إلى الإظهار في قوله: ﴿عن ذكر ربه﴾ دون أن يقول: عن ذكرنا، أو عن ذكري، لاقتضاء الحال الإيماء إلى وجه بناء الخبر فإن المعرض عن ربه الذي خلقه وأنشأه ودبره حقيق بأن يسلك عذابا صعدا.

والصعد: الشاق الغالب، وكأنه جاء من مصدر صعد كفرح إذا علا وأرتفع، أي صعد على مفعوله وغلبه، كما يقال: علاه بمعنى تمكن منه، ﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ [الدخان:١٩].

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٢/٢٩

(٢) التحرير والتنوير ١٨٦/٢٩

وقرأ الجمهور ﴿نسلكه﴾ بنون العظمة ففيه التفات. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف ﴿يسلكه﴾ بياء الغائب فالضمير المستتر يعود إلى ربه.

[١٨] ﴿وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا﴾ .

اتفق القراء العشرة على فتح الهمزة في ﴿وأن المساجد لله﴾ فهي معطوفة على مرفوع ﴿أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن﴾ [الجن:١]، ومضمونها مما أوحي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأمر بأن يقوله. والمعنى: قل أوحي إلي أن المساجد لله فالمصدر المنسبك مع ﴿أن﴾ واسمها وخبرها نائب فاعل ﴿أوحي﴾ [الجن:١].

والتقدير: أوحي إلي اختصاص المساجد بالله، أي بعبادته لأن بناءها إنما كان ليعبد الله فيها، وهي معالم التوحيد.

وعلى هذا الوجه حمل سيبويه الآية وتبعه أبو علي في "الحجة".

وذهب الخليل أن الكلام على حذف لام جر قبل ﴿أن﴾ ، فالمجرور مقدم على متعلقه للاهتمام. والتقدير: ولأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا.

واللام في قوله ﴿لله﴾ للاستحقاق، أي الله مستحقها دون الأصنام والأوثان فمن وضع الأصنام في مساجد الله فقد اعتدى على الله.

والمقصود هنا هو المسجد الحرام لأن المشركين كانوا وضعوا فيه الأصنام وجعلوا الصنم "هبل" على سطح الكعبة، قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها﴾ [البقرة:١١٤] يعني بذلك المشركين من قريش.". (١)

٢٧٨-"فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا﴾ .

نقل الكلام إلى مخاطبة المشركين بعد أن كان الخطاب، موجها إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

والمناسبة لذلك التخلص إلى وعيدهم بعد أن أمره بالصبر على ما يقولون وهجرهم هجرا جميلا إذ قال له ﴿وذرني والمكذبين﴾ إلى قوله: ﴿وعذابا أليما﴾ [المزمل:١٣].

فالكلام استئناف ابتدائي، ولا يعد هذا الخطاب من الالتفات لأن الكلام نقل إلى غرض غير الغرض الذي كان قبله.

فالخطاب فيه جار على مقتضى الظاهر على كلا المذهبين: مذهب الجمهور ومذهب السكاكي.

والمقصود من هذا الخبر التعريض بالتهديد أن يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم ممن كذبوا الرسل فهو مثل مضروب للمشركين.

وهذا أول مثل ضربه الله للمشركين للتهديد بمصير أمثالهم على قول الجمهور في نزول هذه السورة.

واختير لهم ضرب المثل بفرعون مع موسى عليه السلام، لأن الجامع بين حال أهل مكة وحال أهل مصر في سبب الإعراض عن دعوة الرسول وهو مجموع ما هم عليه من عبادة غير الله، وما يملأ نفوسهم من التكبر والتعاظم على الرسول المبعوث إليهم بزعمهم أن مثلهم لا يطع مثله كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٣/٢٩

[المؤمنون:٤٧] وقد قال أهل مكة ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف:٣١] وقد حكى الله عنهم أنهم قالوا ﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا﴾ [الفرقان:٢١]. وقد تكرر في القرآن ضرب المثل بفرعون لأبي جهل وهو زعيم المناوين للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤلبين عليه وأشد صناديد قريش كفرا.

وأكد الخبر ب"أن" لأن المخاطبين منكرون أن الله أرسل إليهم رسولا.

ونكر ﴿رسولا﴾ لأنهم يعلمون المعني به في هذا الكلام، ولأن مناط التهديد والتنظير ليس شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بل هو صفة الإرسال.

وأدمج في التنظير والتهديد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بكونه شاهدا عليهم.". (١)

٢٧٩-"ترقب السامع لمعرفة ما مهد له بتلك الجملة، فبعد أن شكرهم على عملهم خفف عنهم منه.

والضمير المنصوب في ﴿تحصوه﴾ عائد إلى القيام المستفاد من ﴿أنك تقوم﴾ .

والإحصاء حقيقته: معرفة عدد شيء معدود مشتق من اسم الحصى جمع حصاة لأنهم كانوا إذا عدوا شيئا كثيرا جعلوا لكل واحد حصاة وهو هنا مستعار للإطاقة. شبهت الأفعال الكثيرة من ركوع وسجود وقراءة في قيام الليل، بالأشياء المعدودة، وبهذا فسر الحسن وسفيان، ومنه قوله في الحديث "استقيموا ولن تحصوا" أي ولن تطيقوا تمام الاستقامة، أي فخذوا منها بقدر الطاقة.

و ﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف وخبره الجملة، وقد وقع الفصل بين ﴿أن﴾ وخبرها بحرف النفي لكون الخبر فعلا غير دعاء ولا جامد حسب المتبع في الاستعمال الفصيح.

و ﴿أن﴾ وجملتها سادة مسد مفعولي ﴿علم﴾ إذ تقديره علم عدم إحصائكموه واقعا.

وفرع على ذلك ﴿فتاب عليكم﴾ وفعل ﴿تاب﴾ مستعار لعدم المؤاخذة قبل حصول التقصير لأن التقصير متوقع فشابه الحاصل فعبر عن عدم التكليف بما يتوقع التقصير فيه، بفعل ﴿تاب﴾ المفيد رفع المؤاخذة بالذنب بعد حصوله.

والوجه أن يكون الخطاب في قوله: ﴿تحصوه﴾ وما بعده موجها إلى المسلمين الذين كانوا يقومون الليل: إما على طريقة **الالتفات** من الغيبة إلى الخطاب بعد قوله: ﴿وطائفة من الذين معك﴾ ، وإما على طريقة العام المراد به الخصوص بقرينة أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يضن تعذر الإحصاء عليه، وبقرينة قوله: ﴿أن سيكون منكم مرضى﴾ الخ.

ومعنى ﴿فاقرءوا ما تيسر من القرآن﴾ فصلوا ما تيسر لكم، ولما كانت الصلاة لا تخلوا عن قراءة القرآن اتبع ذلك بقوله هنا ﴿فاقرءوا ما تيسر من القرآن﴾ ، أي صلوا كقوله تعالى: ﴿وقرآن الفجر﴾ [الإسراء:٧٨] أي صلاة الفجر وفي الكناية عن الصلاة بالقرآن جمع بين الترغيب في القيام والترغيب في تلاوة القرآن فيه بطريقة الإيجاز.

والمراد القرآن الذي كان نزل قبل هذه الآية المدنية وهو شيء كثير من القرآن المكي كله وشيء من المدني، وليس مثل قوله

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٤/٢٩

في صدر السورة ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾ [المزمل:٤] كما علمت هنالك.". (١)

٢٨٠-"ملك فلعل هذه الدركات معين كل درك منها لأهل شعبة من شعب الكفر، ومنها الدرك الأسفل الذي ذكره الله تعالى: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ في سورة النساء [١٤٥] فإن الكفر أصناف منها إنكار وجود الله، ومنها الوثنية، ومنها الشرك بتعدد الآلهة، ومنها عبادة الكواكب، ومنها عبادة الشياطين والجن، ومنها عبادة الحيوان، ومنها إنكار رسالة الرسل، ومنها المجوسية المانوية والمزدكية والزندقة، وعبادة البشر مثل الملوك، والإباحية ولو مع إثبات الإله الواحد.

وفي ذكر هذا العدد تحد لأهل الكتابين يبعثهم على تصديق القرآن إذ كان ذلك مما استأثر به علماؤهم كما سيأتي قوله: ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾ [المدثر:٣١].

وقرأ الجمهور ﴿تسعة عشر﴾ بفتح العين من ﴿عشر﴾ . وقرأ أبو جعفر ﴿تسعة عشر﴾ بسكون العين من ﴿عشر﴾ تخفيفا لتوالي الحركات فيما هو كالاسم الواحد. ولا **التفات** إلى إنكار أبي حاتم هذه القراءة فإنها متواترة.

[٣١] ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ .

﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾ .

روى الطبري عن ابن عباس وجابر بن زيد إن أبا جهل لما سمع قوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ [المدثر:٣٠] قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم إن ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم١ أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فقال الله تعالى: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ ، أي ما جعلناهم رجالا فيأخذ كل رجل رجلا، فمن ذا يغلب الملائكة اه.

وفي "تفسير القرطبي" عن السدي: أن أبا الأشد بن كلدة الجمحي قال مستهزئا: لا

_

١ الدهم بفتح الدال وسكون الهاء: الجماعة الكثيرة، ويقال: الدهماء.". (٢)

٢٨١-"إليه، وبعكسه التأخر، فحذف متعلق ﴿يتقدم﴾ و ﴿يتأخر﴾ لظهوره من السياق.

ويجوز أن يقدر: لمن شاء أن يتقدم إليها، أي إلى سقر بالإقدام على الأعمال التي تقدمه إليها، أو يتأخر عنها بتجنب ما

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٤/٢٩

(٢) التحرير والتنوير ٢٩١/٢٩

من شأنه أن يقربه منها.
وتعليق ﴿نذيرا﴾ بفعل المشيئة إنذار لمن لا يتذكر بأن عدم تذكره ناشئ عن عدم مشيئته فتبعته عليه لتفريطه على نحو قول المثل يداك أوكتا وفوك نفخ، وقد تقدم في سورة المزمل [١٩] قوله: ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ . وفي ضمير ﴿منكم﴾ **التفات** من الغيبة إلى الخطاب لأن مقتضى الظاهر أن يقال: لمن شاء منهم، أي من البشر.
[٣٨-٤٨] ﴿كل نفس بما كسبت رهينة، إلا أصحاب اليمين، في جنات يتساءلون، عن المجرمين، ما سلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين، حتى أتانا اليقين، فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ .
استئناف بياني للسامع عقبى الاختيار الذي في قوله: ﴿لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾ [المدثر:٣٧] أي كل إنسان رهن بما كسب من التقدم أو التأخر أو غير ذلك فهو على نفسه بصيرة ليكسب ما يفضي به إلى النعيم أو إلى الجحيم.
ورهينة: خبر عن ﴿كل نفس﴾ وهو بمعنى مرهونة.
والرهن: الوثاق والحبس ومنه الرهن في الدين، وقد يطلق على الملازمة والمقارنة، ومنه: فرسا رهان، وكلا المعنيين يصح الحمل عليه هنا على اختلاف الحال، وإنما يكون الرهن لتحقيق المطالبة بحق يخشى أن يتفلت من المحقوق به، فالرهن مشعر بالأخذ بالشدة ومنه رهائن الحرب الذين يأخذهم الغالب من القوم المغلوبين ضمانا لئلا يخيس القوم بشروط الصلح وحتى يعطوا ديات القتلى فيكون الانتقام من الرهائن.
وبهذا يكون قوله: ﴿كل نفس﴾ مرادا به خصوص أنفس المنذرين من البشر فهو من العام المراد به الخصوص بالقرينة، أي قرينة ما تعطيه مادة رهينة من معنى الحبس والأسر.
والباء للمصاحبة لا للسببية.". (١)

٢٨٢-"وظاهر هذا أنه كلام منصف وليس بخصوص تهديد أهل الشر.
و ﴿رهينة﴾ : مصدر بزون فعيلة كالشتيمة فهو من المصادر المقترنة بهاء كهاء التأنيث مثل الفعولة والفعالة، وليس هو من باب فعيل الذي هو وصف بمعنى المفعول مثل قتيلة، إذ لو قصد الوصف لقيل رهين لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث إذا جرى على موصوفه كما هنا، والإخبار بالمصدر للمبالغة على حد قول مسور بن زيادة الحارثي:
أبعد الذي بالنعف نعف كويكب ... رهينة رمس ذي تراب وجندل
ألا تراه أثبت الهاء في صفة المذكر وإلا لما كان موجب للتأنيث.
والاستثناء في قوله: ﴿إلا أصحاب اليمين﴾ استثناء منقطع.
و ﴿أصحاب اليمين﴾ : هم أهل الخير جعلت علاماتهم في الحشر بجهات اليمين في مناولة الصحف وفي موقف الحساب وغير ذلك. فاليمين هو جهة أهل الكرامة في الاعتبار كجهة يمين العرش أو يمين مكان القدس يوم الحشر لا يحيط بها

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٠١

وصفنا وجعلت علامة أهل الشر الشمال في تناول صحف أعمالهم وفي مواقفهم وغير ذلك.

وقوله: ﴿في جنات﴾ يجوز أن يكون متعلقا بقوله: ﴿يتساءلون﴾ قدم للاهتمام، و ﴿يتساءلون﴾ حال من ﴿أصحاب اليمين﴾ وهو مناط التفصيل الذي جيء لأجله بالاستثناء المنقطع.

ويجوز أن يكون في جنات خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم في جنات. والجملة استئناف بياني لمضمون جملة الاستثناء ويكون يتساءلون حالا من الضمير المحذوف.

ومعنى ﴿يتساءلون﴾ يجوز أن يكون على ظاهر صيغة التفاعل للدلالة على صدور الفعل من جانبين، أي يسأل أصحاب اليمين بعضهم بعضا عن شأن المجرمين، وتكون جملة ﴿ما سلككم في سقر﴾ بيانا لجملة ﴿يتساءلون﴾ . وضمير الخطاب في قوله: ﴿سلككم﴾ يؤذن بمحذوف. والتقدير: فيسألون المجرمين ما سلككم في سقر، وليس **التفاتا**، أو يقول بعض المسؤولين لأصحابهم جوابا لسائليهم قلنا لهم: ما سلككم في سقر.

ويجوز أن تكون صيغة التفاعل مستعملة في معنى تكرير الفعل أي يكثر سؤال كل أحد منهم سؤالا متكررا أو هو من تعداد السؤال لأجل تعداد السائلين.". (١)

٢٨٣-"وقرأ نافع ويعقوب ﴿وما يذكرون﴾ بمثناة فوقية على **الالتفات**، وقرأه الجمهور بتحتية على الغيبة، فالمعنى: أنهم يغلب عليهم الاستمرار من عدم الذكرى بهذه التذكرة إلا أن يشاء الله التوفيق لهم ويلطف بهم فيخلق انقلابا في سجية من يشاء توفيقه واللطف به. وقد شاء الله ذلك فيمن آمنوا قبل نزول هذه الآية ومن آمنوا بعد نزولها.

﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ .

جملة واقعة في موقع التعليل لمضمون جملة ﴿فمن شاء ذكره﴾ تقوية للتعريض بالترغيب في التذكر والتذكر يفضي إلى التقوى.

فالمعنى: فعليكم بالتذكر واتقوا الله تعالى لأن الله هو أهل التقوى.

وتعريف جزأي الجملة في قوله: ﴿هو أهل التقوى﴾ يفيد قصر مستحق انتقاء العباد إياه على الله تعالى وأن غيره لا يستحق أن يتقى. ويتجنب غضبه كما قال ﴿والله أحق أن تخشاه﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فأما أن يكون القصر قصرا إضافيا للرد على المشركين الذين يخشون غضب الأصنام ويطلبون رضاها أو يكون قصرا ادعائيا لتخصيصه تعالى بالتقوى الكاملة الحق وإلا فإن بعض التقوى مأمور بها كتقوى حقوق ذوي الأرحام في قوله تعالى: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ [النساء: ١] وقد يقال: إن ما ورد الأمر به من التقوى في الشريعة راجع إلى تقوى الله، وهذا من متممات القصر الادعائي.

وأهل الشيء: مستحقه.

وأصله: أنه ملازم الشيء وخاصته وقرابته وزوجه ومنه ﴿فأسر بأهلك﴾ [هود: ٨١].

ومعنى أهل المغفرة: أن المغفرة من خصائصه وأنه حقيق بأن يغفر لفرط رحمته وسعة كرمه وإحسانه ومنه بيت الكشاف في

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٢/٢٩

سورة المؤمن:

ألا يا ارحموني يا إله محمد ... فإن لم أكن أهلا فأنت له أهل

وهذا تعريض بالتحريض للمشركين أن يقلعوا عن كفرهم بأن الله يغفر لهم ما أسلفوه قال تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ [لأنفال: ٣٨]، وبالتحريض للعصاة أن يقلعوا عن الذنوب قال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾ [الزمر:٥٣].". (١)

٢٨٤-"الشرعيين لم يكن مذموما. قال تعالى فيما حكاه عن الذين أوتوا العلم من قوم قارون ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ [القصص: ٧٧].

ويجوز أن يكون إبطالا لما تضمنه قوله: ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ فهو استئناف ابتدائي. والمعنى: أن معاذيرهم باطلة ولكنهم يحبون العاجلة ويذرون الآخرة، أي ثرا شهواتهم العاجلة ولم يحسبوا للآخرة حسابا.

وقرأ الجمهور ﴿تحبون﴾ و ﴿تذرون﴾ بتاء فوقية على **الالتفات** من الغيبة إلى الخطاب في موعظة المشركين مواجهة بالتفريع لأنه ذلك أبلغ فيه. وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمر ويعقوب بياء تحتية على نسق ضمائر الغيبة السابقة، والضمير عائد إلى ﴿الإنسان﴾ في قوله: ﴿بل الأنسان على نفسه بصيرة﴾ [القيامة:١٤] جاء ضمير جمع لأن الإنسان مراد به الناس المشركون، وفي قوله: ﴿بل تحبون﴾ ما يرشد إلى تحقيق معنى الكسب الذي وفق إلى بيانه الشيخ أبو الحسن الأشعري وهو الميل والمحبة للفعل أو الترك.

[٢٢-٢٥] ﴿وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة، ووجوه يومئذ باسرة، تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ .

المراد ب ﴿يومئذ﴾ يوم القيامة الذي تكرر ذكره بمثل هذا ابتداء من قوله: ﴿يقول الأنسان يومئذ أين المفر﴾ [القيامة:١٠] وأعيد مرتين.

والجملة المقدرة المضاف إليها "إذ"، والمعوض عنها التنوين تقديرها: يوم إذ برق البصر.

وقد حصل من هذا تخلص إلى إجمال حال الناس يوم القيامة بين أهل سعادة وأهل شقاوة.

فالوجوه الناضرة وجوه أهل السعادة والوجوه الباسرة وجوه أهل الشقاء، وذلك بين من كلتا الجملتين.

وقد علم الناي المعني بالفريقين مما سبق نزوله من القرآن كقوله في سورة عبس [٤٠-٤٢] ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة، ترهقها قترة، أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ فعلم أن أصل أسباب السعادة الإيمان بالله وحده وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم والإيمان بما جاء به". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٠/٢٩

(٢) التحرير والتنوير ٣٢٦/٢٩

٢٨٥-"وأصل الرقية: ما ورثه العرب من طلب البركة بأهل الصلاح والدعاء إلى الله، فأصلها وارد من الأديان السماوية، ثم طرأ عليها سوء الوضع عند أهل الضلالة فألحقوها بالسحر أو بالطب، ولذلك يخلطونها من أقوال ربما كانت غير مفهومة، ومن أشياء كأحجار أو أجزاء من عظم الحيوان أو شعره، فاختلط أمرها بالأمم الجاهلة، وقد جاء في الإسلام الاستشفاء بالقرآن والدعوات المأثورة المتقلبة من أربابها وذلك من قبيل الدعاء.

والضمير المستتر في ﴿ظن﴾ عائد إلى الإنسان في قوله: ﴿بل يريد الأنسان﴾ [القيامة: ٥] أي الإنسان الفاجر.

والظن: العلم المقارب لليقين، وضمير ﴿أنه﴾ ضمير شأن، أي وأيقن أنه، أي الأمر العظيم الفراق، أي فراق الحياة.

وقوله: ﴿والتفت الساق بالساق﴾ إن حمل على ظاهره، فالمعنى التفاف ساقي المحتضر بعد موته إذ تلف الأكفان على ساقيه ويقرن بينهما في ثوب الكفن فكل ساق منها ملتفة صحبة الساق الأخرى، فالتعريف عوض عن المضاف إليه، وهذا نهاية وصف الحالة التي تهيأ بها لمصيره إلى القبر الذي هو أول مراحل الآخرة.

ويجوز أن يكون ذلك تمثيلا فإن العرب يستعملون الساق مثلا في الشدة وجد الأمر تمثيلا بساق الساعي أو الناهض لعمل عظيم، يقولون: قامت الحرب على ساق.

وأنشد ابن عباس في قول الراجز:

صبرا عناق إنه لشرباق ... قد سن لي قومك ضرب الأعناق

وقامت الحرب بنا على ساق

وتقدم في قوله تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ في سورة القلم [٤٢].

فمعنى ﴿والتفت الساق بالساق﴾ طرأت مصيبة على مصيبة.

والخطاب في قوله: ﴿إلى ربك﴾ التفات عن طريق خطاب الجماعة في قوله: ﴿كلا بل تحبون العاجلة﴾ [القيامة:٢٠] لأنه لما كان خطابا لغير معين حسن التفنن فيه.

والتعريف في ﴿المساق﴾ تعريف الجنس الذي يعم الناس كلهم بما فيهم الإنسان الكافر المردود عليه. ولك أن تعبر عن اللام بأنها عوض عن المضاف إليه، أي مساق". (١)

٢٨٦-"القتال [٢٠-٢١] على أحد تأويلين يجعل ﴿طاعة وقول معروف﴾ مستأنفا وليس فاعلا لاسم التفضيل.

وذهب أبو علي الفارسي إلى أن ﴿أولى﴾ علم لمعنى الويل وأن وزنه أفعل من الويل وهو الهلاك، فأصل تصريفه أويل لك، أي أشد هلاكا لك فوقع فيه القلب "لطلب التخفيف" بأن أخرت الياء إلى آخر الكلمة وصار أولى بوزن أفلح، فلما تحرك حرف العلة وانفتح ما قبله قلب ألفا فقالوا: أولى في صورة وزن فعلى.

والكاف خطاب للإنسان المصرح به غير مرة في الآيات السابقة بطريق الغيبة إظهارا وإضمارا، وعدل هنا عن طريق الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات لمواجهة الإنسان بالدعاء لأن المواجهة أوقع في التوبيخ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال:

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٣/٢٩

أولى له.

وقوله: ﴿فأولى﴾ تأكيد ل ﴿أولى لك﴾ جيء فيه بفاء التعقيب للدلالة على أنه يدعى عليه بأن يعقبه المكروه ويعقب بدعاء آخر.

قال قتادة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المسجد فاستقبله أبو جهل على باب بني مخزوم فاخذ رسول الله فلبب أبا جهل بثيابه وقال له: ﴿أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى﴾ قال أبو جهل يتهددني محمد أي يستعمل كلمة الدعاء في إرادة التهديد فوالله إني لأعز أهل الوادي. وأنزل الله تعالى ﴿أولى لك فأولى﴾ كما قال لأبي جهل.

وقوله: ﴿ثم أولى لك فأولى﴾ تأكيد للدعاء عليه ولتأكيده السابق.

وجيء بحرف ﴿ثم﴾ لعطف الجملة دلالة على أن هذا التأكيد ارتقاء في الوعيد، وتهديد بأشد مما أفاده التهديد وتأكيده كقوله تعالى: ﴿كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون﴾ [التكاثر: ٣-٤].

وأحسب أن المراد: كل إنسان كافر كما يقتضيه أول الكلام من قوله: ﴿أيحسب الأنسان ألن نجمع عظامه﴾ إلى قوله: ﴿بل الأنسان على نفسه بصيرة﴾ [القيامة: ٣-١٤]، وما أبو جهل إلا من أولهم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم توعده باللفظ الذي أنزله الله تهديدا لأمثاله.

وكلمات المتقدمين في كون الشيء سبب نزول شيء من القرآن كلمات فيها تسامح.

[٣٦] ﴿أيحسب الأنسان أن يترك سدى﴾ .

استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى الاستدلال على إمكان البعث وهو ما ابتدئ به فارتبط بقوله: ﴿أيحسب الأنسان ألن نجمع عظامه﴾ [القيامة:٣] فكأنه قيل: أيحسب أن". (١)

٢٨٧-"الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وخلف بياء الغائب عائدا إلى ﴿فمن شاء﴾ [الانسان: ٢٩].

[٣١] ﴿يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما﴾ .

يجوز أن تكون الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن جملة ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء﴾ [الانسان: ٣٠] إذ يتساءل السامع على أثر مشيئة الله في حال من اتخذ إلى ربه سبيلا ومن لم يتخذ إليه سبيلا، فيجاب بأنه يدخل في رحمته من شاء أن يتخذ إليه سبيلا وأنه أعد لمن لم يتخذ إليه سبيلا عذابا أليما وأولئك هم الظالمون.

ويجوز أن تكون الجملة خبر ﴿إن﴾ في قوله: ﴿إن الله﴾ [الانسان: ٣٠] وتكون جملة ﴿كان عليما حكيما﴾ [الانسان: ٣٠] معترضة بين اسم ﴿إن﴾ وخبرها أوحالا، وهي على التقديرين منبئة بأن إجراء وصفي العليم الحكيم على اسم الجلالة مراد به التنبيه على أن فعله كله من جزاء برحمة أو بعذاب جار على حسب علمه وحكمته.

وانتصب ﴿الظالمين﴾ على أنه مفعول لفعل محذوف يدل عليه المذكور على طريقة الاشتغال والتقدير: أوعد الظالمين، أو

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٧/٢٩

كافأ، أو نحو ذلك مما يقدره السامع مناسبا للفعل المذكور بعده.". (١)

٢٨٨-"أهل نبزه وملامه، زاد به الزمخشري في طنبور أصحاب النقمة، لنبز المعري ولمزه نغمة.

قال الفخر: كان الأولى لصاحب "الكشاف" أن لا يذكر ذلك أي لأنه ظن سواء بلا دليل.

وقال الطيبي: وليس كذلك لأنه لا يخفى على مثل المعري: أن الكلام بآخره لأن الله شبه الشرارة: أولا حين تنفصل عن النار بالقصر في العظم، وثانيا حين تأخذ في الارتفاع والانبساط فتنشق عن أعداد لا نهاية لها بالجمالات في التفرق واللون والعظم والثقل، ونظر في ذلك إلى الحيوان وأن تلك الحركات اختيارية وكل ذلك مفقود في بيته.

[٣٤] ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ .

تكرير لقصد تهديد المشركين الأحياء والقول فيه كالقول في نظيره الواقع ثانيا في هذه السورة.

[٣٥-٣٦] ﴿هذا يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ .

إن كانت الإشارة على ظاهرها كان المشار إليه هو اليوم الحاضر وهو يوم الفصل فتكون الجملة من تمام ما يقال لهم في ذلك اليوم بعد قوله: ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ [المرسلات:٢٩] فيكون في الانتقال من خطابهم بقوله: ﴿انطلقوا﴾ إلى إجراء ضمائر الغيبة عليهم، **التفات** يزيده حسنا أنهم قد استحقوا الإعراض عنهم بعد إهانتهم بخطاب ﴿انطلقوا﴾ .

وهذا الوجه أنسب بقوله تعالى بعده ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾ [المرسلات:٣٨]، وموقع الجملة على هذا التأويل موقع تكرير التوبيخ الذي أفاده قوله: ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ وهو من جملة ما يقال لهم في ذلك اليوم، واسم الإشارة مستعمل في حقيقته للقريب.

وإن كانت الإشارة إلى المذكور في اللفظ وهو يوم الفصل المتحدث عنه بأن فيه الويل للمكذبين، كان هذا الكلام موجها إلى الذين خوطبوا بالقرن كلهم إنذارا للمشركين منهم وإنعاما على المؤمنين، فكانت ضمائر الغيبة جارية على أصلها وكانت عائدة على المكذبين من قوله: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ [المرسلات:٣٤] وتكون الجملة معترضة بين جملة ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ ، وجملة ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾". (٢)

٢٨٩-"[٤٨] ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ .

يجوز أن يكون عطفا على قوله: ﴿للمكذبين﴾ [المرسلات: ٤٧]، والتقدير: والذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون، فإن ﴿ال﴾ الداخلة على الأوصاف المشتقة بمنزلة اسم الموصول غالبا، ولذلك جعلها النحاة في عداد أسماء الموصول وجعلوا الوصف الداخلة عليه صلة لها.

ويجوز أن يكون عطفا على جملة ﴿كلوا وتمتعوا قليلا﴾ [المرسلات: ٤٦] والانتقال من الخطاب إلى الغيبة **التفات**.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٨٥

(٢) التحرير والتنوير ٢٩/٤٠٥

وعلى كلا الوجهين فهو من الإدماج لينعى عليهم مخالفتهم المسلمين في الأعمال الدالة على الإيمان الباطن فهو كناية عن عدم إيماهم لأن الصلاة عماد الدين ولذلك عبر عن المشركين ب ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ [الماعون:٥].

والمعنى: إذا قيل لهم آمنوا واركعوا لا يؤمنون ولا يركعون كما كني عن عدم الإيمان لما حكي عنهم في الآخرة ﴿ما سلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين﴾ [المدثر:٤٤] إلى آخره.

ويجوز أن يكون عطفا على قوله: ﴿إنكم مجرمون﴾ [المرسلات: ٤٦].

وعلى الوجوه كلها يفيد تهديدهم لأنه معطوف على التكذيب أو على الإجرام، وكلاهما سبب للتهديد بجزاء السوء في يوم الفصل.

وليس في الآية دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة لعدم تعين معنى المصلين للذين يقيمون الصلاة.

[٤٩] ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ .

هذه الجملة مثل نظيرها الموالية هي له، إذ يجوز أن تكون متصلة بقوله: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ [المرسلات:٤٨] ويكون التعبير ب"المكذبين" إظهار في مقام الإضمار لقصد وصفهم بالتكذيب. والتقدير: ويل يومئذ لهم أو لكم فهي تهديد ناشئ عن جملة ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ ، ويكون اليوم المشار إليه ب ﴿يومئذ﴾ الزمان الذي يفيده ﴿إذا﴾ من قوله: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا﴾ الذي يجازى فيه بالويل للمجرمين الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون، أي لا يؤمنون، وتفيد مع ذلك تقريرا". (١)

٢٩٠-"ويجوز أن تكون مستعملة في المجاز الصوري يتظاهرون بالسؤال وهم موقنون بانتفاء وقوع ما يتساءلون عنه على طريقة استعمال فعل "يحذر" في قوله تعالى ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾ [التوبة:٦٤] فيكونون قصدوا بالسؤال الاستهزاء.

وذهب المفسرون فريقين في كلتا الطريقتين يرجح كل فريق ما ذهب إليه. والوجه حمل الآية على كلتيهما لأن المشركين كانوا متفاوتين في التكذيب، فعن ابن عباس لما نزل القرآن كانت قريش يتحدثون فيما بينهم فمنهم مصدق ومنهم مكذب.

وعن الحسن وقتادة مثل قول ابن عباس، وقيل هو سؤال استهزاء أو تعجب وإنما هم موقنون بالتكذيب.

فأما التساؤل الحقيقي فأن يسأل أحد منهم غيره عن بعض أحوال هذا النبأ فيسأل المسؤول سائله سؤالا عن حال آخر من أحوال النبأ، إذ يخطر لكل واحد في ذلك خاطر غير الذي خطر للآخر فيسأل سؤال مستثبت، أو سؤال كشف عم معتقده، أو ما يوصف به المخبر بهذا النبأ كما قال بعضهم لبعض ﴿أفترى على الله كذبا أم به جنة﴾ [سبأ:٨] وقال بعض آخر ﴿أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون﴾ إلى قوله: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ [النمل: ٦٧-٦٨].

وأما التساؤل الصوري فأن يسأل بعضهم بعضا عن هذا الخبر سؤال تهكم واستهزاء فيقول أحدهم: هل بلغك خبر البعث؟ ويقول له الآخر: هل سمعت ما قال؟ فإطلاق لفظ التساؤل حقيقي لأنه موضوع لمثل تلك المساءلة وقصدهم منه غير

---

(١) التحرير والتنوير ٤١٢/٢٩

حقيقي بل تهكمي.

والاستفهام بما في قوله: ﴿عم يتساءلون﴾ ليس استفهاما حقيقيا بل هو مستعمل في التشويق إلى تلقي الخبر نحو قوله تعالى: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين﴾ [الشعراء:٢٢١].

والموجه إليه الاستفهام من قبيل خطاب غير المعين.

وضمير ﴿يتساءلون﴾ يجوز أن يكون ضمير جماعة الغائبين مرادا به المشركون ولم يسبق لهم ذكر في هذا الكلام ولكن ذكرهم متكرر في القرآن فصاروا معروفين بالقصد من بعض ضمائره وإشاراته المبهمة، كالضمير في قوله تعالى: ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ [ص:٣٢] "يعني الشمس" ﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾ [القيامة:٢٦] "يعني الروح"، فإن جعلت الكلام من باب **الالتفات** فالضمير ضمير جماعة المخاطبين.". (١)

٢٩١-"التي قبلها تعين انصراف معنى ارتقاء رتبة معنى الجملة الثانية هو أن المتوعد به الثاني أعظم مما يحسبون.

وضمير ﴿سيعلمون﴾ في الموضوعين يجري على نحو ما تقدم في ضمير ﴿يتساءلون﴾ وضمير ﴿فيه مختلفون﴾ [النبأ: ٣].

[٦] ﴿ألم نجعل الأرض مهادا﴾.

لما كان أعظم نبأ جاءهم به القرآن إبطال إلهية أصنامهم وإثبات إعادة خلق أجسامهم، وهم الأصلان اللذان أثارا تكذيبهم بأنه من عند الله وتألبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وترويجهم تكذيبه، جاء هذا الاستئناف بيانا لإجمال قوله: ﴿عن النبأ العظيم، الذي هم فيه مختلفون﴾.

وسيجيء بعده تكملته بقوله: ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتا﴾ [النبأ:١٧].

وجمع الله لهم في هذه الآيات للاستدلال على الوحدانية بالانفراد بالخلق. وعلى إمكان إعادة الأجساد للبعث بعد البلى بأنها لا تبلغ مبلغ أيجاد المخلوقات العظيمة. ولكون الجملة في موقع الدليل لم تعطف على ما قبلها.

والكلام موجه إلى منكري البعث وهم الموجه إليهم الاستفهام فهو من قبيل **الالتفات** لأن توجيه الكلام في قوة ضمير المخاطب بدليل عطف ﴿وخلقناكم أزواجا﴾ [النبأ:٨] عليه.

والاستفهام في ﴿ألم نجعل﴾ تقريري وهو تقرير على النفي كما هو غالب صيغ الاستفهام التقريري أن يكون بعده نفي والأكثر كونه بحرف "لم"، وذلك النفي كالإعذار للمقرر إن كان يريد أن ينكر وإنما المقصود التقرير بوقوع جعل الأرض مهادا لا بنفيه بحرف النفي لمجرد تأكيد معنى التقرير.

فالمعنى: أجعلنا الأرض مهادا ولذلك سيعطف عليه ﴿وخلقناكم أزواجا﴾ وتقدم عند قوله تعالى: ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض﴾ في سورة البقرة [٣٣]. ولا يسعهم إلا الإقرار به قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ [لقمان:٢٥]، وحاصل الاستدلال بالخلق الأول لمخلوقات عظيمة أنه يدل على إمكان الخلق الثاني لمخلوقات هي دون المخلوقات الأولى قال تعالى: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس "أي الثاني"

---

(١) التحرير والتنوير ٨/٣٠

ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [غافر:٥٧].". (١)

٢٩٢-"وضمير الخطاب للمشركين الذين وجه إليهم التقرير بقوله: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا﴾ [النبأ:٦]، وهو **التفات** من طريق الغيبة إلى طريق الخطاب.

والمعطوف عليه وإن كان فعلا مضارعا فدخول "لم" عليه صيره في معنى الماضي لما هو مقرر من أن "لم" تقلب معنى المضارع إلى الماضي فلذلك حسن عطف ﴿خلقناكم﴾ على ﴿ألم نجعل الأرض مهادا، والجبال أوتادا﴾ [النبأ: ٦-٧] والكل تقرير على شيء مضى.

وإنما عدل عن أن يكون الفعل فعلا مضارعا مثل المعطوف هو عليه لأن صيغة المضارع تستعمل لقصد استحضار الصورة للفعل كما في قوله تعالى: ﴿فتثير سحابا﴾ [الروم:٤٨]، فالإتيان بالمضارع في ﴿ألم نجعل الأرض مهادا﴾ [النبأ:٦] يفيد استدعاء إعمال النظر في خلق الأرض والجبال إذ هي مرئيات لهم. والأكثر أن يغفل الناظرون عن التأمل في دقائقها لتعودهم بمشاهدتها من قبل سن التفكر، فإن الأرض تحت أقدامهم لا يكادون ينظرون فيها بله أن يتفكروا في صنعها، والجبال يشغلهم عن التفكر في صنعها شغلهم بتجشم صعودها والسير في وعرها وحراسة سوائمهم من أن تضل شعابها وصرف النظر إلى مسالك العدو وعند الاعتلاء وعند الاعتلاء إلى مراقبها، فأوثر الفعل المضارع مع ذكر المصنوعات الحرية بدقة التأمل واستخلاص الاستدلال ليكون إقرارهم مما قرروا به على بصيرة فلا يجدوا إلى الإنكار سبيلا.

وجيء بفعل المضي في قوله: ﴿وخلقناكم أزواجا﴾ وما بعده لأن مفاعيل فعل "خلقنا" وما عطف عليه ليست مشاهدة لهم.

وذكر لهم من المصنوعات ما هو شديد الاتصال بالناس من الأشياء التي تتوارد أحوالها على مدركاتهم دواما، فإقرارهم بها أيسر لأن دلالتها قريبة من البديهي.

وقد أعقب الاستدلال بخلق الأرض وجبالها بالاستدلال بخلق الناس للجمع بين إثبات التفرد بالخلق وبين الدلالة على إمكان إعادتهم، والدليل في خلق الناس على الإبداع العظيم الذي الخلق الثاني من نوعه أمكن في نفوس المستدل عليهم قال تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات:٢١]. وللمناسبة التي قدمنا ذكرها في توجيه الابتداء بخلق الأرض في الاستدلال فهي أن من الأرض يخرج الناس للبعث فكذلك تني بالاستدلال بخلق الناس الأول لأنهم الذين سيعاد خلقهم يوم البعث وهم الذين يخرجون من الأرض، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا، أولا". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٣٠

(٢) التحرير والتنوير ١٥/٣٠

٢٩٣-"[٢٩] ﴿وكل شيء أحصيناه كتابا﴾ .

اعتراض بين الجمل التي سيقت مساق التعليل وبين جملة ﴿فذوقوا﴾ [النبأ:٣٠]. وفائدة هذا الاعتراض المبادة بإعلامهم أن الله لا يخفى عليه شيء من أعمالهم فلا يدع شيئا من سيئاتهم إلا يحاسبهم عليه ما ذكر هنا وما لم يذكر؛ كأنه قيل : إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا، وفعلوا مما عدا ذلك وكل ذلك محصي عندنا.

ونصب ﴿كل﴾ على المفعولية لـ ﴿أحصيناه﴾ على طريقة الاشتغال بضميره.

والإحصاء: حساب الأشياء لضبط عددها، فالإحصاء كناية عن الضبط والتحصيل.

وانتصب ﴿كتابا﴾ على المفعولية المطلقة لـ ﴿أحصيناه﴾ . والتقدير: إحصاء كتابة، فهو مصدر بمعنى الكتابة، وهو كناية عن شدة الضبط لأن الأمور المكتوبة مصونة عن النسيان والإغفال، فباعتبار كونه كناية عن الضبط جاء مفعولا مطلقا لـ"أحصينا".

[٣٠] ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا﴾ .

الفاء للتفريغ والتسبب على جملة ﴿إن جهنم كانت مرصادا﴾ [النبأ:٢١] وما أتصل بها، ولما غير أسلوب الخبر إلى الخطاب بعد أن كان جاريا بطريق الغيبة، ولم يكن مضمون الخبر مما يجري في الدنيا فيظن أنه خطاب تهديد للمشركين تعين أن يكون المفرع قولا محذوفا دل عليه فعل ﴿ذوقوا﴾ الذي لا يقال إلا يوم الجزاء، فالتقدير: فيقال لهم ذوقوا إلى آخره، ولهذا فليس في ضمير الخطاب التفات فالمفرع بالفاء هو فعل القول المحذوف.

والأمر في "ذوقوا" مستعمل في التوبيخ والتقريع.

وفرع على ﴿فذوقوا﴾ ما يزيد تنكيدهم وتحسيرهم بإعلامهم بأن الله سيزيدهم عذابا فوق ما هم فيه.

والزيادة: ضم شيء إلى غيره من جنس واحد أو غرض واحد، قال تعالى: ﴿فزادتهم رجسا إلى رجسهم﴾ [التوبة:١٢٥] وقال: ﴿ولا تزد الظالمين إلا تبارا﴾ [نوح:٢٨]، أي لا تزدهم على ما هم فيه من المساوي إلا الإهلاك.

فالزيادة المنفية في قوله: ﴿فلن نزيدكم إلا عذابا﴾ يجوز أن تكون زيادة نوع آخر من". (١)

٢٩٤-"وفي القصة كلها تعريض بسادة قريش من أهل الكفر مثل أبي جهل بتنظيرهم بفرعون وتنظير الدهماء بالقوم الذين حشرهم فرعون ونادى فيهم بالكفر، وقد علم المسلمون مضرب هذا المثل فكان أبو جهل يوصف عند المسلمين بفرعون هذه الأمة.

وتأكيد الخبر ب ﴿أن﴾ بلام الابتداء لتنزيل السامعين الذين سيقت لهم القصة منزلة من ينكر ما فيها من المواعظ لعدم جريهم على الاعتبار والاتعاظ بما فيها من المواعظ.

[٢٧-٢٩] ﴿أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها، رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾ .

انتقال من الاعتبار بأمثالهم من الأمم الذي هو تخويف وتهديد على تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إبطال شبهتهم

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧/٣٠

على نفي البعث وهي قوله: ﴿أئنا لمردودون في الحافرة﴾ [النازعات:١٠] وما أعقبوه به من التهكم المبني على توهم إحالة البعث. وإذ قد فرضوا استحالة عودة الحياة إلى الأجسام البالية إذ مثلوها بأجساد أنفسهم إذ قالوا ﴿أئنا لمردودون﴾ [النازعات:١٠] جاء إبطال شبهتهم بقياس خلق أجسادهم على خلق السماوات والأرض فقيل لهم ﴿أأنتم أشد خلقا أم السماء﴾ ، فلذلك قيل لهم هنا أأنتم بضميرهم ولم يقل: آالإنسان أشد خلقا، وما هم إلا من الإنسان، فالخطاب موجه إلى المشركين الذين عبر عنهم آنفا بضمائر الغيبة من قوله: ﴿يقولون﴾ إلى قوله: ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ [النازعات:١٤]، وهو **التفات** من الغيبة إلى الخطاب.

فالجملة مستأنفة لقصد الجواب عن شبهتهم لأن حكاية شبهتهم ب ﴿يقولون أإنا﴾ إلى آخره، تقتضي ترقب جواب عن ذلك القول كما تقدم الإيماء إليه عند قوله: ﴿يقولون أإنا لمردودون﴾ [النازعات:١٠].

والاستفهام تقريري. والمقصود من التقرير إلجاؤهم إلى الإقرار بأن خلق السماء أعظم من خلقهم، أي من خلق نوعهم وهو نوع الإنسان وهم يعلمون أن الله هو خالق السماء فلا جرم أن الذي قدر على خلق السماء قادر على خلق الإنسان مرة ثانية، فينتج ذلك أن إعادة خلق الأجساد بعد فنائها مقدورة لله تعالى لأنه قدر على ما هو أعظم من ذلك قال تعالى: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [غافر:٥٧]، ذلك أن نظرهم العقلي غيمت عليه العادة فجعلوا ما لم يألفوه محالا، ولم يلتفتوا إلى إمكان ما هو أعظم مما أحالوه بالضرورة.". (١)

٢٩٥-"أغراضها

تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم الموازنة بين مراتب المصالح ووجوب الاستقراء لخفياتها كي لا يفيت الاهتمام بالمهم منها في بادئ الرأي مهما آخر مساويا في الأهمية أو أرجح. ولذلك يقول علماء أصول الفقه إن على المجتهد أن يبحث عن معارض الدليل الذي لاح له.

والإشارة إلى اختلاف الحال بين المشركين المعرضين عن هدي الإسلام وبين المسلمين المقبلين على تتبع مواقعه.

وقرن ذلك بالتذكير بإكرام المؤمنين وسمو درجتهم عند الله تعالى.

والثناء على القرآن وتعليمه لمن رغب في علمه.

وانتقل من ذلك إلى وصف شدة الكفر من صناديد قريش بمكابرة الدعوة التي شغلت النبي صلى الله عليه وسلم عن **الالتفات** إلى رغبة ابن أم مكتوم.

والاستدلال على إثبات البعث وهو مما كان يدعوهم إليه حين حضور ابن أم مكتوم وذلك كان من أعظم ما عني به القرآن من حيث إن إنكار البعث هو الأصل الأصيل في تصميم المشركين على وجوب الإعراض عن دعوة القرآن توهما منهم بأنه يدعوا إلى المحال، فاستدل عليهم بالخلق الذي خلقه الإنسان، واستدل بعده بإخراج النبات والأشجار من أرض ميتة.

وأعقب الاستدلال بالإنذار بحلول الساعة والتحذير من أهوالها وبما يعقبها من ثواب المتقين وعقاب الجاحدين.

---

(١) التحرير والتنوير ٧٤/٣٠

والتذكير بنعمة الله على المنكرين عسى أن يشكروه.

والتنويه بضعفاء المؤمنين وعلو قدرهم ووقوع الخير من نفوسهم والخشية، وأنهم أعظم عند الله من أصحاب الغنى الذين فقدوا طهارة النفس، وأنهم أحرياء بالتحقير والذم، وأنهم أصحاب الكفر والفجور.

[١-٤] ﴿عبس وتولى، أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾ .". (١)

٢٩٦-"بضمائر الغيبة فذكر الأعمى تظهر المراد من القصة وأتضح المراد من ضمير الغيبة.

ثم جيء بضمائر الخطاب على طريقة **الالتفات**.

ويظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم رجا من ذلك المجلس أن يسلموا فيسلم بإسلامهم جمهور قريش أو جميعهم فكان دخول ابن أم مكتوم قطعا لسلك الحديث وجعل يقول للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله استدنني، علمني، أرشدني، ويناديه ويكثر النداء والإلحاح فظهرت الكراهية في وجه الرسول صلى الله عليه وسلم لعله لقطعه عليه كلامه وخشيته أن يفترق النفر المجتمعون، وفي رواية الطبري أنه أستقرأ النبي صلى الله عليه وسلم آية من القرآن.

وجملة ﴿وما يدريك﴾ الخ في موضع الحال.

وما يدريك مركبة من "ما" الاستفهامية وفعل الدراية المقترن بهمزة التعدية، أي ما يجعلك داريا أي عالما. ومثله ﴿ما أدراك﴾ كقوله: ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ [الحاقة:٣]. ومنه ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ في سورة الأنعام [١٠٩].

والاستفهام في هذه التراكيب مراد منه التنبيه على مغفول عنه ثم تقع بعده جملة نحو ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ [القارعة:٣] ونحو قوله هنا ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ .

والمعنى أي شيء يجعلك داريا. وإنما يستعمل مثله لقصد الإجمال ثم التفصيل.

قال الراغب: ما ذكر ما أدراك في القرآن إلا وذكر بيانه بعده اه. قلت: فقد يبينه تفصيل مثل قوله هنا ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ وقوله: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر، ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ [القدر: ٢-٣] وقد يقه بعده ما فيه تهويل نحو ﴿وما أدراك ما هيه﴾ [القارعة:١٠]، أي ما يعلمك حقيقتها وقوله: ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ [الحاقة:٣] أي أي شيء أعلمك جواب ﴿ما الحاقة﴾ .

وفعل ﴿يدريك﴾ معلق عن العمل في مفعوليه لورود حرف "لعل" بعده فإن "لعل" من موجبات تعليق أفعال القلوب على ما أثبته أبو علي الفارسي في "التذكرة" إلحاقا للترجي بالاستفهام في أنه طلب. فلما علق فعل ﴿يدريك﴾ عن العمل صار غير متعد إلى ثلاثة مفاعيل وبقي متعديا إلى مفعول واحد بهمزة التعددية التي فيها فصار ما بعده جملة مستأنفة.

والتذكر: حصول أثر التذكير، فهو خطور أمر معلوم في الذهن بعد نسيانه إذ هو". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٩٠/٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٩٣/٣٠

٢٩٧-"[٩] ﴿كلا بل تكذبون بالدين﴾ .

﴿كلا﴾ ردع عما هو غرور بالله أو بالغرور مما تضمنه قوله: ﴿ما غرك بربك﴾ [الإنفطار:٦] من حصول ما يغر الإنسان بالشرك ومن إعراضه عن نعم الله تعالى بالكفر، أو من كون حالة المشرك كحالة المغرور كما تقدم من الوجهين في الإنكار المستفاد من قوله: ﴿ما غرك بربك الكريم﴾ .

والمعنى: إشراكك بخالقك باطل وهو غرور، أو كالغرور.

ويكون قوله بعده ﴿بل تكذبون بالدين﴾ إضرابا انتقاليا من غرض التوبيخ والزجر على الكفر إلى ذكر جرم فظيع آخر، وهو التكذيب بالبعث والجزاء ويشمله التوبيخ بالزجر بسبب أنه معطوف على توبيخ وزجر لأن ﴿بل﴾ لا تخرج عن معنى العطف أي العطف في الغرض لا في نسبة الحكم. ولذلك يتبع المعطوف بها المفرد في إعراب المعطوف عليه فيقول النحويون: إنها تتبع في اللفظ لا في الحكم، أي هو اتباع مناسبة في الغرض لا في اتباع في النسبة.

ويجوز أن يكون ﴿كلا﴾ إبطالا لوجود ما يغر الإنسان أن يشرك بالله، أي لا عذر للإنسان في الإشراك بالله إذ لا يوجد ما يغره به.

ويكون قوله: ﴿بل تكذبون﴾ إضرابا إبطاليا، وما بعد ﴿بل﴾ بيانا لما جرأهم على الإشراك وإنه ليس غرورا إذ لا شبهة لهم في الإشراك حتى تكون الشبهة كالغرور، ولكنهم أصروا على الإشراك لأنهم حبسوا أنفسهم في مأمن من تبعته فاختاروا الاستمرار عليه لأنه هوى أنفسهم، ولم يعبأوا بأنه باطل صراح فهم يكذبون بالجزاء فلذلك سبب تصميم جميعهم على الشك مع تفاوت مداركهم التي لا يخفى على بعضها بطلان كون الحجارة آلهة، ألا ترى أنهم ما كانوا يرون العذاب إلا عذاب الدنيا.

وعلى هذا الوجه يكون فيه إشارة إلى أن إنكار البعث هو جماع الإجرام، ونظير هذا الوجه وقع في قوله تعالى: ﴿فما لهم لا يؤمنون، وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون، بل الذين كفروا يكذبون﴾ في سورة الانشقاق [٢٠-٢٢].

وقرأ الجمهور ﴿تكذبون﴾ بتاء الخطاب. وقرأه أبو جعفر بياء الغيبة على **الالتفات**.

وفي صيغة المضارع من قوله: ﴿تكذبون بالدين﴾ إفادة أن تكذيبهم بالجزاء متجدد لا". (١)

٢٩٨-"حكاية قول ينادي به يوم القيامة من حضرة القدس على رؤوس الأشهاد.

فإذا جريت على ثاني الوجهين المتقدمين في موقع جمل ﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾ [المطففين:١٨] الآيات، من أنها محكية بالقول الواقع في قوله تعالى: ﴿ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ [المطففين:١٧] إلى هنا فهذه متصلة بها. والتعبير عنهم بالذين أجرموا إظهار في مقام الإضمار على طريقة **الالتفات** إذ مقتضى الظاهر أن يقال لهم: إنكم كنتم من الذين آمنوا تضحكون، وهكذا على طريق الخطاب وإن جريت على الوجه الأول بجعل تلك الجمل اعتراضا، فهذه الجملة مبدأ كلام متصل بقوله: ﴿ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾ [المطففين:١٦] واقع موقع بدل الاشتمال لمضمون جملة ﴿إنهم لصالوا

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٨/٣٠

الجحيم﴾ [المطففين:١٦] باعتبار ما جاء في آخر هذا من قوله: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ فالتعبير بالذين أجرموا إذا جار على مقتضى الظاهر وليس **بالتفات**.

وقد اتضح بما قررناه نظم هذه الآيات من قوله: ﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾ [المطففين:١٨] إلى هنا مزيد اتضاح، وذلك مما أغفل المفسرون العناية بتوضيحه، سوى ن ابن عطية أورد كلمة مجملة فقال ولما كانت الآيات المتقدمة قد نيطت بيوم القيامة وأن الويل يومئذ للمكذبين ساغ أن يقول ﴿فاليوم﴾ على حكاية ما يقال اه.

و ﴿إذا﴾ في المواضع الثلاثة مستعمل للزمان الماضي كقوله تعالى: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا﴾ [التوبة:٩٢] وقوله: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ [النساء:٨٣].

والمقصود في ذكره أنه بعد أن ذكر حال المشركين على حدة، وذكر حال المسلمين على حدة، أعقب بما فيه صفة لعاقبة المشركين في معاملتهم للمؤمنين في الدنيا ليعلموا جزاء الفريقين معا.

وإصدار ذلك المقال يوم القيامة مستعمل في التنديم والتشميت كما اقتضته خلاصته من قوله: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ إلى آخر السورة.

والافتتاح ب ﴿إن الذين أجرموا﴾ بصورة الكلام المؤكد لإفادة الاهتمام بالكلام وذلك كثير في افتتاح الكلام المراد إعلانه ليتوجه بذلك الافتتاح جميع السامعين إلى استماعه للإشعار بأنه خبر مهم، والمراد ب ﴿الذين أجرموا﴾ المشركون من أهل مكة وخاصة صناديدهم.". (١)

٢٩٩-""عن" إلى كلمة "بعد" فقال:

لآل الجلاح كابرا بعد كابر

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ﴿لتركبن﴾ بضم الموحدة على خطاب الناس. وقرأه الباقون بفتح الموحدة على أنه خطاب للإنسان من قوله تعالى: ﴿ياأيها الإنسان إنك كادح﴾ [الإنشقاق:٦]. وحمل أيضا على أن التاء الفوقية تاء المؤنثة الغائبة وأن الضمير عائد إلى السماء، أي تعتريها أحوا متعاقبة من الانشقاق والطي وكونها مرة كالدهان ومرة كالمهل. وقيل خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عطية: قيل هي عدة بالنصر، أي لتركبن أمر العرب قبيلا بعد قبيل وفتحا بعد فتح كما وجد بعد ذلك أي بعد نزول الآية حين قوي جانب المسلمين فيكون بشارة للمسلمين، وتكون الجملة معترضة بالفاء بين جملة ﴿إنه ظن أن لن يحور﴾ [الإنشقاق:١٤] وجملة ﴿فما لهم لا يؤمنون﴾ [الإنشقاق:٢٠]. وهذا الوجه يجري على كلتا القراءتين.

[٢٠-٢١] ﴿فما لهم لا يؤمنون، وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾ .

يجوز أن يكون التفريع على ما ذكر من أحوال من أوتي كتابه وراء ظهره، وأعيد عليه ضمير الجماعة لأن المراد ب"من"

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٦/٣٠

الموصولة كل من تحق فيه الصلة فجرى الضمير على مدلول "من" وهو الجماعة. والمعنى: فما لهم لا يخافون أهوال يوم لقاء الله فيؤمنوا.

ويجوز أن يكون مفرعا على قوله: ﴿ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾ [الإنشقاق:٦]، أي إذا تحققت ذلك فكيف لا يؤمن بالبعث الذين أنكروه. وجيء بضمير الغيبة لأن المقصود من الإنكار والتعجب خصوص المشركين من الذين شملهم لفظ الإنسان في قوله: ﴿ياأيها الإنسان إنك كادح﴾ لأن العناية بموعظتهم أهم فالضمير **التفات**.

ويجوز أن يكون تفريعا على قوله: ﴿لتركبن طبقا عن طبق﴾ [الإنشقاق:١٩] فيكون مخصوصا بالمشركين باعتبار أنهم أهم في هذه المواعظ. والضمير أيضا **التفات**.

ويجوز تفريعه على ما تضمنه القسم من الأحوال المقسم بها باعتبار تضمن القسم بها أنها دلا ئل على عظيم قدرة الله تعالى وتفرده بالألهية ففي ذكرها تذكرة بدلالتها على الوحدانية. **والالتفات** هو هو.". (١)

٣٠٠-"جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما قرأ جبريل كما وعده الله وسورة القيامة التي منها ﴿لا تحرك به لسانك﴾ نزلت بعد سورة الأعلى فقد تعين أن قوله: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ وعد من الله بعونه على حفظ جميع ما يوحى إليه.

وإنما ابتدىء بقوله: ﴿سنقرئك﴾ تمهيدا للمقصود الذي هو ﴿فلا تنسى﴾ وإدماجا للإعلام بأن القرآن في تزايد مستمر، فإذا كان قد خاف من نسيان بعض ما أوحي إليه على حين قلته فإنه سيتتابع ويتكاثر فلا يخش نسيانه فقد تكفل له عدم نسيانه مع تزايده.

والسين علامة على استقبال مدخولها، وهي تفيد تأكيد حصول الفعل وخاصة إذا اقترنت بفعل حاصل في وقت التكلم فإنها تقتضي أنه يستمر ويتجدد وذلك تأكيد لحصوله وإذا قد كان قوله: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ إقراء، فالسين دالة على أن الإقراء يستمر ويتجدد.

والالتفات بضمير المتكلم المعظم لأن التكلم أنسب بالإقبال على المبشر.

وإسناد الإقراء إلى الله مجاز عقلي لأنه جاعل الكلام المقروء وآمر بإقرانه.

فقوله: ﴿فلا تنسى﴾ خبر مراد به الوعد والتكفل له بذلك.

والنسيان: عدم خطور المعلوم السابق في حافظة الإنسان برهة أو زمانا طويلا.

والاستثناء في قوله: ﴿إلا ما شاء الله﴾ مفرغ من فعل ﴿تنسى﴾ ، و"ما" موصولة هي المستثنى. والتقدير: إلا الذي شاء الله أن تنساه، فحذف مفعول فعل المشيئة جريا على غالب استعماله في كلام العرب. وانظر ما تقدم في قوله: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ في [البقرة: ٢٠].

والمقصود بهذا أن بعض القرآن ينساه النبي صلى الله عليه وسلم إذا شاء الله أن ينساه. وذلك نوعان:

أحدهما: وهو أظهرهما أن الله إذا شاء نسخ تلاوة بعض ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم أمره بأن يترك قراءته فأمر

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢٠٥

النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بأن لا يقرأوه حتى ينساه النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون. وهذا مثل ما روي عن عمر أنه قال: كان فيما أنزل الشيخ والشخة إذا زنيا فارجموهما قال عمر: لقد قرأناها، وأنه كان فيما أنزل لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم. وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿أو ننسها﴾ في قراءة من". (1)

٣٠١-"بقوله: ﴿وذكر اسم ربه﴾ ثم الإقبال على طاعته وعبادته وهو المشار إليه بقوله: ﴿فصلى﴾ والصلاة تشير إلى العبادة وهي في ذاتها طاعة وامتثال يأتي بعده ما يشرع من الأعمال قال تعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ [العنكبوت: ٤٥].

[١٦-١٧] ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى﴾ .

قرأ الجمهور ﴿تؤثرون﴾ بمثناة فوقية بصيغة الخطاب، والخطاب موجه للمشركين بقرينة السياق وهو **التفات**، وقرأه أبو عمرو وحده بالمثناة التحتية على طريقة الغيبة عائدا إلى ﴿الأشقى، الذي يصلى النار الكبرى﴾ [الأعلى:١١-١٢].

وحرف ﴿بل﴾ معناه الجامع هو الإضراب، أي انصراف القول أو الحكم إلى ما يأتي بعد ﴿بل﴾ ؛ فهو إذا عطف المفردات كان الإضراب إبطالا للمعطوف عليه: لغلط في ذكر المعطوف أو للاحتراز عنه فذلك انصراف عن الحكم. وإذا عطف الجمل فعطفه عطف كلام على كلام وهو عطف لفظي مجرد عن التشريك في الحكم ويقع على وجهين، فتارة يقصد إبطال معنى الكلام نحو قوله تعالى: ﴿أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق﴾ [المؤمنون: ٧٠]، فهو انصراف في الحكم، وتارة يقصد مجرد التنقل من خبر إلى آخر مع عدم إبطال الأول نحو قوله تعالى: ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون، بل قلوبهم في غمرة من هذا﴾ [المؤمنون: ٦٢-٦٣]. فتكون ﴿بل﴾ بمنزلة قولهم دع هذا فهذا انصراف قولي. ويعرف أحد الاضرابين بالقرائن والسياق.

و ﴿بل﴾ هنا عاطفة جملة عطفا صوريا فيجوز أن تكون لمجرد الانتقال من ذكر المنتفعين بالذكرى والمتجنبين لها، إلى ذكر سبب إعراض المتجنبين وهم الأشقون بأن السبب إيثارهم الحياة الدنيا، وذلك على قراءة أبي عمرو ظاهر وأما على قراءة الجمهور فهو إضراب عن حكاية أحوال الفريقين بالانتقال إلى توبيخ أحد الفريقين وهو الفريق الأشقى فالخطاب موجه إليهم على طريقة **الالتفات** لتجديد نشاط السامع لكي لا تنقضي السورة كلها في الإخبار عنهم بطريق الغيبة.

ويجوز أن يكون الاضراب إبطالا لما تضمنه قوله: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ [الأعلى: ١٤]، من التعريض للذين شقوا بتحريضهم على طلب الفلاح لأنفسهم ليلتحقوا بالذين يخشون ويتزكون ليبطل أن يكونوا مظنة تحصيل الفلاح.

والمعنى: أنهم بعداء عن أن يضن بهم التنافس في طلب الفلاح لأنهم يؤثرون الحياة". (2)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٨/٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٢٥٦/٣٠

٣٠٢-"ينكرونه، وتنبيها على إمكانه بأنه رجوع إلى الذي أنشأهم أول مرة.
ونقل الكلام من أسلوب الغيبة في قوله: ﴿فيعذبه الله﴾ [الغاشية: ٢٤]، إلى أسلوب التكلم بقوله: ﴿إلينا﴾ على طريقة **الالتفات**.

وقرأ أبو جعفر ﴿إيابهم﴾ بتشديد الياء. فعن ابن جني هو مصدر على وزن فعال مصدر: أيب بوزن فيعل من الأوب مثل حوقل. فلما اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء فقيل: إياب.

وعطفت جملة ﴿إن علينا حسابهم﴾ بحرف ﴿ثم﴾ لإفادة التراخي الرتبي فإن حسابهم هو الغرض من إيابهم وهو أوقع في تهديدهم على التولي.

ومعنى ﴿على﴾ من قوله: ﴿علينا حسابهم﴾ أن حسابهم لتأكده في حكمة الله يشبه الحق الذي فرضه الله على نفسه.
وهذه الجملة هي المقصود من التعليل التي قبلها بمعنى التمهيد لها والإدماج لإثبات البعث. وفي ذلك إيذان بأن تأخير عقابهم إمهال فلا يحسبوه انفلاتا من العقاب.". (١)

٣٠٣-"وقرأ الجمهور "لا تكرمون، ولا تحضون، وتأكلون، وتحبون" بالمثناة الفوقية على الخطاب بطريقة **الالتفات** من الغيبة في قوله: ﴿فأما الأنسان إذا ما ابتلاه ربه﴾ الآيات لقصد مواجهتهم بالتوبيخ، وهو بالمواجهة أوقع منه بالغيبة.
وقرأها أبو عمرو ويعقوب بالمثناة التحتية على الغيبة لتعريف النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بذلك فضحا لدخائلهم على نحو قوله تعالى: ﴿يقول أهلكت مالا لبدا، أيحسب أن لم يره أحد﴾ [البلد:٦-٧].

وقرأ الجمهور ﴿ولا تحاضون﴾ بضم الحاء مضارع حض، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف ﴿تحاضون﴾ بفتح الحاء وألف بعدها مضارع حاض بعضهم بعضا، وأصله تتحاضون فحذفت إحدى التاءين اختصارا للتخفيف أي تتمالؤون على ترك الحض على الإطعام.

والتراث: المال الموروث، أي الذي يخلفه الرجل بعد موته لوارثه وأصله: وراث بواو في أوله بوزن فعال من مادة ورث بمعنى مفعول مثل الدقاق، والحطام، أبدلت واوه تاء على غير قياس كما فعلوا في تجاه، وتخمة، وتهمة، وتقاة وأشباهها.

والأكل: مستعار للانتفاع بالشيء انتفاعا لا يبقي منه شيئا. وأحسب أن هذه الاستعارة من مبتكرات القرآن إذ لم أقف على مثلها في كلام العرب.

وتعريف التراث عوض عن المضاف إليه. أي تراث اليتامى وكذلك كان أهل الجاهلية يمنعون النساء والصبيان من أموال مورثيهم.

وأشعر قوله: ﴿تأكلون﴾ بأن المراد التراث الذي لا حق لهم فيه، ومنه يظهر وجه إيثار لفظ التراث دون إن يقال: وتأكلون المال لأن التراث مال مات صاحبه وأكله يقتضي أن يستحق ذلك المال عاجز عن الذب عن ماله لصغر أو أنوثة.

واللم: الجمع، ووصف الأكل به وصف بالمصدر للمبالغة، أي أكلا جامعا مال الوارثين إلى مال الآكل كقوله تعالى: ﴿ولا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٤/٣٠

تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ [النساء: ٢].

والجم: الكثير، يقال: جم الماء في الحوض، إذا كثر، وبئر جموم بفتح الجيم: كثيرة الماء، أي حبا كثيرا، ووصف الحب بالكثرة مراد به الشدة لأن الحب معنى من المعاني النفسية لا يوصف بالكثرة التي هي وفرة عدد أفراد الجنس.

فالجم مستعار لمعنى القوي الشديد، أي حبا مفرطا، وذلك محل ذم حب المال، لأن إفراد حبه يوقع في الحرص على اكتسابه بالوسائل غير الحق. كالغصب والاختلاس". (١)

٣٠٤-"ويجوز أن تكون الآية استئنافا ابتدائيا جرى على مناسبة ذكر عذاب الإنسان المشرك فتكون خطابا من الله تعالى لنفوس المؤمنين المطمئنة.

والأمر في ﴿ارجعي إلى ربك﴾ مراد منه تقييده بالحالين بعده وهما ﴿راضية مرضية﴾ وهو من استعمال الأمر في الوعد والرجوع مجاز أيضا، والإضمار في قوله: ﴿في عبادي﴾ وقوله: ﴿جنتي﴾ **التفات** من الغيبة إلى التكلم.

وقال بعض أهل التأويل: نزلت في معين. فعن الضحاك: أنها نزلت في عثمان ابن عفان لما تصدق ببئر رومة. وعن بريدة: أنها نزلت في حمزة حين قتل. وقيل: نزلت في خبيب بن عدي لما صلبه أهل مكة. وهذه الأقوال تقتضي أن هذه الآية مدنية، والاتفاق على أن السورة مكية إلا ما رواه الداني عن بعض العلماء أنها مدنية، وهي على هذا منفصلة عما قبلها كتبت هنا بتوقيف خاص أو نزلت عقب ما قبلها للمناسبة.

وعن ابن عباس وزيد بن حارثة وأبي بن كعب وابن مسعود: أن هذا يقال عند البعث لترجع الأرواح في الأجساد، وعلى هذا فهي متصلة بقوله: ﴿إذا دكت الأرض﴾ [الفجر:٢١] الخ كالوجه الذي قبل هذا، والرجوع على هذا حقيقة والرب مراد به صاحب النفس وهو الجسد.

وعن زيد بن حارثة وأبي صالح يقال: هذا للنفس عند الموت. وقد روى الطبري عن سعيد بن جبير قال: قرأ رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ فقال أبو بكر: ما أحسن هذا فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أما إن الملك سيقولها عند الموت" . وعن زيد بن حارثة أن هذا يقال لنفس المؤمن عند الموت تبشر بالجنة.

والنفس: تطلق على الذات كلها كما في قوله تعالى: ﴿أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾ [الزمر:٥٦] وقوله: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ [الأنعام:١٥١] وتطلق على الروح التي بها حياة الجسد كما في قوله: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ [يوسف:٥٣].

وعلى الإطلاقين توزع المعاني المتقدمة كما لا يخفى.

و ﴿المطمئنة﴾ : اسم فاعل من اطمأن إذا كان هادئا غير مضطرب ولا منزعج، فيجوز أن يكون من سكون النفس

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٥/٣٠

بالتصديق لما جاء به القرآن دون تردد ولا اضطراب بال فيكون". (١)

٣٠٥-"رضي به هو.
وفرع على هذه البشرى الإجمالية تفصيل ذلك بقوله: ﴿فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي﴾ فهو تفصيل بعد الإجمال لتكرير إدخال السرور على أهلها.
والمعنى: ادخلي في زمرة عبادي. والمراد العباد الصالحون بقرينة مقام الإضافة مع قرنه بقوله: ﴿جنتي﴾ . ومعنى هذا كقوله تعالى: ﴿لندخلنهم في الصالحين﴾ [العنكبوت:٩].
فالظرفية حقيقة وتؤول إلى معنى المعية كقوله تعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾ [النساء:٦٩].
وإضافة "جنة" إلى ضمير الجلالة إضافة تشريف كقوله: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ [القمر:٥٥].
وهذه الإضافة هي مما يزيد **الالتفات** إلى ضمير التكلم حسنا بعد طريقة الغيبة بقوله: ﴿ارجعي إلى ربك﴾ .
وتكرير فعل ﴿وادخلي﴾ فلم يقل: فادخلي جنتي في عبادي للاهتمام بالدخول بخصوصه تحقيقا للمسرة لهم.". (٢)

٣٠٦-"هي تكرير للجملة الأولى، فلا ينبغي **الالتفات** إلى هذا المأخذ، وقد أبطله من قبل أبو على الحسين الجرجاني١ في كتاب "النظم" كما في "معالم التنزيل". وأبطله صاحب "الكشاف" أيضا، وجعل ابن هشام في "مغنى اللبيب" تلك القاعدة خطأ.
والذي يظهر في تقرير معنى قوله لن يغلب عسر يسرين أن جملة ﴿إن مع العسر يسرا﴾ تأكيد لجملة ﴿فإن مع العسر يسرا﴾ . ومن المقرر أن المقصود من تأكيد الجملة في مثله هو تأكيد الحكم الذي تضمنه الخبر. ولا شك أن الحكم المستفاد من هذه الجملة هو ثبوت التحاق اليسر بالعسر عند حصوله، فكان التأكيد مفيدا ترجيح أثر اليسر على أثر العسر، وذلك الترجيح عبر عنه بصيغة التثنية في قوله يسرين فالتثنية هنا كناية رمزية عن التغلب والرجحان فإن التثنية قد يكنى بها عن التكرير المراد منه التكثير كما في قوله تعالى: ﴿ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير﴾ [الملك:٤] أي أرجع البصر كثيرا لأن البصر لا ينقلب حسيرا من رجعتين. ومن ذلك قول العرب: لبيك، وسعديك، ودواليك والتكرير يستلزم قوة الشيء المكرر فكانت القوة لازم لازم التثنية وإذا تعددت اللوازم كانت الكناية رمزية.
وليس ذلك مستفادا من تعريف ﴿العسر﴾ باللام ولا من تنكير ﴿اليسر﴾ وإعادته منكرا.
[٧] ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ .
تفريع على ما تقرر من التذكير باللطف والعناية ووعده وبتيسير ما هو عسير عليه في طاعته التي أعظمها تبليغ الرسالة دون

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٢/٣٠
(٢) التحرير والتنوير ٣٠٤/٣٠

ملل ولا ضجر.

والفراغ: خلو باطن الظرف أو الإناء لأن شأنه أن يظرف فيه.

وفعل فرغ يفيد أن فاعله كان مملوءا بشيء، وفراغ الإنسان. مجاز في إتمامه ما شأنه أن يعمله.

ولم يذكر هنا متعلق ﴿فرغت﴾ وسياق الكلام يقتضي أنه لازم أعمال يعلمها

_

١ قال حمزة بن يوسف السهمي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ. في "تاريخ علماء جرجان" هو أبو علي الحسين بن يحي بن نصر الجرجاني له تصانيف عدة منها "في نظم القرآن" مجلدتان. كان من أهل السنة روى عن العباس بن يحي "أو ابن عيسى" العقيلي اه.". (١)

٣٠٧-"الفاء من كلام مسبب عن البيان الذي قبل الفاء، أي فقد بان لك أن غير الذين آمنوا هم الذين ردوا إلى أسفل سافلين فمن يكذب منهم بالدين الحق بعد هذا البيان.

و"ما" يجوز أن تكون استفهامية، والاستفهام توبيخي، والخطاب للإنسان المذكور في قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [التين:٤] فإنه بعد الذي استثني منه الذين آمنوا بقي الإنسان المكذب.

وضمير الخطاب **التفات**، ومقتضى الظاهر أن يقال: فما يكذبه، ونكتة **الالتفات** هنا أنه أصرح في مواجهة الإنسان المكذب بالتوبيخ.

ومعنى ﴿يكذبك﴾ يجعلك مكذبا، أي لا عذر لك في تكذيبك بالدين.

ومتعلق التكذيب: إما محذوف لظهوره، أي يجعلك مكذبا بالرسول صلى الله عليه وسلم، وأما المجرور بالباء، أي يجعلك مكذبا بدين الإسلام، أو مكذبا بالجزاء إن حمل الدين على معنى الجزاء وجملة ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ مستأنفة للتهديد والوعيد.

و ﴿الدين﴾ يجوز أن يكون بمعنى الملة أو الشريعة، كقوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران:١٩] وقوله: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا﴾ [آل عمران:٨٥].

وعليه تكون الباء للسببية، أي فمن يكذبك بعد هذا بسبب ما جئت به من الدين فالله يحكم فيه. ومعنى ﴿يكذبك﴾ : ينسبك للكذب بسبب ما جئت به من الدين أو ما أنذرت به من الجزاء، وأسلوب هذا التركيب مؤذن بأنهم لم يكونوا ينسبون النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكذب قبل أن يجيئهم بهذا الدين.

ويجوز أن يكون "الدين" بمعنى الجزاء في الآخرة كقوله: ﴿مالك يوم الدين﴾ [الفاتحة:٤] وقوله: ﴿يصلونها يوم الدين﴾ [الإنفطار:١٥] وتكون الباء صلة "يكذب" كقوله: ﴿وكذب به قومك وهو الحق﴾ [الأنعام:٦٦] وقوله: ﴿قل إني على بينة من ربي وكذبتم به﴾ ١ [الأنعام:٥٧].

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦٧/٣٠

ويجوز أن تكون ما موصولة وما صدقها المكذب، فهو بمعنى من ، وهي في محل مبتدأ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والضمير المستتر في ﴿يكذبك﴾ عائد إلى ما وهو الرابط للصلة بالموصول، والباء للسببية، أي ينسبك للكذب بسبب ما جئت به من

–

١ في المطبوعة: ﴿قل أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وكذبتم به﴾ وهو خطأ.". (١)

٣٠٨-"السورة حدثت فيها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفشا فيها خبر بدء الوحي ونزول القرآن، جريا على أن الأصل في الآيات المتعاقبة في القراءة أن تكون قد تعاقبت في النزول إلا ما ثبت تأخره بدليل بين، وجريا على الصحيح الذي لا ينبغي الالتفات إلى خلافه من أن هذه السورة هي أول سورة نزلت.

فموقع قوله: ﴿إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى﴾ موقع المقدمة لما يرد بعده من قوله: ﴿أرأيت الذي ينهى، عبدا إذا صلى﴾ إلى قوله: ﴿لا تطعه﴾ [العلق:١٩] لأن مضمونه كلمة شاملة لمضمون ﴿أرأيت الذي ينهى، عبدا إذا صلى﴾ إلى قوله: ﴿فليدع ناديه﴾ [العلق:١٧].

والمعنى: أن ما قاله أبو جهل ناشئ عن طغيانه بسبب غناه كشأن الإنسان.

والتعريف في ﴿الإنسان﴾ للجنس، أي من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي أغلب الناس في ذلك الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه.

وتأكيد الخبر بحرف التأكيد ولام الابتداء لقصد زيادة تحقيقه لغرابته حتى كأنه مما يتوقع أن يشك السامع فيه.

والطغيان: التعاظم والكبر.

والاستغناء: شدة الغنى، فالسن والتاء فيه للمبالغة في حصول الفعل مثل استجاب واستقر.

﴿أن رآه﴾ متعلق ب"يطغى" بحذف لام التعليل لأن حذف الجار مع "أن" كثير وشائع، والتقدير: إن الإنسان ليطغى لرويته نفسه مستغنيا.

وعلة هذا الخلق أن الاستغناء تحدث صاحبه نفسه بأنه غير محتاج إلى غيره وأن غيره محتاج فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصبو خلقا حيث لا وازع يزعه من دين أو تفكير صحيح فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم لأن له ما يدفع به الاعتداء من لامة سلاح وخدم وأعوان وعفاة ومنتفعين بماله من شركاء وعمال وأجراء فهو في عزة عند نفسه.

فقد بينت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس. ونبهت على". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٨٠/٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٣٩٢/٣٠

٣٠٩-"ومجيء هذا الخبر على العموم مع تأكيده بالقسم وحرف التوكيد في جوابه، يفيد التهويل والإنذار بالحالة المحيطة بمعظم الناس.

وأعقب الاستثناء بقوله: ﴿إلا الذين آمنوا﴾ الآية فيتقرر الحكم تماما في نفس السامع مبينا أن الناس فريقان: فريق يلحقه الخسران، وفريق لا يلحقه شيء منه، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يلحقهم الخسران بحال إذا لم يتركوا شيئا من الصالحات بارتكاب أضدادها وهي السيئات.

ومن أكبر الأعمال الصالحات التوبة من الذنوب لمقترفيها، فمن تحقق فيه وصف الإيمان ولم يعمل السيئات أو عملها وتاب منها فقد تحقق له ضد الخسران وهو الربح المجازي، أي حسن عاقبة أمره، وأما من لم يعمل الصالحات ولم يتب من سيئاته فقد تحقق فيه حكم المستثنى منه وهو الخسران.

وهذا الخسر متفاوت فأعظمه وخالده الخسر المنجر عن انتفاء الإيمان بوحدانية الله وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم دون ذلك تكون مراتب الخسر متفاوتة بحسب كثرة الأعمال السيئة ظاهرها وباطنها. وما حدده الإسلام لذلك من مراتب الأعمال وغفران بعض اللمم إذا ترك صاحبه الكبائر والفواحش وهو ما فسر به قوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ [هود: ١١٤].

وهذا الخبر مراد به الحصول في المستقبل بقرينه مقام الإنذار والوعيد، أي لفي خسر في الحياة الأبدية الآخرة فلا **التفات** إلى أحوال الناس في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧].

وتنكير ﴿خسر﴾ يجوز أن يكون للتنويع، ويجوز أن يكون مفيدا للتعظيم والتعميم في مقام التهويل وفي سياق القسم.

والمعنى: أن الناس لفي خسران عظيم وهم المشركون.

والتعريف في قوله: ﴿الصالحات﴾ تعريف الجنس مراد به الاستغراق، أي عملوا جميع الأعمال الصالحة التي أمروا بعملها بأمر الدين وعمل الصالحات يشمل ترك السيئات. وقد أفاد استثناء المتصفين بمضمون الصلة ومعطوفها إيماء إلى علة حكم الاستثناء وهو نقيض الحكم الثابت للمستثنى منه فإنهم ليسوا في خسر لأجل أنهم آمنوا". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٤٦٧/٣٠